

دَارُ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ

كِتَابٌ

صُنْحُ الْأَسَدِ

تَالِيفُهُ

السَّيِّحُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْقَلْقَشِينِيُّ

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٨ هـ

١٩١٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصولٍ نتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبتهما ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رُتبتُها فإنها متأخرة - عنيد قوّة السطان - عن عقْد الحزبية : لأن في الحزبية ما يدل على ضعف المعقود له، وفي الهدنة ما يدل على قوته .

وأما معناها فالمهادنة في اللغة المصالحة، يقال : هادنه يهادنه مهادنةً إذا صالحه والاسم الهدنة . وهى إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها هدوناً إذا سكن، ومنه قولهم : « هدنة على دخن » . أى سكون على غل، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في التماموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب، فعمل فيه لغتين .

(٢) هذا هو أحد شق الفصل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظٌ أخرى :

أحدها — المُوَادَعَة، ومعناها المصالحَةُ أيضاً، أَخَذًا من قولهم : عليك بالموَدُوع يريدون بالسَّكِينَةِ والوَقَارِ، فتكونُ راجعةً إلى معنى السُّكُونِ . وإِما أَخَذًا من تَوَدِيع الثَّوبِ ونَحْوِهِ : وهو جَعَلُهُ في صَوَانٍ يَصُونُهُ ، لأنه بها تحصل الصَّيَانَةُ عن القتال . وإِما أَخَذًا من الدَّعَاة : وهى الخَفْضُ والهَنَاءُ ، لأن بسببها تحصل الرَّاحَةُ من تَعَبِ الحَرْبِ وكَلْفِهِ .

الثانى — المُسَالَمَة ومعناها ظَاهِرٌ : لأن بوقوعها يَسَلِّمُ كُلَّ من أَهْلِ الجَانِينِ من الآخر .

الثالث — المُقَاضَاة، ومعناها [المُخَاكِمَةُ مُفَاعَلَةٌ من التَّقْضَاءِ بمعنى الفِصْلِ والحُكْمِ] .

الرابع — المُوَاصَفَةُ ، سُمِّيَتْ بذلك لأن الكَاتِبَ يَصِفُ ما وقع عليه الصُّلْحُ من الجَانِينِ . على أن الكُتَّابَ يُحْصُونَ لَفْظَ المُواصَفَةِ بما إذا كانت المهادنة من الجَانِينِ ، ولا شَكَّ أن ذلك جارٍ في لَفْظِ المُوَادَعَةِ والمُسَالَمَةِ والمُقَاضَاةِ أيضاً : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظٍ قليلةٍ مَحْفُوظَةٍ ، على ما هو مقرر في عِلْمِ العَرَبِيَّةِ .

أما لَفْظُ الهُدْنَةِ فإنه يصدُقُ أن يكونَ من جانبٍ واحدٍ، بأن يَعْقِدَ الأعلى الهدنة لمن هو دُونَهُ . على أنها عند التَّحْقِيقِ ترجع إلى معنى المفاعلة ، إذ لا لتصور إلا من اثنين .

وأما في الشَّرْعِ فعبارةٌ عن صلحٍ يَقَعُ بين زعيمين في زمنٍ معلومٍ بشروطٍ مخصوصةٍ ، على ما سيأتى بيانه فيما بعدُ، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين مَلَكَينِ مُسْلِمٍ وكَافِرٍ، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رَتَّبَ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ باب الهدنة في كُتُبِهِمْ . قال صاحب

”مواد البيان“ . وقد يتعاقد عطاء أهل الإسلام على التواضع والتسليم واعتقاد المودة والتصافي، والتوازر والتعاون، والتعاقد والتناصر، ويشتراط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتفادي عنه بمعاطفته والالتقياد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمعاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو أمثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحصى .

قلت : وقد يكون المايكان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التعاقد بينهما على المسالمة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوة يحملها إليه ؛ ولكل مقام مقال، والكاتب الماهر يوفى كل مقام حقه، ويعطى كل فصل من الفصول مستحقه .

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهاده أهل الكفر فلاصل فيها قوله تعالى : (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) الآية، وقوله : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) .

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه :

« أن قريشاً وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحدية حين »

« صده قريش عن البيت - سهيل بن عمرو، فقال للنبي صلى الله عليه »

« وسلم : هات [أكتب] بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم »

« الكاتب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكتب بسم الله الرحمن »

«الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن آكتب»
 «بأسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لانكتب إلا»
 «بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آكتب:»
 «بأسمك اللهم - ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقال سهيل:»
 «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا ناتلناك؛»
 «ولكن آكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله»
 «إني لرسول الله وإن كذبتوني، آكتب محمد بن عبد الله، ثم قال النبي»
 «صلى الله عليه وسلم: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف به - فقال»
 «سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا قد أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من»
 «العام المقبل، فكتب - قال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل»
 «وإن كان على دينك إلا رددته إلينا - قال المسلمون: سبحان الله!»
 «كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما! فبينما هم كذلك، إذ جاء»
 «أبو جندل يرسف في قيوده، وقد خرج من مكة حتى رعى بنفسه بين»
 «أظهر المسلمين - فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن»
 «ترده إلى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد -»
 «قال: فوالله [إذا] لأصالحك على شيء أبدا - قال النبي صلى الله»
 «عليه وسلم: فأجزه لي - قال: ما أنا بجزه لك - قال بلن فافعل -!»

« قال : ما أنا بفاعيلٍ . قال مكرز بن حَفِصٍ : بلى قد أجزأه لك . قال »
« أبو جندلٍ : أى معشر المسلمين : أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟ »
« ألا ترون ما قد لقيتُ؟ وكان قد عُدِّبَ عذاباً شديداً فى الله تعالى . »
« قال عمر بن الخطابِ : فأثبتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقلت : «
« ألسنتَ نبيِّ الله حقاً؟ قال بلى ! قلتُ : ألسنا على الحقِّ وعدونا على
« الباطلِ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم نُعطى الدنْيَةَ فى ديننا إذا؟ قال : إني
« رسولُ الله ولستُ أعصيه وهو ناصرى » .

قلت : هذا ما أورده البخارىُّ فى حديثٍ طویلٍ ^(١) . والذى أورده أصحابُ
السِّيَرِ أن الكاتبَ كان على بن أبى طالبٍ ، وأن نُسخةَ الكتابِ :

« هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سَهَيْلَ بن عمرو على وَضْعِ الحَرْبِ »
« عن الناسِ عَشْرَ سنين ، وأنه من أحبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ محمدٍ »
« وعَهْدِهِ دخلَ فيه ، ومن أحبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدِهِمْ »
« دخلَ فيه » .

وأشهد فى الكتابِ على الصَّالحِ رجالاً من المسلمين والمشركين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من "ارشاد السارى" للقسطلانى ومنه كان

الطرف الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكاتب له من الدولة محل خطير ، ومن المملكة موضع كبير ؛ ويتعين على الكاتب أن يحل له فكره ، ويعمل فيه نظره ، ويتوفر عليه ترفراً يحكم مبادئه ، ويهدب معانيه .
والذى يلزم الكاتب في ذلك نواع : :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان المعقود عليه إقليماً : كالحند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقاً ، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نأىبه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف ، فلا حد الألواة المجاورين لهم عقد الصلح معهم .
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة ، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أنفقت منهم ، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمَسَامِينِ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمِيهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ .
 قَالَ الْغَزَالِيُّ : وَقَدْ بَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمَسَامِينِ ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ، جَازَ التَّرَامُ الْمَسَالِ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَجُوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ آتْرَاعِهِ .

الرابع — أَنْ لَا تَزِيدَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمَسَامِينِ وَأَمْنِهِمْ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَبْلُغَ سَنَةً بِحَالٍ، وَفِيهَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَقُّهُمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ. أَمَا إِذَا كَانَ فِي الْمَسَامِينِ ضَعْفٌ وَهَنًا خَوْفٌ، فَإِنَّهُ تَجُوزُ الْمَهَادَنَةُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ؛ فَقَدْ هَادَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ، وَفِي وَجْهِ تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ لِلصَّلَاحَةِ . فَلَوْ أُطْلِقَ الْمُدَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمَسَامِينِ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمِلُ عَلَى الْأَقْلِ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَجُوزُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ وَبَطَلَ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتَجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثُمَّ عَشْرٍ ثُمَّ عَشْرٍ قَبْلَ تَقْضَى الْأُولَى، قَالَهُ الْفُورَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ مُدَّتَهَا غَيْرُ مُخَدَّوْدَةٍ، بَلْ يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى آجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادكم على الخ » .

النوع الثاني

(ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، و عقود الصلح

الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه

في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك - أن يشترط عليه أن يكون لوليه موالياً، ولعدوه معادياً، ولمسالمة
مسالماً، ومحاربه محارباً؛ ولا يواطئ عليه عدواً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يوافق
على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سؤال سائل، ولا بدّل باذِل، ولا رسالة مراسل
مما يخالف الاتفاق الجاري؛ والأخذ على يد من سعى في نقض الصلح ونكث
العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى
من أهل مملكتهم جان كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجناية .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومطرف ثغوره،
وشاسع نواحيه - أيدي الداخلين في جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يجهز لها
جيشاً، ولا يحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مقارعة،
ولا يتناوبهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يعاملهم بأذية جلية ولا خفية،
ولا يطلق لأحد ممن ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن ينسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عَنَّا إلى شَيْءٍ من ذلك بوجهٍ من الوجوه، ولا سببٍ من الأسباب، وأن لا يُجاوِزَ حُدُودَ مملكته إلى المملكة الأخرى بِنَفْسِهِ ولا بعَسْكَرٍ من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يُفْرِجَ عَمَّنْ هو في حوزته مَن أحاطت به رِبْقَةُ الأَثَرِ، ويمكِّنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعيالهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كلفةٍ ولا مشونةٍ تلحقهم على إطلاعهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يحمله إليه في كل سنة، أو أن يُسَلِّمَ إليه ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب انتزاعه أو استضافته من بلاد من يئادنه من ملوك الكفر، وأن يُبقيَ من بها من أهلها، ويُقررهم فيها بجرمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلا، وما ينخرط في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من رعيته، برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، وللجائرين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاهدة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤخر شيئا عن الوقت الذي ... (١) ...

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التعمية فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذي اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا آتقضى 'أمد الهدنة' على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يجمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوناً، أو بلاداً يُسلمها من بلاده، أو مما يغلب عليه من بلاد مهادنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تُحصى كثرة .

الضرب الثاني

(ما يلزم الكتّاب في كتابة الهدنة — تحريراً وأوضاعها، وترتيب

قوانينها، وإحكام معاقدها)

وذلك باعتبار أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه، ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذى ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذى يكتب فيه الملك الذى تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتي في ابتدائها براءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن عاقبته، أو بذكر السلطان الذى تصدر عنه الهدنة، أو السلطانين المتهادين، أو الأمر الذى ترتب عليه الصلح، وما يجرى هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

ومنها — أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذى أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكُفْر، أحتجَّ للإجابة إليها بالائْتِمَارِ بأمر القرآن والأْتِيَادِ إليه، حيثُ أمرَ اللهُ رسوله صَلَّى اللهُ عليه وسلم بالمُطَاوَعَةِ عَلَى الصُّلْحِ وَالْإِجَابَةِ إِلَى السَّلْمِ بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ . وما وردت به السنَّة من مصالحتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلم قَرِيبًا عام الحُدَيْبِيَّةِ، وذكر ما سنح له من آيات الصُّلْحِ وَأَحَادِيثِهِ، وما جرى عليه الخُلَفَاءُ الراشدون من بَعْدِهِ، وكفَّهِم عن القتال وُقُوفًا عند ما حدَّ لهم . وأنه لولا ذلك لشرَعُوا الأَسِنَّةَ إلى مُحَالِفِيهِم في الدِّينِ، وركَّضُوا الجِيَادَ إلى جِهَادٍ مِنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْمُلْحِدِينَ .

وإن كان الصُّلْحُ بينِ مُسْلِمِينَ أحتجَّ بِحُجُوقِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ . وبأحاديث التَّحْذِيرِ مِنْ تَقَاتُلِ الْمُسْلِمِينَ كقوله صَلَّى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا لَتَقِيَ الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا فَقتل أحدهما صاحبه فالقاتلُ والمقتولُ في النَّارِ » وما يجرى هذا المجرى .

ومنها - أن يراعى المقام في تَجْيِيلِ الْمُتَهَادِنِينَ أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كلِّ واحدٍ منهما بما يليقُ به : من التعظيم، أو التَّوَسُّطِ، أو آنحطاط الرُّبُوبِيَّةِ بحسب المقام، ويجرى على حَسَبِ ذَلِكَ في الشَّدَّةِ وَاللِّينِ .

فإن كانت الهدنة بين مُتَكَافِئِينَ سَوِيٍّ بَيْنَهُمَا في التعظيم، وجرى بهما في الشَّدَّةِ وَاللِّينِ عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ، إلا أن يكون أحدهما أَسَنَّ مِنَ الْآخَرِ، فيراعى للأَسَنِّ ما يجبُ له على الحَدِّثِ مِنَ التَّأَدِّبِ معه، ويراعى للحَدِّثِ ما يجب له على الكبير من الحَنُوعِ وَالشَّفَقَةِ .

وإن كانت الهدنة من قَوِيٍّ لضعيفٍ، أخذ في الأَشْتِدَادِ، آتِيًا بما يدلُّ على عُلُوِّ الكَلِمَةِ، وَأَنْبَسَاتِ القُدْرَةِ، وحصولِ النُّصْرَةِ، وَأَسْتِكْمَالِ العَدَدِ، وظهور الأَيْدِ،

ووفور الجند، وقصور الملوك عن المطاولة، وعجزهم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يخرط في هذا السلك، لا سيما إذا كان القوى مسلماً والضعيف كافراً، فإنه يجب الأزدیاد من ذلك، وذكراً للإسلام من العزة، وما توالى له من النصرة؛ وذكر الوقائع التي كانت فيها نصرة المسلمين على الكفار في المواطن المشهورة، والأماكن المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت الهدنة من ضعيف لقوي، أخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجلافة، وتماسك القوة، خصوصاً إذا كان القوي المعقود معه الهدنة كافراً. وإن شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضي أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به، لا عن خور طبايع وضعف قوة، إذ الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ .

ومنها - أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة، إن كانت المهادنة مع أهل الكفر، أو يجر إلى سلطانه وهيمته، إن كانت بين مسلمين، ويتحذر كل الحد من خلل يتطرق إليه: من إهمال شيء من الشروط، أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان، أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل إلى التأويل، وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة، ولا تتطرق إليه مناقضة، ولا يدخله تأويل .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استشارة الله تعالى وتروية النظر في ذلك وظهور الخير فيه، ومشاورة ذوي الرأي وأهل الحجى، وموافقتهم على ذلك .

ومنها - أن يبين مدة الهدنة . فقد تقدم أن الصحيح من مذهب الشافعي أنه إذا لم تبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة .

قال في "التعريف": "وقد جرت العادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمريّة. ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصّاح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربّما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد وولد الولد.

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملّكين أنفسهما، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها.

فإن كانت بين الملّكين أنفسهما بغير واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق، والأيمان الصادرة من كل منهما، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك.

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر، بين ذلك، وتعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كتاب من الملّك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه، وأنه وصل على يده أو يد غيره، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختم بمختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه. ويتعرض إلى قيام البيّنة بها وثبوتها بمجاس الحكم ونحو ذلك من المستندات.

وإن كانت بين نائبين، بين ذلك وذكر مستند كل نائبيهما على ما تقدم ذكره. ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه بأختياره وطواعيته، لا عن إكراه ولا إجبار، ولا قسر ولا غلبة، بل لما رأى لنفسه ومستنبيه في ذلك من المصلحة والحظ. وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فصلاً فصلاً، وترجم له بموثوق به، إن كان لا يعرف العربيّة ونحو ذلك.

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التّخفيف في آخرها: على الوفاء، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الألتزامات،

أو مُحَاوَلَةِ التَّأْوِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ السَّعْيِ فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وما في مَعْنَى ذَلِكَ :

فإن كانت بين مَلَائِكِينَ ، تعرّض إلى تَحَايِفِ كُلِّ مِنْهُمَا على التَّوْفِيَةِ بذلك .

وإن كانت بين أَحَدِهِمَا ونائبِ الْآخَرِ ، حَلَفَ الْمَلِكُ كما تقدّم ، وسَتَاتِي صُورَةَ
الْحَلْفِ الذي يَقَعُ في الْمَدِينِ في الْكَلَامِ على الْإِيْمَانِ فيما بعدُ ، إن شاء الله تعالى .

ومنها - أن يُحَرَّرَ أَمْرَ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وما يُؤرِّخُ به في مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ : من
السُّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وغيرِهِمَا . قال في "التعريف" : ولهم عادة أن يَحْسُبُوها مَدَّةَ
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فيحَرَّرُ حسابَهَا بِالْقَمَرِيَّةِ ، ويَذْكُرُ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وسَاعَاتٍ حَتَّى
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ الْمُهَادِنِ عَلَيْهَا . وقد تقدّم في الْكَلَامِ على التَّارِيخِ من
المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ وأستخراجها .

ومنها - أن يَقَعَ الْإِشْهَادُ على كُلِّ من المتعاقدين بذلك ، ولا بِأَسِّ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ .
وقد بَحَثَ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَشْهَدُ على كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ من أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقْضَى على مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وإن كان مُخَالِفًا في الدِّينِ . وقد ثبت في الصَّحِيحِ أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسَلَّمَ «أشْهَدُ على مُصَالِحَتِهِ مع قُرَيْشٍ رِجَالًا من الْمُسْلِمِينَ وِرِجَالًا من الْمُشْرِكِينَ» .
وربما طَلَبَ النَّائِبُ عن الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسخَةِ مُهَادِنَةٍ من جِهَةِ مُسْتَبَدِّهِ
على ما وقع به الْعَقْدُ ، مشهولةً بِحَطِّ الْكُتَّابِ ، مشهودًا عَلَيْهِ فيها بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
أو يُجَهِّزُ إِلَيْهِ نُسخَةً يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فيها أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالغَالِبُ
الْأَكْتَفَاءُ بِالرُّسُلِ في ذَلِكَ .

(١) أى الأيمان الواقعة في عقود الصلح ، وإلا فالأيمان بأنواعها تقدمت في ج ١٣ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكْتَبُ في المهادنات والسِّجَلَاتِ ، ومَذَاهِبِ
الْكِتَابِ فِي ذَلِكَ ، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يُسَبِّدُ ملوكُ الإسلامِ فيه بالكتابة عنهم - ويُحَدِّدُ منه نُسخًا بالأبواب
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلى ملوك الكُفْر)
ثم ما يُكْتَبُ في ذلك على تَمَطُّينِ :

التمَطُّ الأول

(ما يُكْتَبُ في طَرَّةِ الهُدْنَةِ من أعلى الدَّرَجِ)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صلحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأُكْتَفِيَ
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالِحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأها لِيُنسَجَ على منوالها ، وهي :

هذا عَقْدُ صلحٍ أنتظمت به عُقُودُ المصالح ، وأنتسقت بواسطته سُبُلُ المنافع ؛
وتحدت بحسن مقدمته الغادى وترتم بمن نتيجه الرأخ . عاقد عليه السلطان فلان
فلاناً القائم في عقد هذا الصلح عن مُرسِله فلان ، حسب ما فوض إليه الأمر في ذلك
في كتابه الواصيل على يده ، المؤرخ بكذا وكذا ، المعنون بعنوانه ، المختوم بطابعه

المُتَعَارِفِ عَنْهُ - عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذًّا وَكَذًّا . وَيُشْرَحُ مُلَخَّصٌ مَا يَقَعُ مِنَ الشَّرْطِ
الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْأَتْفَاقُ بَيْنَهُمَا فِي الصُّلْحِ إِلَى آخِرِهَا ؛ ثُمَّ يَقَالُ : عَلَى مَا شَرِحَ فِيهِ .

النَّمَطُ الثَّانِي

(مَا يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْهُدْنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ)

النَّوْعُ الْأَوَّلُ

(مَا تَكُونُ الْهُدْنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ)

بأن يكون المملكان متكافئين ، [فيتعاقدان إما على حصين^(١)] وإما على مالٍ يعطيه
الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها، كما كان يُكْتَبُ عن صاحب الديار المصرية .
وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن تُفْتَحَ الْهُدْنَةُ بِلَفْظِ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ »)

أو « هَذِهِ هُدْنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سَلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ

عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الطَّرَةِ)

وعلى ذلك كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ
الْحَدَيْبِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلِ مَشْرُوعِيَّتِهَا .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانِ قَوِيٍّ ، لِلْمَلِكِ مَضْعُوفٍ ، بِاشْتِرَاطِ مَا لِي
يَقُومُ بِهِ الْمَضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ يَسَاهِمُ لَهُ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ - حَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ
وَشَرَّفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكِ فَلَانًا الْفُلَانِيَّ . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَ ، وَأَمَلَهُ ، لِيُحْمِلَهُ ؛ وَسَأَلَهُ ، لِيُكْفِيَ عَنْهُ أَسَلَهُ ؛ حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
وَسَمَاءٌ مَجَّاجَةٌ بِالذَّمَاءِ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ؛ فَرَأَى - سَدَدَ اللَّهِ أَرَاءَهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْبَحَ ؛ وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدَهُ
وَنَسَلِهِ ؛ وَجَمِيعَ بِلَادِهِ ، وَكُلَّ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ؛ وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ؛ وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَحُشُودٍ ؛ وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هُدْنَةً مُدْتَمَّتْهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتَلَوَّهَا ، مَدَّةً
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَجْمَلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانَ إِلَى بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكَفَّلُ بِجَبَايَتِهِ مِنْ حِزْبَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَنَحَائِجِ أَعْمَالِهِ ؛ عَلَى أَفْسَاطِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُحْجُجُ مَعَهُ إِلَى تَكْلِيفِ مُطَالَبَتِهِ ،
وَلَا إِلَى تَتَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالِبَتِهِ .

عَلَى أَنْ يُكْفِيَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنْهُ بَأْسَ بَأْسَاتِهِ ، وَخَيْلَةَ الْمُطَلَّةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَمَسَائِهِ ؛ وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانِهِمْ
وَسِرَاعِهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَنَائِحَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاجِمَةَ لِدَوَاقِفِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّدُ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدِي النَّهْبِ ،
وَيُكْفِيَ الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذْيِ ، وَيُرَدِّدُ مَنْ نَزَحَ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّبُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ؛
وَيُؤَمِّنُ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَارَةَ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصِلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤَخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخصَ لذي عَمَى منهم
ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كتبنا وردت إليه كتب مولانا السلطانِ فلانٍ أو كتب نوابه، أو أحد
[من المتعلقين] ^(١) بأسبابه، يسارع إلى أمثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره
ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يمهله .

وعليه أن لا يكون عيناً للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت
الدار، ولا يواطئ على مولانا السلطانِ فلانٍ أعداءه [وأولهم التتار] ^(٢) وأن يلتزم ما يلزمه
من المسكاة بالمسكنة، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئسنة .
وعليه أن ينهى ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، وينبه على
سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها،
وقام بحقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به] ^(٣)، وصرف إليها عنان اجتهاده وبني
عليها قواعد وفائه، وصان من التكدير فيها سرائر صفائه، سأل هر في هذه الهدنة
المقررة، وأجابه مولانا السلطانُ إليها على شروطها المحترمة، وشهد به الحضور
بالمملكيتين وتضمنته هذه الهدنة المسطرة، وباللغة التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك
الشامية، لمتملك سبيس، فإن في خلال كلام المقر الشماني بعد قوله: ولا يواطئ
على مولانا السلطانِ فلانٍ أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) وما يأتي قريباً .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن ممتلك سيس كان يما لي التتار ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوي له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصابي، عن صمصام الدولة، بن عضد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطابع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط أقرتها، وحضون يسلمها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كالبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين؛ كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أحنينا وعدتنا، وصاحب جيشنا (أبي حرب ربار بن شهر الكويه) تأمل حالك في تطاول حبسك، واعتياقك عن مراجعة بلدك؛ وبدلت - متى أفرج عنك، وخلى طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا وليا، ولعدونا عدوا، ولسالمنا سلما، ولحربنا حربا: من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجيالهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا تصالح لنا ضدنا مبينا، ولا تواطئ علينا عدوا مخالفا؛ وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا: فلا تجهز إليها جيشا، ولا تحاول لها غزوا؛ ولا تبدأ أهلها بمنازعه، ولا تشرع لهم في مقارعه، ولا نتناولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية؛ ولا تطلق لأحد ممن

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن ينسب إلى جُمَاتِك ، ويتصرف على إرادتك -
 الأجراء على شيءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كلها ؛ وأن تُفْرَجَ عن جميع
 المسلمين وأهل ذمّتهم الحاصلين في محاسن الروم ، ممن أحاطت بعنقه ربة الأسر ،
 وأشملت عليه قبضة الحصر والقسر ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيد الأوقات
 وقربها ؛ المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعود إلى أوطانهم ؛ وتنهضهم بما
 ينهض به أمثالهم ، وتمكّنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحرهم وأولادهم وعيالاتهم
 وتابعهم ، وأصناف أموالهم ؛ موفورين مضمونين ، متبدرقين محروسين ، غير
 ممنوعين ، ولا معوقين ، ولا مطالين بمؤنة ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة .

وأن تُسلمَ تَمَّةَ سبعة من الحصون ، وهى : حصن أرحكاه المعروف بحصن
 الهندرس ، وحصن السناسة ، وحصن حويب ، وحصن اكل ، وحصن انديب ،
 وحصن حالى ، وحصن تل حرم ، برسائيقها ومزارعها إلى من نكّاتك بتسليمها إليه ،
 مع من بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لسكناها والاستقرار فيها ، بحرمهم
 وأولادهم وأسبابهم ومواشيهم وأصناف أموالهم وغلاتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم ،
 ليكون جميعها حاصلًا في أيدينا وأيدي المسلمين ، على غابر الأيام والسنين ؛ من غير
 أن تلتمس عنها أو عن شيءٍ منها مالا ، ولا بدلا ، ولا عوضا من الأعواض كلها .
 وعلى أنك تمضى ما عقدته على نفسك من ذلك كله بابا بابا ، وتغنى به أولا أولا ،
 منذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك ، وإلى غاية أسديلاك عليها ، ونفاذ أمرك
 فيها ؛ ولا ترجع عن ذلك ولا عن بعضه ، ولا تؤخر شيئا منه عن الوقت الذى تقدر
 فيه عليه ، ولا ترخص لنفسك في تجاوز له ولا عدول عنه . ومتى سعت طائفة من
 الطوائف التى تنسب إلى الروم والأرمن وغيرهم في أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب ،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم
وَمَا نَعْتَمُهم إن كانوا من أهل العُنُودِ عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،
وتحول بينهم وبين ما يُجَاوِلُونَهُ ، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ ، وَتَوْفِيقِهِ وَعَوْنِهِ .

وَأَشْرَطْتَ عَلَيْنَا بعد الذي شَرَطْتَهُ لَنَا من ذلك التَّخْلِيَةَ عن طَرِيقِكَ وطريق من
تَضَمَّنْتَهُ جُمْلَتِكَ ، وَأَشْمَلْتَ عَلَيْهِ رُفْقَتَكَ : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع
أعمالنا حتى تَفَسَّدَ عنها إلى ما وراءها ، غير معوّقٍ ، ولا مُعَقَّلٍ ، ولا مُؤَدَّى ،
ولا مُعَارِضٍ ، ولا مُطَالِبٍ بِمُثُونَةٍ وَلَا كُفَّةٍ ، ولا مُمْنِوعٍ من آتِيَاغِ زَادٍ وَلَا آلَةٍ ،
ولا نُفُورِكَ أَحَدًا نَاوَأَكَ في أعمالك ، ونازعَكَ سُلْطَانَ بِلَادِكَ ، ودافعَكَ عنه
وَنَاصَبَكَ العِدَاوَةَ فِيهِ : مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الرُّومِ والأَرَمَنِ والخَزْرِيَّةِ وسائر الأمم المُضَادَّةِ
لِكَ ، ولا نُوقِعَ معه صلحًا عَلَيْكَ ، ولا مُوَافَقَةً عَلَى ما يُعُودُ بِثَمَلِكَ أو قَدْحٍ في أَمْرِكَ ،
ولا تَقْبَلُ سُؤَالَ سَائِلٍ ، ولا بَدْلَ بَادِلٍ ، ولا رِسَالَةَ مُرَاسِلٍ فيما خَالَفَ شَرَائِطَ هَذَا
الكِتَابِ أو عَادَ بِإِعْلَالِهِ ، أو إِعْلَالِ وَثِيقَةٍ مِنْ وَثَائِقِهِ .

وَمَتَى وَقَدِ إِلَيْنَا رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ أَحَدٍ مِنْ أَضْدَادِكَ ، رَاغِبًا إِلَيْنَا فِي شَيْءٍ يُخَالِفُ
مَا أَعْقَدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ - أَمْتَنَعْنَا مِنْ إِجَابَتِهِ إِلَى مُتَمَسِّسِهِ ، وَرَدَدْنَاهُ خَائِبًا خَالِيًا مِنْ
طَلِبَتِهِ . وَإِذَا سَأَلَتِ الحُصُونُ المُقَدَّمَةَ ذِكْرُهَا إِلَى مِنْ نُكَاتِكَ بِالتَّسْلِيمِ إِلَيْهِ ، كَانَ لِكَ
عَلَيْنَا أَنْ نُقَرَّ مِنْ فِيهَا وَفِي رِسَائِقِهَا عَلَى نِعْمِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَضِيَاعِهِمْ وَأَمْلَاكِهِمْ ،
وَأَنْ لَا تُزِيلَهُمْ عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا تَحْوَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا تَحْوِيهِ أَيْدِيهِمْ مِنْ جَمِيعِ
أَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْ تُجَرِّبَهُمْ فِي المَعَامَلَاتِ وَالْجَبَايَاتِ عَلَى رُسُومِهِمُ الجَارِيَةِ المَاضِيَةِ الَّتِي
عُومِلُوا عَلَيْهَا ، عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ، وَإِلَى الوَقْتِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّسْلِيمُ ، مِنْ غَيْرِ فَسْخِ
وَلَا تَتَّيِيرُ وَلَا تَقْضُ وَلَا تَبْدِيلُ .

فأنهيناً إلى مولانا أمير المؤمنين الطابع لله ماسألت وآتمست، وصمّنت وشرطت
وأشترطت من ذلك كله، وأستأذناه في قبوله منك، وإيقاع المعاهدة عليه معك،
فأذن - أدام الله تمكينة - لنا فيه، وأمرنا بأن نحكمه ونؤديه؛ لما فيه من انتظام
الأمور، وحياطة الثغور؛ وصلاح المسلمين، والتفيس عن المأسورين .

فأمضيناه على شرائطه، وتراضينا جميعاً به، وعاقداًك عليه، وحلفت لنا باليمين المؤكدة
التي يملف أهل شريعتك بها، ويتخرجون من الحنث فيها على الوفاء به؛ وأشهدنا على
نفسنا، وأشهدت على نفسك الله جل ثناؤه، وملائكته المقترين، وأنبياء المرسلين،
وأخانا وعدتنا أبا حرب ربار بن شهراً كويهِ مولى أمير المؤمنين، ومن حضر المجلس
الذي جرى فيه ذلك، باستقرار جميعه بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك .

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها، وثبوتها واستقرارها، قسطنطين
ابن بينير أخو وردس بن بينير، وأرمانوس بن وردس بن بينير، فوقعا على هذا
الكتاب، وأحاطا به علماً، وأستوعبا معرفة، وشهدا على وردس بن بينير ملك الروم
بإقراره به، والتمزامه إياه . ثم تبرع كل واحد منهما بأن أوجب على نفسه التمسك
به والمقام عليه متى قام وردس بن بينير فيما هو موسوم به من ملك الروم، وجعل
جميع الشروط النابتة في هذا الكتاب المعقود بعضها ببعض أمانة في ذمته، وطوقاً
في عنقه، وعهداً يسأل عنه، وحقاً يطالب في الدنيا والآخرة به؛ وصار هذا العقد
جامعاً لهم ولنا، ولأولادنا وأولادهم، وعقبنا وعقبهم؛ ماعشنا وعاشوا، يلزمنا
وإياهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم، ولنا ولهم، على مرور الليالي والأيام، واختلاف
الأدوار والأعوام .

أَمْضَى وَأَنْفَذَ صَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ المِلَّةِ أَبُو كَالِبِ جَارِ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى شَرَايِطِهِ
وَحُدُودِهِ، وَالتَّرَمَهُ وَوردس بن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم، وأخوه

قُسْطَنْطِينُ ، وابنه أَرْمَانُوسُ بن وردس بن بينير ، وَصَّيْنَا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَأَشْهَدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ بِالرِّضَا بِهِ ، طَائِعِينَ غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لَا عِلَّةَ بِهِمْ مِنْ مَرِيضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفَسَّرَهُ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ مِنْ وُثْقٍ بِهِ ، وَفَهَّمُوا عَنْهُ ، وَفَقَّهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وَأَحَاطُوا عِلْمًا وَمَعْرِفَةً بِهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِيثارِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ فِي ذَلِكَ حَظًّا لَهُمْ ، وَصَلَاحًا لِسَانِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ .

وَقَدْ كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِ نُسخٍ مُتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِدَتْ اثْنَتَانِ مِنْهَا بِدَوَاوِينَ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَلِمَتْ الثَّلَاثَةُ إِلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرِ مَلِكِ الرُّومِ وَأَخِيهِ وَابْنِهِ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ فِيهِ .



وهذه نُسخةٌ هُدِيَتْ مِنْ مَلِكِ مِصْرٍ لِمَلِكِ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَحَدُ كِتَابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مَلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمُهَدِّيِّ بْنِ تُوَمَرْتِ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوحِدِينَ ، مَعَ « دُونَ فِرَانْدَةَ » صَاحِبِ قَشْتَالَةَ مِنْ مَلُوكِ الْفَرَنْجِ بِمَقْدِ الصُّلْحِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِشْرَاحِهِ ، وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِنجَادِهِ ؛ نِيَابَةً عَنْ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادَانَا إِلَى أَوْامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَأَرَائِمِهَا الْهَادِيَةِ . عَقْدُنَاهُ - وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ - لِقَشْتَالَةَ مَعَ فُلَانِ النَّائِبِ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مُرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمُبْجَلِ « دُونَ فِرَانْدَةَ » مَلِكِ قَشْتَالَةَ ، وَطَلِيْطَةَ ، وَقُرْطُبَةَ ، وَلِيُونَ ، وَبَلَنْسِيَةَ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَمِيَزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مَخْتومٌ بِطَائِعِهِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارَفِ عَنْهُ ، تَفْوِيضًا مِنْهُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعَقَّدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَعَاقِدَانَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورِ لعامينِ آثنين ، أولها شهرُ المحرمِ الذي هو أولُ سنةِ تاريخِ هذا الكتابِ ، الموافقُ من الأشهرِ العجميةِ شهرِ كذا ، على جميعِ ما تحتمُ نظرنا الآنَ من البلادِ الراجعةِ إلى الدعوةِ المهديةِ - أسماها الله تعالى - حواضِرِها وتُغوزِها ، مَواسِطِها وأطرافِها ، من جزيرةِ شَقْرٍ إلى بيرةِ والمنصورةِ وما يليها - حرسِ الله جميعها - سِلماً محافظاً عليها من الجهتين ، محفوظاً عهدها عند أهلِ الملتينِ ؛ لا غدرَ فيها ، ولا إخلالَ في معنَى من معانيها ؛ ولا تُشنُّ في مُدنيها غارَه ، ولا تُدعِرُ سَيارَه ، ومَهْمَا وقعَ اغوارُ ، أو حَدَّتِ اقدارُ ؛ على جهةِ المجاهره ، إذا اتَّصلتِ والمُستارَه ؛ فإن كان من جهةِ النصارى ، فعلى ملكِ قشتالةِ تَسريحُ الأسارى ، وردُّ الغنائمِ والنَّهبِ ، والإنصافُ من الغنيمَةِ إن عُدِمَتِ العين ، وأعوزَ الطَّلبِ . وعلينا مثلُ ذلكِ سَواء ، ليقابلَ بالوفاءِ ؛ هذا بعد أن يُتَّبَعَ الأمرُ ويُعَلَمَ من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسَبَّبَ إلى الحُصُونِ بالغدِرِ ولا بالشرِّ ، ولا يتجاوزَ النصارى حُدُودَ بلادهم وأرضهم بشيءٍ من البناءِ ، ولا يوصلَ من بلادِ قشتالةِ مددٌ لِحُالفِنَا ، ولا مَعُونَةٌ لِمُفائِنِنَا . وكل ما يرجعُ إلى هذه الدعوةِ ، ويدخلُ في الطاعةِ من البلادِ بعد هذا العَقْدِ فداخلٌ في السلمِ ، بزيادةِ نِسْبَتِهِ من المالِ الذي دَوَّ شَرَطُ في صحِّه هذا الحُكْمِ . وإذا بقيَ من مُدَّةِ هذه المُسالمةِ شهرانِ آثنانِ ، فعلى ملكِ قشتالةِ أن يُعلمِنَا بَعَرَضِهِ في المهادنةِ أو سِوَاها ، إعلاماً من مذاهبِ الوفاءِ أو نَاحِيا .

وقد أَلْتَزَمَ رسولُ المذكورِ لنا هذه الشُّروطَ ، وأحْكَمَ معنا - نيابةً عنه فيها - العُقُودَ والرُّبُوطَ ؛ على كلِّ ما ذكرناه . وألْتَزَمْنَا في هذا السلمِ المَلِكِ قَشْتالَةَ المذكورةِ - مكافأةً عن وِفاءِ عَهْدِهِ ، وَصِحَّةِ عَقْدِهِ - مائةَ ألفِ دينارٍ واحِدَةً ، وأربعينَ ألفَ دينارٍ في كلِّ عامٍ من عاصِمِي هذا الصُّلحِ المُقَدِّمِ الوُصْفِ ، مَقْسِماً ذلكَ على ثلاثةِ أَجْزِمِ

في العام، ليتقاضاها نِفَاقَتُهُ، وَيُوفِّي عَيْنَهَا عَلَى التَّمَامِ وَالْكَامِلِ، قَبَضَ مِنْهَا كَذَا لِيُوصِّلَهَا إِلَى مُرْسَلِهِ، وَأَلْتَرَّمَ لَهُ تَخْلِيصَ بَاقِي كَذَا عِنْدَ أَنْقِضَاءِ كَذَا عَلَى أَوْفَى وَجْهِهِ وَأَكْمَلِهِ؛ فَإِنْ وَفِّي لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْمُؤَقَّتَةَ، فَالسَّلْمُ بِأَقْبِيَّةٍ وَحُكْمًا نَابِتًا، وَإِلَّا فَالسَّلْمُ مَفْسُوحَةٌ وَلَا حُكْمَ لَهَا إِنْ عَجِزَ عَنِ الْوَفَاءِ لَهُ، بِحُصُولِ مَا بَقِيَ مِنَ الشُّرُوطِ فِي أَسْتِصْحَابِ الْحُكْمِ وَأَتِّصَالِ الْعَمَلِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وعلى ما تَضَمَّنَتْهُ هَذَا الْكِتَابُ أَمْضَى فُلَانٌ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ النِّيَابَةِ، عَنِ الْأَمْرِ الْعَالِي - أَسْمَاءِ اللَّهِ - هَذَا الْعَقْدَ الصَّالِحِيَّ، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَهُ الْمَسْلُوطِ طُورًا (؟) الْمَذْكُورِ، فَتَرْجِمَ لَهُ الْكِتَابُ وَبَيَّنَتْ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقَرَّرَ عَلَى مَضَامِينِهِ، فَالْتَرَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ مُرْسَلِهِ مَلِكٍ قَشْتَالَةَ حَسَبَ مَا قُوضَ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي صِحَّتِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ فِيمَا قَضَاهُ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامَ .

المذهب الثاني

(أن تُفْتَحَ الْمُهَادَنَةُ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بَعْدِيَّةً)

وهذه نُسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ بَيْنَ مَلَائِكِينَ مُتَكَافِئِينَ دُونَ تَقْرِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْجَانِبِينَ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ الْمَحْدُثُ أَبُو الرَّبِيعِ بْنِ سَالِمٍ مِنْ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ، فِي عَقْدِ صَاحِحٍ عَلَى بَلَنْسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ :

وبعدُ، فِهَذَا كِتَابُ مُوَادَعَةٍ أَمْضَى عَقْدَهَا وَأَلْتَرَمَهُ، وَأَبْرَمَ عَهْدَهَا وَتَمَمَهُ؛ فُلَانٌ لِلدِّارِ أَرْغُونِ، وَقَوْمُ بَرْجُلُونَةَ، وَيَرْسَبُ مَقْتِ بَشْلَى، حَافِظَةُ (؟) بِنَاطِرَةَ، بِنَ أَدْفُونَشَ، ابْنُ رِيْمُونَدَ، أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتِمًا وَعِنَاوَانًا، الْمَعْهُودِ صِدُورِهِ فِي أَمْثَالِهَا مِنَ الْمَرَاوِضَاتِ الصَّالِحِيَّةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا؛ مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه ، والتفويض في إبرام أسبابها والتزام فصولها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب صحیح النظر ، وصريح الرأي المُعتَبَر ، مُقَارَبَةً فِيهِ ، وَمُوَافَقَةً مِنْهُ عَلَى مَا يَحْفَظُ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ وَيُوقِيهِ ، جُنُوحًا مِنْهُ إِلَى مَا جَنَحَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مُتَقَاضِيَهُ ، وَتَحَرُّيًا لِلْعَمَلِ عَلَى شَاكِلَةِ الصَّوَابِ وَالْإِيثَارِ لِمَا يُقْتَضِيهِ ، بَعْدَ مُحَاوَلَاتٍ بَلَغَ مِنْهَا النَّظْرُ غَايَتَهُ مِنَ الْأَجْتِهَادِ ، وَإِرَاغَاتٍ قَرَنَ بِهَا مِنْ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِنْدِجَادِهِ مَا رَضَى فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ الْعَمِيمِ مَعَهُودِ التَّسْهِيدِ وَالْإِنْجَادِ ؛ فَأَجَلَى ذَلِكَ عَنْ إِمْضَاءِ عَهْدِ السَّلْمِ لِلْمَلِكِ أَرْغُونَ عَلَى بَلَنَسِيَّةٍ وَكَافَّةٍ جِهَاتِهَا أَطْرَافًا وَمَوَاسِطًا ، وَتُعُورًا وَبَسَائِطًا ؛ وَكَذَلِكَ شَاطِبَةٌ وَدَانِيَةٌ ، وَمَا يَنْتَظِمُ مَعَهُمَا مِنْ أَحْوَاذِهِمَا وَيَرْجِعُ إِلَى حُكْمِ بَلَنَسِيَّةٍ وَحَايَلَا مِنْ الْجِهَةِ النَّائِيَةِ وَالِدَانِيَةِ ؛ لِمَدَّةِ عَامَيْنِ اثْنَيْنِ ، شَمْسِيَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ ، وَأَيَّامٍ مُتَّصِلَةٍ بِهِمَا كَذَلِكَ . وَهَذَا يَحْصُرُ أَمْرَهُ ، وَيُحَقِّقُ عَدَدَهُ ؛ أَنْ نَفْتَحَهُ بِيَوْمِ الْأَحَدِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِشَهْرِ نَوْرِ ، الْمُوَافِقِ لِعَاشِرِ ذِي الْقَعْدَةِ الْمُؤَرَّخِ بِهِ هَذَا الْكِتَابِ ، الَّذِي هُوَ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَعِشْرِينَ وَسِمَّائِيَّةٍ بِتَارِيخِ الْحِجْرَةِ - مُسَلِّمَةً تَضَعُ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ أَوْزَارَهَا ، وَتُمَهِّدُ لِلْهُدَنَةِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ آثَارَهَا ، وَتُرْفَعُ اللَّبْنَةُ (؟) عَنْ ذِكْرٍ مِنَ الْمَلْتَيْنِ أذْيَتَهَا وَأَضْرَارَهَا ؛ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِي ذَلِكَ سِيَّانٍ ، وَالْمُسَاوَرَةُ فِيهَا بِالْأَذَى وَالْمُجَاهِرَةُ مِمَّنُودَانِ ، وَحَقِيقَةُ الْأَلْزَمِ مِنْ ذَلِكَ غَنَى بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ عَنِ الْإِيضَاحِ وَالتَّبْيَانِ ؛ لَا التَّبَاسَ وَلَا إِشْكَالَ ، وَلَا غَائِلَةَ وَلَا أَحْتِيَالَ ؛ لَيْسَ إِلَّا الْأَمْنُ الْكَافِلُ لِكَافَّةٍ مِنْ تَشْتَمَلُ عَلَيْهِ كَافَّةُ الْمَوَاضِعِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْ تَحْوِيهِ بِالْأَدَمِ الْمَلِكِ أَرْغُونَ مِنَ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَ . وَكُلُّ مُنْتَمٍ إِلَى خِدْمَةِ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ الْأَرْغُونِيَّةِ بِمَا كَانَ مِنْ وُجُوهِ الْأَنْتِمَاءِ ، أَوْ نَاطِرٍ فِي جُزْءٍ مِنْهَا كَانَتْ مَا كَانَ مِنَ الْأَجْزَاءِ ؛ فَهُوَ فِي هَذَا الْحُكْمِ دَاخِلٌ ، وَتَحْتَهُ هَذَا الرَّبِطُ الصُّلْحِيُّ وَاصِلٌ ؛ وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ حِصْنٌ يَنْفَرِدُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ ، عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَوَائِدِ الْمَعْتَرَفَةِ . فَإِنْ تَقَضَّ بِجُزْءٍ مِنْهُ وَذَهَبَ إِلَى أَنْ يَكُونَ فِي حِصْنِهِ مُنْفَرِدًا فَهُوَ

وما آختر، إذا تنكَّب الإضرار، فإن رام التَّطَرُّقَ بشيءٍ إلى أحدِ الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغونَ التظافرُ على استنزاله، والتظاهرُ على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره .

والحدودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، على ما عرِف من مُتقدِّم المسلمات؛ ويدَّكُلُ فَرِيقٌ منهم مُطلقَةً فيما وراءَ حدِّه بما شاء، من آنتشاءِ برسمِ الإصلاحِ والانشاء؛ وكلٌّ من قصد المسلمين من رجالِ المملكةِ الأرغونيةِ بريئاً من تبعَةِ الفسادِ فقبُولُ قصِّده مُباح، وليس في استخدايمه والإحسانِ إليه جُنَاح؛ والطريقُ للتجارِ المعهودِ وُصُولُهُم من بلادِ أرغونَ إلى بلنسيةِ في البرِّ والبحرِ مباحةُ الأتْيَابِ، مَحْمُوفَةٌ بِالْأَمْنَةِ النَّامَةِ فِي الْحَيْثَةِ وَالذَّهَابِ؛ وعلى تجارِ البحرِ منهم أن يتجنَّبوا رُكُوبَ الأجنانِ الحَرِيَّةِ التي يُمكنُ بها الإضرار، ويستغني عن (١) التجارِ؛ والأستِهابُ مرفوعٌ عن هؤلاءِ الواصلين برسمِ التجارةِ على اختلافِهم، وتبائينِ أصنافِهم؛ فيما لم تجنِّه أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعديهم؛ وكلُّ مُعتقِلٍ من الطائفتينِ بأدنى شيءٍ يُطَرِّقُ إلى حُكْمِ هذه السِّلْمِ خلافاً، أو يُلحِقُ بعهدِها إخلافاً؛ فعلى أهلِ موضعه الإِنصافُ من جنَّاه، وصرفُ ماسلته يَدَاهُ، وإحضاره مع ذلك يُعاقَبُ بما أتاه. وليس لأحدٍ من الطائفتينِ أن يتسبَّبَ باسترسال، إلى الإِنصافِ من جنائيةِ حال؛ بل يقومُ بدفعِ ذلك حيثُ يُحب، ويطلبه في الموضعِ الذي ينبغي فيه الطَّلَبُ؛ حتى يخاطبَ الناظرُ على المملكةِ التي نُسبتِ إليها هذه الإِذايهِ، وصدَّرتُ عن أهلِها [تلك] الحِنايهِ؛ يَطْلُبُ الإِنصافِ من عدوانِها، وتعادُ عليه الأعذارُ في شأنِها؛ وعليه - ولا بُدَّ - التَّخْلِيسُ منها عملاً بالوفاءِ الذي يَجِبُ العملُ به، وقِياماً بحقِّ العهدِ الذي أُكِّدَ الاعتِلاقُ بسببِهِ؛ ومتى غادر مغادرٌ من أحدِ الملتينِ حصناً من حصونِ

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوبها » .

الأخرى، فله الأمان على الكمال، والرعى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يلحق بأمانه، ويعود سائلاً إلى وطنه.

فعلی هذه الشروط المحققة، والربوط الموثقة، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سمي من أهل الملتين؛ والتزم كلّه عن ملك أرغون النائب عنه بتقويضه إليه، واستنابته إياه عليه؛ الزعيم بطره ابن فدايف بكدريش(?) على أتم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوثق علائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذي تولى النيابة عنه في هذا العقد، مصرحاً بالترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذي أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً لما به، وتوثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً)

وفيها للكتاب ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول

(أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة» ونحو ذلك)

قال في "التعريف": وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة: هذه هدنة. استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجلاً ينتهي إليه؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحسبت به مواد

الآمالِ الطَّامِعِ ؛ تَأَكَّدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابُهَا ، وَفُتِحَتْ بِهِمَا أَبْوَابُهَا ؛ وَعَالِمُهُمَا عَهْدُ اللَّهِ عَلَى الْوَفَاءِ بَشْرُطِهَا ، وَالْإِتِّهَاءِ إِلَى أَمْدِهَا ، وَمَدَّ حَبْلَ الْمُوَادَعَةِ إِلَى آخِرِ مُدَدِهَا ؛ ضَرْبًا لَهَا أَجَلًا أَوَّلُهُ سَاعَةٌ تَارِيخُهُ وَإِلَى نَهَايَةِ الْمُدَّةِ ، وَهِيَ مُدَّةٌ كَذَا وَكَذَا ؛ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُعْمَدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ سَيْفَ الْحَرْبِ ، وَيَبْكُفُ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ السَّمَامِ الرَّاشِقَةِ ، وَتُعَقَّلُ الرَّمَاحُ الْخَطَّارَةَ ، وَتُقَرَّرُ عَلَى مَرَابِطِهَا الْخَيْلُ الْمُغِيرَةُ ، وَبِلَادُ السُّلْطَانِ فَلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَبِلَادُ السُّلْطَانِ فَلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَمَا فِي بِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الثُّغُورِ وَالْأَطْرَافِ وَالْمَوَانِي وَالرَّسَاتِيقِ وَالْجِهَاتِ وَالْأَعْمَالِ : بَرًّا وَبَحْرًا ، وَمَهَلًا وَجَبَلًا ، وَنَائِيًا وَدَانِيًا ، وَمَنْ فِيهَا : مِنْ مَالِكَيْهَا الْمَسْمُومِيْنَ وَبَنِيهِ ، وَأَهْلِهِ وَأَمْوَالِهِ ، وَجُنْدِهِ وَعَسَاكِرِهِ ، وَخَاصٌّ مِنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ وَسَائِرِهِ ؛ وَرَدَايَاهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ ، وَعَلَى أَنْفِرَادِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ ؛ الْبَادِي وَالْحَاضِرُ ، وَالْمَقِيمُ وَالسَّائِرُ ، وَالتَّجَارُ وَالسَّفَارَةُ ، وَجَمِيعُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ [سَائِرِ] النَّاسِ أَجْمَعِينَ . عَلَى أَنْ يَكُونَ عَلَى فَلَانٍ كَذَا وَ[عَلَى فَلَانٍ] كَذَا [وَيَعِينُ مَا يَعِينُ] ^(١) : مِنْ مَالٍ ، أَوْ بِلَادٍ ، أَوْ مَسَاعِدَةٍ فِي حَرْبٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، يَقُومُ بِذَلِكَ لِصَاحِبِهِ ، وَيَنْهَضُ مِنْ حَقِّهِ الْمَقَرَّرِ بِوَاجِبِهِ ؛ وَعَلَيْهِمَا الْوَفَاءُ الْمُوَكَّدُ الْمَوَاطِيقِ ، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى الْعَهْدِ وَالْتِمَسُّكُ بِسَبِيهِ الْوَثِيقِ - هَذِهِ صَحِيحَةٌ صَرِيحَةٌ ، نَطَقًا بِهَا ، وَتَصَادِقًا عَلَيْهِمَا ، وَعَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ الْمَوَاصِفَةُ [الْمُسْتَوْعِبَةُ بَيْنَهُمَا فِيهَا ، وَأَشْهَدَا اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِمَضْمُونِهَا ، وَتَوَاقَعَا عَلَى دِيُونِهَا ، وَشَمِدَا مِنْ حَضَرِ مَقَامِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَوَاصِفِ] ^(١) ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى حُكْمِ الْمُنَاصِفِ ، رَأْيًا فِيهَا سُكُونِ الْجَمَاحِ ، وَخِصَّ طَرَفِ الطَّمَّاحِ .

وَعَلَى أَنَّ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا رِعَايَةَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَحَمَلَهُمْ فِي قَضَايَاهُمْ عَلَى الْوُجُوهِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ وَمَنْ نَزَحَ مِنْ إِحْدَى الْمَلَائِكَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أُعِيدَ ، وَمَا أُخِذَ مِنْهَا بِالْيَدِ الْغَاصِبَةِ اسْتُعِيدَ ؛ وَبِهَذَا تَمَّ الْإِشْهَادُ ، وَقُرِيَ عَلَى الْمَسَامِعِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهُادِ .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

المذهب الثاني

(أن تُفتتح الهدنة : بلفظ : « استقرت الهدنة بين فلان وفلان »)

ويقدم فيه ذكر الملك المسلم)

وعلى ذلك كانت الهدن تُكتب بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ، المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هدنة على هذا النمط : دون تقرير من الجانبين ؛ كتبت بين الملك الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاستبارة ^(١) بحصن الأكراد والمرقب ، فى رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وسمائة ، وهى :

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح « بيبرس » الصالحى النجمى ، وبين المقدم الكبير المهام فلان مقدم بيت الاستبارة الفلانى بعكا ، والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم حصن الأكراد ، وبين فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الإخوة الاستبارة ، لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وسمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة

للاسكندر بن فيلبس اليونانى - على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ، ومستقرتها لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ؛ وقراها وضياعها ، وسهلها وجبلها ، وعامرها وغامرها ، ومزروعها ومعطلها ، وطرقاتها ومياهها ، وقلاعها

(١) الاستبارة بتقديم الموحدة على التاء هورئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاستبارة .

(٢) بياض بالأصول .

وحُصُونِهَا - عَلَى مَا يُفْصَلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُشْرَحُ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلدَّعَةِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقرَّ بمملكةٍ محصَّ المحروسةِ أنَّ جميعَ المواضعِ والقُرَى والأراضي التي من نَهْرِ العاصِي، وتغرَّبَ إلى الحدِّ المعروفِ من العَرَبِ لبلدِ المُنَاصِفَاتِ : عامَّةً وداثراً، وبما فيها من الغلَّاتِ صَيفِيَا وَشَتَوِيَا، والعدادِ وَغَيْرِهَا من الفوائدِ جَمِيعِهَا - تَقَرَّرَ أن يكونَ النِّصْفُ من ذلكَ لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدُّنْيَا والدينِ أَبِي الفَتْحِ «بيبرس»، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِثَارِ .

وعلى أن كلاً من الجهتين يَتَّهَدُ وَيَحْرِصُ في عِمَارَةِ بَلَدِ المُنَاصِفَاتِ المذكورةِ بِجُهْدِهِ وَطَاقَتِهِ، وَمَنْ دَخَلَ إِلَيْهَا من الفلَّاحينِ بَدَوَابَّ، أو من التُّركَانِ، أو من العَرَبِ، أو من الأكرَادِ، أو من غيرهم، أو القُنَاةِ - كان عليهم العِدَادُ بِكَارِي العَادَةِ . ويكونَ النِّصْفُ لِلسُّلْطَانِ، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِثَارِ .

وعلى أن الْمَلِكَ الظَّاهِرَ يَجْعِي بَلَدَ المُنَاصِفَاتِ المَقْدَمَ ذِكْرُهَا من جَمِيعِ عَسْكَرِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَمَنْ هُوَ فِي حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ، ومن جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ الدَّاخِلِينَ فِي طَاعَتِهِ كَافَّةً . وكذلك مَقْدَمَ بَيْتِ الْإِسْتِثَارِ وَأَصْحَابِهِ يَجْمُونَ بِإِلَادَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ .

وعلى أن جَمِيعَ من يَتَعَدَّى نَهْرَ العاصِي مُغْرَباً لِرَعْيِ دَوَابِّهِ : سواءً أَقَامَ أو لَمْ يَقُمْ، كان عليه العِدَادُ سِوَى قُنَاةِ الْبَلَدِ وَدَوَابِّهِ، ومن يَخْرُجُ من مَدِينَةِ حِمَصَ وَيَعُودُ إِلَيْهَا، ومن غَرَبَ مِنْهُمْ وماتَ كان عليه العِدَادُ .

وعلى أن يكونَ أَمْرُ فَلَاحِي بَلَدِ المُنَاصِفَاتِ فِي الْحَبْسِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْحَبَايَةِ رَاجِعاً إِلَى نَائِبِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، بِاتِّفَاقٍ من نَائِبِ بَيْتِ الْإِسْتِثَارِ، على أن يَحْكُمَ فِيهِ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ مُسْلِماً، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيّاً يَحْكُمَ فِيهِ بِمَقْتَضَى دَوْلَةِ حِمَصَ الأَكْرَادِ .

وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفت جميعها مُطْلَقِينَ من السَّخْرِ من
الجانين .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصفت المذكورة: من تُرْكَانٍ ولا عَرَبٍ
ولا أَكْرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوق بَلَدِ المناصفت، إلا وَيَكُونُ النِّصْفُ
منه لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ، والنِّصْفُ الآخَرُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يَتَقَدَّمُ بِمَنْعِ أَحَدٍ من الفَلَّاحِينَ المعروفين بِسُكْنَى بلاد
المناصفت من الرُّجُوعِ إليها، والسَّكَنِ فيها إذا أَخْتَارُوا العُودَ. وكذلك بَيْتُ الأَسْتَبَارِ
لا يَمْنَعُونَ أَحَدًا من الفَلَّاحِينَ المعروفين بِسُكْنَى بلاد المناصفت من الرُّجُوعِ إليها
والسَّكَنِ فيها إذا أَخْتَارُوا العُودَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يَمْنَعُ أَحَدًا من العُرَبَانِ وَالثَّرْكَانِ وغيرهم : مِمَّنْ يُودَى
العِدَادَ، من الدُّخُولِ إِلَى بَلَدِ المناصفت، إلا أن يَكُونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَنْجِ الدَّاخِلِينَ
في هذه الهُدُنَةِ، فله المَنْعُ من ذلك . وأن تَكُونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظَّاهِرِ وَخُشَارَاتُ
عَسَاكِرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِ تَرَعَى في بلد المناصفت آمِنَةً من الفَرَنْجِ وَالنِّصَارَى
كَأَفَّةً . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْتَبَارِ وَخُشَارَاتُ عَسْكَرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِمْ
تَرَعَى آمِنَةً من المُسْلِمِينَ كَأَفَّةً في بَلَدِ المناصفت . وعند خُروجِ الخُشَارَاتِ من المَرَاغَى
وَتَسْلِيمِهَا لِأَصْحَابِهَا، لا يُؤْخَذُ فِيهَا حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعَارَضُ من الجُهْتِينَ .

وعلى أن تَكُونَ مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةِ مَوْحَا تَحْصَلَ مِنْهَا، يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ
لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ . وكذلك المَصَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ العَرَبِيِّ من
العاصِي يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ . وَيَكُونُ لِبَيْتِ
الأَسْتَبَارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ نَحْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ القَشِّ، وَيَكُونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ
الظَّاهِرِ يَتَصَرَّفُ نَوَابَهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . وَيَكُونُ اللِّيَنُوفُ مَنَاصِفَةً: النِّصْفُ

منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاستيثار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاستيثار، الذي كان حصل الحرب فيه، والبستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاستيثار أيضا يكون مناصفة . وأن يكون متولى أمرهما نائب من جهة تواب السلطان ونائب من جهة بيت الاستيثار ، يتولى أمرهما والتصرف فيهما وقبض مخصصهما . وتقرر أن مهما يجدد بيت الاستيثار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاستيثار .

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة ، فهي شيزر ، وأبو قبيس وأعمالها ، وعيناب وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاستيثار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسرية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها ، وقراها المستقرة بها ، وسهلها وجبلها وعامرها وغازها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور ، ناصر الدين « محمد » بن الملك المظفر أبي الفتح « محمود » بن الملك المنصور « محمد » بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي : حماة المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراها وسهلها وجبلها وأنهارها ، ومناقعها وثمارها وعامرها وغازها ، وبلاد رقية وبلاد بارين بحدودها ونحومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها وما فيها - على أن الملك المنصور لا يرخص للتركان ولا للعرب أن يتزلوا بلد رقية وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين ، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاستيثارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من القرنجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فإن أنكشفت الأخيذة ،

أعيدت . وإلا تُحَلَّفُ الْجِهَةُ المدْعَى عليها أنها ما علمت وما أحست ، وكما لهم ،
كذلك عليهم .

والمستقر لمملكة الصالحين : نجيم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نايبي
الدعوة المباركة ، وولد الصاحب رضى الدين ، وهى : مصياف والرصافة وجميع
قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعيرها ودامرها ودائرها ، ومدنها وبلادها ،
وضياعها وطرقاتها ، وميادها ومنابعها ، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبل بئرا واللكام ،
وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتحوها - أن يكون الجميع آمنين من على
الرصيف الذى بسيزر إلى نهاية الأراضى اتى بخصون الدعوة وبلادها . وحماية
القرية المعروفة بعرطار (؟) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحدا
من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الاستنار لأذية ، أعلموا بيت الاستنار قبل أن تجرى
أذية ، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به ، وإن لم يخلقوا يردوا الأذية
التي تجرى .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاستنار رالحين وغازين ومتصرفين فى بيعهم
وشرائهم ، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم . وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية
لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى جميع بلاد الاستنارية ، وإن
تعدى أحد من الجهتين فى سوق أو طريق ، فى ليل أو نهار ، تكون المهلة خمسة عشر
يوما ؛ فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين
حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة التى رهنها عبد المسيح
رئيس المرقب الاستنار ، وهى المشيرة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى
آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم . ويجعل الأمر
فى الحقيق .

ويطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبثت الاستتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية، ونمسون مئدا حنطة، ونمسون مئدا شعيرا، ولا تبقى قطعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الاستتار ولا توأهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا أضر، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقا مما يختص بالملكة الحمصية، يسترزق بها الصعاليك . وأن توأب الملك الظاهر يمجونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن توأب بيت الاستتار يصونونهم ويحرسونهم ويحجرونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستتارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الحاربية في يد توأب الاستتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد ممن يجب عليه العداد وأنتع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضرا : إما عداد ديوان الملك الظاهر، وإما عداد بيت الاستتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص المتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصقات، ويترك الرهن عند الرئيس ودبعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التوأب إيصال بيت الاستتار إلى حقه

مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حَقَّهُمْ مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفنار والمترددین من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يجهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من جميع المسلمين . ويجهم بيت الاستتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددین على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفت ، وخاص بيت الاستتار والمناصفت ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . لا يكون عداد على ما لها في المناصفت : من الدواب والغنم والبقر والجبال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

فَقَرَّ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وعلى أن يكشفوا عن الأخذة بجهدهم وطاقتهم . ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها ؛ فإن حلفوا ببراءة من الدعوى ، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها ، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعى ، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شيء مثله . وكذلك يجري الأمر في القتل : عَوَضُ الْفَارِسِ ، فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِيِّ بَرَكِيٌّ ، وَعَوَضُ الْبَاحِرِ تَاجِرٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَّاحِ فَلَاحٌ . وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعى وجب عليه العوض حتى يرد ، وإن رد اليمين على المدعى ومضى على ذلك عشرة أيام ، ولم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه وحكمتها ، وإن حلف أخذ العوض .

ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد ، ومعه مال لغيره أعيد جميع ماله ، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود . وإن هرب عبداً وخرج عن دينه ، أعيد ثمنه ، وإن كان باقياً على دينه أعيد .

وعلى أن لا يدخل أحد من القاطنين في بلد المناصفت : من الفلاحين والعرب والتركان وغيرهم ، إلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لإغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر وبلاد معايدته ، [ولا يدخل أحد] بلاد المسلمين لإغارة ولا أذية بعلم بيت الاستبارة ولا رضاهم ولا إذنبهم .

وعلى أن الدعوى المتقدمة على هذا الصلح يحل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معايدته وبين بيت الاستبارة .

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب « ويستحق » كما هو ظاهر .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي: عشرين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحدا من التركان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفت بغير اتفاق من بيت الاسبتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا تبدؤ منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفت وبيلد النصارى . ولنواب مولانا السلطان أن تركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار في غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الاسبتار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفت، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تمهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحصيصة على ما كان مستقرا في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر» .

هذا ما وقع الاتفاق والترضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه، وتأكيده لما شرح أعلاه . كتب في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدية من هذا النمط، عقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في شهر سنة سبع وستين وثمانائة حين كانت بيدها، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين الملكة الجليلة المصونة الفاهرة، فلانة آمنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحية مدة عشر سنين متوالية؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية - على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، يقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كتبها المضافة إليها: من حد جليل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وانظلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلاؤها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلاؤها، وجبله والأذقية وقلاعها وبلاؤها، وحصص المحروسة وقلاعها وبلاؤها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلاؤها وما هو مختص بها، والمملكة الرحيبة وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها ورعاياها

وممالكها، والمملكة الشَّقِيفِيَّة وما يختص بها من قلاعها وإبلادها ورعاياها، والمملكة
الْقُدْسِيَّة وما يختص بها، والمملكة الحَلَبِيَّة وما يختص بها، والمملكة الكَرْكِيَّة والشَّوْبَكِيَّة
وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النَّابُلُسِيَّة، والمملكة الصَّرْحَدِيَّة،
ومملكة الديار المصرية جميعها : بثغورها، وحصونها، وممالكها، وإبلادها،
وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والسَّاكنين في جميع هذه
الممالك : المذكورة وما لم يذكر من ممالك السُّلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى
على يده ويَد نُؤايه وغلماينه يكونُ داخلًا في هذه الهدنة المباركة، وممتنظًا في جملة
شروطها، ويكونُ جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمينين مُطمئنين على نفوسهم
وأموالهم وبضائعهم، من المملِكة فلانة وغلمايها، وجميع من هو في حُكْمها وطاعتها :
برًا وبحرًا، ليلاً ونهارًا، ومن مراكبها وشوانيها . وكذلك رعية المملِكة فلانة وغلمايها
يكونون آمينين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السُّلطان ومن جميع نُؤايه وغلماينه
ومن هو تحت حُكْمه وطاعته : برًا وبحرًا، ليلاً ونهارًا : في جَبَلَة ، والألَّاذِقِيَّة ،
وجميع بلاد السُّلطان ، ومن مراكبها وشوانيه .

وعلى أن لا يُجَدِّد على أحد من التُّجَّار المترددين رسمٌ لم تجر به عادة، بل يجرون
على العوائد المُستمرَّة، والقواعد المُستقرَّة من الجهتين . وإن عُدِم لأحد من الجانبين
مالٌ ، أو أخذت أخبذة ، وصحت في الجهة الأخرى رُدَّت إن كانت موجودة ،
أو قيمتها إن كانت مفقودة . وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يومًا ،
فإن وُجدت رُدَّت ، وإن لم توجد حَلَف وإلى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلَف
ثلاثة نفرٍ ممن يختارهم المدعى ، وبرئت جهته من تلك الدعوى . فإن أبى المدعى
عليه عن اليمين حَلَف الوالي المدعى ، وأخذ ما يدعيه . وإن قُتِل أحد من الجانبين
خطأً كان أو عمدًا ، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره : فارس بفارس ،

وَبَرِيكِلْ بِيرِكِيلْ ، وَرَاجِلْ بَرَايِلْ ، وَفَلَّاحُ بَفَلَّاحِ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ بِمَالٍ لغيره ، رَدَّ مِنَ الْجِهَتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُعْتَدَرُ بَعْدُ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ؛ وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ؛ ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يومًا ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» وولده الملك السعيد ، وبين الفرنج الاستبارية ، على قلعة لُد بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس الصالح» قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين «محمد برکه خاقان» خليل أمير المؤمنين ، وبين المباشير المقدم الجليل افريز اولدكال مقدم جميع بيت استبار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاستبارية ، لمدة عشر سنين

كواويل متواليات متتابعات، وعشرة أشهر، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين
وستائة للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة
وآئتين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لُد بكاملها
وربضها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومحسوب منها، بحدودها المعروفة بها من
تقدم الزمان، وما استقر لها الآن، وما يتعلق بذلك: من المواضع، والمصايد،
والملاحات، والبساتين، والمعاصر، والطواحين، والجزائر: سمائها وجبالها،
وعاصرها، ودأريها، وما يجري بها من أنهار، ويذبح بها من عيون، وما هو مبنى بها
من عمائر، وما استجدد بها من القراج وغير ذلك؛ وكل ما عمر في أراضي المناصفت
على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر
لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة
لها، وحصن برغن وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياح والقرى التي كانت
مناصفة - تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصا إلى آخر الزائد لللك الظاهر،
ولا يكون لبيت الأستبار ولا للرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين
انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق
ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة، كتملة العليقة في بلادها لبيت الأستبار، يكون
ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف، ولا يكون للرقب فيها شيء
ولا لبيت الأستبار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى - لا تكون
فيها مناصفة لبيت الأستبار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدَّعْوَة : مِصْيَافِ المَحْرُوسَة ، وَالكَهْفِ ، وَالْمِنْقَسَةِ ، وَالْقُدْمُوسِ ، وَالْحَوَائِي ، وَالرُّصَافَةِ ، وَالْعَلِيقَةِ . وَكُلُّ مَا هُوَ فِي هَذِهِ الْقِلَاعِ وَفِي بِلَادِهَا مِنْ مُنَاصَفَةٍ ، يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَلَيْسَ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَلَا الْفَرَنْجَةِ فِيهِ خَدِيثٌ وَلَا طَلَبٌ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَرْقَبِ وَحُدُودُهَا مِنْ نَهْرٍ لَدَّ وَمُقَبَّلًا وَمَغْرَبًا إِلَى حُدُودِ بِلَادِ مَرْقَبَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا ، الدَّاخِلِ جَمِيعُهَا فِي الْفُتُوحِ الشَّرِيفِ ، وَأَسْتَقْرَرَهَا بِحُكْمِ ذَلِكَ فِي الْخَاصِّ الْمُبَارِكِ الشَّرِيفِ ، وَحَدَّ الْبُيُوتِ الْمَحَازِيَةِ لِسُورِ الرَّبِضِ ، تَسْتَقَرُّ جَمِيعُهَا مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ نِصْفَيْنِ بِالسُّوِيَّةِ ، وَمَا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ : مِنْ بَسَاتِينِ ، وَطَوَاحِينِ ، وَعِمَارَةٍ ، وَمَصَايِدَ ، وَمَلَاحَاتَ ، وَوُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْمُسْتَغْلَاتِ الصَّيْفِيَّةِ وَالشَّتُوبَةِ ، وَالْقَطَانِي ، وَالْحُقُوقِ الْمَسْتَخْرَجَةِ ، وَمَا هُوَ مَزْرُوعٌ مِنَ الْفَدَنِ لِأَهْلِ الرَّبِضِ وَبِيَادِرِهَا : يَكُونُ ذَلِكَ مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ سَرَجَوَانَ بِالسُّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وَمَا هُوَ دَاخِلُ الرَّبِضِ وَدَاخِلُ الْمَرْقَبِ ، فَإِنَّهُ مُطْلَقٌ مِنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ لِلْقَدَمِ الْكَبِيرِ أَفْرِيزِ أَوْلَادِ كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ سَرَجَوَانَ وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحِمَالَتِهِ وَرِجَالَتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، بِرَسْمِ إِقَامَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ مِنْ دَاخِلِ الْأَسْوَارِ ، وَعَنْ سُورِ الرَّبِضِ الْمَحَازِيَةِ لِلْسُّورِ تَكُونُ مُنَاصَفَةً جَمِيعُهَا ، بِمَا فِيهِ مِنْ حُقُوقِ طُرُقَاتِ وَأَحْكَارِ ، وَمَرَاعِي الْمَوَاشِي عَلَى آخْتِلَافِ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجَمِيعِ السَّخْرِيَّاتِ ، وَكُلِّ أَرْضِ مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقِّ أَوْ عِدَادٍ يَكُونُ مُنَاصَفَةً .

وَكُلُّ مَا هُوَ مِنَ الْمَوَانِي وَالْمَرَاسِي الْبَحْرِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ جَمِيعُهَا بِمَحْضِنِ الْمَرْقَبِ : مِنْ مِينَا بَلَدَةٍ إِلَى مِينَا الْقَنْظَرَةِ الْمَجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةٍ - تَكُونُ هِيَ وَمَا يَتَحَصَّلُ مِنْهَا مِنْ

الحقوق المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ،
وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الحارية من غير تغيير لفاعدية من
حين أخذ بيت الأستبار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة
الحارية ، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يضررونها والمتجر
كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للترددين والمقيمين بالقلعة والربض : من عامة وغير
عامة ، وخیالة وغير خیالة ، على اختلاف أجناسهم ، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الأستبارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم
رؤسهم خاصة ، لا يكون عليها حتى ، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك ،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يجمي أحد من الإخوة الخيالة ، والوزراء ، والكتاب ، والثواب ،
والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الأستبار ، ليستطلق الحق وينع من استيدائه ، ولو
أنه أقرب أجد إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط ،
أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين : للديوان السلطاني المعمور ، وليت الأستبار ،
إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر ، صادراً ووارداً ، وكذلك في البر صادراً
ووارداً بعد المحاكمة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المبشر المقدم الكبير لبيت الأستبار ، وولاته وكتابه ومستخدميه
وغلمانه ، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك غلماننا وولاتنا وثوابنا ومستخدمونا وكتائبنا ورعايا بلادنا يكونون آمنين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّقِينَ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخْذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ الْمَقَاسِمَاتِ وَالطَّرَقَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرَرَةَ عَلَى الْفَدَنِ عَلَىٰ آخِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةُ وَأَسْتَجْرَاجُ وَجْهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَرَةُ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وَعَلَىٰ أَنْ جَمِيعَ الضَّمَانَاتِ يَكُونُ نُوبُ السَّلْطَانِ وَنُوبُ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ مُتَّقِينَ بِجُمْلَةٍ عَلَىٰ ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، وَلَا يُطَلَّقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ الْآخَرِ .

وَعَلَىٰ أَنْ أَىُّ مُسْلِمٍ تَصَدَّرَ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْذِيهِ ، يَعْتَمَدُ ذَلِكَ فِيهِ نَائِبًا : مِنْ شَتَّىٰ يَجِبُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطَعَ . أَوْ أَدَبَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَتَّىٰ ، وَقَطَعَ ، وَكَلَّ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَىٰ آخِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَأْدَىٰ مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِشَاشٌ وَبَضَائِعٌ عَلَىٰ آخِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ، أُعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السَّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَىٰ آخِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تُؤْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ جِهَتِنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء ، يعود عليه الضمير .

تَبَقَى تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، خَلَا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذَمِيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ عَلَيْهِمْ آعْتَرَاضٌ ، وَيَحْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَاعِ لِلدِّيَّوَانِ الْمَعْمُورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُدْبِعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ التُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَاعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِي الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يُتَنَاوَلُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُمْ وَيُحْضِرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَّرْتِيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظِ لِلطَّرْفَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَحْضِرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِي بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَيِّبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِرِ الْمَقْدَمِ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْحِيَالَةَ وَالرَّعِيَّةَ الْمَقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مَنْأً وَمَنْ نُؤَابِنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمَنْ وَلَدَنَا الْمَلِكَ السَّعِيدِ ، وَمَنْ أُمَرَانِنَا وَعَسَا كَرْنَا الْمَنْصُورَةَ . وَإِنْ قِيلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المرقب ، فيقع الكشْفُ عن ذلك عشرين يوماً : فإن وُجد فاعِلُ ذلك ، يؤخِّدُ الفاعِلُ بذَنبِهِ . وإن لم يظهر فاعِلُ ذلك مدَّةَ عشرين يوماً فيمَسِكُ رؤسَاءُ مكانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأخذ الأخيذة ، وقَتَلَ القَتِيلِ ، إن كان أخذَ وقَتَلَ - مكانَ من قَتَلَ القَتِيلَ أو أخذَ الأخيذة - أقربَ القُرباءِ إلى الذي قَطَعَ عليه الطريقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وعُجِزَ عن إحضاره بعد عشرين يوماً ، يُلْزِمُ أهلُ نُوابِ الجهتين من القُرباءِ الأقربَ لذلك المكانِ بألفِ دينارٍ صُورِيَّةٍ : للديوانِ السلطانيِّ النَّصْفُ ، ولتَقْيِبِ الأَسْبَتارِ النَّصْفُ ، ولا تُتْكَاسَلُ الولايةُ في طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُهُ يَدًا واحدةً ، ولا يختصُّ الواحدُ دون الآخر . ولا يجابى أحدُ منهم لأخذِ الفَلاحِ في هذا أو غيره في مَصْلَحةِ عِمارةِ البلادِ ، وأسْتِخْراجِ الحُقُوقِ ، ومُقاسِمةِ الغِلالِ ، وطَلَبِ المُفسدين ليلاً ونهاراً .

وعلى أن لا تغيَّرَ الهدنةُ المباركةُ بأمرٍ من الأمور ، لamen جِهَتِنَا ولا من جِهَةِ ولدِنَا المَلِكِ السَّعِيدِ ، إلى أنقضاءِ مُدَّتِهَا المَعِينَةِ أعلاه وفروعها . ولا تَتَغَيَّرُ بتَغْيِيرِ المَقْدَمِ المَبَاشِرِ لِبَيْتِ الأَسْبَتارِ الحَاكِمِ على المَرْقَبِ وغيره . وإذا جَرَتْ قِضِيَّةٌ في أمرٍ من الأمور يَعْرِفُهُم نُوَابُنَا ، ويَحَقِّقُ الكَشْفُ إلى مدَّةِ أربعين يوماً ، فن يكون للبيدية يخرج منها على من سم (؟) ويكونُ قد عَرَفَ دَيْنَهُ الذي بدأ من جِهَةِ كُلِّ واحدٍ . وإذا تَغَيَّرَ النُوابُ بالمرقبِ وحضَرَ نَائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يَعْتَمِدُ ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الهدنةُ ، ولا يخرج عن هذه المُواصِفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمين أحدٌ على آخْتِلافِ أَجْناسِهِ ، إن كان مَمْلُوكًا أو غير مَمْلُوكٍ ، أو مَعْتُوقًا أو غير مَعْتُوقٍ ، أو كائِنًا من كان من المسلمين على آخْتِلافِ مَنَارِظِهِمْ ، وإن كان غُلامًا أو غير غُلامٍ - يردُّ بجميع ما يُوجَدُ معه ، إن كان قليلاً أو كثيراً يردُّ . ولو أنَّ المَتَسَحِّبَ دخلَ الكَنِيسَةَ وجلسَ فيها يُمَسِكُ بِيَدِهِ ويخرجُ ويسَلِّمُ لِنُوابِنَا بجميع ما مَعَهُ ، وإن كان خَيْلاً أو قماشًا أو دَرَاهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به ، يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يسلم ويسلم بما يحضر معه : من الخيل والأقشاة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً ، يسكه نوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالدرق ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكتاب ، ولا بمشافهة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطالع أحد من جهتهم إليهم ؛ ولا يمكن أحد من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ؛ ولا تسير إليهم مؤونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يحددون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [يعتمدون] إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يحددون عمارة في ربضها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يحددون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو تجديد بناء خندق أو قطع جبل ، أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناية [على] أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صخرة الملك السعيد . وقد أذننا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ورومه (٩) وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وعيدوب وأعمالها ، الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يجرى حُكْمُ هذه البلاد المختصة به حُكْمُ بلادنا في المُهادنة، بِحُكْمِ أَنَّ بلادَه المذكورة جاريةٌ في ممالكِ الشَّريفة .

وعلى أنه لا يُمكنُ بَيْتُ الأَسبتارِ من دُخولِ رِجُلٍ غَريبَةٍ في البرِّ ولا في البَحْرِ إلى بلادنا، بأذِيَّةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّولةِ ، وعلى بلادِنا وَحُصُونِنا ورِعِيَّتِنا ، إلا أن يكونوا يَدًا غَالِبَةً ، صُحْبَةً مَلِكٍ مُتَوَجِّحٍ .

وعلى أن البُرْجَ الداخِلَ في المُناصِفَةِ ، وهو بُرْجُ مُعاوِيَةَ الذي عند المِحصَةِ الداخِلَةِ في مَناصِفِ المَرَقِبِ الآنَ ، يُحَرَّبُ ما يُحْصِنُنا منه ، وهو النِّصْفُ من البُرْجِ المذكورِ أعلاه . وأن الحِصْرَ المعروفَ بِحِصْرِ بَلْدَةِ لِمَ يَكُنْ لِبَيْتِ الأَسبتارِ فيه شيءٌ من البرِّين ، وأنه خالِصٌ للديوانِ المعمورِ دُونَ بَيْتِ الأَسبتارِ . وأن الدَّارَ المُستجَدَّةَ عمارتُها بِقَلْعَةِ المَرَقِبِ بِرِسمِ الماسِترِ المُقَدَّمِ الكَبيرِ ، الذي هو عازِزُ تَكْميلِ عِمارةِ سَقْفِ القَبوِ بِالْحِجارةِ وَالكَلسِ ، لا تَكْمَلُ عِمارتُها ، وَيَبْقَى على حاله ، وهو في وَسَطِ القَلْعَةِ الظاهرِ منه قَليلٌ إلى البرِّ الشَّرقيِّ وهو المذكورُ أعلاه .

وعلى أن تَوَابِ الأَسبتارِ بِالمَرَقِبِ لا يُحْفُونُ شيئاً من مَقاماتِ البلادِ ولا شيئاً من حُقوقِها الجارى بها العادةُ أن يَبْتَ الأَسبتارِ يَسْتَحْرِجُونَهُ ولا يُحْفُونُ منه شيئاً ، وكلُّ ما كان يَسْتَأدِي من البلادِ في أَيديِ الأَسبتارِ قَبْلَ هذه المُهدنةِ يُطاعُونَ تَوَابِناً عَلَيْهِ ولا يُحْفُونُ منه شيئاً قَليلًا ولا كَثيرًا من ذلك .

وعلى أن السُّلطانَ يَأْمُرُ تَوَابِهِ بِحِفْظِ مُنَاصِفَاتِ بلادِ المَرَقِبِ الداخِلَةِ في هذه المُهدنةِ ، من المُفْسِدِينَ وَالمُتَلَصِّصِينَ وَالحِرامِيَّةِ من هو في حُكْمِهِ وَطاعَتِهِ . وكذلك الماسِترِ المُقَدَّمِ افرِيزِ أولدِكالِ يَلْزِمُ ذلكَ من الجِهةِ الأُخرى . ومتى وَقَعَ - والعِيادُ بِاللَّهِ - فَسَخُّ سَبَبٍ من الأَسبابِ ، كان التُّجَّارُ والسُّفَّارُ آمِنِينَ من الجِهتينِ إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يمتنعون من السفر إلى أَمَا كِنِهِم من الجهتين ، وتكونُ
 النهايةُ لهم أربعين يوماً . وتكونُ هذه الهدنةُ منعقدةً بشروطها المذكورة ، مُستقرّةً
 بقواعدها المسطورة للذةِ المعينة ، وهي : عشر سنين وعشرة أشهرٍ كواملٍ ، أولها
 مُستهلُّ رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها ، متتابعةً متواليّةً ، لا تنسخُ
 بموتِ أحدٍ من الجهتين ، ولا بعزلٍ وإلٍ وقيامٍ غيره موضعه ، ولا زوالِ رجلٍ غريبيةً ،
 ولا حضورٍ يدٍ غالبةٍ ؛ بل يلزمُ كلاً من الجهتينِ حفظُها إلى آخرها ؛ ومن تولى بعد
 الآخرِ حفظُها إلى آخرها ، بالشروطِ المشروطةِ فيها أولاً وآخرًا . والخطُ أعلاه ، حجةٌ
 بمقتضاها ، إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخةُ هدنةٍ عُقدتْ بين السلطانِ المَلِكِ المنصورِ « قلاوون » الصالحِ
 صاحبِ الديارِ المصريةِ والبلادِ الشاميةِ وولدهِ المَلِكِ الصالحِ « علي » وليِّ عهدِهِ ،
 وبينِ حكامِ الفرنجِ بعكا وما معها من بلادِ سواحلِ الشامِ ، في شهورِ سنة اثنتين
 وثمانين وستمائة ، وهي يومئذ بأيديهم . وصورتها :

استقرت الهدنةُ بين مولانا السلطانِ المَلِكِ المنصورِ سيفِ الدينِ أبي الفتحِ
 « قلاوون » المَلِكِ الصالحِ وولدهِ السلطانِ المَلِكِ الصالحِ علاءِ الدينِ « علي » -
 خلد الله تعالى سلطنتهما - وبينِ الحُكَّامِ بمملكةِ عكا ، وصيدا ، وعثليث ، وبلادها
 التي آنعقدت عليها هذه الهدنةُ ، وهم : الشيخانِ أودهيل المملكةِ بعكا ، وحضرةُ
 المقدمِ الجليلِ افريزكاسام دسا حول (؟) مقدمُ بيتِ الديويةِ ؛ وحضرةُ المقدمِ الجليلِ
 افريزكافل للورن (؟) مقدمُ بيتِ الاستباريةِ ، والمرشانُ الأجلُّ افريزكورات نائبُ
 مقدمِ بيتِ الاستبار الآمن - لمدةِ عشرِ سنين كواملٍ ، وعشرةِ أشهرٍ ، وعشرةِ أيامٍ ،

وعَشْرَ سَاعَاتٍ : أَوْلَاهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ
لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمَوَافِقُ لِلثَّلَاثِ مِنْ حَزْرِيَّانَ
سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لِعَلْبَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّيْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ
بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي مَمْلَكَتَيْهَا وَتَحْتَ حُكْمَيْهَا وَطَاعَتَيْهَا وَمَا تَحْتَوِيهِ
أَيَّدِيهِمَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحُصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَغْرٍ
دِمِيَاطَ ، وَتَغْرٍ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَتَسْتَرُو ، وَسَنْتَرِيَّةٍ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ
الْمَوَاتِي وَالسَّوَاخِلِ ، وَتَغْرٍ فُؤَّةَ ، وَتَغْرٍ رَشِيدَ ، وَالْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَتَغْرٍ غَزَّةَ الْمَحْرُوسِ ،
وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَاتِي وَالْبِلَادِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكَرْكِيَّةِ ، وَالشُّوْبِكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَبُصْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ،
وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ لَحْمٍ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ
دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيْلَ ، وَمَمْلَكَةِ نَابِلَسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ
الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَعَسْقَلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَاقَا وَالرَّمْلَةَ
وَمِيثَاهَا ، وَقَيْسَارِيَّةَ وَمِيثَاهَا وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَافُونَ
وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالَ الْعَوَجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاخَةِ ، وَالْفُتُوحِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا
وَمَزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْبَحْرَيْنِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَعَيْرَ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ
وَجَبْرِيَّتَهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّقَدِيَّةِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَبْنِينَ وَهُونِينَ
وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْمَحْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِشَقِيفِ أَرْزُونِ
وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْفَرَنْ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا
عَمَّا عُنِيَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنِصْفِ مَدِينَةِ إِسْكَانْدَرُونَةَ ، وَنِصْفِ ضَيْعَةِ مَأْرِبَ
بِقُدْنِيهَا وَكُرُومِهَا وَبَسَاتِينِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَانْدَرُونَةَ

المذكورة ، يكون جميعه بمحدوده وبلاده للسلطان المملك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لمملكة عكا . والبقاع العزيزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف
تيرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا نا وغيرها (؟) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والمالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزية وأعمالها ، وقوتحات حصن
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (٢) أعمالها ، والعريمة
وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاده ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأفامية وأعمالها ، وجبله وأعمالها ،
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدر بسالك وأعمالها ، والرأوندان وأعمالها ، وعينتاب وأعمالها ، وحرارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسمح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزاعا
وأعمالها ، وآلبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشيمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عيئت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزیه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،
وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددين في البر والبحر ،
والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي صدورهم
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحرهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ،
وأتباعهم ، ومواشيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أيديهم
من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكام بمملكة عكا : وهم كفيّل المملكة بها ،
والمقدم افريزكليم دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ؛ والمقدم افريزبيكوك
للورن (؟) ، وافرزاهداب نائب مقدم بيت الاسبتار الآمن ، ومن جميع الفرنج
والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع
الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة
من كل وأصل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينال بلاد
السلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ،
ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عربهما ، ولا تركبتهما ، ولا أكرادهما ،
ولا رعاياهما ، على اختلاف الأجناس والأنفار ؛ ولا ما تحويه أيديهم من المواشي
والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء ، ولا يخشون من جميعهم أمرا
مكروها ولا إغارة ، ولا تعرضا ولا أذية .

وكذلك ما استفتحه ويضيفه السلطان وولده على أيديهما ، وعلى يد توابهما
وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومملك ، وأعمال ، وولايات ، برا
وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة : وهي مدينة
عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ؛ وما يختص بها من كروها ، وما لها من

(١) حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تَقَرَّرَ لها من بلادٍ في هذه الهُدنة وهي : البصة ومَزْرَعَتُها ، مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المنوات ومَزْرَعَتُها ، الكابرة ومزراعها ، نصف وفيه جمعون ، كَفَر بَرْدَى ومَزْرَعَتُها ، كَوَكَبُ عمقا ومَزْرَعَتُها ، المونيه ، كفر ياسيف ومَزْرَعَتُها ، تُوسيان ، مكر حرسين ومَزْرَعَتُها ، الحديدية ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا الحارثية ، ثمرا الطره ، الرب ، البابوحه ومَزْرَعَتُها ، العرج ومَزْرَعَتُها ، المزرعة السَميرية البِيضاء ، دعوق والطاحون ، كردابه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ، الغار ، الرخ والمجدل ، تَل كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكة ، المشيرقه ، العطرانية ، المنير ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشه ، الزراعة الحديدية الشمالية ، الرحاحيه ، قسطه ، كفر نبتل ، الدويرات ، ماصوب ، متماس العباسية ، سيعابه ، عين الملك ، المنصورة ، الرضيقة ، حانا ، سرطا ، كفترا ، أرض الزراعة ، رولس ، صغد عدى ، سفر عم . هذه البلاد المذكورة [تكون] خاصا للفرنج . حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها ، والقصر وهو الحوش وكَفَر توثا ، وهي : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعرة ، والباجور ، وسومرا . تكون حيفا وهذه البلاد المذكورة بمحدودها وأراضيها خاصة للفرنج . وكذلك قرية مارسا باره بها ، المعروفة بها وكرومها وغرسها يكون خاصا للفرنج . ودير السياح ، ودير مارلباس بأراضيها المعروفة بهما وكرومهما وبساتينهما يكون خاصا للفرنج .

وعلى أن يكونَ للسلطانِ المَلِكِ المنصورِ ولولده الصَّالِحِ : من بلادِ الكِرمِ ، وهي : الدالية ، ودونه ، وضريسة الريح ، والكرك ، ومعليا ، والرامون ، ولونه ، وديور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعا لأصول في الإهمال والنقط .

وخربة يونس، وخربة خميس، ورشما، ودواه، يكون خاصًا للفرنج في بلادٍ أخرى
ذَكَرَهَا . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكاملها .

وتكونُ جميعُ هذه البلاد العكاويّة وما عيّن في هذه المُدنة المباركة من البلاد
السّاحلية آمنةً من السُّلطان المَلِك المنصور وولده المَلِك الصّالح ، وآمنةً من
عساكرهما وجُنودهما ومن خَدَمهما ، وتكونُ هذه البلادُ المشروحةً أعلاه ، الداخلةُ
في هذه المُدنة المباركة : الخاصّ بها ، وما هو مُنَاصَفَةٌ - مُطمَئِنَّةٌ هي ورعاياها ،
وسائرُ أجناسِ الناسِ فيها ، والقاطنين بها ، والمتردّدين إليها على اختلافِ أجناسهم
وأديانهم ، والمتردّدين إليها من جميعِ بلادِ الفرنجية والسُّفّار ، والمتردّدين منها وإليها
في برٍّ وبحرٍ ، في ليلٍ أو نهارٍ ، سهّلٍ وجبَلٍ ، آمنينَ على الثُّنوسِ والأموالِ والأولادِ ،
والمراكِبِ والدّوابِّ ، وجميعِ ما يتعلّقُ بهم ، وكلّ ما تحويه أيديهم من الأشياءِ على
اختلافِها ، من السُّلطانِ وولده ، وجميعِ من هوتحت طاعتها : لا ينالهم ولا ينالُ
هذه البلادَ المذكورةُ التي أتعقدتُ عليها المُدنةُ سوءٌ ولا ضررٌ ولا إغارةٌ ، ولا ينالُ
إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلاميّة والفرنجيّة من الأخرى ضررٌ ولا أذيةٌ ؛
ويكونُ ما تقرّرَ أنه يكونُ خاصًا للفرنج حسب ما بينَ أعلاه لهم ، وما تقرّرَ أن يكونَ
للسُّلطانِ ولولده خاصًا لها ، والمناصفاتُ تكونُ كما شِرح . ولا يكونُ للفرنج من
البلادِ والمناصفاتِ إلا ما شِرحَ في هذه المُدنة وعيّن فيها من البلادِ .

وعلى أن الفرنج لا يُجدّدون في غير عكا وعثليث وصيدا : مما هو خارجٌ عن أسوار
هذه الجهاتِ الثلاثِ المذكوراتِ ، لا قلعةً ، ولا بُرجًا ، ولا حصنًا ، ولا مُستجدًا .

وعلى أنه متى هَرَبَ أحدٌ - كائناً من كان - من بلادِ السُّلطانِ وولده إلى عكا
والبلاطِ السّاحلية المعينة في هذه المُدنة ، وقصدَ الدُخولَ في دينِ النُصرانيّة وتتنصّر

بإرادته، يُرَدُّ جميع ما يروحُ معه وَيَبْقَى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولَ في دين النصرانية ولا يَتَنَصَّرُ، رُدُّ إلى أبايها العالِيسَةِ بجمع ما يروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعْطَى الأمان . وكذلك إذا حَضَرَ أحدٌ من عَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، وقصدَ الدُخُولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يُرَدُّ جميع ما معه ويبقى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسَلِّمُ، يُرَدُّ إلى الحُكَّامِ بعَمَّا، والمقدَّمينَ بجمع ما يروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعْطَى له الأمان .

وعلى أنَّ المَنوعَاتِ المعروفَ مَنعُهَا قَدِيمًا تَسْتَقَرُّ على قَاعِدَةِ المَنعِ مِنَ الجُهَيْنِ . ومتى وُجِدَ مع أحدٍ من تُجَّارِ بلادِ السُّلْطَانِ وولَدِهِ مِنَ المُسْلِمِينَ وغيرهم على اختلافِ أديانِهِم وأجناسِهِم شَيْءٌ مِنَ المَنوعَاتِ بعَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، مثلَ عَدَّةِ السَّلَاحِ وغيره، يُعادُ على صَاحِبِهِ الذي أَشْتَرَاهُ مِنْهُ، ويُعادُ إليه ثَمَنُهُ، ويُردُّ ولا يُؤخَذُ مَالُهُ أَستَهْلَاكًا، ولا يُؤذَى . وللسُّلْطَانِ ولولَدِهِ أن يفتصلا في من يخرجُ من بلادِهِمَا من رَعِيَّتِهِمَا، على اختلافِ أديانِهِم وأجناسِهِم، بشيءٍ من المَنوعَاتِ . وكذلك كَفِيلُ المَلِكَةِ بعَمَّا والمقدَّمونَ لهم أن يفتصلوا في رَعِيَّتِهِم الذين يخرجونَ بالمَنوعَاتِ من بلادِهِم الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ .

ومتى أُخِذَتْ أُخِيذَةٌ مِنَ الجَانِيينَ، أو قُتِلَ قَتِيلٌ مِنَ الجَانِيينَ، على أَى وَجْهِ كَانَ - والعِيَادُ بِاللَّهِ - رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعِينِهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً، أو قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . والقَتِيلُ يَكُونُ العِوَضُ عَنْهُ بِنَظِيرِهِ مِنْ جِنْسِهِ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ، وَبِرِكِلٌ بِبِرِكِلٍ، وَتَاجِرٌ بِتَاجِرٍ، وَرَاجِلٌ بِرَاجِلٍ، وَفَلَّاحٌ بِفَلَّاحٍ . فَإِنْ خَفِيَ أَمْرُ القَتِيلِ والأَخِيذَةِ، كَانَتِ المَهْلَةُ فِي الكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ ظَهَرَتِ الأَخِيذَةُ أو تَعَيَّنَ أَمْرُ المَقْتُولِ، رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعِينِهَا وَيَكُونُ العِوَضُ عَنِ القَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرْ

كانت اليمين على والى المكان المدعى عليه، وثلاثة نفر يقع اختيار المدعى عليهم، من تلك الولاية . وإن امتنع الوالى عن اليمين حُلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الأخرى وأخذ قيمتها . وإن لم يُنصفِ الوالى ولا ردّ المسأل، أنهى المدعى أمره إلى الحُكّام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً ، ويُزِمُ الولاة من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط .

ومتى أخفوا قتيلاً أو أحيده ، أو قدرُوا على أخذ حقّ ولم يأخذهُ كل واحد في ولايته، يتعين على الذى يوليه من ملوك الجهتين إقامة السياسة فيه : من أخذ الروح والمال والشئق ، والإنكار التام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه .

وإن هرب أحد بمالٍ وأعترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ماردّه . فإن لم يقنع المدعى بيمين الهارب، حلف والى تلك الولاية أنه لم يطّلع على أنه وصل معه غير ماردّه . وإن أنكر أنه لم يصل معه شيء أصلاً، استحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعى شيء .

وعلى أنه إذا أنكسر مراكب من مراكب تجار السلطان وولده التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى ميناء عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأئفس والأموال والأتباع والمتأجر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم [إليهم] . وإن عدموا بموت أو غرق أو غيبة ، فيحفظ بموجودهم ويسلم لتواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكَفِيلِ الْمَلِكَةِ بَعَاً أَوْ الْمَقْدَمِ .

ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين: على اختلاف أجناسهم وأديانهم، من بلاد السلطان وولده، في عكا وصيدا وعثليث، والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم [فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده] ، وإذا توفى أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل الملكة بعكا والمقدمين .

وعلى أن سواني السلطان وولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التي انعقدت عليها هذه الهدنة . ومتى قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بمملكة عكا، فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها هذه الهدنة ولا تتروّد منها . وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني المنصورة معاهدا للحكام بمملكة عكا والبلاد التي انعقدت عليها الهدنة، فلها أن تدخل إلى بلادها وتتروّد منها . وإن أنكر شيء من هذه الشواني - والعياد بالله - في مينا من مواني البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها: فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد، فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها، وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما أنكر منها، والعود إلى البلاد الإسلامية، و[لا] يبطل حركة ما تتكر منها - والعياد بالله - أو يرميه البحر . هذا إذا كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد . فإن [قصدت من] لم يكن لها معهم عهد، فلها أن تتروّد وتعمّر رجالها من البلاد المتعقد عليها هذه الهدنة، وتوجه إلى البلاد المرسوم لها بقصدها، ويعتمد هذا الفصل من الجهتين .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصده الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتفقّة عليها هذه الهدنة ، فليزّم نائب المملكة والمقدمين بعكا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا ، والمقدمون بريئين من عهدة اليمين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياد بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ، وأنحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكا ، والمقدمين بها أن يدعوا عن بيوتهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه . وإن حصل - والعياد بالله - جفّل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليزّم كفيل المملكة بعكا ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون أميين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكا ، والمقدمين بها يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكئون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم مبلغ أو غلّة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكااتب

فِي وَقْتِ أَخْذِ هَذَا الشَّخْصِ رَهِينَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا : مِنْ دَرَاهِمٍ أَوْ غَلَّةٍ أَوْ بَقْرٍ أَوْ غَيْرِهِ . فَإِذَا حَلَفَ الْوَالِيُ وَالْمُبَاشِرُ وَالكَاتِبُ قَدَامَ نَائِبِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ عَلَى ذَلِكَ يَقُومُ أَهْلُ الرَّهِينَةِ عَنْهُ بِمَا لِلْفَرَنْجِ عَلَيْهِ وَيُطْلِقُونَهُ . وَأَمَّا الرَّهَائِنُ الَّذِينَ أَخَذُوا مَنْسُوبِينَ إِلَى الْجَهْلِ وَالْأَخْتِشَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَهْرُبُونَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَيَتَمَتَّعُ الْوَلَاةُ وَالْمُبَاشِرُونَ مِنَ الْيَمِينِ عَلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ يُطْلَقُونَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَجِدَّ عَلَى التُّجَّارِ الْمَسَافِرِينَ : الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً ، وَيُجْرَوْنَ عَلَى عَوَانِدِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةَ إِلَى آخِرِ وَقْتِ ، وَتُؤَخَّذُ مِنْهُمْ الْحَقُوقُ عَلَى الْعَادَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، وَلَا يَجِدُّ عَلَيْهِمْ رَسْمٌ وَلَا حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً . وَكُلُّ مَكَانٍ عُرِفَ بِاسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ فِيهِ يَسْتَخْرَجُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَيَكُونُ التُّجَّارُ وَالسَّفَّارُ وَالْمُتَرَدِّدُونَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ مُحَقَّرِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَصُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ بِمَا صَحَّحْتَهُمْ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْبِضَائِعِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ .

وَعَلَى أَنَّهُ يَنَادَى فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ : أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُسَالِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًّا . وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ مُسَالِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًّا ، مَعْرُوفًا قَرَارِيًّا مِنْ الْجِهَتَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يَعُدْ بَعْدَ الْمُنَادَاةِ يُطْرَدُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَلَا يَمَكُنُ فَلَاحُو بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةَ ، وَلَا فَلَاحُو بِلَادِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أَنْعَقَدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةَ ؛ وَيَكُونُ عَوْدُ الْفَلَاحِ مِنَ الْجِهَةِ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى بِأَمَانٍ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ كَنِيسَةُ النَّاصِرَةِ وَأَرْبَعُ بِيُوتٍ مِنْ أَقْرَبِ الْبِيُوتِ إِلَيْهَا لَزِيَارَةِ الْحَجَّاجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ دِينِ الصَّلَيبِ : كَثِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَلَى آخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَنْفَارِهِمْ :

(١) من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقساء^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا نُقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بنيته ، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسيهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة ، من نفسيهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكم بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . ويفي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه يفى بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكماء بملكة عكا ، وصيدا ، وعثليث ، وهم الشبخان أودرا(٢) (٣) المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشرطها المحدودة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى أنقضت هذه الهدنة المباركة ، أوقع
 - والعياد بالله - فسح ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . ويُنادى
 برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإسهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،
 ولا ينعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين ، وتُسبِّد
 أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى أنقضائها ؛ ويلزم المتولى
 حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على
 أبجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف
 عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
 الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛
 وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ، على يد رسوله :
 أخويه وصهره الآتي ذكرهم ، في صفر سنة أئتين وتسعين وسمائة ، وهي :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حاضرة الملك الحليل ،
 المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل « دون » حاكم
 الريد أرغون ، وأخويه دون ولدريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهره اللذين طلب
 الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
 داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
 نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
 الضرغام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطليطلة ، وليون ، بالنسية ، وأشبيلية ،
 وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال - والملك

الجَلِيلُ دون أُنْفُونش مَلِكُ بَرْتُقَال، من تاريخ يومِ الخميسِ تاسعِ عَشْرِ صَفَرِ سَنَةِ
 أَنْتَيْنِ وتسعينِ سِمَاءَةٍ، المُوافِقِ لثلاثِ بَقِينِ من جنيرِ سَنَةِ أَلْفِ ومائَتَيْنِ وَأَنْتَيْنِ
 وتسعينِ لمولانا السَّيِّدِ المَسِيحِ عليه السلام. وذلك بِمَحْضُورِ رَسُولِي المَلِكِ دون حاكم،
 وهما: المَحْتَشِمُ الكَبِيرُ وروصوديمار موند الحاكم، عن المَلِكِ دون حاكم في بَانَسِيَّةَ،
 ورَفِيقَهُ المَحْتَشِمُ العُمْدَةُ ديمون المان قراري بَرَجَلُونَةَ، الوَاصِلَيْنِ بِكَلْبِ المَلِكِ دون
 حاكم، المَخْتومِ بِخَتَمِ المَلِكِ المذكور، المَقْتَضِي معناه أَنَّهُ سَمَّاهُمَا جَمِيعًا أَحْوَالمُ
 وَمَطْلُوبِهِم، وَسَأَلَ أَن يَقومًا فيما يَقُولانِهِ عنه، فكان مَضمونُ مُشافَهَتِهِمَا وَسؤالِهِمَا تَقْرِيرَ
 قَوَاعِدِ الصَّلْحِ والمَوَدَّةِ والصَّدَاقَةِ. والشُّرُوطِ التي يَشْتَرِطُهَا المَلِكُ الأَشْرَفُ على المَلِكِ
 دون حاكم، وَأَنَّهُ يَلْتَزِمُ بِجَمِيعِ هذه الشُّرُوطِ الآتِي ذِكْرُهَا، وَيَحْفِظُ المَلِكُ المذكورُ
 عليها هو وَأَخْوَاهُ وصَهْرَاهُ المَذْكُورُونَ. ووَضَعَ الرَسولانِ المذكورانِ خُطُوطَهُمَا بِجَمِيعِ
 الفُصُولِ الآتِي ذِكْرُهَا، بأَمْرِهِ ومَرسُومِهِ. وَأَنَّ المَلِكِ دُونَ حاكم وَأَخْوَِيهِ وصَهْرِيهِ
 يَلْتَزِمُونَ بِهَا، وهى: أَسْتِقْرَارُ المَوَدَّةِ والمُصَادَقَةِ من التَّاريخِ المَقْدَمِ ذِكْرُهُ، على مَمَرِّ
 السنينِ والأعوامِ، وتَعاقِبِ الأَيامِ والأَيامِ: بَرًّا وبَحْرًا، سَهْلًا ووَعْرًا، قُرْبًا وبعْدًا.

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاعُه، وحصُونُهُ، وثغورُهُ،
 وممالكُهُ، وموانِي بلادِهِ وسواحلُها، وبرُورها، وجميعُ أقاليمِها ومُدُنِها، وكلُّ ما هو
 داخلٌ في مملكته، ومحسُوبٌ منها، ومنسُوبٌ إليها: من سائرِ الأقاليمِ الرُومِيَّةِ،
 والعِراقِيَّةِ، والمَشْرِقيَّةِ، والشَّامِيَّةِ، والحلبِيَّةِ، والفُراتِيَّةِ، واليَمِينِيَّةِ، والحِجازِيَّةِ، والذِّيارِ
 المِصرِيَّةِ، والغَرْبِ.

وحُدُّ هذه البلادِ والأقاليمِ وموانِيها وسواحلُها من البرِّ الشَّامِيِّ من القُسْطَنْطِينِيَّةِ
 والبلادِ الرُومِيَّةِ السَّاحِلِيَّةِ، وهى: من طرابُلُسِ الغَرْبِ، وسواحلِ بَرَقَةَ،
 والإسْكَندَرِيَّةِ، ودمِياطِ، والطَّيْبَةِ، وقَطِيَا، وغَزَّةَ، وعَسْقلانَ، ويَافَا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَنْثَلِيثَ ، وَحِيفَا ، وَعَكَا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَبُوتَ ،
وَجَبِيلَ ، وَالْيَبُورَ ، وَأَنْفَةَ طَرَابُاسِ الشَّامِ ، وَأَنْطَرَسُوسَ ، وَمَرْقِيَةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلِ الْمَرْقَبِ : بَأْنِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّادِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعِ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِيْمِيَاطَ وَبُحَيْرَةَ تَيْسَ .

وَحَدَّهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ : مِنْ تُونُسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُاسَ
الْغَرْبِ وَتَغُورِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتَغُورِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةَ تَيْسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمْلُوكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذْكَرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالتُّطُرُقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالتَّبَحَّرَ ، وَالتُّصُدُورُ وَالتُّوْرُودُ ، وَالتُّمَقَامُ وَالتُّسَفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكِيَانِ ، وَأَكْرَادِ ، وَعُرَبِيَانِ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى آخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالبَضَائِعِ وَالتَّنَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا . أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالتَّحْرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَمِنْ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَّائِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنَ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالبِلَادِ
وَالْأَقَالِيمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وعلى أن تكون بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهرية وممالكه المذكورة
في هذه الهدنة ، وهي : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقَلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، برُبُولِيَّةَ وأعمالها وبلادها، جَزِيرَةُ مَالِقَةَ، وَقَوْصَرَةَ وبلادها وأعمالها،
مِيورَقَةَ وَيَابَسَةَ وبلادها، وأرسويار (?) وأعمالها، وما سَيَفْتَحُهُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ
مِن بِلَادِ أَعْدَائِهِ الْفَرَنْجِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ بِتِلْكَ الْأَقَالِيمِ - آمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
وَأَوْلَادِهِ، وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ، وَشَوَانِيهِ وَعَمَائِرِهِ، هِيَ وَمَنْ فِيهَا مِنْ فُرْسَانٍ وَخِيَالَةٍ
وَرَعَايَا. وَأَهْلُ بِلَادِهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ،
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالصُّدُورِ وَالْوُرُودِ .

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخواته وصهره أصدقاء من بصادق الملك الأشرف
وأولاده، وأعداء من يعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية . وإن
قصد الباب برومية، أو ملك من ملوك الفرنج : متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان
أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البنادقة، أو من سائر الأجناس على اختلاف
الفرنج والروم، والبيوت : بيت الإخوة الديوية، والاسبتارية، والروم، وسائر
أجناس النصارى - مصرة بلاد الملك الأشرف، بمحاربة أو أذية، يمنعهم الملك دون
حاكم هو وأخواته وصهره ويردوهم، ويعمرون شوانيمهم ومرابكهم، ويقصدون
بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحه
وتغوره المذكورة، وغير المذكورة؛ ويقاتلونهم في البر والبحر بشوانيمهم وعمائيرهم،
وفرسانهم وخيالاتهم ورجالتهم .

وعلى أنه متى نرج أحد من معاهدي الملك الأشرف من الفرنج عن شروط
الهدنة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لا يعينهم الملك دون
حاكم ولا أحد من أخويه ولا صهره، ولا خيالاتهم، ولا فرسانهم، ولا أهل
بلادهم، بجيـل ولا خيالة، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا تجدة، ولا ميرة،
ولا مراكب ولا شوان ولا غير ذلك .

وعلى أنه متى طلب الباب بروميسة، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهرية أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونةً: بجيالة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهراً؛ ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك. ومتى أطلعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمخاربه أو لمضرتة بشيء، يعرف الملك الأشرف بجهريهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصدتها في أقرب وقت، قبل حوطلتهم من بلادهم، ولا يخفيه شيئاً من ذلك.

وعلى أنه متى أنكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهرية، [فعلهم] أن يخفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم، ويجهزوهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف. وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهرية، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهرية وأولاده ومعاهديه، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف: ليفعل فيه ما يختار. وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهرية ومعاهديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهرية أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فِسْخَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسُخُ كُلَّ مِنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْبَيَاضَ وَالْحَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدَأِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبِيعَهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسْرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهَمَّ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْمُولًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَآكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على الملكِ دون حاكمِ وعلى أخويه وصهره ردُّ الهاربِ أو المقيمِ ببضاعة غيره ،
والمالِ معه إلى بلاد الملكِ الأشرفِ مادام مُسَلِّماً . وإن تَنَصَّرَ ، يرُدُّ المالَ الذى
معه خاصَّة . ولملكة الملكِ دون حاكمِ وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم
إلى بلاد الملكِ الأشرفِ هذا الحكمُ المذكورُ أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملكِ دون حاكمِ وبلادِ أخويه وصهره ومُعاهديه
من الفرنج من يقصدُ زيارةَ القُدسِ الشَّريفِ ، وعلى يده كِتَابُ الملكِ دون حاكمِ
وختمه إلى نائِبِ الملكِ الأشرفِ بالقُدسِ الشَّريفِ ، يُفَسِّحُ له فى الزَّيْرةِ مَسْمُوحًا
بالْحَقِّ لِقَضَى زيارتهِ وَيَعُودَ إلى بلاده آمِنًا مُطْمَئِنًّا فى نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، رجلاً كان
أو امرأةً ، بحيثُ إن الملكِ دون حاكمِ لا يَكْتُبُ لأحدٍ من أعدائه ولا من أعداءِ
الملكِ الأشرفِ فى أمرِ الزَّيْرةِ بشيءٍ .

وعلى أن الملكِ دون حاكمِ يحرسُ جميعَ بلادِ الملكِ الأشرفِ هو وأخواه وصهره
من كل مَضَرَّةٍ ، ويحتهدُ كلَّ منهم فى أنَّ أحدًا من أعداءِ الملكِ الأشرفِ لا يَصِلُ
إلى بلادِ الملكِ الأشرفِ ، ولا يُنْجِدُهُمْ على مَضَرَّةِ بلادِ الملكِ الأشرفِ ولا رعاياه ،
وأنه يساعِدُ الملكِ الأشرفِ فى البرِّ والبحرِ بكلِّ ما يشتهيه ويختاره .

وعلى أن الحقوقَ الواجبةَ على من يَصْدُرُ وَيَرِدُ وَيَتَرَدَّدُ من بلادِ الملكِ دون حاكمِ
وأخويه وصهره ، إلى نَعْرِى الإسكَنْدَرِيَّةِ وِدِمِياطِ ، والنَّغُورِ الإسلاميَّةِ ، والممالكِ
السُّلْطانيَّةِ ، بسائرِ أصنافِ البضائعِ والمتاجرِ على اختلافِها ، تستمرُّ على حُكْمِ الضرائبِ
المستقرَّةِ فى الدِّيوانِ المَعْمُورِ إلى آخرِ وَقْتِ ، ولا يُحَدِّثُ عليهم فيها حَدِيثٌ . وكذلك
يَجْرَى الحُكْمُ على من يتردَّدُ من البلادِ السلطانيةِ إلى بلادِ الملكِ دون حاكمِ وأخويه
وصهره .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمُوَدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرْطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى الدَّوَامِ وَالْإِسْتِمْرَارِ، وَتَجْرِي أَحْكَامُهَا وَقَوَاعِدُهَا عَلَى أَجْمَلِ الْأَسْتِقْرَارِ،
فَإِنَّ الْمَالِكَ بِهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا، لَا تَنْقُضُ بَمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ
الْجَانِبِينَ، وَلَا بَعْزِ وَالٍ وَتَوَلِيَةِ غَيْرِهِ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا، وَتَدُومُ أَيَّامُهَا، وَشُهُورُهَا
وَأَعْوَامُهَا. وَعَلَى ذَلِكَ أَنْتَظِمْتُ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ، وَهوَ كَذَا
وَكَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِكْرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ: وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرِ تَقَلُّبًا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكْرَمِ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنشَاءِ بِالْدَوْلَةِ الْمَنْصُورِيَةِ «قَلَاوُونَ» الْمُسَمَّاءِ: «تَذَكُّرَةُ اللَّيْبِ، وَزُهَّةُ
الْأَدِيبِ» مِنْ نُسخَةٍ بِحُطِّهِ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحُطِّهِ عَلَى مَدِينَةِ
صَفَد. وَليْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ، رَائِقُ الْأَلْفَاظِ، بَهِجُ الْمَعَانِي، بَلِغُ الْمَقاصِدِ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْأَخِيرَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِهِ. أَمَا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَدَلَةٌ الْأَلْفَاظِ، غَيْرُ رَائِقَةٍ التَّرْتِيبِ، لَا يَصْدُرُ مِثْلُهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أُذُنٌ مُمَارَسَةٌ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ. وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ
يَبْرَسَ» وَ«الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ» وَهُمَا مِنْهُمَا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ!! وَكِتَابَةُ الْإِنشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ بَيَّتُ الْفِصْحَةَ وَرَعُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ!!! وَلَعَلَّ
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ، لِأَنَّ الْفَرَنْجِ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلسُّلَمِيِّينَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ، فَيَقَعُ الْأَتْفَاقُ
وَالْتِراضَى بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَضْلِ فَضْلٍ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمَسَامِينِ وَالْفَرَنْجِ بِالْفَاطِ مَبْتَدَلَةٌ غَيْرُ رَائِقَةٍ، طَلَبًا لِلسَّرْعَةِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْأَتْفَاقِ وَالتِراضَى، إِلَى آخِرِ فُصُولِ الْهُدْنَةِ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ، لِيُطَابِقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْفَرَنْجِ. إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبٌ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتبُ الفَرَنْجِ أولاً ، فينكرونه حينئذٍ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاجُ الكاتبُ إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المَسودَّة . وبالجملة فإنما ذكرتُ النسخَ المذكورة - على سخافة لفظها ، وعدم أنسجام ترتيبها - لأشتملها على الفصول التي جرى فيها الاتفاقُ فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتبُ ما لعله لا يحضربباله من مقاصد المهادنان ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قرينها يميناً يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة ، على التولية بفصولها وشروطها ؛ ويميناً يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يأذن له في عمدتها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تُفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله »)

وعلى هذا بنى صاحبُ "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تُفتتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أدل كل دين وأعزّه ، وخذل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ؛ والتوغل في توحيدِه ، وتقديسه وتمجيدِه ؛ والثناء عليه بالائه ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنةٍ مُتظمةٍ على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والْبَلِيغُ يَكْتَفِي بِقَرِيحَتِهِ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْمَعَانِي إِذَا دُفِعَ إِلَى الْإِنْشَاءِ فِيهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ولم أَقِفْ لغيره على صورة هُدنةٍ مُفتحةٍ بالتحديد ، ولا يخفى أن الأبتداء به في كلِّ مُهِمٍّ من العهودِ وِجلائِلِ الولاياتِ ونحو ذلك هو المعمولُ عليه في زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فيما يُشارِكُ فِيهِ مُلُوكُ الْكُفْرِ مُلُوكَ الْإِسْلَامِ فِي كِتَابَةِ نُسخٍ مِنْ دَوَائِبِهِمْ)

إِعلم أَنَّ الْغالبَ فِي الْهُدُنِ الْواقِعَةِ بَيْنَ مُلُوكِ الْديارِ الْمِصرِيَّةِ وَبَيْنَ مُلُوكِ الْكُفْرِ أَنَّ تُكْتَبَ نَسْخَةٌ تُخَلَّدُ بِدِيوانِ الْإِنْشَاءِ بِالْديارِ الْمِصرِيَّةِ ، وَنُسْخَةٌ تُجَهَّزُ إِلَى الْمَلِكِ الْمُهادِنِ . وَرُبَّمَا كُتِبَتْ نَسْخَةٌ مِنْ دِيوانِهِ مُفتحةً بِمِينٍ .

وهذه نَسْخَةٌ هُدنةٍ وَرَدَّتْ مِنْ جِهَةِ الْأَشْكَرِيِّ ، صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمِضانِ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسَمائَةِ ، مَوْرُخَةً بِتَاريخِ مَواقِفِ لِأَواخِرِ الْمُحَرَّمِ مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكَورَةِ ، فَعَرَّبَتْ فَكَانَتْ نُسخَتُها على ما ذَكَرَهُ ابْنُ مُكْرَمٍ فِي "وَتَدَكِرَتِهِ" :

إِذْ قَدْ أَرادَ السُّلْطانُ الْعَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، الْعَالِي ، الْعَزِيزُ ، الْكَبِيرُ الْجَنَسُ ، الْمَلِكُ ، الْمَنْصُورُ ، سَيْفُ الدِّينِ « قَلاوون » صَاحِبُ الْديارِ الْمِصرِيَّةِ وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ ، أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَمْلَكَتِي مُحَبَّةً - فَمَمْلَكَتِي تُؤَثِّرُ ذَلِكَ ، وَتُخْتارُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ عِزِّ سُلْطانِهِ مُحَبَّةً . وَلهذا وَجِبَ أَنْ يَتَوَسَّطَ هَذَا الْأَمْرَ بَيْنَهُمَا وَأَتَّفَقَ : لِتَدومَ الْمُحَبَّةُ الَّتِي بِهِذِهِ الصُّورَةِ فِيما بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطانِهِ نائِثَةً بِلا تَشْوِيشٍ . فَمَمْلَكَتِي هَذَا الْيَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ الثَّامِنِ مِنْ شَهْرِ رِيارِ مِنَ التَّارِيخِ [الرُومِي] التَّابِعِ لِسَنَةِ سِتَّةِ أَلْفِ

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المتدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالى، العزيز، الكبير الجنيس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحاب، ولولده ولوارث
ملك عز سلطانة: محبة مستقيمة، وصدقة كاملة تقيّة، ولا يحرك ملكي أبداً على
عز سلطانة حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا يتحرك
ملكى أبداً على حربيه، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالى، العزيز،
الكبير الجنيس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحاب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يحرك عز سلطانة على
مملكتنا حرباً قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك
أحدًا آخر أيضاً على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانة أيضاً
مطلقاً [آمين لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسيرون من عز سلطانة، وكذلك يعودون إلى عز سلطانة. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عز سلطانة [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جوراً
ولا ظمناً، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عز سلطانة من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقيم كذلك
التجار الواردون من بلاد عز سلطانة إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانة، فلا ينال
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانة والذين من أهل
سوداق إن حضر صحتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانة بلا عائق

ولا مانع، ما خلا إن كانوا نصارى، لأنَّ شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر
النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عِزَّ سلطانه ممالك نصارى : روم وغيرهم من أجناس
النصارى، متمسكون بدين النصارى، ويحصل لقوم منهم العتق، فليكن للذين معهم
عتائق مباح ومطلق من عِزَّ سلطانه، أن يقدوا في البحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك
إن أراد أحد من أهل بلاد عِزَّ سلطانه أن يبيع مملوكاً نصرانياً هذه صورته لأحد
من رُسل مملكتي، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي، أن لا يحد في هذا تعويفاً، بل
يشتروا المذكور ويقدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضاً إن أراد
هذا السلطان العظيم النسيب، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجراً، وأرادت
مملكتي أن ترسل إلى بلاد عِزَّ سلطانه بضائع متجراً، فليكن هكذا : وهو إن أراد
عِزَّ سلطانه أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق،
فليكن أيضاً بضائع متاجر مملكتي في بلاد عِزَّ سلطانه منجاة مثل ذلك من كل
الحقوق، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [يقوم] بمثل
ذلك . وأيضاً أن يطلق عِزَّ سلطانه لملكه أن يرسل أناساً من بلاد مملكتي إلى بلاد
عِزَّ سلطانه، فيشترون لي خيلاً جيداً ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد
عِزَّ سلطانه شيئاً من خيرات بلاد ملكي، فمملكتي أيضاً تطلق لعِزَّ سلطانه أن يرسل
أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عِزَّ سلطانه .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية، وقد يتفق في بعض الأوقات أن
يعملوا خسارة في بلاد ملكي، وكذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عِزَّ
سلطانه فيعملون لهم خسارة، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الآفاق في شحوم
بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عِزَّ

سُلْطَانِهِ بِمَجْرِي يُمْسِكُونَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَغْرَمُونَ . وَلِهَذَا فَلْيَصِرْ مَرْسُومًا
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَقْرَمَ بِهَذَا السَّبَبِ
 وَلَا يُمَسِّكُ ، وَإِنْ عَرَّضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غَرَّمَ أَوْ ظَلِمَ
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْتَرَفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
 بِلَادِ مُلْكِي ، فَمُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظَلِمَ أَوْ غَرَّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أْزَمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ
 نَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِذَا
 أُرْسِلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجِدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضْرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرِكِ ، فَمَمْلَكَتِي
 تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبِ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ
 الْفُصُولِ الْمَعِينَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعِينُ وَتَتَجَدُّ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
 لَا يُرِيدُ تَجِدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
 فِي نَسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مِمَّا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مُتَرَعِّزَةٍ إِنْ كَانَ
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلَفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرَ
 مُتَرَعِّزَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نسخة اتفاق، كتبت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور «قلاوون»
 عن نظير الهدنة المتقدمة، الواردة من قبل صاحب القسطنطينية، مفتوحة بيمين
 موافقة لها، وهي :

أقول وأنا فلان : إنه لما رغب حضرة الملك الجليل، كرميخائيل ، الدوقس،
 الأبحالوس، الكينيوس، البالاولوغس، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى ، حبةً وصداقةً ومودةً لانتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ؛ وأكد ذلك يمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعائة وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطانى ، الأمير ناصر الدين ابن الجزرى ، والبطرك الحليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتَمِسِينَ أن يتوسط هذا الأمر أيضًا يمين وآفاق من عز سلطانى ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعر سلطانى من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان العظيم ، سنة ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛ يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى الصدور ، والقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ، محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك الحليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته الحبيب الكينوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك إيراندروبنفوس ، ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطانى أبدًا على مملكته حربًا ، ولا على بلاده ، ولا على قلاعِهِ ، ولا على عساكرِهِ : فى بر ولا بحر . ولا يحرك عز سلطانى أحدًا آخر على حربِهِ ، بحيث إن الملك الحليل كرميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطانى ، وملكى ، ولبلادى ، ولقلاعى ، ولعساكرى ، ولولدى السلطان الملك الصالح علاء الدين «علي» ولوارثي ملكى من أولادى ؛ ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربًا قط ، ولا على

بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتي ، ولا يحرك أحداً
آخر على حرب مملكة عز سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعده أحداً من أضداد
عز سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يؤايقه على ذلك ،
ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عز سلطانى لمضرة شئ فيها بجهد وطاقتيه .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم
وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا
فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخايل من أوها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق :
أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطانى ، آمنين
مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل
من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة
الملك الجليل كرميخايل إلى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم ، ويترددون آمنين
مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية فى الصدور والورود ، والمقام والسفر :
بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل مثل
ذلك ، ويكونون مرعيين ، لا يجردون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل
جوراً ولا ظمناً . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به
من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بماليك وجوار تمكثهم
مملكة الملك الجليل كرميخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطانى ولا تمنعهم .
وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، ونسبت
الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يسير عز سلطانى إليه فى طايمهم ،

ولا يتعترض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم آخذون ، أو تظهر عين المال معهم ، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل ، ومملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عِزِّ سلطاني مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عِزِّ سلطاني ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعية بلاد عِزِّ سلطاني ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمنين مطمئنين ، صادرين واردين ، محترمين مرعيين . وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار .

قلت : وهذه النسخة والنسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها ، وإن عبر عنها في خالهما بلفظ اليمين ، فإنهما بعقد الصلح أشبه ، واليمين جزء من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها في عقود الصلح دون الأيمان .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصولٍ تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصلَ في ذلك ما ذكره أصحابُ السيرِ وأهلُ التاريخِ ، أنه لما وقع الحربُ بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كرمَ اللهُ وجهه ، وبين معاويةَ بن أبي سفيانَ رضيَ اللهُ عنه ، في صِفِّينَ ، في سنة سبعٍ وثلاثينَ من الهجرة - توافقا على أن يُقيما حَكَمَيْنِ بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه . فأقام أمير المؤمنين عليُّ أبا موسى الأشعريَّ حَكَمًا عنه ، وأقام معاويةُ عمرو بن العاصِ حَكَمًا عنه . فاتفق الحَكمان على أن يُكتبَ بينهما كتابُ بعقدِ الصلحِ ، واجتمعا عند عليِّ رضي اللهُ عنه ، وكتبَ كتابُ القضيَّةِ بينهما بحضوره ، فكتبَ فيه بعد البسملة :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عليُّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمحُ أسم أمير المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجعَ إليك أبدا . لا تمحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليٌّ مليًّا من النهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أمحُ أسم أمير المؤمنين ؛ فأجاب عليٌّ ومجاه . ثم قال عليٌّ : اللهُ أكبر ! سنةً بسنة . والله إنى لكاتبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَّةِ ، فكتبتُ : محمدُ رسولُ اللهِ ، فقالوا : لستَ برسولِ اللهِ ، ولكن آكتبُ أسمك وأسمِ أبيك .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَوِّهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذَنْ أُرْنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فَتُجِيبُ » .



وهذه نُسخةُ كِتَابِ الْقِضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فِيمَا رَوَاهُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرٍ بْنِ مُزَاهِمِ الْمُنْقَرِي ، فِي « كِتَابِ صِفَتَيْنِ وَالْحَكَمَيْنِ » ،
بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقَاضَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِيعَتُهُمَا ،
فِيمَا تَرَاضِيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قِضِيَّةٌ عَلَى عَلِيٍّ
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقِضِيَّةٌ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَهْلِ
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزَلَ عِنْدَ حُكْمِ
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَقَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضَيْنَا . وَأَنَّ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ رَضُوا أَنْ يَبْعَثُوا
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَبْعَثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ
نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَتَّخِذَانَ الْكِتَابِ إِمَامًا فِيمَا بَعَثَا لَهُ ، لَا يَبْغِدُونَهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مَسْمُومًا فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَعَمَّدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبُهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ
بِالرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

غيره ، وأنهما آمنان في حكومتيهما على ديمائهما وأموالهما وأهليهما ، ما لم يعدوا الحق ، رضى بذلك راض أو أنكركم منكر . وأن الأمة أنصار لها على ما قضيا به من العدل .

فإن توفى أحد الحكيمين قبل انقضاء الحكومة ، فأمر شيعته وأصحابه يختارون رجلاً ، لا يألوان عن أهل المدينة والإقسط ، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مثل شرط صاحبه .

وإن مات واحد من الأميرين قبل القضاء ، فليشيعته أن يؤولوا مكانه رجلاً يرضون عدله .

وقد وقعت القضية بيننا والأمن والتفاوض ، ووضع السلاح . وعلى الحكيمين عهد الله وميثاقه : ليحكما بكتاب الله وسنة نبيه ، لا يدخلان في شبهة ولا يألوان اجتهدا ، ولا يتعمدان جوراً ، ولا يتبعان هوى ، ولا يعدوان ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فإن لم يفعلا برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لها ولا ذمة .

وقد وجبت القضية على ما سمينا في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكيمين والفريقين ، والله أقرب شهيدا وأدنى حفيظا ، والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل ، والسلاح موضوع ، والسبيل محتل ، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمر . وللحكيمين أن يترلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهما فيه إلا من أحببا عن ملائمتها وتراض . وأجل القاضيين المسلمون إلى رمضان : فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له ، عجلوا . وإن أرادا تأخيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم ، فإن ذلك إليهما . فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على

(١) أى تشاور واجتماع .

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يدُّ على من أراد في هذا الكتاب الحاداً أو ظمماً ، أو أراد له تقضاً .

شهِدَ على ما في هذا الكتاب من أصحاب عليّ : الأشعث بن قيس ، وعبد الله بن عباس ، والأشتر بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحسين والطفيّل ابنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخبّاب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقيق الخزاعي ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجر بن عدي الكندي ، ووزقاء بن سميّ البجليّ ، وعبد الله بن الطفيّل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الدكريّ ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجر بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسامة الفهمي ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرتاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمرة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز
العبيسي، ومسروق بن حملة العكي، ومثير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر
القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القيني، وعاصم بن المستير الجذامي،
وعبد الرحمن بن ذى كلاع الحميري، والصبح بن جلهمة الحميري، وثمامة بن
حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإنّ بيننا على ما في هذه الصحيفه عهد الله وميثاقه . وكتب عمير يوم الأربعاء
لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقده الصلح كان عند سعيد
أبن أبي بردة في صحيفه صفراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .
في خاتم علي «مجد رسول الله» وفي خاتم معاوية «مجد رسول الله» .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً
الإطالة، إذ فيما ذكرنا مفتح . على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرفاً يسيراً .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول ،

مما يُكتب في الطرة والمتن)

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .

وأما المتن فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقد فيه من الجانبين)

ولم أرفه للكتاب إلا الأستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب الفضية
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك أستكتب هرون الرشيد ولديه : محمدا الأمين ، وعبد الله المأمون :
العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لابنه الأمين ، وولي خراسان ابنه المأمون ،
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فعلقا
في بطن الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك سُميت القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .

أما عهد الأيمن، فنُسختُه بعد البسملة - على ما ذكره الأزرق في أخبار مَكَّة -
ما صورته :

هذا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ، كَتَبَهُ [له] مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُرَّةٍ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صِحَّةٍ
مِنْ بَدَنِهِ وَعَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ .

إنَّ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَإِنِّي الْعَهْدُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَجَعَلَ لِي الْبَيْعَةَ فِي رِقَابِ
الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، وَوَلَّى أَيْحَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ الْعَهْدَ وَالْخِلاَفَةَ وَجَمِيعَ
أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي ، بِرِضَا مِنِّي وَتَسْلِيمٍ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ . وَوَلَّاهُ خُرَاسَانَ
بِثَغُورِهَا ، وَكُورِهَا ، وَجُنُودِهَا ، وَخَرَاجِهَا ، وَطَرَازِهَا ، وَبَرِيدِهَا ، وَبُيُوتِ أَمْوَالِهَا ،
وَصَدَقَاتِهَا ، وَعُشْرِهَا وَعُشُورِهَا ، وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . فَشَرَطْتُ
لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا جَعَلَهُ لَهُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ : مِنْ الْبَيْعَةِ
وَالْعَهْدِ ، وَوِلَايَةِ الْخِلاَفَةِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِي ، وَتَسْلِيمِ ذَلِكَ لَهُ ، وَمَا جَعَلَ لَهُ
مِنْ وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَا أَقْطَعَهُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ مِنْ قِطْعَةٍ ، وَجَعَلَ لَهُ
مِنْ عُقْدَةٍ أَوْ ضَبْعَةٍ مِنْ ضَبَاعِهِ وَعُقْدَةٍ ، أَوْ ابْتِاعَ لَهُ مِنَ الضَّبَاعِ وَالْعُقَدِ . وَمَا أَعْطَاهُ
فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ : مِنْ مَالٍ ، أَوْ حُلِيِّ ، أَوْ جَوْهَرٍ ، أَوْ مَتَاعٍ ، أَوْ كُسُوفَةٍ ، أَوْ رَقِيقٍ ،
أَوْ مَنزِلٍ ، أَوْ دَوَابٍّ ، قَلِيلًا ، أَوْ كَثِيرًا ، فَهُوَ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ مُوقَرًّا عَلَيْهِ ،
مُسَامًّا لَهُ . وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِاسْمِهِ وَأَصْنَافِهِ وَمَوَاضِعِهِ ، أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ هُرُونَ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ فَالْقَوْلُ فِيهِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ
أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا أَتَّبِعُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْذُهُ مِنْهُ ، وَلَا أَنْتَقِصُهُ ، صَغِيرًا
وَلَا كَبِيرًا [مِنْ مَالِهِ] وَلَا مِنْ وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَلَا غَيْرِهَا مِمَّا وَلَّاهُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
الْأَعْمَالِ ، وَلَا أَعِزُّهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا أَخْلَعُهُ ، وَلَا أُسْتَبَدَّلُ بِهِ غَيْرَهُ ، وَلَا أَقْدِمُ عَلَيْهِ

في العَهْدِ وَالْخِلَافَةِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَلَا أُدْخِلُ عَلَيْهِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسِهِ وَلَا دَمَهُ ،
 وَلَا شَعْرَهُ وَلَا بَشْرَهُ ، وَلَا خَاصًّا وَلَا عَامًّا مِنْ أُمُورِهِ وَوِلَايَتِهِ ، وَلَا أَمْوَالِهِ ، وَلَا قَطَائِعِهِ ،
 وَلَا عُقَدَهُ ، وَلَا أُغَيِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَلَا أَخْذُهُ وَلَا أَحَدًا مِنْ عُمَّالِهِ وَكُتَّابِهِ
 وَوَلَاةِ أَمْرِهِ - مَنْ صَحَّبه وَأَقَامَ مَعَهُ - مُجَاسِيَةً ، وَلَا أَتَتَّبِعُ شَيْئًا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ وَأَيْدِيهِمْ
 فِي وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَغَيْرِهَا مِمَّا وُلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ : مِنْ
 الْجَبَايَةِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالطَّرَازِ ، وَالْبَرِيدِ ، وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْعُشْرِ وَالْعُسُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛
 وَلَا أَسْرُ بِذَلِكَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَا أَرْخُصُ فِيهِ لَغَيْرِي ، وَلَا أَحَدْتُ نَفْسِي فِيهِ بِشَيْءٍ
 أَمْضِيهِ عَلَيْهِ ، وَلَا أَلْتَمِسُ قَطِيعَةً لَهُ ، وَلَا أَتَقْصُ شَيْئًا مِمَّا جَعَلَهُ لَهُ هَرُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 وَأَعْطَاهُ فِي حَيَاتِهِ وَخِلَافَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا سَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا . وَأَخَذُ لَهُ عَلَيَّ
 وَعَلَى جَمِيعِ النَّاسِ الْبَيْعَةَ ، وَلَا أَرْخُصُ لِأَحَدٍ - مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي جَمِيعِ مَا وُلَاهُ -
 فِي خَلْعِهِ وَلَا مُحَالَفَتِهِ ، وَلَا أَسْمَعُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْبَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ قَوْلًا ، وَلَا أَرْضَى بِذَلِكَ
 فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ ، وَلَا أَعْمِضُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَتَنَافَلُ عَنْهُ ، وَلَا أَقْبَلُ مِنْ بَرٍّ مِنَ الْعِبَادِ
 وَلَا فَاحِرٍ ، وَلَا صَادِقٍ وَلَا كَاذِبٍ ، وَلَا نَاصِحٍ وَلَا غَاشٍّ ، وَلَا قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ ، وَلَا أَحَدٍ
 مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ ذَكَرِي وَلَا أُثِيَّ - مَشُورَةً ، وَلَا حِيلَةً ، وَلَا مَكِيدَةً
 فِي شَيْءٍ مِنْ الْأُمُورِ : سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَحَقًّا وَبَاطِلًا ، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا ،
 وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَرِيدُ بِذَلِكَ إِفْسَادَ شَيْءٍ مِمَّا أُعْطِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ هَرُونَ
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِي ، وَأَوْجِبْتُ لَهُ عَلَيَّ ، وَشَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروهاً، أو أراد خلعه أو محاربتة،
 أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمة، أو ماله، أو سلطانه أو ولايته: جميعاً
 أو فرادى، مسرّين أو مظهرين له - فإني أنصره وأحوطه، وأدفع عنه، كما أدفع عن
 نفسي، ومهجتي، ودمي، وشعري، وبشري، وحرمي، وسلطاني، وأجهز الجنود

إليه ، وأعينه على كلِّ من غشه وخالفه ، ولا أسلمه [ولا أخذه] ولا أنخلَّ عنه ،
ويكونُ أمرى وأمره في ذلكَ واحدًا [أبدا] ما كنتُ حيًّا .

وإن حدثَ بأمير المؤمنين هرونَ حَدَثُ الموتِ ، وأنا وعبدُ اللهِ ابنُ أمير المؤمنين
بَحْضَرَةَ أمير المؤمنين ، أو أَحَدُنَا ، أو كُتَا غَائِبِينَ عنه جميعًا : مجتمعينَ كَمَا أو متفرقينَ ،
وليس عبدُ اللهِ بنُ هرونَ أمير المؤمنين في ولايته بخُرَاسَانَ [فعلى لعبدِ اللهِ ابنِ
أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خُرَاسَانَ] وَأَنْ أُسَلِّمَ له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا
أعوقه عنها ، ولا أحبسُه قبلي ، ولا في شيءٍ من البلدانِ دون خُرَاسَانَ ، وأُتَجَلَّ إِشْخَاصَه
إلى خُرَاسَانَ وإلياً عليها مفردًا بها ، مُفَوَّضًا إليه جميعُ أعمالها كلها ، وأُشْخِصَ معه
من ضمَّ إليه أمير المؤمنين : من قُوَادِهِ ، وجنوده ، وأصحابه ، وكُتَابِهِ ، وعماله ،
ومواليه ، وخدمته ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبسُ عنه
أحدًا ، ولا أشركُ معه في شيءٍ منها أحدًا ، ولا أُرْسِلُ أمينًا ولا كاتبًا ولا بُندارًا ،
ولا أَضْرِبُ على يديه في قليلٍ ولا كثيرٍ .

وأعطيتُ هرونَ أمير المؤمنين وعبدَ اللهِ بنَ هرونَ على ما شرطت لهما على نفسي ،
من جميع ما سميتُ وكتبتُ في كتابي هذا - عهدَ اللهِ وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين
وذمتي ، وذمة آبائي وذمة المؤمنين ، وأشدَّ ما أخذَ اللهُ تعالى على النبيينَ والمرسلينَ
وحلفه أجمعين : من عهوده ومواثيقه ، والأيمانِ المؤكدة التي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ
بالوفاءِ بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضتُ شيئًا مما شرطتُ لهرونَ أمير المؤمنين ولعبدِ اللهِ بنِ هرونَ
أمير المؤمنين وسميتُ في كتابي هذا ، أو حدثتُ نفسي أن أنقضَ شيئًا مما أنا عليه ،

أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ ، أَوْ قَبِلْتُ [ذلك] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ :
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، بَرًّا أَوْ فَاجِرًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ وِلَايَتِهِ ، وَمِنْ دِينِهِ ، وَمِنْ مَهْدِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْبَيْتُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَفْرَأَ مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَزَوَّجُهَا إِلَى
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَّاقِ الْحَرَجِ ، وَعَلَى الْمَشَى إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي ، حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ
الْحَرَامِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارًا لَوْجَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَأَنَّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكُتِبَتْهُ وَشَرَطْتُهُ
لَهُمَا ، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ ، وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزْمِ لِي الْوَفَاءَ بِهِ ، لَا أَضْمُرُ غَيْرَهُ ،
وَلَا أَنْوِي إِلَّا إِيَّاهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَائِقُ وَالْأَيْمَانُ
كُلُّهَا لِأَزْمَةٍ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْآفَاقِ وَالْأَمْصَارِ
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِحْرَاجِي مِنْ وِلَايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ،
وَكَرْجُلٍ مِنْ عَرْضِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَحَقَّ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وِلَايَةَ ، وَلَا تَبِعَةَ لِي قِبَالِهِمْ ،
وَلَا بَيْعَةَ لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْإِيمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جعفر بن سُلَيْمَانَ ، وَعِيسَى بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَدَاوُدُ بْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَيَحْيَى
 ابْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَخَزِيمَةُ بْنُ حَازِمٍ ، وَهَرْمَةُ بْنُ
 أَعْيَنَ ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى ، وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
 مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ الرَّبِيعِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدِمَائَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الْعَبْسِيِّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِّ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
 ابْنُ أَبِي الشَّامِرِ النَّسَائِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَاضِي مَكَّةَ ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ شُعَيْبِ
 الْحَجَبِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَبِيِّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبِ الْحَجَبِيِّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنُ عَثْمَانَ الْحَجَبِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيِّ ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 الْحَجَبِيِّ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيِّ ، وَأَبَانُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ مَنْصُورٍ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبَّحٍ ، وَالْحَارِثُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالِدُ مَوْلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .



وَأَمَّا مَا كَتَبَهُ الْمَأْمُونُ ، فَنَصَّهُ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 فِي صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَصِدْقِ نِيَّةٍ فِيمَا كَتَبَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَعْرِفَةِ
 مَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَلِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَّانِي الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ
 بَعْدَ أُنْحَى مُحَمَّدِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّانِي فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ نُرَّاسَانَ وَكُورَهَا ،
 وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا : مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْعُشْمِ وَالْبَرِيدِ وَالطَّرَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَشْتَرْتُ لِي عَلِيٍّ

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،
 وولايي نحرستان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو آتعت منه [لنفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب
 في سبب محاسنته [لأصحابي] ، ولا يتتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل
 علي ولا على أحد ممن كان معي وميني ، ولا عمالي ولا كتابي ، ومن آستعت به من جميع
 الناس - مكرهاً : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
 ولا كبير .

فاجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتاباً كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقبله وعرف صدق نيته . فشرط لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحته
 ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفي لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه في الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقض شيئاً من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التى
 اشتراطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن أحتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جندي وكتب لي يأمرني
 بإتخاذهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 نقض شيء من سلطانه وسلطاني الذى أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا ولولانا -
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلى .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوَلِّي رجلاً من وَلَدِهِ الْعَهْدِ وَالْخِلَافَةِ
 مِنْ بَعْدِي، فَذَلِكَ لَهُ مَا وَفَى لِي بِمَا جَعَلَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ، وَأَشْتَرْتُ لِي عَلَيْهِ،
 وَشَرَطَهُ عَلَيَّ نَفْسَهُ فِي أَمْرِي، وَعَلَى إِنْفَادِ ذَلِكَ وَالْوَفَاءِ لَهُ بِذَلِكَ، وَلَا أَنْقُضَ ذَلِكَ
 وَلَا أُغَيِّرَهُ، وَلَا أَبَدِّلُهُ، وَلَا أَقْدِمُ [قَبْلَهُ] أَحَدًا مِنْ وَلَدِي، وَلَا قَرِيبًا وَلَا بَعِيدًا مِنْ
 النَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ هُرُونُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِي،
 فَيَلْزِمُنِي الْوَفَاءَ بِذَلِكَ .

وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا أَشْتَرْتُ وَسَمَّيْتُ
 فِي كِتَابِي هَذَا، مَا وَفَى لِي مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ بِجَمِيعِ مَا أَشْتَرْتُ لِي هُرُونُ
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ
 الْمَسْمُومَةِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ لَهُ . [وَعَلَى] عَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِيثَاقِهِ، وَذِمَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،
 وَذِمَّتِي، وَذِمَّةِ آبَائِي، وَذِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّبِيِّينَ
 وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ مِنْ عُهُودِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَالْإِيمَانِ الْمُوَكَّدَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ
 عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَفَاءِ بِهَا .

فَإِنِ أَنَا نَقَضْتُ شَيْئًا مِمَّا أَشْتَرْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَهُ، أَوْ غَيَّرْتُ، أَوْ بَدَّلْتُ،
 أَوْ نَكَحْتُ، أَوْ غَدَرْتُ - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ وِلَايَتِهِ وَمِنْ دِينِهِ، وَمِنْ
 مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلَقِيْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا
 مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرٍ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَنْزَوْجَهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا الْبَتَّةَ [طَلَّاقٌ]
 الْحَرَجِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارٌ لَوْجَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَعَلَى
 الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ حَجَّةً، نَذْرًا وَاجِبًا عَلَيَّ وَفِي عُنُقِي،

حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لَوْ هُوَ الْيَوْمَ أَوْ أَمَلِكُمْ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَىٰ بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ . وَكُلَّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرَطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزِيمٍ لِي ، لَا أُضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهَدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمَبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ .
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلَقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ حَتَّىٰ مَاتَ
هُرُونَ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيِّ فِي إِثْبَانِهِ بِهِمَا ، فَتَزَعَمَهُمَا مِنَ الْكَعْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَأَخَذَهُمَا الْفَضْلُ فَحَرَّقَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَىٰ نَحْوِ مَنْ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّبَّائِي مُوَاصِفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ،
أَبْنَىٰ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ
وثلثمائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةَ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاوَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،
وَصَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ ابْنَا عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ ،
وَنَصَّرَهُ وَعَلَّوَهُ وَإِذَّنَهُ .

إِتِّفَاقًا وَتَصَالِحًا ، وَتَعَاهَدًا وَتَعَاوَدًا ، عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْاِعْتِمَادِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْاِلْتِمَاسِ إِلَىٰ حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفِرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدْبَ ، وَالصَّلَاةِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ

آله وسلّم تسليماً، والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله، والالتزام بوثائق بيعته، وعلائق دعوته؛ والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يمسكا [ذات] بينهما بالسير الحميدة، والسُنن الرشيدة، التي سنّها لهما السلف الصالح من آباءهما وأجدادهما في التألف والتوازر، والتعاضد والتظافر؛ وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال الأَكْبَر على الأصغر؛ والاشتراك في النعم، والتقاوض في الحظوظ والقسم؛ والاتحاد بملحوص الطوايا، والحقايا؛ وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر؛ ورفع ما خالف ذلك من أسباب المناقسه، وجرائر المضاغنه؛ وجوالب النبوه، ودواعي الفرقة؛ والإفتران لأعداء الدولة، والإرصاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل ناجم، وقمع كل مقاوم؛ وإزغام أنف كل ضار متجبر، وإضراع خد كل متطاول مستكبر؛ حتى يكون الأموال لأحدهم منصوراً من جماعتهم، والمعادى له مقصوداً من سائر جوانبهم؛ فلا يجد المناذ على أحدهم مفزعا عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به، ولا النجاء إليه؛ لكن يكون مرمياً بجمع سهامهم، ومضروباً بأسيف نقتهم، ومأخوذاً بكليّة بأسيهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب تجذتهم وشدتهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمه، والطرائق السليمه؛ جارية للدول مجرى الجنن الدافعة عنها، والمعاقيل المانعة لها؛ ويمثلها تظمن النعم وتسكن، كما أن بأضدادها تسمت وتنفّر.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبا الفوارس، وخصّصام الدولة وشمس الملة أبا كاليبجار أعتقاد هذه الفضائل وإيثارها، والتظاهر بها وأستشعارها؛ ودعاها مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى ما دعاها إليه من التعاطف والتألف، والتصافي والتخالص؛ وأمر خصّصام الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

أبي الفوارس في إحكام معاهد الأخوة، وإبرام وناثق الألفة - أمتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله تقبل العالم اللبيب؛ وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر نرشيد بن ديار بن مافنة بالمعروف من كفايته، والمشهور من أصطناع الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه إياه وديعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوى في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

فقرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه المواقفة ما احتجج إلى إثباته منها [أمر] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

ذأما الأمر الذي يجمعهما عمومهما، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وضمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جزه عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، وأستعمال التقاطع؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن منقصة التنافر والتهاجر، إلى منقبة التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مريدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به؛ ومسرا مثل ما يظهر: من موالاته وليه، ومعاداة عدوه؛ والمرامة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما ناجم، أو راعمه مراعم؛ أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ أتفقا جميعا على مقارعة: قريبا كان أو بعيدا، وترافدا على مدافعة: دانيا كان أو قاصيا؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَأَوْبِهِ ، وَتَصَاريفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَسَعُ وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ طَوْقُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّهِ ، وَرِجَالٍ وَنَجْدِهِ ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَغْفُلُ أَخَاهُ مِنْهُمَا عَنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَازَرَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغِبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدَهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعِصُمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَتَحَفِّفُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْقًا ، وَلَا يُخِيفُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْتِلَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُلَاءَمَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوَجْهِهِ النَّائِيَاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ التَّرَامًا عَلَى التَّمَانُلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَاوُزِيِّ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ المِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ المِلَّةِ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ المِلَّةِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيَّيْهَا بَعِزًّا ، وَعَلَى عَدُوِّهِمَا بِذُلًّا ؛ وَأَنْ يُقِيمَ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ المِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي نَفْسِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ المِلَّةِ أَبُو كَالِجَارِ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ المِلَّةِ أبا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَاتِبَاتِ

والمخاطبات حقَّ التَّعظيم ، وشِعَارَ التَّفخيم ، على التَّقْرِيرِ بِنه و بين خرشيد بن ديار ابن مافنة في ذلك .

وأما الأمرُ الذي يختصُّ صَمصامُ الدَّولةِ وشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ به ، وَيَلْتَرِمُهُ شَرَفُ الدَّولةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ له ، فهو تَرْكُ التَّعْرِضِ لِسائرِ مَمَالِكِهِ ، وما يَتَّصِلُ بها من حُدُودِها الحارِيةِ معها ؛ والإفراجُ منها عَمَّا يودُّه وَيُسْرِعُ إليه أصحابُ شَرَفِ الدَّولةِ وَزَيْنِ المِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْيِيفِ لها أو لشيءٍ من الحقوقِ الواجبةِ فيها ، ومُرَاعَاةُها في الأمورِ التي يحتاجُ فيها إلى نَظَرِهِ وطَوْلِهِ ، وإِجْمَالِهِ وَقَضَائِهِ ، وما يجبُ على الأَخِ الأكبرِ مُرَاعَاةَ أخيه وتَالِيهِ فيه ، ممَّا ثَبَتَتْ في هذه المُواصِفَةِ جُمْلَتَهُ ، وَأَشْتَمَلَتْ المِفاوِضَةُ مع خورشيد بن ديار بن مافنة على تَفْصِيلِهِ .

اتَّفَقَ شَرَفُ الدَّولةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ ، وَصَمصامُ الدَّولةِ وَشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ ، بأَمْرِ أميرِ المؤمنينِ الطَّائِعِ لله ، وعلى الأَخْتِيَارِ مِنْهُمَا ، والأَنْشِرَاجِ مِنْ صُدُورِهِمَا ، من غيرِ إِكْرَاهٍ ولا إِجْبَارٍ ، ولا أَصْطِبارٍ ولا أَضْطِرَّارٍ - على الرِّضَا بِذلك كُلِّهِ ، والأَلْتِرامِ له ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجوعًا إليه ، وَعَقْدًا مَعْمولًا عليه ؛ وَحَلَفَ كُلُّ مِنْهُمَا على ما يَلْتَرِمُهُ من ذلك يَمِينًا عَقْدَها بأن يَحْلِفَ صَاحِبُها بِمِثْلِها ، على ما يَلْتَرِمُهُ مِنْهُ . فقال صَمصامُ الدَّولةِ : واللهِ الذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ (ويستتمُّ اليمين) .

النوع الثاني

(مما يجري عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد)

وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحاق الصّابي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أردشير ، والشّريفين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسن محمد ابنه الرّضى ، بما انعقد من الصّالح والصّمير بين الوزير المذكور ، وبين النّقيب ابن أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على نسختين ، لكلّ جانب نسخة ، بعد البسملة ماصورته :

هذا كتاب لسابور بن أردشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوى ، وولده محمد بن الحسين الموسوى .

إنا وإياك - عند ما وصله الله بيننا من الصّمير والخلطة ، وشجّه من الحال والمودّه - آثرنا أن ينعقد بيننا وبينك ميثاق مؤكّد ، وعهد مجدّد ؛ تسكن النفوس إليهما ، وتطمئن القلوب معهما ؛ وتزداد الألفة بهما على مرّ الأيام ، وتعاقب الأعوام ؛ ويكون ذلك أصلاً مستقراً نرجع جميعاً إليه ، ونعوّل ونعتمد عليه ؛ وتوارثه أعقابنا ، وتبّعنا فيه أخلافنا .

فأعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذّه على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقرّبين ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صدور منشرح ، وآمال في الصّلاح منفسحة - أنا

تُخِصُّ لَكَ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُسَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَيُؤَافِقُ خَافِيَهُ عَالِنَهُ ، وَأَنَا نُؤَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَنِصَلُ مِنْ وَصَلِكَ ، وَنَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفِي فَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصَمْنَا لَكَ صَمَانًا شَهِدَ اللَّهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، وَالْأَثِيرَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُسْتَقْلَةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِسِغَا فِيهَا ؛ وَتُجْرِيهَا مُجْرَى كَرَامِ حَرْمِنَا ، وَنَفَائِسِ بَنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّهِ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانِنَا ؛ وَتَنْتَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرِ مُمُوتِهَا وَمُؤْنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهْوِضِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلَكَ فِيهَا ؛ فَلَا نُعْذِمُ شَيْئًا أَلْفَتَهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَذَبِّ عَنْهَا ، وَمُحَامَاةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ لِمَسَارِهَا ، وَتَوَخُّحِ لِحَابِهَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمَتْنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمَطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقَّ مَجْدُ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرُّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - مَا وَسَّمَّ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمَا ، وَسَادَتْنَا الْأُمَّةُ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَمَا أُنزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ؛ وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ ، وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ ؛ لِنَفِيْنِ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةَ الْأَثِيرَةَ أَبْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلِنَلْتَرَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِطَهُ وَوَتَائِقَهُ ، فَلَا نَنْفَسُحُهَا ، وَلَا نَنْقُضُهَا ،

ولا تتبّعها، ولا تتعقبها، ولا تتأول فيها، ولا تزول عنها، ولا نلتمس محرّجاً ولا مخلصاً منها، حتّى يجمعنا الموقّف بين يدي الله، والمقدّم على رحمة الله، ونحن يومئذ نابتان عليها، ومؤدّيان للأمانة فيها، أداءً يشهد الله تعالى به وملائكته يوم يقوم الأشهاد، ويحاسب العباد. فإن نحن أخلّنا بذلك أو بشيء منه، أو تأوّلنا فيه أو فى شيء منه، أو أضمرنا خلاف ما نظهر، أو أسررنا ضدّ ما نعلن، أو ألتمسنا طريقاً إلى تقضيه، أو سبيلاً إلى فسخيه، أو أئمتنا بإخفار ذمّة من ذمّه، أو آتتهك حرمة من حرمة، أو حلّ عصى من عصمه، أو إبطال شرط من شروطه، أو تجاوز حدّ من حدوده - فالذى يفعل ذلك منّا يوم يفعله أو يعتقده، وحين يدخل فيه ويسجّيره - برىء من الله جلّ شأنه، ومن نبوة رسوله محمّد، ومن ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلى الله عليهما وسلّم، ومن القرآن الحكيم العظيم، ومن دين الله الصحيح القويم؛ ولقى الله يوم العرض عليه، والوقوف بين يديه، وهو به - سبحانه - مشرك، ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف، ولأهل بيته معاد، ولأعدائهم موال؛ وعليه الحجّ إلى بيت الله الحرام العتيق الذى بمكة: راجلاً، حافياً، حاسراً، وإماؤه عواتق، ونسأؤه طوالق، طلاق الحرج والسنة، لا رجعة فيه ولا مشنوية؛ وأمواله - على اختلاف أصنافها - محرّمة عليه، وخارجة عن يديه، وحبيسة فى سبيل الله وبراه الله من حوله وقوته، وأجلاه إلى حوله وقوته.

وهذه اليمين لازمة لنا، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه، وعقد عليها ضميره، والنية فى جميعها نية فلان بن فلان، لا يقبل الله من كل واحد منّا إلا الوفاء بها، والتبات عليها، والالتزام بشروطها، والوقوف على حدودها، وكفى بالله شهيداً، وجزاءً لعباده ومثيباً. وذلك فى يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا.

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِمُخْطَبَةٍ مُفْتَسِّحَةٍ بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ
(١)

لمن كان

ونصّها على ما ذكره في "كتاب البلاغة" في الترسُّل، بعد البَسْمَلَةِ :

الحمد لله الذي خلق العبادَ بِمُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطُفْ عَنْهُ خَفِيٌّ ، وَلَا أَمْتَعَ عَنْهُ قَوِيٌّ ، أَسْتَدْعِ الْخَلَّائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطْرِيهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ أَحْتَذَاهُ ، وَلَا رَسِيمٍ آقْتَفَاهُ ؛ وَأَيَّدَهُمُ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَأَكْتَفَوْنَا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِخَبَرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرَ لَهُمْ فِي التَّبَصُّرَةِ ، وَغَلَبِهِمْ
فِي الْحُجَّةِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَّاتٍ بَيَّنَّا ؛ وَمَعَالِمٍ أَوْضَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ؛ وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَأَرْتَضَاهُ وَأَصْطَفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَأَجْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ
وَأَعْلَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطْرُقِهِ ، وَالْهَادِيينَ لِفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ ؛ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَتْرَةٍ بَعْدَ قَتْرَةٍ ، وَبَيْنَةٍ بَعْدَ بَيْنَةٍ ؛ حَتَّى
أَتَمَّتْ تَقْدِيرُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَفَى بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيْعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَدَّلَهُ أَدْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَانِحِي

فَتره ، وتراعى حيره ؛ فأبأخ به نيرانَ الفتنِ بعدَ اضطرامِها ، وأضأ به سبيلَ الرِشادِ بعدَ إظلامِها ؛ على عِلمٍ منه - تعالى ذِكرُه - بما وجده عنده من النهوضِ بأعباءِ الرِساله ، والقيامِ بأداءِ الأمانه ؛ فأزاحَ بذلكِ العِلمه ، وقطعَ المَعذِره ؛ ولم يُبقِ للشاكِّ موضعَ شُبُهه ، ولا للمُعاندِ دَعوى مُموّهه ؛ حتى مضى حميدًا تهنيدُ له آثاره ، وتقوُّمُ بتأييدِ سُننِته أخباره ؛ قد خَلَفَ في أمته ، ما أصارهم به إلى عَطْفِ الله ورحمته ، والنجاةِ من عِقابِهِ وسُخْطِهِ ؛ إلا من شقَّ بسوءِ اختيارِهِ ، وحرمَ الرِشادَ بخذلانِهِ ؛ صلى الله عليه وعلى آله الطيبينَ أفضلَ صلَاةٍ وأتمِّها ، وأوفاهَا وأعمَّها .

والحمد لله الذي خَصَّ سيدنا الأميرَ بالتوفيقِ وتوَحَّدَه بالإرشادِ والتَّسديدِ ؛ في جميعِ أُنحائه ، ومواقعِ آرائِهِ ؛ وجعلَ هِمَّتَه (إذ كانتِ الهِممُ منصرفةً إلى هشيمِ الدنيا وزخارفِها ، التي يتخلى بها الأبناءُ وتدعوها إلى نفسها) ، مقصورةً على ما يجمعُ له رضا ربِّه ، وسلامةَ دينِهِ ؛ وأستقامةَ أمورِ مملكته ، وصلاحِ أحوالِ رعيته ؛ وأيده في هذه الحَالِ المعارضه ، والشُبُهه الواقعه ؛ التي تحارُ في مثلها الآراء ، وتضطربُ الأهواء ؛ وتتنازعُ خواطرُ النفوس ، وتفتلجُ وساوسُ الصدور ؛ ويخفى مواقعُ الصوابِ ، ويُشكلُ منهجُ الصلاحِ - بما اختارَ له من السِّلْمِ والمُؤادَعه ، والصُّلحِ والمُوافَقه ؛ الذي أخبرَ الله تعالى في كتابه على فضله ، والخيرِ الذي في ضمينه ، بقوله جَلَّ وعزَّ : ﴿ والصُّلحُ خَيْرٌ ﴾ وقوله جَلَّ ذِكرُه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ حتى أصبحَ السَّيفُ مغمودًا ، ورواقُ الأَمْنِ ممدودًا ؛ والأهواءُ مُتَفَقَهه ، والقُلُوبُ مُؤتلفه ، والكَلِمَةُ مُجتمعه ؛ ونيرانُ الفتنِ والضَّلالةِ خامدَه ، وظُنُونُ بُغائِها والسَّاعينَ لها كاذِبَه ، وطَبقاتُ الاولياءِ والرعيه - بما أُعيدَ إليهم من

الْأَمْنَةُ تُعَقَّبُ الْخِيفَةَ ، وَالْأَنْسَةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَنْبِيْهِ وَطَأْنِهِ - رَاغِبِينَ ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ ، وَالصُّلْحُ مَجْبُورًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظِمُ بِهِ : مِنْ حَقْنِ الدَّمَاءِ ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنْ الْخِلَالِ الْمَحْمُودَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَمْدُودَةِ ، الْمُقَدِّمِ ذِكْرُهَا - مَا حَادَا عَلَيْهِ ، وَمَثَلِ
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَحُسْنِ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخِصِّصِ
 وَالْعَامِّ بِهِ ؛ فِيمَا يَجِبُ لِلْعِيُونِ ، مِنْ مُسْتَبْتِهَاتِ الظُّنُونِ ، إِذِ الدِّينُ وَإِقْعُ ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطِلِ ، وَالْجَائِرُ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأُوهُ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَاطِرًا
 لِلْمَسْلَمِينَ مِنْ مَعْرَةٍ أَوْ مَضْرَةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيْرَهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعُدُوَانِ ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ فِرَاطِ النَّسْيَانِ ، وَكَفَافًا أَيْدِي الْمَسْلَمِينَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمَسْلَمِينَ ؛ تَحْتُنَا عَلَى بَرِيَّتِهِ ، وَإِبْقَاءَ عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَّتِهِ ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيْقَاتُ الَّذِي أَدْنَاهُ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْضَاهُ ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمْدَهَا ، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا ، مَقْصُورَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا حَوْلَهُ ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَا جَدُّ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَمْدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق» ، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 النَّظْمِيِّ تَيْمُورْ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيْقِهَا وَتَحْرِيْبِهَا ، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشِ
 لَزِمَهُ ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» صَحْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْكَجْجَانِي . جُهِّزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرَيْنَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ صَحْبَةَ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقرّ المفتحي صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع (١) بقم (١) وفي طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم؛ مشتمل على عقد صالح آفتهه المقام الشريف، العالي، القطبي، نصره الدين، تيمور كوركان، زيدت عظّمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ويكليه في ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر صحبته من العُدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبتة، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على المُوَافاة والمُصَافاة، واتّحاد المملكتيه، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال بوصول الطرة، والبسملة في أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم بيت العلامة، والسطر الثاني بعد بيت العلامة . والعلامة بجليل الثبث بالذهب ما صورته : « الله أملي » .

وُنسخةُ المَكْتُوبِ بعدَ البِسْمَلَةِ ما صُورَتُهُ :

الحمد لله الذي جعل الصُّلْحَ خَيْرَ ما أُنْعَمَتْ عَلَيْهِ المَصَالِحُ ، والإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوْلَى ما أُنْصَلَّتْ بِهِ أسبابُ المَنَاجِحِ ، وأَحَقُّ ما نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ المَحامِدِ وَأُثِنَتْ عَلَيْهِ
أَفْواءُ المَدَائحِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْجَاتَ القُلُوبِ الطَّوَائِحِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ القَمَرِ فَاهْتَدَى بِهِما كُلُّ غَاديٍّ وَرَاجِحٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ
شَهادَةً تَبْلُغُ قَائِلِها أَهْني المَنَاجِحِ ، وَتَعَطَّرُ مَجالِسَ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رِوائِحِها الرِّوائِحِ ؛ وَنَشْهَدُ
أَنَّ مَجدًا عِبدُهُ وَرِسالَهُ أَفضَلُ مِنَ آخِي بَيْنَ المَتَجاكِينِ فَنُصِحَ اللَّهُ وَرَأَى الصُّلْحَ مِنَ
أَظْمِ النِّصَاحِ ، وَأَكْمَلَ رِسالَ أَتقادَتِ لَأَخْلاقِهِ الرِّضِيَّةِ ، وَصِفاتِهِ المَرِضِيَّةِ ، جِوانِحِ
النُّفُوسِ الجِوانِحِ ، وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثيرًا .

وَبَعدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى ما أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آراءُ أَوْلِي الأَبْبابِ ، وَرَكَنتُ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
المَعرِفَةِ مِنَ أَهْلِ المِوَدَّةِ والأَحْبابِ - أَتِلافِ القُلُوبِ بَعدَ أَختِلافِها ، وَأَتِفافِها
بِالتَّلبُّسِ بأَحْسَنِ أوصافِها ؛ وَالعَمَلُ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي هُوَ أَصلِحُ لِلنَّاسِ ، وَأَربِحُ
مَتَاحِرِ الدُّنيا والآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ والبِاسِ ؛ إِذْ هُوَ مِفْتاحُ أَبْوابِ الخِيراتِ الشَّامِلَةِ ،
وَمِصْباحُ مَناهِجِ الفِكرِ الصَّحِيحَةِ الكامِلَةِ ؛ وَالذِّعْوانُ إِلَى كُلِّ فِعْليٍّ جَميلٍ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفاءُ صَدَى الغَليلِ وَنِجاةٌ مِنَ داءِ العَليلِ .

وَلَمَّا كانَ المَقامُ الشَّرِيفُ ، العَاليُّ ، الكَثيرِيُّ ، العَالمِيُّ ، العَامِلِيُّ ، المُوَيِّدِيُّ ،
المُظَفَّرِيُّ ، المُنْجِئِيُّ ، المَلادِيُّ ، الوالِدِيُّ ، القُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةَ الدِّينِ ، مَلْجَأَ القاصِدِينَ ،
مَلأُذُ العالِمِينَ ، قُطْبُ الإِسلامِ والمُسلمِينَ ، تَيمُورُ كورِ كانَ ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ -
هُوَ البَاديُّ بِأِحْياءِ هَذِهِ السُّنَّةِ الحَسَنَةِ ، وَالخادِيُّ إِلَى العَمَلِ بِمُقْتَضَى مَقاوَضِتهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَضَمَّنَةٌ ، الْوَارِدَةَ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ، الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدُّنْيَا وَالِدَيْنِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « فَرَج » بنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدِ « بَرْقُوقِ » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَامِيِّ ، مَسْعُودِ الْكَجَجَانِيِّ ، الْمُوَرَّخَةِ بِسَمْتَلٍّ شَهْرَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تَارِيخِهِ .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسِرٌّ مَكْنُونُهَا - قَصْدُ إِيقَاعِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ إِلَيْهِمَا ، وَتَسْجُجِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالِ رِدَائِهِمَا مَحَاسِنِهَا عَلَيْهِمَا ؛ بِمَقْتَضَى تَفْوِضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَعَلِ قَوْلِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطَّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمَجْهَزِينَ بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَهُمَا : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَزْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّدْرُ الْأَجَلُّ كَمَالُ الدِّينِ كَمَالُ أَعَا ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، مُوَافَقَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشْ لَزِمَ الْمَقَامِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجْهِيزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛ وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحُضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكْبَرِيهَا ، وَمَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ ، بِالْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِأَشْتَاتِ الْحَلِيفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ وَبَارِئُ النَّسَمِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الدَّاخِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا عَاهَدَ وَصَالِحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَكِيلِ الْمَذْكُورُ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُمْضِيهِ وَيَرْتَضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فَعِنْدَ مَا وَقَفَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ الْمَشَارِئُ إِلَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - عَلَى الْمَكْتَابَةِ الشَّرِيفَةِ الْمَشَارِئِ إِلَيْهَا، وَتَفَهَّمْ مَضْمُونَهَا، وَرَأَى أَنْ الْمَصْلَحَةَ فِي الصُّلْحِ: تَبَرُّكًا بِمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اسْتِخَارَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَ بِتَجْهِيزِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشِ الْمَذْكُورِ، وَتَسْلِيمِهِ لِلشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ، وَأَذِنَ لَهَا فِي التَّوَجُّهِ إِلَى حَضْرَةِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطَيْبِيِّ الْمَشَارِئِ إِلَيْهِ: بِمُؤَافَقَةِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَهُ - عَلَى ذَلِكَ، وَحُضُورِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْفَرْدِ الْأَوْحَدِ، شَيْخِ الْإِسْلَامِ، سِرَاجِ الدِّينِ، عَمْرَ الْبُلْقِينِيِّ - أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمَسْلَمِينَ مِنْ بَرَكَاتِهِ - وَقَضَاةِ الْقَضَاةِ الْحُكَّامِ - أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُمْ - وَمَشَايِخِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ وَالصَّلَاحِ، وَأَرْكَانِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ، وَمَنْ يَضَعُ خَطَّهُ فِي هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بِالشَّهَادَةِ بِمَضْمُونِهِ .

وَعَقَدَ الصُّلْحُ الشَّرِيفُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِئِ إِلَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَبَيْنَ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْوَيْكِلِ الْمَذْكُورِ عَنِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطَيْبِيِّ الْمَشَارِئِ إِلَيْهِ - زِيدَتْ عَظَمَتُهُ - عَلَى حُكْمِ مَضْمُونِ مَفَاوِضَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمَقْدَمِ كَرَاهًا، وَمَا قَامَتْ بِهِ الْبَيِّنَةُ الشَّرْعِيَّةُ، بِشَهَادَةِ الْعَدْلَيْنِ الْمَذْكُورِينَ الْوَاصِلِينَ صُحْبَةً الْوَيْكِلِ الْمَذْكُورِ بِالتَّوَكُّلِ الْمَشْرُوحِ فِيهِ . فَكَانَ صُلْحًا صَحِيحًا شَرْعِيًّا، تَامًّا كَامِلًا مُعْتَبَرًا مَرْضِيًّا، عَلَى أَحْسَنِ الْأُمُورِ وَأَجْمَلِهَا، وَأَفْضَلِ الْأَحْوَالِ وَأَكْمَلِهَا .

وَحَلَفَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ الْمَشَارِئُ إِلَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَعَاهَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَظِيرَ مَا حَلَفَ وَعَاهَدَ عَلَيْهِ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ الْقُطَيْبِيُّ الْمَشَارِئُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَاسْتَقْرَّتْ بِمِثْبَئَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْخَوَاطِرُ، وَسُرَّتِ الْقُلُوبُ وَقَرَّتِ النَّوَاطِرُ، بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ دِمَامِ الْعُهُودِ الشَّرِيفَةِ، وَإِقَامَةِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَأَمْتِنَادِ

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرِيْفِهِ ؛ وإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّديْقِ ، على لسانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فلا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
على مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، ولا يَنْقُضِي حُكْمُهُ ولا يَنْحَلُّ إِبرَامُهُ على تَوَالِي السَّنِينَ
والأَعْوَامِ .

هذا : على أن لا يَدْخُلَ أَحَدٌ من عساکرِهِمَا وَجُدِهِمَا وَمَمَالِكِهِمَا إلى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، ولا يَتَعَرَّضَ إلى ما يَتَعَلَّقُ بِهِ من مَمَالِكِ وَقِلَاعِ ، وَحُصُونِ
وَسَوَاحِلِ وَمَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ من سائرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرَعَايَاهُمَا من جَمِيعِ الطَّوَائِفِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وما هو مَخْتَصٌّ بِبِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرِهَا
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِيهَا وَدَانِيهَا ، وَعَامِرِهَا وَغَامِرِهَا ، وَبَاطِنِهَا وَظَاهِرِهَا ، ولا إلى من
فِيهَا من الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْغَادِيْنَ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ :
مَتَفَرِّقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا على أن يَكُونَ كُلُّ من الْمَقَامِينَ الشَّرِيفِينَ الْمُشَارِإِلَيْهِمَا مع الْآخَرِ على أَكْمَلِ
ما يَكُونُ فِي السَّرِّاءِ وَالضَّرِّاءِ : من حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَالِدِ ، وعلى الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْتِراجِ وَالْإِخْتِلَاطِ كُرُوحِينَ فِي جَسَدِ ؛
مع ما يُضَافُ إلى ذَلِكَ من مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،
وَمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
العَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وما تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الْفَسْخُ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف": "وقل أن يكون فيه إلا ما يبعث به على ألسنة الرسل .
قال : وقد كتب عمي صاحب شرف الدين [أبو محمد] ^(١) عبد الوهاب رحمه الله ،
سنة دخول العساكر الإسلامية لمطية، سنة أربع عشرة وسبعائة فسخا على التكفور
متملك سيس، كان سببا لأن زاد قطيعته . ولم يذكر بصورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه
موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظهور ما يوجب نقض العهد،
ونكث العقد، وإقامة الحجّة على المفسوخ عليه من كل وجه .

قال في "التعريف": "والذي أقول فيه : إنه إن كتبت فيه، كتبت بعد البسملة :

هذا ما أستخار الله تعالى فيه فلان، أستخارة تبين له فيها غدر الغادر، وأظهر له بها
سر الباطن ما حققه الظاهر؛ فسوخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه من المهادنة
التي كان آخر الوقت الفلاني آخر ممتتها، وطهر السيوف الذكور فيها من الدماء إلى
انقضاء عدتها؛ وذلك حين بدا منه من موجبات النقص، وحل المعاقدة التي كانت
يسد بعضها ببعض (وهي كذا وكذا، وتذكر وتعد) مما يوجب كل ذلك إخفارا

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذمة ، وتقضى العهود المرعية الحرمة ؛ وهند قواعيد الهدنة ، وتخليصة ما كان قد أمسك من الأعتة ؛ كتب إنذارا ، وقدم حذارا ؛ ومن يشهد بوجوب هذا الفسخ ، ودخول ملة تلك الهدنة في حكم هذا النسخ ؛ ما تشهد به الأيام ، ويحكم به عليه النصر المكتتب للإسلام ؛ وكتب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهده ، وأنجز وعده ؛ وأنفذ إليه سهمه بعد أن صبر مليا على ممالاته ، وأقام مدة يُدارى مرض وفائه ولا ينجح فيه شيء من مداواته ؛ ولينصرن الله من ينصره ، ويحذر من يأمن مكره من يحذره ؛ وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد ، لينقل مضمونه إلى البلاد ؛ أفنة من أمر لا يتأدى به الإعلان ، وينصب به لهذا الغادر لواء لا يقال إذا يقال : هذا اللواء لغدر فلان بن فلان .

الفصل الثاني

المفاسخة وهي ما يكون من الجانبين جميعا

قال في "التعريف" : وصورة ما يكتب فيها : هذا ما آختره فلان وفلان من فسح ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا . آخترنا فسح بنايها ، ونسخ أنبايها ؛ وتقضى ما أبرم من عقودها ، وأكّد من عهودها ؛ جرت بينهما على رضا من كلّ منهما بإيقاد نار الحرب ، التي كانت أطفئت ، وإثارة تلك الثوائر التي كانت كُفيت ؛ نبذاه على سواء بينهما ، واعتقاد من كلّ منهما ؛ أن المصلحة في هذا لجهته ، وأسقط ما كان يجمله للآخر من ربقته ؛ ورضى فيه بقضاء السيوف ، وإمضاء أمر القدر والقضاء في مساقات الخوف ؛ وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخالقه ومن حضره ، ومن سمع ونظر ؛ وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكُتَّابُ وتَنَافَسُ في عملها، ليس لها
تعلقٌ بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأوّل

في الجديّات ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأوّل

في المقامات

وهي جمع مَقَامَةٍ بفتح الميم ، وهي في أصل اللغة اسمٌ للجلس والجماعة من الناس .
وسميت الأحدثوة من الكلام مَقَامَةً ، كأنها تُدكر في مجلس واحدٍ يجتمع فيه الجماعةُ
من الناس لسماعها . أما المَقَامَةُ بالضم ، فبمعنى الإقَامَةِ ، ومنه قوله تعالى حكايةً
عن أهل الجنة : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

وأعلم أن أوّل من فتح باب عمَلِ المقامات ، علامةُ الدهر ، وإمام الأدب ،
البديعُ الهمداني : فعَمِلَ مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهي في غاية من البلاغة ،
وعُلُوّ الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسمُ الحريري ، فعَمِلَ مقاماته
الخمسين المشهورة ، بجاءت نهايةً في الحُسن ، وأتت على الجزء الوافر من الخطِّ ،
وأقبل عليها الخاص والعام ، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المثل السائر " لم يوفّه حقّه ، ولا عامله
بالإنصاف ، ولا أبجل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يدٌ في غير المقامات ،

حَتَّى ذَكَرَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْحَشَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْحَرِيرِيَّ رَجُلٌ مَقَامَاتٍ . أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحَسِّنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمُنْتَوِرِ سِوَاهَا ، فَإِنِ اتَى بِغَيْرِهَا فَلَا يَقُولُ شَيْئًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَعْدَادَ ، وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ ، قِيلَ : هَذَا يُسْتَصْلَحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَيُحَسِّنُ آثَرَهُ فِيهِ ، فَأَحْضَرَ وَكَلَّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأَقْرَأَهُمْ ، وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلِهِ وَلَا قَصِيرِهِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ * يَنْتِفُ عُنُونَهُ مِنَ الْهُوسِ ،

أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ وَفِي * بَعْدَادَ أَحْصَى الْمَلْجُومَ بِالْحَرَسِ !

وَأَعْتَدَرَ عَنْهُ بِأَنَّ الْمَقَامَاتِ مَدَارُهَا جَمِيعُهَا عَلَى حِكَايَةِ تَخْرُجُ إِلَى مَخْلِصٍ ، بِخِلَافِ الْمَكْتَابَاتِ فَانْهَاجُهَا بِحَرْفٍ لَا سَاحِلَ لَهُ : مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَعَانِي تَتَجَدَّدُ فِيهَا بِتَجَدُّدِ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ ، وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وهذه المقامة التي قَدِّمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا فِي خُطْبَةِ هَذَا الْكِتَابِ ، إِلَى أَنِّي كُنْتُ أُنْشَأُهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعِينَ ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِي فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَنَّهَا أَشْتَمَلَتْ - مَعَ الْأَخْتِصَارِ - عَلَى جُمْلَةِ جَمَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَوَسَمَّيْتُهَا بِ"الْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ" ، فِي الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ ، وَوَجَّهْتُ الْقَوْلَ فِيهَا لِتَقْرِيطِ الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْعَلَائِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْحَيَوِيِّ ، بِنِ فَضْلِ اللَّهِ ، صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْأَبْوَابِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمئِذٍ . جَعَلْتُ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَرْفَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَمَعِيشَةٍ يَتَسَكُّ بِسَبَبِهَا ؛ وَأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ الْحَرْفَةُ الَّتِي لَا يَلْبِقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ سِوَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَا عَدَاهَا ؛ مَعَ الْجُنُوحِ فِيهَا إِلَى تَفْضِيلِ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْجِيحِهَا ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى كِتَابَةِ الدِّيْوَانَةِ وَتَرْشِيحِهَا .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ؛ مع التنبيه على جملة من المصطلح بيئت . مقاصده ، ومهدت قواعده ؛ على ما ستقف عليه في خلال مطاوعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناثر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمری مرکز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأثره توحيد الاستغفال عن إشراك التطويل ؛ مشمرا عن ساق الحد ذيل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد ؛ أتميز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغتم حالة الصحة قبل تجافها ؛ قد حالف جفني الشهاد ، وحالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتفر عن الطلب وتجمع ؛ مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعا بأذني العيش راضيا بأيسر الأقوات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيبا ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيبا ؛ وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبها ؛ مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون أظفها ؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع ؛ متقيا من الكتب أمتعها تصديفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ؛ متخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحنا وأظفهم تدقيقا ؛ عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل علم مستحقه ؛ قد استغنيت بكتابي عن خلى ورفيقي ، وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيقي ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدها عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أنثي عنها عيانا ؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بِالْغَنِيمَةِ ، وَأَهْمُّ عَلَى حُصُونِ الدَّفَاتِرِ ثُمَّ لَا أَوْلَى عَنْ هَزِيمَةٍ ؛ بَلْ كَلَّمَا لَاحَتْ لِي فِئَةٌ
 مِنَ الْبَحْثِ تَحَيَّرْتُ إِلَيْهَا ، أَوْ ظَهَرْتُ لِي كَتِيبَةٌ مِنَ الْمَعَانِي حَمَلْتُ عَلَيْهَا ؛ إِلَى أَنْ أُتِيحَ
 لِي مِنَ الْفَتْحِ مَا أَفَاضَتْهُ النِّعْمَةُ ، وَحَصَلْتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ عَلَى مَا أَقْتَضَتْهُ الْقِسْمَةُ .

فَبَيْنَا أَنَا أَرْتَعُ فِي رِيَاضِ مَا نُفَّتْ ، وَأُجْتَنِي ثِمَارَ مَا حُوِّتْ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ جَيْشُ
 التَّكْلِيفِ فَخَصَرْنِي ، وَخَرَجَ عَلَيَّ كَيْبِنُ التَّكْلِيفِ فَأَسْرَنِي ؛ فَأَمْسَيْتُ فِي أَضْيَاقِ خِنَاقِ ،
 وَأَشَدَّ وَثَاقِ ؛ قَدْ عَاقَبَنِي قَيْدُ الْأَكْتِسَابِ عَنِ الْأَشْتِغَالِ ، وَصَدَّنِي كُلَّ الْكَدِّ عَنِ
 الْأَهْتَامِ بِالطَّلَبِ وَالْإِحْتِمَالِ ؛ فَعَشَيْتَنِي مِنَ الْقَبْضِ مَا غَشَيْتَنِي ، وَأَخَذَنِي مِنَ الْوَحْشَةِ
 مَا أَخَذَنِي ؛ وَتَعَارَضَ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ بَيْنَ الْكَسْبِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَتَسَاوَى فِي التَّرْجِيحِ
 فَلَمْ تَجْنَحْ وَاحِدَةً مِنْهُمَا إِلَى السَّلْمِ ؛ فَصُرْتُ مَدْهُوشًا لَا أَحْسَنُ صُنْعًا ، وَبَقِيْتُ مُتَحَيِّرًا
 لَا أَدْرِي أَىِّ الْأَمْرَيْنِ أَقْرَبُ إِلَى نَفْعَا ؛ : إِنْ طَلَبْتُ الْعِلْمَ لِلْكَسْبِ فَقَدْ أُخْشْتُ
 رُجُوعًا ، وَإِنْ تَرَكْتُ الْكَسْبَ لِلْعِلْمِ هَلَكْتُ ضَيْعَةً وَمِتُّ جُوعًا .

فَلَمَّا عَايْتُ أَنْ كَلَّا مِنْهُمَا لَا يَقُومُ إِلَّا بِصَاحِبِهِ ، وَلَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ فِي أَحَدِهِمَا
 مَا لَمْ يُقَمَّ فِي الْآخَرِ بِوَاجِبِهِ ؛ أَلْتَمَسْتُ كَسْبًا يَكُونُ لِلْعِلْمِ مُوَافِقًا ، وَبِحَمَلَتِهِ لَا نِقَابًا ؛ لِيَكُونَ
 ذَلِكَ الْكَسْبُ لِلْعِلْمِ مَوْضُوعًا وَالْعِلْمُ عَلَيْهِ مَحْمُولًا ، وَالْجَمْعُ وَلَوْ بَوَاجِهِ أَوْلَى ؛ فَجَعَلْتُ
 أَسْبَرُ الْمَعَايِشِ سَبْرًا مُتَقَصِّدًا ، وَأَسِيرُ فِي فَلَوَاتِ الصَّنَائِعِ سَيْرًا مُتَعَهِّدًا ؛ لَكِنِّي أَجِدُ
 حِرْفَةً تُطَابِقُ أَرِييَ ، أَوْ صِنْعَةً تُجَانِسُ طَلِي .

فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي مَعَاهِدِهَا ، وَأَرْدُدُ طَرْفِي فِي مَشَاهِدِهَا ؛ إِذْ رُفِعَ لِي صَوْتُ قَرَعٍ
 سَمِعِي بَرْتَهُ ، وَأَخَذَ قَلْبِي بِحَمْتِهِ ؛ فَفَقَوْتُ أَثْرَهُ مَتَبَعًا ، وَمَلْتُ إِلَيْهِ مُسْتَمِعًا ؛ فَإِذَا رَجُلٌ
 مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شَكَلًا ، وَأَرْجَحِهِمْ عَقْلًا ؛ وَهُوَ يَتَرَّمُ وَيُشِيدُ :

إِنْ كُنْتَ تَقْصِدُنِي بِظُلْمِ عَامِدًا ، * حُرِّمَتْ نَفْعَ صَدَاقَةِ الْكُتَّابِ ؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ ثَرَى الْغِنَى * وَالنَّاعِشِينَ لَعَثْرَةَ الْأَصْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْقَلٍ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،
وَالعَاطِفِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَلَيْنَ بَحَدَثِهِمُ الشَّنَاءَ فَطَالَمَا * بَحَدَّ الْعَيْدُ تَفَضَّلَ الْأَرْبَابِ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبتُني من الوصفِ ما هنالك ؛ دنوتُ منه دُنُوَ الْوَاجِلِ ،
وجلسْتُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وقلتُ : هذه وأبيكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بِلِ مَلُوكُ
الصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بِلِ أَفْضَلُ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَلِكْ أَظُنُّ أَنَّ لِلْكِتَابَةِ هَذَا
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَاللِّكَّابِ هَذَا الْحِطَّ الْعَظِيمَ ؛ فَأَعْرَضَ مُغْضِبًا ، ثُمَّ فَوَّقَ بَصْرَهُ إِلَى
مُعْجَبًا ، وَقَالَ : هَيْهَاتَ فَاتَكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمُ ؛ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الصَّنَائِعِ قَدْرًا ،
وَأَرْفَعِهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السَّنَةُ الْغَرَّاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأُوهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعْمِهِ ، وَإِيذَانًا بِأَنَّ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دِيَمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُعْجِزُونَ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وَمَا سَطَّرْتَهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي آكِدِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ لِجَعْلِ الْكِتَابَةِ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مَنَعَهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةً قَدِيمَةً تَعَالَى سَبَبُهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْخَادِمُ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ آ كَتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَابِ رَاغِبًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كَاتِبًا ، هُمْ مُنْجَبَةٌ أَصْحَابِهِ ، وَخُلَاصَةٌ أَتْرَابِهِ ، مَنْ آمَنَتْهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالسَّنَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِدْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ، وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ أَبْتِدَاءً وَجَوَابًا ، وَكَاتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَاتَبُوهُ فَأَحْسَنَ اسْتِمَاعًا وَأَخْمَخَ خَطَابًا ، وَبِهَذَاكَ جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمَنْ تَلَاهُمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكَاتِبَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُتْبَتُهَا غَايَةُ رُتْبِ الرِّيَاسَةِ ، عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِنْفَاقُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ، وَالْكَتَابُ عِيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُمُ الْوَاعِيَةِ ، وَأَلْسِنَتُهُمُ الْنَاطِقَةُ وَعُقُولُهُمُ الْحَاوِيَةُ ، بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنِ الْمُلُوكُ إِلَى الْكُتَابِ أَحْوَجُ مِنَ الْكُتَابِ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَنَاهِيكَ بِالْكَاتِبَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَ بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَفَى ، أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُرَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلْمِهِ ، وَلَا يُرَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَاةِهِ .

وعلى الجملة فهم الحاوون لكل وصفي جميل ، وشأن نبيل ، الكرم شعارهم ، والحلم دنارهم ، والجود جادتهم ، والخير عادتهم ، والأدب مراكبهم ، واللطف مذهبهم ، والله القائل :

وَشَمُولٍ كَأَنَّهَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتَابِ !

فَلَمَّا أَنْقَضَى قَيْلُهُ ، وَبَانَ سَيْلُهُ ، قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ، وَدَعَانِي طَيْبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعْوَتِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَحَلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأَنْزَلَ بِوَادِيهِمْ ، فَأَجْعَلَ حِرْقَتَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَأْبِي ، لِيَجْتَمِعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصِلَ بِالْأَسْتِغَالِ حَبْلِي ، فَأَكُونَ قَدْ ظَفَرْتُ بِمَنْبِتِي ، وَفُزْتُ بِبَيْعَتِي .

فأى قَيْلٍ من الكُتَابِ أَرَدتْ ؟ وإلى أَى نَوْعٍ من الكِتَابَةِ أَشْرَتْ ؟ أَكِتَابَةُ
الْأَمْوَالِ ؟ أم كِتَابَةُ الْإِنشَاءِ وَالْحِطَابَةِ ؟ ، أم غَيْرَهُمَا من أَنْوَاعِ الكِتَابَةِ ؟ ؛ فنظَرُ إِلَى
مُتَبَسِّمًا ، وَأَنشد مُتَرَنِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ من غَضَبٍ * ثمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،
نَالُوا بِهَا من لُعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا * مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ !

فقلتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنشَاءِ دُونَ سَائِرِ الكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا
بِالتَّصْرِيحِ وَتُسِيرُ إِلَيْهَا بِالِكَيَّاتِ ؛ فقال : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الكِتَابَةِ جُمْلَةٌ نَوْعٌ يُسَاوِيهَا ،
أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صَنَعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ؛ إِنَّ لَهَا لَلْقَدَحَ الْمُعَلَّى ، وَالْحِيدَ
الْمُحَلَّى ؛ وَالدَّرْوَةَ الْمُنِيْفَةَ ، وَالرُّتْبَةَ الشَّرِيفَةَ ؛ كُتَابَهَا أَسُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلْكِ
وَأَطْوَادُهُ ؛ وَلِسَانُ الْمَلِكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُهَا الْمَفُوقُ الرَّاشِقُ ؛ وَلِلَّهِ حَبِيبُ بَنِ أَوْسِ
الطَّائِيِّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بَنِي نَسَائِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامِ !
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عِدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

قَامَهَا يَبْلُغُ الْأَمَلَ ، وَيُعْنِي عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ؛ بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتَفْرُقُ
الْمُجَافِلُ :

فَلَكَمْ يَقُولُ الْجَيْشِ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فقلتُ : إِنَّ كُتَابَ الْأَمْوَالِ يَزْعَمُونَ أَنَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ
الْمُنْتَهَى ؛ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِفَضْلِهَا ، وَتَقَدِّمُ أَهْلِهَا ؛ بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةُ الْإِنشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ؛
وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضَايِعٌ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ حَاطِبٌ ؛ وَبَيْنَ إِتَاوَةِ تَوْطِيفِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّجَّاتِ ؛ بُونٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ التَّنْبَاسُ ؛ إِذِ الْإِنَاوَةُ تَمَلَأُ
 الْأَيْكَاسَ ، وَالتَّلَاوَةُ تُفْرِغُ الرَّاسَ ؛ وَخَرَجُ الْأَوَارِجِ ، يُعْنِي النَّاطِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ
 الْمَدَارِجِ ، يُعْنِي الْخَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ؛ وَالتَّقَلُّةُ
 الْأَثْبَاتُ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتُ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِتِّصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
 فِي الْاِخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفِي الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَلِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ فِي السَّلْمِ وَالْمَهْرَجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
 فِي الدَّخْلِ وَالخَرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
 قَلَمُ الْحُسَابِ ، لَأَوْدَتْ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَا تَصِلَ التَّغَانُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكَّانَ
 نِظَامُ الْمَعَامَلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ^(١)] ،
 وَسَيْفُ التَّنْظَامِ مَسْأُولًا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوِّلًا ، وَيَرَاعَ الْحِسَابَ مُتَأَوَّلًا ؛
 وَالْحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنْشِئُ أَبُو بَرَّاقِشٍ .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشياتهم على أكرم
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه الحجة معارضةً بمثلها ، بل باطلةً من أصلها . وأين ذلك من قوله
 في صدر كلامه ؟ :

«اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ؛ وقلم المكاتبية خاطب ،
 وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخُ لتُدْرَسَ ، ودساتير الحسابات تُنسخُ
 وتُدْرَسُ ؛ والمُنْشِئُ جُهينةُ الأخبارِ ، وَحَقِيقَةُ الْأَسْرَارِ ؛ وَنَجِيُّ الْعُظْمَاءِ ، وَكَبِيرُ النَّدَمَاءِ ؛
 وَقَلَمُهُ لِسَانُ أَسْرَارِ الدَّوْلَةِ ، وَقَارِئُ الْجَوْلَةِ ؛ وَلِقْمَانُ الْحِكْمَةِ ، وَتَرْجَمَانُ الْهَمِّ ؛ وَهُوَ

(١) الزيادة من مقامات الحريري .

البشير والنذير، والشفيح والسفير؛ به تُستخلص الصياصي، وتُملك النواصي؛ ويُقتاد العاصي، ويُستدنى القاصي؛ وصاحبه بريء من التبعات، آمن كيد السعات؛ مقرّظ بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يعثرها شين، ولا يشوبها مين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويؤذن بالترشيح؛ والرّقع، أبلغ في الوصف من النّع؛ فقد يتنفع بالزر اليسير، ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لحساب الأموال، من التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير نزال؛ فهذه هي الخصيصة التي لا تُساوى، والمتنبئة التي لا تُتاوى :

تلك المكارم لا قبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا !

فقلت: الآن قد انقطعت الحجّة، وبانت المحجّة، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلقت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها .
إعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته؛ وتقوى براعته، وتجلّ براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الأصلاح والإحاطة بالرُسوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير متانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله الحجّة البالغة، ولآياته الأجوبة الدامغة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعاقب بذلك من مهمات

الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ؛ وَمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ النَّبُوَّةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي أَبْكَتِ
 الْفُصْحَاءَ ، وَالْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ الَّتِي أُعْيَتِ الْبُلْغَاءَ ؛ مَعَ النَّظْرِ فِي مَعَانِيهَا وَمَعْرِفَةَ غَرِيبِهَا ،
 وَالْإِطْلَاعَ عَلَى مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ بَعِيدِهَا وَقَرِيبِهَا ؛ لِتَكُونَ أَمْدًا مُجْتَمِعَةً
 ظَاهِرَةً ، وَأَدَلَّتُهُ قَوِيَّةً مُتَّظَاهِرَةً ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ إِذَا اسْتَدَّ إِلَى النَّصِّ انْقَطَعَ التَّرَاغُ
 وَسَلَّمَ الْمَدْعَى وَلَزِمَ ، وَالْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ غَايَتُهُمَا - بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي كَلَامٍ
 مِنْ أَوْتَى جَوَامِعِ الْكَلِمِ ؛ وَالْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفُرُوعِهَا ، وَخُصُوصِهَا وَشُيُوعِهَا ؛
 وَالتَّوَعُّلُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ ، وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ؛ وَمَا وَرَدَ عَنْ كُلِّ
 فَرِيقٍ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْثَالِ نَثْرًا وَنَظْمًا ، وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُحَاوَرَاتِ وَالْمُنَاقَضَاتِ حَرْبًا
 وَسِلْمًا ؛ وَالتَّوَعُّلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَشْعَارِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي آخْتَارَهَا الْعُلَمَاءُ بِهَا ، فَتَمَسَّكُوا
 بِأَوْتَادِهَا وَتَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا ؛ وَالْأَمْثَالُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي آتَتْقَوْهَا ، وَدَوَّنَوْهَا وَرَوَّوْهَا ؛ وَأَسْتِيضَاحُ
 الْقِسْمِينَ وَأَسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهِمَا ، وَأَسْتِظْهَارُ النَّوْعَيْنِ وَاسْتِطْطَارُ غَوَارِضِهِمَا ؛
 وَالْإِطْلَاعُ عَلَى خُطَبِ الْبُلْغَاءِ ، وَرَسَائِلِ الْفُصْحَاءِ ؛ وَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي مُحَاطَبَاتِهِمْ ؛
 وَمُكَاتَبَاتِهِمْ ؛ وَالْعِلْمُ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَحُرُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْوَقَائِعِ بَيْنَ قَبَائِلِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ؛
 وَالنَّظَرُ فِي التَّوَارِيخِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ؛ وَسِيرِ الْمُلُوكِ وَأَحْوَالِ
 الْمَمَالِكِ ، وَمَعْرِفَةُ مَكَائِدِهِمْ فِي الْحَرْبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْمَهَاوِي وَالْمُنْتَجِمَةِ مِنَ الْمَهَالِكِ .

مَعَ سَعَةِ الْبَاعِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِ ، وَأُسُّ مَقَالِهِ ؛ وَكَثْرَةُ الْعُدُدِ لِلْإِنْفَاقِ ،
 وَمُعِينُهُ بَلْ مُعِينُهُ وَقَتَّ الضَّرُورَةَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَالتَّحْوِيلُ الَّذِي هُوَ مَنَحُ كَلَامِهِ ، وَمَسْكُ
 خَتَامِهِ ؛ وَالتَّصْرِيفُ الَّذِي تُعْرَفُ بِهِ أَصُولُ أُبْنِيَةِ الْكَلِمَةِ وَأَحْوَالُهَا ، وَكَيْفِيَةُ التَّصْرِفِ
 فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَعُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ الَّتِي هِيَ حَلِيَّةُ لِسَانِهِ ، وَآيَةُ بَيَانِهِ ؛
 وَمَعْرِفَةُ أَبْوَابِهَا وَفُصُولِهَا ، وَتَحْقِيقُ فُرُوعِهَا وَأَصُولِهَا : مِنْ الْفَصَاحَةِ وَطَرَأَتِهَا ،
 وَالْبَلَاغَةِ وَدَقَائِقِهَا ؛ وَاخْتِيَارُ الْمَعَانِي وَتَرْتِيبُهَا ، وَنَظْمُ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبُهَا ؛ وَالْفَصْلُ

والوصل ومواقفهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما؛ ومواطن الحذف والإضمار، وحكم الروابط والأخبار؛ وغير ذلك من الحقيقة والحجاز، والبسط والإيجاز؛ والحل والعقد، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة النقد؛ مع معرفة أنواع البديع وطرائقها، والأطلاع على غوامض أسرارها وفرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوى في الاحتياج إلى معرفته المفضول من الكتاب والفاضل؛ العلم بالخط وقوانينه؛ من الهجاء والنقط والشكل، والفرق بين الضاد والطاء المتخالفين في الصورة والشكل؛ مع المعرفة بالآلات الكتابة وصفاتها، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي ينبغي عليها، وقواعده التي يرجع إليها؛ فإذا أحاط بهذه الفنون علماً، وأتقنها فهماً؛ غزرت عنده المواد، وأتضح له الجواد؛ فأخذ في الاستعداد، وسهل عليه الاستشهاد؛ فقال عن علم وتصرف عن معرفة وأستحسن ببهان، وأتقن بجملة وتخير بدليل وصاغ بترتيب وبخى على أركان؛ وأتسع في العبارة مجاله، وفتح له من باب الأوصاف أقاله؛ وتلقى كل واقعة بما يأتئها، وقابل كل قضية بما يشا كلها؛ وعلم المحيد فانسج على منواله، وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله؛ وحصل له القوة على فهم الخطاب، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع والأعراض، على طبق المقاصد والأعراض؛ ومتى أخل بشيء من ذلك فأتته الفضائل، وعلقت به الرذائل؛ وقلت بضاعته، وتقصت صناعته؛ وساءت آثاره، وقبحت أخباره؛ وخلط الغرر بالغرر، ولم يميز بين الصدف والدرر؛ فأخرج الصنعة عن أماكنها، وطمس من الكتابة وجوه محاسنها؛ بجز اللوم إلى نفسه، وأمسى مهزاةً لأبناء جنسه .

ووراء ذلك علوم هي كالنافلة للكاتب ، والزيادة للراغب :

منها ما تكمل به صناعته ، وتعظم به مكائده : كعلم الكلام ، وأصول الفقه وسائر الأحكام ، والمنطق والجدل ، وأحوال الفرق والنحل والمال ؛ وعلم العروض والميزان المحكم ، وعلم القوافي وحل المترجم ؛ والحساب المفتوح وما يترتب عليه من المعاملة ، وما تُستخرج به المجهولات : من حساب الخطاين والدرهم والدينار والجنبر والمقابلة ؛ وحساب الدور والوصايا ، والتخت والميل وما لأعماله على غيرها من المزايا ؛ والعلم بالفلاحة ، وأحوال المساحة ؛ وعلم عود الأبنية والمنظر المحققة ، ومراكر الأثقال والمرايا المحرقة ؛ وعلم جر الأثقال الأبيّة ، والعلم بالآلات الحربيّة ؛ وعلم المواقيت والبنكومات ، والتقاويم والزيجات ؛ وعلم تسطيح الكرة والتوصل بها إلى استخراج المطالب الفلكيّة ، وكيفية الأرصاد وأحكام النجوم والآلات الظليّة ؛ وعلم الطبّ والبيطرة ، وأحوال سائر الحيوان وعلم البيزرة .

ومنها ما تكمل به ذاته ، وتتم به أدواته ؛ كعلم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسة ، وعلم تدبير المنزل وعلم الفراسة . وغير ذلك من العلوم التي أضربنا عن ذكرها خشية الإطالة ، وأعرضنا عن إيرادها خوف الملالة ؛ فهذه علوم فضلة يهضم بعلمها أمره ، وفضيلة يرتفع بتحصيلها ذكره ؛ بل لا يستغنى عن العلم برؤوس مسائلها ، وإشارات أربابها الآخذة من بحارها بأطراف سواحلها ؛ على أنه قد تردّ عليه أوقات لا يسعه جهل ذلك فيها ، وتمز عليه أزمان يودّ لو شترى فيشترىها .

قلت : قد بانّت لي علومها ، فما رؤسوها؟ . قال : إن أعبأها لبأهظة حملا ، وإنها لكبيرة إلا ؛ ولكن سأحدثك لك مما سألت ذكرا ، وأنبئك بما لم تُخط به خبرا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛ من البيعات وأحكامها ، والعهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتقاويض ومضاهاتها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ، والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمناشير ومراتبها ، والمربعات الجيشية ومعانيها ؛ ومعرفة رتب المكاتب وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكاتب الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفةية ، والمكاتب الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعتره النبويه ؛ ومُلوِك المسلمين والقنات ، ومُلوِك الكُفْر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من التواب والكُشاف والولاه ، والأمرء والوزراء والعُربان والقُضاه ؛ وسائر حمله الأقالم ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء المُلوِك والخوندات ، ومكاتب التجار وما عساه يطرأ من المكاتب المُستجدات ؛ وكتب البشرى بالجلوس على التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ وأستهداف العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ؛ والمُلطفات التي يُضطرُّ إليها ، ويعول في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتب تكرارها ، ويتسقى في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك العلية المراتب ؛ والآلات الملوكية الخليفة المقدار ، والسلاح وآلات الحصار ؛ والخيل المسومة ، والجوارح المئمة ؛ وجليل الوحش وسباعه ، وطير الواجب وأتباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والغياض ؛ وغير ذلك مما يعزُّ ويعلُّو ، ويرتفع ويعلُّو ؛ وإخوانيات المكاتب وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛ وما تشتمل عليه من الأبتداء والجواب ، والتشوق والعتاب ؛ والترفق والأعتذار ،

والشفاعة وطلب الصَّفح والعفو عند الأقدار؛ والتَّهَانِي والتَّعَاذِي، وما يكتب مع الهدية ويحاطُ عنها من المَجَازِي وغير المَجَازِي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدَّدُ حصرُها، ويمتنعُ على المُستَقْصِي ذِكْرُها، ومعرفة الطُّغْرَاةِ والطَّرَّةِ والعُنُونِ والتَّعْرِيفِ، والعلامة في الكُتُبِ على أَمَا كِنِهَا الفارقة بين أخطاط القَدْرِ والتَّشْرِيفِ؛ وتَرْبِيبِ الكِتَابِ وَطَيْهِ وَخَتْمِهِ، وتعمية ما في الكُتُبِ بضرِبٍ من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه؛ ونسخ الأيمان التي يُستخلفُ بها، ويُمَسَّكُ للوفاء بسببها؛ كيمين البيعة العامة للوفاقِ والمخالفِ، وما يختصُّ من ذلك بالنُّوَابِ وأرَبَابِ الوظَائِفِ؛ وأيمان أصحاب البِدْعِ والأهواءِ، وأهل المِلَلِ والحِكْمَاءِ؛ وكتابة الهدنِ والمُوصَفَاتِ، والأماناتِ والدَّفَنِ والمُفَاسِّخَاتِ؛ ومعرفة الأسماءِ والكُنَى والألقابِ، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكُتَابِ؛ وكتابة التَّارِيخِ وما أخذتُ به كلُّ طائفةٍ وثابتٌ إليه تَمَسُّكًا، وما يفتتحُ به في الكتابة تيمناً ويختتمُ به تَبَرُّكًا؛ ومعرفة قَطْعِ الوَرَقِ : من كاملِ البَغَادِئِي والشَّامِي والثُلُثِيينِ والنَّصْفِ والثُلُثِ والمنصوريِّ والعَادَةِ، ومن يستحقُّ من هذه المقاديرِ أَعْلَاهَا أَوْ يُوقَفُ به مع أدنى رُتَبِهَا من غير زياده؛ والأقلامِ المناسبة لهذه الأقدارِ، من الرَّقَاعِ والتَّوَاقِيعِ والثُلُثِ ومُخْتَصِرِ الطُّومَارِ؛ والعلمُ بالأوضاعِ وكيفية الترتيبِ، ومقادير البياضِ ومُباعَدَةِ ما بين الشُّطُورِ والتقريبِ؛ ومعرفة الرَّزَادِيقِ وَقُطَّانِهَا، والنُّوَاحِي والبُلْدَانِ وَسُكَّانِهَا، والأُمَمِ وَمَمَالِكِهَا، وطُرُقِ الأقاليمِ وَمَسَالِكِهَا؛ ومراكَزِ البَرِيدِ وَمَسَافَاتِهَا، وأَبْرَاجِ الحِمَامِ ومَطَارَاتِهَا؛ وَهَجْنِ النَّجَجِ والسُّفُنِ المُعَدَّةِ لِنَقْلِهِ، والمُحْرَقَاتِ المؤدِّيةِ إلى أَجْتِيَاكِ العَدُوِّ وَتَفْرِيقِ شَمْلِهِ؛ والمَنَاوِرِ وَأَمَا كِنِهَا، والقَصَادِ وَمَكَامِنِهَا .

هذه رؤسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .

وَأَعْلَمُ أَنَّ حُسْنَ الْخَطِّ مِنَ الْكِتَابَةِ وَسِطَةُ عَقِيدِهَا، وَقُوَّةُ الْمَلَكَةِ عَلَى السَّجْعِ
وَالْأَزْدِوَجِ مِلَاكُ حَلِّهَا وَعَقِيدِهَا؛ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْخَطِّ مَا قُرِيَ، وَأَحْسَنَ السَّجْعِ مَا سَلِمَ
مِنَ التَّكْلُفِ وَبَرِيَ؛ وَلِلْكَتَابِ فِي بَحْرِ الْكِتَابَةِ سَبْعٌ طَوِيلٌ، وَتَفَنُّنٌ يُسْفِرُ عَنْ كُلِّ
وَجْهِ جَمِيلٍ .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفسه، سيمط يلمها، أو سلك يضمها؟
فقال: سبحان الله: إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للعيان من شأخات جبال
النبيك، أيخفي من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؟ إن ذلك لقاصر على
«آل فضل الله» حقاً، ومنحصر في المقر البدرى صدقاً؛ فهو قبطها الذي تدور
عليه، وأبى بجدتها التي ترجع في علومها ورؤسومها وسائر أمورها إليه؛ فلورآه
«الفاضل عبد الرحيم» لم ير لنفسه فضلاً ولا رضى لفيه مقلاً، أو عاينه «عبد الحميد
الكاتب» لقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» جلس قدامه،
أو أدركه «أبن قتيبة» لا تحذه في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصر به
«الصابي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه
لأقام ببابه وما زال؛ أو جنح «أبن العديم» إلى مناوآته لأدركه العدم، أو جرى
«الصاحب بن عباد» في مضار فضله لجا وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن مقلة»
على حسن خطه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة
روقه لقال: إن هذا هو الفضل المبين؛ إن تكلم ففت سحراً، أو كتب خلت زهراً
أو تحيت ذراً:

يؤلف السؤلؤ المنثور منطقه، * وينظم الدرّ بالأقلام في الكتب!

قد علا نسبا، وفاق حسبا؛ وورث الفضل لا عن كلاله، وأستحق الرتبة بنفسه
وإن كانت له بالأصالة :

فحَيْبًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى، * وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحِضِ!
فلما سمعتُ ذلك زال عني الإلباس، وقلتُ : ذلك من فضلِ الله علينا وعلى
النَّاسِ . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذي تُسِيرُ إليه ، إلا تَدُلُّني عليه ؛ فقال : إِنَّه
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيهٌ ؛ وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيهٌ ؛ وَالقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعُدُوا ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَقَامِ
إِذَا طُرِدُوا ؛ وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ؛
وَالْمَتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ إِذَا بُهِتُوا ؛ وَالصَّائِلُ
بِحَسَامِ لِسَانِهِ وَخَطِي قَلْبِهِ ، وَالْحَامِي الْمَالِكِ بِجُيُوشِ سَطُورِهِ وَجُنْدِ كَلِمِهِ ؛ وَالْمُسْتَتِ
شَمَلِ الْعَدُوِّ بِدِيْعِ أَلْفَاظِهِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ؛ وَالْحَائِزُ قَصَبِ السَّقِيِّ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ
كَرَمِهِ ، وَالْمُرُوي ظَمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيْمِهِ ، وَالْمُجَلِّي غِيَابِهِ
الظُّلْمَ بِنِيرِ بَدْرِهِ وَمُضِيءِ أَنْجَمِهِ :

فما زال بدرًا في سماء سيادة * يُسَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :
بَسِيطَ مَسَاعِي الْمَجِيدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ ؛
إِذَا سَالَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ !
قلتُ : حَسْبُكَ ! قَدْ دَلَّنِي عَلَيْهِ عَرَفُهُ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ؛ وَبَانَ لِي مَحْتَدُهُ
الْفَانِحُ وَحَسَبُهُ الصَّمِيمُ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِيَ وَفَرَعَهُ الْكَرِيمُ ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ثم عرَّجتُ إلى حِمَاهُ ، وملتُ إلى حِيهِ كَيْ أَرَاهُ ؛ فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَلَالُأُ أَنْوَارِهِ ،
وَتَشْرِيقُ بِالْحَلَالَةِ أَقْمَارِهِ ؛ قَدْ عَاتَمَهُ الْهَيْبَةُ وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَقَّقَتْهُ الرِّيَاضَةُ وَجَلَّلَتْهُ
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِعِزِّ مَنَالِ قَدْرِهِ الْأَقْدَارُ كَمَا أَقْتَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأته أستصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقم ببعض واجبه ؛ فغلبت هيئته إقدامي ، وحالت حرمة بني وبين مرامي ؛ فقلت : إنا لله ! قد فانتني مآربي ، ورجعت من فوري إلى صاحبي ؛ فأظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تحف ؛ إنها لمقبة عمرية ، وأثرة عدويه ؛ فالفاروق جدّه ، وبنو عدى قبيلته وجنده .

هذا وإنه لألطف وأرق من السيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأحى من العذراء في خدزها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن زائده » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعده » :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ * فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَسَمُّ!

بالعزائم الفاروقية فتحت الأمصار ، وبالهيبة العمرية أقر المهاجرون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوته في خلافة عمر وصمته ، وجوابه بعد ذلك للقائل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهيبته ؛ كيف ؟ وما سلك بقاً إلا وسلك الشيطان بقاً غير بقفه وضاق عليه الفجاج ، ولم يُماتل هيئته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر لأهيب من سيف الحجاج ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأرامل والمساكين ، ويعين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد أنضحت لك القضييه ، وتحققت أنها سمات إرثيه .

ف عند ذلك ذهب روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له أتباع من الكُتاب فاتعاق بجالهم ، وأتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ ؛ لكن أئسم بسمه الكُتاب ، وأثبت في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسبه الصميم ؛ به شد عضده ، وقوى كتده ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثنا سرَّ أبيهما « والولدُ سرُّ أبيه » ؛ ثم كُتِبَ ديوانُ الإنشاءِ جُنْدُه
وأتباعه ، وأولياؤه وأشباهه ؛ وكُتِبَ الدَّستُ منهم أرفعُ في المقام ، وكُتِبَ الدرَجُ
أجدرُ بالكتابةِ وصنعةِ الكلامِ .

قلتُ : القسمُ الثاني أليقُ بمقداري ، وأقربُ إلى أو طاري ؛ ثم ودَّعتُ صاحبي
شاكراً له على صنيعةِ وحامداً له على أدبه ، وتركتُه ومضيتُ وكان ذلك آخرَ العهدِ
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرفعتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعافَ بإجابةِ دعوتي ؛
فقابلها بالقبول ، وأنعمَ بالمسئول ؛ وقررتُ في كتابةِ الدرَجِ الشريفِ ، وأكتفى
بالعرفِ عن التعريفِ ؛ وطابقَ الخبرَ الخبرَ ، وأستغثتُ بالبيانِ عن الأثرِ ؛ ثم قمتُ
مجتلاً ، وأنشدتُ مرَّتين :
إذا ما بنو الفاروقِ في المجدِ أعرقوا ، * ونالوا بفضلِ اللهِ مالا كمثلِه ،
وجلتُ دجى الظلماءِ أنوارُ بدرِهِم ، * وعمتْ يقاعَ الأرضِ أنواءُ فضلهِ ،
تعالَتْ ذرى العلياءِ فيهم وأنشدتُ : * أبى الفضلُ إلا أن يكونَ لمثلهِ !

ثم تشرفتُ بتقريبِ يده ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددِه ؛ قد منعتني هيتي من اللياذِ
به والقربِ إليه ، وصيرتُ عاطرَ مدحي وخالصَ أدعيتي وقفاً عليه ؛ وصرتُ إلى
الديوانِ ، فوجدتُ قوماً قد حَفَّهمُ الحُسْنُ وزانهمُ الإحسانُ ؛ فقلتُ : الحمدُ لله !
هؤلاءِ فتيةُ ذلك الكهفِ بلا أمْتراءِ ، وأشباهُ ذلك الأسدِ من غيرِ أقرءاءِ ؛ فجلستُ
جلوسَ الغريبِ ، وأطرفتُ إطرارقَ الكئيبِ ؛ إذ كنتُ في هذه الصنعةِ عصامياً
لا عظامياً ، ومثمماً لا تهمياً ؛ غيرَ أني تعلقتُ منها بجبالِ القمرِ ، وأستوقدتُ نارها
من أصغرِ الشررِ ؛ فتلقوني بالرحبِ ، وأحلوني من ديوانهم بالمكانِ الرَّحْبِ ؛ وقابلوني
بالجميلِ قبلَ المعرفةِ ، وعاملوني بالإحسانِ والنصفه .

فلما رأيتُ ذلكَ منهم حمِدْتُ مسراى ، وشكرتُ مسعاى ؛ ودعوتُ لصاحبى أولاً
إذ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَى وشاقبى ، ودأبى عليهم وساقبى .

ولما تحققتُ أنى قد أثبتُ فى ديوانه ، وكُنيتُ من جُملةِ غلمانِه ؛ رجعتُ
القَهَقَرى عن طابِ الكَسْبِ ، وأستوى عندى المحلُ والحِصْبُ ؛ وأكتفيتُ
بنظري إليه عن الطَّعامِ والشَّرابِ ، وتيقنتُ أن نظرةً منه إلى ترقبى إلى السَّحابِ ؛
وتلوتُ بلسانِ الصِّدْقِ على المَلأِ وهم يسمعون : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبَدَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيا تضمنته هذه المقامة من فضلِ الكِتابَةِ وشرفِ الحُكَّابِ مَنعٌ من غيرها ،
ومعنى عن سواها ، والحمد لله والمِنَّة .



وهذه نُسخةُ مَقَامَةِ أنساها أبو القاسم الخوارزمى فى لغائه لأديبٍ يعرفُ بالهيتى ،
وأنقطعاه فى البَحْثِ ، وغلبَةِ الخوارزمى له . أوردها ابنُ حمدون فى "تذكرة" وهى :
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَقَيِّظٌ أَرِيْبٍ ، عَالِمٌ أَدِيْبٍ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَحْفَظُ
مِن مَصَادِفِ الْغَلَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَاتِ الْفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَغْضُ مِنْ سِهَامِهِ ؛ وَيُظْهِرُ بَعْضَ شَكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمُ بِأَيْسَرِ
قِيمَتِهِ ، وَيَسْتُرُ كَثِيرًا مِنْ بِضَاعَتِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْتَطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ بِصِدْقِ الْمُنَاصَحَةِ ، وَجَمِيلِ الْمُسَاحَعَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْمَلَ
الِإِعْجَابُ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِنِ تَسْتَقْرِنُهُ ، وَالْأَقْبَرَاءِ عَلَى مَنْ يَعْتَرِضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرَتُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْأَعْتِدَارِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ الْمَجْلَةِ وَالْأَنْكِسَارِ .

فليس القتي من قال: إني أنا القتي، * ولكنه من قيل: أنت كذلك.

وكم مدح ملكا بغير شهادة * له نجمة إن قيل: أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالأتضاع، على ذى نباهة وأرتفاع؛ وذلك أنى أضعدت في بعض الأعوام، مع جماعة من العوام؛ بين تاجرٍ وزائرٍ، إلى العزل والحائر؛ حتى آتتهنا إلى قريةٍ شارعه، أهلة زارعه؛ وما منا إلا من أملتته السمرية فأعرضته، وأسقمته وأمرضته، وقترته فقبضته؛ وكثر منا الجوار، وأستولى علينا الدوار؛ فخرجنا منها خرُوج المسجون، وقد تقوسنا تقوس العرجون؛ فاسترحنا بالصعود، من طول القعود:

كأننا الطير من الأفاص * ناجية من أحبل القناص،

طيبة الأنفيس بالخالص * منفضات الريش والنواص!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة؛ حتى وقف علينا واقف، وهتف بنا هاتف؛ أيكم الخوارزبي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند؛ فأقبل إلى، وسلم على؛ وقال: إن الناظر يستيرك، فليعجل إليه مصيرك؛ فقامت معه، يتقدمني وأتبعه؛ حتى انتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال، وزينة وجمال؛ من أشراف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار؛ من أهل واسط وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العمامة لائما * على وجه بدرٍ تحته قلبٌ ضيعم!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال في سؤاله وسلامه؛ وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذناباه وأحبيت؛ وأخذوا

يَسْتَحْضِرُونِي عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةَ الْإِرْتِحَالِ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْحَيْرَانَ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيٌّ مُسَائِلٌ، * وَوَاصِفٌ أَشْوَاقٍ وَمُثْنٍ بِصَالِحٍ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْ أُقِيمَ لَيْلِيًّا * أَرْوَحُ وَأَغْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ!

ثم قال قائلهم: هل لقيت عين الزمان وقلبه، ومالك الفضل وربّه، وقليب الأدب
وغربه؛ إمام العراق، وتشمس الآفاق؟ . فقلت: ومن صاحب هذه الصفة المهولة،
والحجاية المجهولة؛ فقالوا: أو ما سمعت بكامل هيت، ذي الصوت والصيت؟ :

ذَاكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانِ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيِّبَوِيهِ وَأَبْنُ سَعْمَانَ،
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .
قَالُوا مَجَابٌ كُلُّهُمْ : إِنَّهُ * سَيِّدُنَا، أَوْ قَالَ : غِلْمَانِي .

فقلت لهم: قد قلدتم الله، وهيجتم الحنن؛ إلى لقاء هذا العالم المذكور، والسيد
المشهور؛ وقد كانت الرياح تأتيني بنفحات هذا الطيب، وهدير هذا الخطيب؛
فالآن لا أثر بعد عين، سأصبح لأجله عن سرى القين؛ أغتناماً للقائده، والنعم
البارده، ووجداناً للضالة الشارده .

أَيْنَ أَمْضَى وَمَا الَّذِي أَنَا أَبْنِي * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابَا؟
فَإِذَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَمَا أُرِيدُ الثَّوَابَا .
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُرُورُوا عَلِيًّا : * لِأَزُورَ الْهَيْتِي وَالْآدَابَا :
لَنْ أَبَالِي إِنْ قِيلَ الْخَوَارِزُ * مَيَّ أَخْطَأَ فَعْمَلُهُ أَوْ أَصَابَا !

فقال الجماعة : بل أصبت ، ووجدت ما طلبت ؛ وقديماً كنا ننشرُ أَعْلَاقَكَ ،
وَنَمْنَى أَتْفَاقَكَ ؛ وتداولُ أوصافك ، ونحبُّ مضافك ؛ ونكبرُ لَدَيْهِ ذَكَرَكَ ، ونُعْظِمُ
لديه قَدْرَكَ ؛ فيتحرَّكُ منك ساكنه ، وتثقلُ بك أماكنه ؛ ونسألُ الله سبحانه أن
يجمعَ بينك وبينه بمحضِنا ، وتلامحَ عينك عينه بمنظرنا ؛ ويلتفِ غبارك بغبارهِ ،
ويتمرِّجُ تيارك بتيَّارهِ ، ويختلطُ مضمارك بمضارهِ ؛ فيعرفُ منكما السابقُ والسكيتُ ،
والسودانيُّ والكميتُ ؛ ويتبينُ من الذى يحوى القصبَ ، فانكما كما قال الشاعرُ :

هُمَا رُحْمَانِ حَطِيَّانِ كَانَا * مِنَ السَّمْرِ الْمُتَقَفِّهِ الصَّعَادِ

تُهَالُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَا عَلَيْهَا * بِمَثَلِهِمَا تُسَالِمُ أَوْ نَعَايَ !

فقال [بعضُ الجماعة] لقد تنكَّبتُم الإِنصافَ ، وأخطأتمُ الاعترافَ ؛ وأبعدتمُ
القياسَ ، وأوقعتُمُ الالتباسَ ؛ أينَ ابنُ ثلاثينَ ، إلى ابنِ ثمانينَ ؟ ؛ وابنُ اللبُونِ ،
من البازِلِ الأَمُونِ ؟ ؛ والرَّيْحُ الرَّاوِحِ ، من الجَوَادِ القَارِحِ ؟ ؛ والكُودُنِ المَبْرُوضِ ،
من المَجْرَبِ المَبْرُوضِ .

وَأَبْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُرْلِ القَنَاعِيسِ !

كم لديهم بطائحُ وسباحُ ، وساكنُ صرائفِ وأكواخُ ، بين يديه سوادية أنباطُ ،
وعُلُوجُ أشراطُ ، ورعاعُ أخلاطُ ، وسفْلُ سُقَّاطُ ؛ فى بلدةٍ إن رأيتُ سُورَهَا ،
وعبرتُ جُسُورَهَا ، صَحَّتْ : وأغرَبتَاهُ ، وإن رأيتُ وجهاً غريباً ناديتُ : وأبتَاهُ ؛
لا أعرفُ غيرَ النَّبِيطَةِ كلاماً ، ولا ألقى سوىَ والدى إماماً ؛ فى معشِرِ ما عرَفُوا
الترَّحالَ ، ولا ركبوا السُّرُوحَ والرِّحالَ ، ولا فارقوا الحِداَرِ والطلَّالَ .

أولئك معشِرُ كَبَنَاتِ نَعِشٍ * خَوَالِفَ لَا تَعُورُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثني له] بمصاولة رَجُلٍ جَوَّالٍ ، رَحَالٍ حَلَّالٍ ؛ بِهَيْتٍ وُضِعَ ، وَبِالْكُوفَةِ أَرْضِعَ ؛ وَبِبَغْدَادٍ أَثَغَرَ ، وَبِوَأَسْطِ أَحْفَرَ ؛ وَبِالْحِجَازِ وَتِهَامَةَ فِطَامَهُ ، وَبِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ كَانَ أَحْتِلَامَهُ ؛ وَبِنَجْدٍ وَالشَّامِ بَقَلَ عَارِضُهُ ، وَبِالْيَمَنِ وَعَمَانَ قَوَيْتُ نَوَاهِضُهُ ؛ وَبِحُرَّاسَانَ بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبِحِجَارًا وَسَمَرْقَنْدَ تَنَاهَى جِئُهُ ؛ وَبِعَزْرَةَ وَالهِندِ شَابَ وَأَكْتَمَلَ ، وَمِنْ سَيْحُونَ وَجِيحُونَ عَلَّ وَنَهَلَ ؛ وَبِمِيسَانَ وَالْبَصْرَةَ عَوَّدَ وَقِرِحَ ، وَبِالْحِبَالِ جَلَهُ وَجَالِحَ ؛ فَهُوَ يَعِدُّ «الْمَازِنِيَّ» إِمَامَهُ ، وَأَبْنَ «جِنِّيَّ» ذُلَامَهُ ؛ وَ«الْمُتَنَّبِيَّ» مِنْ رُؤَايِهِ ، وَ«الْمَعْرِيَّ» حَامِلَ دَوَائِهِ ؛ وَ«الصَّيَّابِيَّ» بَارِيَّ قَلَمِهِ ، وَ«الصَّاحِبِيَّ» رَافِعَ عِلْمِهِ ؛ وَ«أَبْنَ مُقَلَّةَ» مِنْ نَاقِلِي غَاشِيَتِهِ ، وَ«بَنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضَ حَاشِيَتِهِ ؛ وَقَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَلَّاهَا ، وَحَفِظَ الْعُلُومَ وَرَوَاهَا ، وَدَرَسَ الْآدَابَ وَوَدَّاهَا ؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَأَفْقَهَا ، وَأَنْشَأَ الْحِكْمَ وَصَنَّفَهَا ؛ وَفَصَّلَ الْمَشْكَلاتِ وَشَرَحَهَا ، وَأَرْتَجَلَ الْخُطْبَ وَنَقَحَهَا ؛ فَهُوَ الْبَحْرُ الْمُرُودُ ، وَالْإِمَامُ الْمَقْصُودُ ، وَالْعَلَمُ الْمَضْمُودُ ، هَذَا بَوْنٌ وَمُرْتَقَى شَدِيدٌ .

أَتَلَقُونَ بِالْأَعْرَلِ الرَّاحِمَاءَ ، * وَبِالْأَكْشَفِ الْحَاسِرِ الدَّارِعَاءَ ،

وَبِالْكَوْدِنِ السَّابِقِ السَّابِحَاءَ ، * وَبِالْمِنْجَلِ الصَّارِمِ الْقَاطِعَاءَ ؟

فَمَا اسْتَمَّ كَلَامُهُ حَتَّى أَقْبَلَ : فَإِذَا نَحْنُ بِهِ قَدْ طَلَعَ مَهْرُولا ، وَأَقْبَلَ مُسْتَعَجِلا ؛ فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَجْلَحَ ، أَهْمَ أَفْلَحَ ، أَفْطَحَ أَرْدَحَ ؛ طَوِيلًا عَنَطْنَطَ ، يَجْحِي ذَنْبًا أَمْعَطَ ، أَجْمَعُ أَحْبَطَ ؛ فَتَلَقَّوهُ مُعْظَمِينَ ، وَلَهُ مُفَخِّمِينَ ؛ فَقَصَدَ فِي الْمَجْلِسِ صَدْرَهُ ، وَأَسْنَدَ إِلَى الْحِدَّةِ ظَهْرَهُ ؛ فَمَا اسْتَقْرَبَهُ الْمَكَانَ ، حَتَّى قِيلَ لَهُ : هَذَا فُلَانٌ ؛ فَقَبِضَ مِنْ أَنْفِهِ ، وَنَظَرَ إِلَى بَشْطِ مَنْ طَرَفَهُ ؛ وَقَالَ بَبْعُضٍ فِيهِ ، هَامُوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ ؛ تَعَسَّا لِلشُّوَاهِ وَجَالِيهَا ، وَالْقَرَعَاءِ وَحَالِيهَا :

جَاءَ زَيْدٌ مَجْرَرًا رَسَنَةً * فَحَلَّ لَا يَمْنَعُهُ سَنَنَهُ (؟)

أَحَبَّهُ قَوْمُهُ عَلَى شَوْءٍ * إِنْ الْقَرْنِيَّ فِي عَيْنِ أُمَّهَا حَسَنَهُ !

كان لنا شيخٌ بالأخبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السنِّ أعلاه؛
قرأتُ عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب؛ و”مسائلُ ابنِ السَّراج“، و”ديوانُ
ابنِ العجاج“؛ و”كتابُ الإصلاح“، و”مشروحُ الإيضاح“؛ و”شعرُ الطَّرمَّاح“،
و”العين“، للفُهرودي، و”الجمهرة“، للأزدي؛ وأكثرُ من المصنِّفاتِ، المجهولاتِ
والمعروفاتِ؛ ينفخُ في شقاشيقه، ويزيدُ في بقايقه، ويتعاطمُ في مخارقه؛ وجعل
القومُ يقسمونَ بيننا الألفاظَ، ويحسبونُ الألفاظَ؛ وما منهم إلا من آغناظُ لسُكوتي
وكلامه، وتآخري وإقدامه .

ثم هذى الشيخُ إذ وُصفَ له رجلٌ على القَيْبِ ثم رآه، فاحتقره وأزدرأه؛
وأُنشدَ مُمْتَلًا :

لعمري أيبك تسمع بالمعيدي * بعيد الدار خير أن تراه

فقال : هذا المعيدى هو ضمرة، بنُ ضمرة، بن جابر، بن قطن، بن نَهْشَل، بن
دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمناة، بن تميم، بن مرة، بن أد،
ابن طابخة، بن أليس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان . والمعيدى تصغيرُ
معدى، وهو الذى قالت فيه نادبته :

أنى الكريم النهشلي المصطفى * أكرم من خامر أو تخندفا!

فقلتُ : ما بعد هذا المقال، وجهٌ للاحتمال؛ وما يجبُ لى بعد هذه المواقف،
غيرُ المكافه؛ ولم يبق لى بعد المغالبه، من مراقبه :

ما عليّ وأنا جلدٌ نايِلٌ * والقوسُ فيه وترُ عنابِلُ^(١)

* تَرِلُّ عن صفحته المعابِلُ ! *

(١) كذا فى اللسان فى مادة - علل - وفى مادة عنبل ”خب خاتل“ .

ماعلتى وأنا [رجل] جلدٌ * والقوسُ فيه وترٌ عرْدٌ
* مثلُ ذراعِ البكرِ أو أشدُّ *

فمَطَفْتُ عليه عَطْفَ النَّائِرِ الْعَاسِفِ ، وَآلَفْتُ إِلَيْهِ الْبَتَاتِ الطَّائِرِ الْخَاطِفِ ؛
فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَخَاهَيْتِ ، قَدْ قُلْتَ مَا شِئْتَ ، فَاجِبِ الْآنَ إِذَا دُعِيتَ ؛ وَأَلْزِمِ مَكَانَكَ ،
وَعُضِّ عِنَانَكَ ، وَقَصِّرْ لِسَانَكَ ؛ إِنَّ نَادِيَةَ ضَمْرَةَ خَنَدَفَتْهُ ، لَمَّا وَصَفَتْهُ ؛ وَمَا سَمِعْتُ
فِي نِسْبَتِكَ إِيَاهُ يَلْحَنِدِفُ ذِكْرًا ، فَأَيُّنُ عَنْ ذَلِكَ عُدْرًا ؛ فَقَالَ : إِنَّ خَنِدِفَ هِيَ امْرَأَةٌ
أَلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ ، غَلَبَتْ عَلَى بَيْنِهَا فَنَسَبُوا إِلَيْهَا ، كَطَهْمِيَّةٍ وَمُزَيْنِيَّةٍ ، وَبَلَعْدِيَّةٍ وَعُرَيْنِيَّةٍ ،
وَالسَّلَكَةِ وَجُهَيْنِيَّةٍ ، وَنُدْبَةَ وَأُذَيْنَةَ ؛ وَكَشَيْبِ بْنِ الْبَرِّصَاءِ وَأَبْنِ الدِّعْمَاءِ . فَقُلْتُ لَهُ :
سُئِلْتُ ، فَأَجَبْتَ وَأَصَبْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي عَنْ خَنِدِفَ هَلْ هُوَ اسْمٌ مَوْضُوعٌ ، أَوْ لَقَبٌ
مَوْضُوعٌ ؛ فَوَقَّفَ عِنْدَ ذَلِكَ حِمَارَهُ ، وَنَحَمَّتْ نَارُهُ ؛ وَرَكَدَ جَرِيَانُهُ ، وَسَكَنَ هَدْيَانُهُ ،
وَقَرَّ غَلِيَانُهُ ، وَظَهَرَ حِرَانُهُ ؛ وَذَلَّ وَأَنْقَمَعَ ، وَأَنْطَوَى وَأَجْتَمَعَ ؛ فَاضْطَرَّ الْحَيَاءُ ، وَأَجْلَاهُ
الْأَسْتِجْدَاءُ ؛ إِلَى أَنْ قَالَ وَهُوَ يُخْفِي لَفْظَهُ ، وَيُطْرِقُ لِحْظَهُ : أَظُنُّهُ لِقَبًا . فَقُلْتُ : هُوَ
كَمَا ظَنَنْتَ فَمَا مَعْنَاهُ وَمَا سَبَبُهُ ؟ وَكَيْفَ كَانَ مُوجِبُهُ ؟ فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَقُولَ :
لَا أَدْرِي ، فَقَالَ وَقَدْ أَذَقْتُهُ مَرُّ الْإِمَاتَةِ ، وَأَحَسَّ مِنَ الْقَوْمِ بِتَطَاهُرِ الشَّمَاتَةِ :

وَوَدَّ يَجِدُ الْإِنْفَ لَوْ أَنَّ صَحْبَهُ * تَنَادَوْا وَقَالُوا فِي الْمَنَاجِحِ : نَمَّ !

ثُمَّ أَقْبَلُوا إِلَى ، وَعَكَّفُوا عَلَيَّ ؛ بِأَوْجِهِ مُهَلِّلَهُ ، وَالنِّسْبَةَ مُتَوَسِّلَهُ ؛ فِي شَرْحِ الْحَالِ ،
وَالْقِيَامِ بِجَوَابِ السُّؤَالِ ؛ فَقُلْتُ : هَذَا بَدِيعٌ عَجِيبٌ ، أَنَا أَسْأَلُ وَأَنَا أُجِيبُ ؛ إِنَّ أَلْيَاسَ
أَبْنِ مُضَرَ تَزَوَّجَ لَيْلَى بِنْتَ ثَعْلَبَةَ ^(١) ، بِنَ حُلْوَانَ ، بِنَ الْخَلِيفِ ، بِنَ قُضَاعَةَ ، بِنَ مَعْسَدَةَ ،
(فِي بَعْضِ النَّسَبِ) ، فَوُلِدَ لَهُ مِنْهَا : عَمْرُو وَعَامِرٌ وَعُمَيْرٌ . فَفَقَدْتُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَأَلْحَى

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

على ليلى باللوم، فقال: أخرجني في أثرهم، وأتيني بجبرهم؛ فعمنت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أخدم في أتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم؛ فقال لها الياوس: أنت خديف. والخدمدة في الأتباع، تقارب الخطو في إسراع؛ وقال عمرو: يا أبتى أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنت مدركة إذ حويته. وقال عامر: أنا طبخته وشويته. فقال له: أنت طايحة إذ شويته. فقال عمير: أنا أنقمت في الحباء، فقال له: أنت قعمة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم آستفدته، وفضل آستردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوى الألباب، نماء في الآداب. فقلت له ممتثلاً:

أقول له والرُح ياطر متنه * تأمل خفافاً: إني أنا ذليكا!

ثم لم يحتسب إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طمعاً بأن يأخذ بالنار، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم النسيبة، وجال في ميدان العريية؛ ولم يحس أن باعه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر؛ فقال: حضرت يوماً حلبة من حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مصتغ، وحكم مقنع، وعالم مصدع؛ ومليء من كل عتيق صهال، وفتيق صوال، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالمتقى، بيت [الفرزدق] ^(١):

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحاً أو مجلف!

(١) الزيادة من اللسان مادة - س ح ت - و - ج ل ف - .

فَكَثُرَ فِيهِ الْحَدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ
الْقِرْطَاسَ ؛ وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْتَّحْقِيقِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ فِي عَمْرِيَّتِهِمْ سَاهُونَ ،
وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يِعْمَهُونَ ؛ فَنَادَيْتُهُمْ : إِلَى قَسَارِعُوعُوا ، وَمِنِّي فَاسْمَعُوا ؛ فَإِنِّي أَنَا ابْنُ بَجْدَتِهَا ،
وَعَالِمُ مَا تَحْتُ جِلْدَتِهَا ؛ ثُمَّ إِنِّي أَبَدَيْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ؛ وَحَلَّاتُ عُقَدَهُ ،
وَمَحَضَتْ زُبْدَهُ ، وَأَطْرَتْ لَبْدَهُ ؛ وَبَجَسَتْ حَجْرَهُ ، وَأَبَثَّتُمْ عُجْرَهُ وَيُجْرَهُ ؛ فَقَالُوا : لِلَّهِ
أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَغَايَاهُ ؛ وَأَجْلَانَا لَشَبْهِهِ ، وَأَضْرُونَا فِي بَدْهِهِ ؛
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ يَوْمٍ يَعْلَمُ مَا فِيهِ ، وَيَطَّلِعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَأَدْرَكَنِي الْأَمْتِعَاضُ ، وَأَخَذَنِي الْإِتْمِنَافُ ؛ فَانْشَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ؛ فَأَخْبَرَنِي دُنْ أَوَّلَ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجْرِي
الْكَيْتِ ؛ وَكَيْفَ نُنْشِدُهُ : وَعَضَّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضَّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ،
فَقُلْتُ : نَبْتَدِي بِالْفِعْلِ ثُمَّ نَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ يَازَا الْإِعْجَابَ ، تَهْيَأُ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ؛
وَأَخْبَرَنِي لَمْ تَفْتَحْ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّغَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ،
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ ؛ فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابٌ تَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا تَعْدِمُهُ ؛
وَإِنَّمَا أَلْتَمَسُ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةِ
النُّحَاهِ ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ؛ فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . فَقُلْتُ : دَعِ
عَنكَ هَذَا وَأَخْبَرَنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلِغَلَّةِ أَمْ لَغَيْرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّرُ ، وَيَتَنَابَّ
تَارَةً وَيَتَنَحَّحُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَعُضَّ بِرِيقِهِ ؛
قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْتِي سِلَاحَهُ ، وَعُضَّ جِمَاحَهُ ؛
وَمَنْ أَدْبَرَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، عُدِلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحق أبلج لا يحسد سيده * والحق يعرفه ذوو الألباب!

والآن فقد فازت قداحك ، وبانت غررك وأوضأحك ؛ وأجدت النصال ،
وأدركت الخصال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دللت ؛ لئلا يقال : هذا
بهت ، ومحالٌ بحت ؛ فقلتُ حباً وكرامه ، إسمع أنت يا طعامه ؛ إنَّ الفعل من
فاعله ، كالولد من ناجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كلِّ قائل ؛
وهي الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضارعه . وبيان ذلك :
أن الفتحة لا تكون مع التاء والنون ... فتثبت الفتحة ، ثم تقول : أخرجتُ
وأخرجنا ، فتنسقط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت
النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة ، فتقول : أخرجنا الأمير ، فهذا
بين . فصفت الجماعة وسمحت ، وحسنت وحبحت ؛ وجعل الأديب يضطرب
أضطراب العصفور ، ويتقلب تقاب الصقور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ،
وبأزيه عاد صردا ؛ ودوره انقلبت محشلبا (؟) ، وزيتونه تحول عربا ، وقناه تغير
قصبا ؛ وأن مستقبله تعوج ، وجيده تبرج ، وصحيحه تدرج ، وجديده تخرج ؛
فقال منشدهم :

ترى الرجل النحيف فتدريه * وتحت ثيابه أسد مزير ،

ويعجبك الطير فتبتأيه * فيخاف ظنك الرجل الطير .

فما عظم الرجال لهم بفخر * ولكن خرمهم كرم وخير!

فأخذه الأبلاس ، وضافت به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفضه
الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفمه العض ؛ ويتشاءم بيومه ،

ويعودُ على نفسه بلومه ؛ يمسحُ جبينه ، ويكثرُ أنينه . فقامتُ فقامتُ معي الجماعة
وتركتُه ، وأسْتَهانتُ به وفركتُه ؛ فلما بقيَ وحده ، تمنىَ لحدّه ؛ وأسبَل دمعته ،
وودَّ أن الأرضَ بلعته :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ * تلوذُ بحقويه السراةُ الأكبرُ ،
فأصبحَ مثلَ الأجرِبِ الحِلْدِ مُفردًا * طريدًا فما تدنو إليه الأباعرُ !

فقام فنبعني ، ووقف وودعني ؛ وأطال الاعتذار ، وأظهر التوبةَ والأستغفار ؛
وقال : مثلك من ستر الخلال ، وأقال العثرةَ والزَّلَّال ؛ فقد آخترتُ من سنك بالحدائنه ،
ومن أخلاقك بالدمائه . فقلتُ : كلُّ ذلك مفهومٌ معلوم ، وأنت فيه معذورٌ
لاملوم ؛ وما جرى بيننا فهو منسيٌّ غير مذكور ، ومطويٌّ غير منشور ، ومحفيٌّ
غير مشهور :

و[جدال] أهل العلم ليس بقادح * ما بين غاليهم إلى المغلوب !

ثم سكتَ فما أعاد ، ونزلتُ وعاد ؛ وكان ذلك أولَ عهدٍ به وآخره ، وباطنَ
لقاءٍ وظاهره ، وكلَّ اجتماعٍ وسائرِه .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الرسائل)

وهي جمع رسالة ، والمرادُ فيها أمورٌ يرتبها الكاتبُ : من حكاية حالٍ من عدوِّ
أو صيدٍ ، أو مدحٍ وتقريضٍ ، أو مفارقةٍ بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا
الجرى ، وسميتُ رسائلٍ من حيثُ إنَّ الأديبَ المنشئَ لها ربَّما كتبَ بها إلى غيره

مُخْبِرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَحَةً بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْمَكْتُوبَاتُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَانْتَحَتْ بِالْخَطِّبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائل الملوكة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، وأقتلاعها من أيدي التتار ، وأستيلائه على ملكها ، وجأوسه على تخت بنى سلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما أشتمت عليه حال تلك السفرة ، وهي :

يُقبَلُ الأَرْضَ بِسَاحَاتِ الأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبِهَائِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا لَزَالَتْ رَكَائِبُ السَّيْرِ تَحْتُ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَالِمُ خُدَامَهَا وَتُحِلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ ، وَلَا بَرِحَتْ مَوْطَنَ الْبِرِّ وَمَعْدِنَ الْجُودِ وَبَحْرَ الْكَرَمِ وَعُكَاظَ الْخَيْرِ ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ أَدْعِيَتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الإِجَابَةِ مَحُوطَةً ، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً ؛ أَنَّ الْعَيْدَ مِنْ شَأْنِهِمْ إِتْحَافُ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الأَسْتِرْقَاقِ ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ أَحْسَنَتْ لِأَفْوَاهِهِمْ الأَسْتِنَاطَ ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عَسَاهُ يَعْزُ مِنْ مَرَاحِمِهِمُ اتِي مَاعِنْدَهُمْ غَيْرِهَا يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٌ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في ما تراه الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نفعاتها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بأصح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ وإما قصد أن يتحف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بمبودية مولانا: والله أعلم حيث يجعل رسالاته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هدى، فما زال شرح الوقائع مطولا كذا؛ وتالله ما ورح مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيرا من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطل؛ والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتأمل في حجلها حتى تسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها،

.....

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزومات الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يبتقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنايك الخيل نار، ولا تمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزدد الزائر من الأهبه، أو يتزود الطائر من النغبه؛ تسبق وفد الرياح من حيث نتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتجى؛ تحمل هنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيها هذا الهمام؟ * نحن نبت الربا وأنت الغمام!

ومرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمه إلا عمه ولا جيل إلا طاله ؛
 تسيره السوارى والغواذى ، ولا ينفك الغيث من أنسكاب في كل نادٍ ووادى :
 فباشروجهًا طامًا باشراً القنا ، * وبلى ثيابًا طامًا بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامات حريمهم ،
 وحمل آلات طعنهم وضربهم :

فجاز له حتى على الشمس حكمة ، * وبأن له حتى على البدر ميسم .
 يد يديه في المفاضة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثانی ذی القعدة جرائد على الأمر المعهود ،
 قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود ؛ فسرنا في جبال نشتمى فيها سلوك الأرض ،
 وأودية تملك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركنض ؛ تزور دياراً ما نحب
 معناها ، ولا نعرف أقصاها من أذناها ، وأستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رحى الدرب بالخليل العتاق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
 شوائل تشوال العقارب بالقنا * لها مرخ من تحته وصهيل .
 [وما هي إلا خطرة عرّضت له * بحزان لبثها قنا ونصول
 همأم إذا ما هم أمضى همومه * بأرعن وطء الموت فيه ثقيل
 وخیل برأها الركنض في كل بلدة * إذا عرّست فيها فليس ثقيل]
 فلما تجلّ من دلوك وصنجة * عات كل طودٍ راية ورعيل

(١) الذى فى ديوان المتنبي : بالجرّد الجواد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طُرُقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رِفْعَةٌ * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ مَحْمُولٌ !

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُكَ وَهِيَ رُسُومٌ سُكَّانُهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنِ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَهَةِ غُدْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَدَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِقٍ مُوقَدَةٍ ،
فِي عَمَدٍ مِنْ كَنَاسِهَا مُمَدَّدَةٍ ؛ وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرَجٍ الدِّيَابِجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ ظُلُمَاتُهَا مُدْمِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
عَلَيْنَا عُمَةً ، لَا يَثْبُتُ تَرَبُّهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّهَا سَالِكُهَا يَمْشِي عَلَى شَفَا جُرْفِ
هَارٍ ؛ فَبِتْنَا هُنَاكَ لَيْلَةً نَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمَّتْ الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةٌ هُجُوعٌ ؛ وَأَخَذْنَا فِي آخِرَاتِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّفِيقَ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَسْغُلُهُ عَنِ
أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِي مِنْهَا كُلُّ غُضْنٍ يُرْسِلُهُ الْمَتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَنَجْنِيقِهِ ؛ حَوْطًا مَعَاثِرُ أَهْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بَعَثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَفَطَّرَتْ ؛ بَيْنَهَا
مَخَائِضٌ ، لَا بَلَّ مَغَائِضٌ ، كَأَنَّهَا بَحَارٌ بَحُرَتْ ؛ مَا نَخْرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
بِالْحَدَاوِلِ وَتَعَمَّمَتْ بِالثَّلُوجِ ، وَعَمِيَّتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاهِجَهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُّ
شَجَرَاتُهَا أَلْتِفَافَ الْأَكْحَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلَقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِقَةٍ ، وَأُودِيَةٍ
بِالْمُزْدَحِمِينَ مُحْتَنِقَةٍ ؛ بَيْنَمَا يَقُولُ مُتَحَيِّمًا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بِسُلْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْمِنُنَا :

(١) سَوْدُ الشَّمْسِ مَنَابِيضٌ أَوْجُهِنَا ، * وَ [لَا] سَوْدٌ بِيضُ الْعُدْرِ وَاللَّيْمِ ،
[وَكَانَ حَالَهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكِيمٍ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرِي، * مَسَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ!

حتى وصلنا الحَدَثَ الحَمْرَاءَ الْمُسَمَّاءَ الْآنَ بِكَيْنُوكَ ومعناها الْمُحْرَقَةُ ، كان الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سِيسَ قد أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا، وَتَمَلَّكَهَا وَعَمَرَهَا، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتُّجَّارِ . فلما كان في سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ سَيرَ مولانا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَأَفْتَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالذَّرِيَّةَ، وَخَرِبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ يُبِينُ؛ فَشَاهَدْنَا مَا بَنَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِنُ حَمْدَانَ مِنْهَا وَالقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَيا حَوْلَهَا مُتَلَاظِمٌ، وَقِيلَ حَقِيقَةٌ هُنَاكَ : عَلِيٌّ قَدَرِ أَهْلِ الْعَزِيمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ؛ وَهِيَ الَّتِي عَنَّا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَصَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا * فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَالًا

فَهِيَ تَمَشِي مَشَى الْعُرُوسِ أَخْتِيالًا * وَتَنَنِّي عَلَى الزَّمَانِ دَلَالًا!

فَبِتْنَا بِهَا وَأَبْتَيْنَا وَخَيْلُنَا مَبْنُوتَةٌ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا نُتِرَتْ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَدُوسُ؛ إِذَا زَلَقَتْ مَشَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِالصَّهِيلِ : «وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ» ؛ وَخُضْنَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَخَائِصَ سِوَاغٍ ، كَأَنَّهَا لِأَجْلِ عَوْمِ الْخَيْلِ بِهَا سُمِّيَ كُلُّ مِنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَابِجٌ ؛ كَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا بَحْرٌ قَدْ قَطَعْنَاهُ أَعْتَرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ يُسَمَّاهُ دُونَ الْهُوِيِّ فِيهِ نَفَادُ الْأَجَلِ ؛ لَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كُوكُصَا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رُدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبَنْدَاتِ لِمَا قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوِيُّ رِجَامِهَا ، وَمَثْوِيُّ عَمَامِهَا ، وَمَلْوِيُّ زِمَامِهَا ، وَمَأْوِيُّ قَتَامِهَا ؛ فَلِلْوَقْتِ عَبْرَانَهُ رَكُضًا ، وَأَعْجَلَتْ الْخَيْلُ فَمَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ بِلُحَّةٍ أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخَرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ، وَوَقَعَ
السَّيَّاحُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ؛ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِ رَبَّنَدٍ فَمَا ثَبَّتَ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَافِحَةٍ صَفَّاهَا، وَلَا نَعْلُهُ لِمَكَاخِفَةِ رَحَاهَا، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارِحَةِ قُوَاهَا؛ وَتَمَرَّتْ
الْحَيْلُ عَلَى الْأَقْبِحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطَرُّقِ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرِبِ
وَالتَّسْلُقِ؛ فَصَارَتْ نَحْطُ أَنْحِطَاطِ الْهَيْدَبِ، وَتَرْتَفِعُ آرْتِفَاعِ الْكَوْكَبِ؛ وَتَسْرِي
سَرِيَانِ الْخَيْالِ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْجِيَادَ فَتَرُولُ مِنْهَا الْجِبَالَ؛ حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْجَادِ رَبَّنَدٍ وَهُوَ خِنَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمْ أَمْسَكَ عَلَى طَارِقِ، وَفَمُ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمْ عَضَّتْ أُنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقِ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ تَامِنِ
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ، وَسَمَّجَتْ السُّحُبُ بِمَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَبَرَدٍ، وَجَاءَتْ الرِّيَّاحُ بِمَا آلَمَتِ الْجِلْدَ وَاسْتَنْفَدَتِ الْجِلْدَ؛ وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتِ الْمَفَاوِزَ، وَمَلَكَتِ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ؛
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِسٍ مِنَ التَّنَّارِ مَقْدَمُهُمْ كِرَايَ، فَانْمَزَمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مِنْ قُدَمِ السُّيْفِ السُّلْطَانِيِّ فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَأَسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةً فَيَعْنُ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّنَّارِ وَيُؤَسَّرُ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّنَّارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أْتَمِّ
تَيْقِظٍ وَأَعْظَمِ حَذَرٍ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جِيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةَ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بَعْدَ الْخَبَرِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرُبُوا، وَأَنَّهُمْ تَأَبَّأُوا وَوَشَّوُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَحْيٍ * أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدمه ، والاجتماع عند المصدمه ؛ ورتب جيش الإسلام اللجج ، على ما يجب ، وأراهم من نور رأيه . الا على بصير ولا بصيرة يحتجب ، فطلعت العساكر مشرفة على صحرات هوني من بلد ابلستين ، وكان العدو ليلته تلك بائنا على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرمَن لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا بمفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخود الصفرة المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيرانا مقتدحة ؛ رجعوا إلى ما كانوا عقدا من العزائم فحلقوا ، وسقط في أيديهم وراوا أنهم قد ضلوا ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتساعلون ، وعلى الموت يترأسلون ؛ فانضبت الخيل إليهم من أعلى الجبل آنصباب السيل ، وبطلت الخيلة منهم ونفى الخيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبنا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ؛ وكان فيهم من المقدمين الجار تدلون ، ومعنى هذا الاسم التقاذ ، يعنى أنه ما كان في عسكر قط إلا نفضه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخوتدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمي الألوف ذنك ، وصهر أبنا ، وقرالقي وخواصه :

بِيضُ الْعَوَارِضِ طَعَانُونَ مِنْ حَقُّوْا * مِنَ الْفَوَارِسِ سَلَالُونَ لِلنَّعِيمِ !
قَدْ بَلَّغُوا بَقَانَهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِ * وَلَيْسَ يَبْلُغُ مَا فِيهِمْ مِنَ الْحِمَمِ .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * مِنْ طَيِّبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ!
 فَعِنْدَ مَا شَاهَدُوا تَجْدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَتَحَقَّقُوا أَنْ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ؛ أَخَذَتْ فِرْقَةً مِنْهُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ فَقَاتَلَتْ ، وَعَاجَتِ الْمَنَائِمَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ ؛ وَبَاعَتْ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ
 لَهُمْ وَتَاجَرَتْ ، وَكَسَّرَتْ وَمَا كَاسَّرَتْ ؛ وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَانَ ؛ وَلِلْوَقْتِ خُذِلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبَطُونِ السَّبَاجِ وَحَوَاصِلِ
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ؛ وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ؛ فَكَمْ مِنْ شَجَاعِ الْأَصْبَقِ ظَهَرَهُ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامِي ، وَنَاضَلَ وَرَامِي ؛
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ ، مَا سَلَّمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِتَابَتِهِ سَهْمٌ ؛ وَذِي سِنَّ طَارِحَ بِهِ فَمَا
 طَرَحَهُ حَتَّى تَسَلَّمَ ، وَذِي سَيْفٍ حَادِثَهُ بِالصِّقَالِ فَمَا جَلَى مُحَادَثَةٌ حَتَّى تَكَلَّمَ ؛ وَأَبَانُوا
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَبِيهِ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَنَحْوَةٍ عَرَبِيَّةٍ ؛ وَأَشْتَدَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 مِنْ جِهَةِ الْمَيْسِرَةِ مُعَرِّجِينَ عَلَى السَّنَاجِقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُتَقَلِّبِينَ بِصُفُوفِهِمْ
 عَلَى صَفْفِهَا :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ * أَحَدٌ سَلَّاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ!

فَتَابَ مَوْلَانَا لِإِلَيْهِمْ ، وَوَتَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْطٍ ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادَ
 فَأَفْرَطَ ؛ وَحَلَقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّحْصِينِ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخْذَةَ
 الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتَلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمَشَّى النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ؟

وَأَنْهَزَتْ جَمَاعَةٌ يَسِيرَةً طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِّ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخَذَتْهُمْ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةِ غَدِهِ فِي أَمْسِهِ .

مَضُوا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ حِثَارُ

إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاوَلْتَهُمْ * بِأَرْمَاحٍ مِنَ العَطَشِ الفِقَارُ!

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوبأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى
 صَجِرَ الحديد من الحديد؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلالة -
 لما دُعيت نزال أول مسابق، وأسرع راشق؛ وأقرب مطاعن، وأعظم معاون؛
 فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته، وأجمل في كرتيه، وأجاد في طعنته؛ وزار
 زير الأيثار، وسابق حتى لم يبق حيث؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله،
 وخضب بما تحدر من دم عدوه أخفاف سرجه وعنان لحامه، وكانت عليه من الله
 باقية واقية في تقدمه وإقدامه؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي
 السلاح، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الحراح؛ وأراد الله أن لا يُجلبه من
 إسالة دم يعظم الله الأجر بسائله، فجعله - والمِنَّة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيذمر الدوادار الظاهري، قال: لقيتني وقد تكسرت
 رُمحي، وعاد - لولا لطف الله - إلى الخسارة رجعي؛ فأعطاني المولى الصاحب
 زين الدين رُمحه فإذا فيه نصول، وبسنه من قراع الدارعين فلول؛ ورأيت دُبوس
 المولى الصاحب زين الدين وقد تشلم، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً
 ولكن الله سلم؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال:
 سيف مولانا السلطان هو الذي سفك، وعزمه هو الذي فتك .

وَمَنْ يَكُ مَحْفُوظًا مِنَ اللَّهِ فَلْتَكُنْ * سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَادِرُهُ كَذَا،

وَيُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا * وَلَا مَنَّ يُّدِيهِ وَلَا نَالَه أَدَى!!

وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهرل والصوافن، وما يصولون به
 من سيوف وقسي وكائن، وما يلبسونه من خود ودروع وجراشن، وما يمتولونه

من جميع أصناف المعادين ؛ فَعِمْ مَاهُنَاكَ ، وَتَسَلِّمْ من أَسْتَشْهَد من المُسْلِمِينَ رِضْوَانُ
وَتَسَلِّمْ من قُتِلَ من الكُفَّارِ مَالِكِ .

وكان الذين أَسْتَشْهَدُوا في هذه الوَقْعَةِ من المُقَدِّمِينَ : شَرَفُ الدِّينِ قَيْرَانُ العَلَايِيُّ ،
وَعِزُّ الدِّينِ أَخُو الأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ المُحَمَّدِيُّ . ومن المماليك السلطانية : شَرَفُ الدِّينِ
فَلدَحِقُ (؟) الجَاشَنكِيَرِ الظَّاهِرِيُّ ، وَأَيُّبُكَ الشَّقِيْفِيُّ الَّذِي كَانَ وَزِيرَ الشَّقِيْفِ . وكان
المجروحون عِدَّةً لَطِيفَةً لم يُعْلَمِ عَدَدُهَا لِقَاتِهَا ، بل لِحَقَّتِهَا ؛ وَأورثَ اللهُ المُسْلِمِينَ مَنَازِلَهُمْ
فَنزَلُوها ، ووَطَاقَاتِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ فَتَمَوَّلُوها ؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أعداؤه كما قيل :

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَحَهُمْ وَبَسَطَهُمْ تَرَابٌ !!

وَأَصْبَحَ الأَعْدَاءُ لا تُرَى إلا أَشْلاؤُهُمْ ، وَلا تُبْصَرُ إلا أَعْيَاؤُهُمْ ؛ كَأَنَّما جَزُرُ
أَجْسَادِهِمْ جَزَائِرٌ يَتَخَلَّلُها من الدَّماءِ السَّيْلُ ، وَكَأَنَّما رُءُوسُهُم المَجموعَةُ لَدَى الدَّهْلِيْزِ
المَنْصُورِ أَكْرَ تَلْعَبُ بِها صَوَاحِلُهُ من الأَيْدِي والأَرْجُلِ من الخَيْلِ :

أَلْقَتْ إلينا دِمَاءَ المُغْلِ طَاعَتِها * فَلوَدَعَوْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دَمُ!

فَكَمْ شاهِدَ مولانا السلطانُ مِنْهُمْ مَهِيْبَ الهَامَةِ ، حَسَنَ الوَسَامَةِ ، نُتْفَرَسُ في جِهَامَةِ
وَجْهِه الفَخَامَةِ ، قد فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فَقرَعَ السِّنَّ على الحَقِيْقَةِ نَدَامَهُ :

وَوُجُوهاً أَخافَها مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكَتْ حُسْنَها لَه وَالْجَمالَ!

أو كما قيل :

لا رَحِمَ اللهُ أَرُوساً لَهُمْ ^(١) * أَطْرَنَ عَن هَامِئِنَّ أَحْفَافاً!

وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولأخبار شجاعته
يتواصفون ؛ فَمَنْ من قائل : هَذَا فلانٌ وَهَذَا فلانٌ ، وَهَذَا كانَ وَهَذَا كانَ ؛ وَهَذَا

(١) في ديوان المتنبي "لا يرحم".

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْأُلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذَهَبِهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ
الصُّفُوفُ ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الْمُغَلِّ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كُبْرَائِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَمِلَ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُخَنِّ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
فَجَعَلَهُمْ لِلسُّيُوفِ طُعْمَهُ ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الرُّومِ قَرِيبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّه :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يُحْفَظُ الْيَدَا !

وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارِيِّ الرُّومِيِّينَ مُهْدَبُ الدِّينِ بِكَلَارَنْكِي ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدُ الْبِرْوَانَاهُ ، وَنُورُ الدِّينِ جَاغَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ ، فَكَانَ الْبِرْوَانَاهُ أَحَقُّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

نَجَوْتُ بِإِحْدَى مَقْتَلَيْكَ جَرِيحَةً * وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلًا !

أَتَسَلِمُ لِلخَطِيئَةِ أَنْبَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلًا ؟

لَأَنَّهُ شَمَّرَ الدَّلِيلَ ، وَأَمْتَطَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَدْهَمَ اللَّيْلِ ؛ وَثُمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ ، وَهَمَّ قَلْبَهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :

فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، * وَالْبُرُّ فِي سُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي مَجَلٍ !!

وَدَخَلَ الْبِرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا ، وَالصَّاحِبَ نَخْرَ الدِّينِ بْنِ عَلْمَا (؟) وَالْأَتَايِكَ مَجْدَ الدِّينِ ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي ، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبِ ، وَالْأَمِيرَ فُلَانَ
الدِّينِ الطُّغْرَائِي ، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ أُنْحَى الْبِرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغَلِّ وَبَقِيَّتُهُمْ مِنْهُمْ مُونَ ، وَيُحْشَى مِنْهُمْ دُخُولَ قَيْصَرِيَّةَ
وَإِتْلَافَ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَأَخَذَهُمْ جَرَأَنَدُ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْحَى خَاتُون بِنْتُ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ، فَاسْتَصْحَبَتْ مَعَهَا
 أَرْبَعَةَ جَارِيَةٍ لَهَا، وَكَانَ لَهَا مَا لَا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَخَائِيِّ وَالْخِيَامِ وَالْآلَاتِ،
 وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَاتِ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةً أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مِنْ
 قَيْصَرِيَّةٍ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الْهَرَبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ
 اقْتَرَبَ ؛ وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبِرَوَانَةَ أَمْرَهُ
 وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا يُخْبِرُ بِمُخْرَجِهِمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُتْقَرَّ الْأَشْقَرِ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا
 بِهِ لِإِدْرَاكِكَ مِنْ فَاتٍ مِنَ الْمَغْلِ ، فَهَرَّوْا فِي طَرِيقِهِمْ بِفِرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ؛
 وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ
 السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَنَزَلَ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ
 بَرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبٌ حُسْبَانٍ
 مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْخَطِّ
 الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمَسْمُوءَةُ بَرِيَّانَ فَانَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ
 كَأَلْهَرَمٍ إِلَّا أَنَّهُ مَأْمُومٌ ، وَعُمِّرَتْ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَسَدَتْ كَأَنَّهَا
 مَجْرَةُ النُّجُومِ ؛ وَمَا مِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دَرَابِزِينَاتٍ مَنجُورَةٍ ،
 وَرَوَاشِنَ قَدْ بَدَّتْ فِي أَكْمَلِ صُورِهِ ؛ يَخْتُمُّهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيُوتَانِ ، وَيَعْلُوهَا مِنْ
 رَاسِهَا مَنْزِلٌ مُسَمَّى الرَّاسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةَ السَّنَانُ ؛ وَتَطُوفُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ جِبَالٌ كَأَنَّهَا
 أَسْوَارٌ بَلِ سِوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَدْوَةٌ نَارٌ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ
 فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا يَهْبُوطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ،
 وَمَضَائِقُ لَا يُلْفَى عِبْرَهَا لَنَا كَبِ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ
 مِقَاسَةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبٌ كُلٌّ وَهَدَى ؛ وَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَحَلَّصَ مِنْ تَحَلُّصٍ ، وَحَضَرَ مِنْ كَانَ فِي الْمَضَائِقِ قَدْ تَرَبَّصَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْأَرْضِ حَصَّ حَصَّ .

وَرَحَلْنَا مِنْ هُنَاكَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرَ ذِي الْقَعْدَةِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ حَيَّتِ الْأَرْضَ بِيَجَانٍ أَمْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الْمَوَاطِمَ فِي أَجْحَارِهَا ، وَالْفُتُوحَ فِي أَوْكَارِهَا ؛ وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ لَا تَمْسُكُ حَتَّى وَلَا لِمُرُورِ الْأَرَاقِمِ ، وَالْجِبَالُ لَا تَمْسُكُ أَنْ تَكُونَ لِلْعِصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بِهَا مِنَ الدَّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَتَلَقُّ فِي صَقِيلِهَا أَرْجُلَ النَّمْلِ ؛ وَسِرْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ نَهَارًا كَلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الْغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسَائِمِنَا أَيْدِي الدُّرُوبِ مِنْ أَيْدِي الدُّوُوبِ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً فِي مُنْتَقِعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ، وَمِيَاهٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةٌ تَكُ الْأَرْضِ بِوِطَاءَةِ قَشَلَا وَسَارِ (٩) مِنْ أَعْمَالِ أَصَارُوسِ الْعَتِيقِ . وَيَقْرُبُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ مَعْدِنُ الْفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قَدْ شَرَعْنَا فِي أَهْبَةِ الْمَيْتِ ، وَلَمْ نَقْضِ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ قَدْ صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قَدْ سَنَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بِأَنْ فَوْجًا مِنَ التَّنَّارِ فِي بَحْوَةٍ هُنَاكَ قَدْ أَسْتَرَوْا ، وَفِي تَجْوَةٍ لَغْرَةٍ قَدْ أَنْتَظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَرَكِبَ النَّاسُ فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَابِعُ الْغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ؟ ؛ ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ وَعَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فِيمَنَّا نَوْمَةٌ السَّلِيمِ ، وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً فِي كُلِّ وَادِيَتِهِمْ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ ، وَتَنَبَّسَتْ عُدْرَاءُ الطَّرْفِ فِيهَا حِينَ يَكْبُو فِيهَا الطَّرْفُ ؛ نَخْطُ مِنْهَا إِلَى جَنَادِلَ ، يَضَعُفُ عَنِ الْمُهْوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الْأَجَادِلِ ؛ بَيْنَمَا نَقُولُ : قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهَا نَفَادًا وَمِنْهَا نَفَادًا ، وَإِذَا بَعْدَ الْأُودِيَةِ أُوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الْجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أَوْتَرَكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ مِنْ حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخَرُ

للسبيل على رأس رابية هناك تعرف باشيدي ، قرياً من حصن سمندو ، التي عرض بها أبو الطيب في قوله :

فإن يقدم فقد زرنا سمندو * وإن يحجم فوعده الخليج!

وكان مولانا السلطان قد سير إليها خواصه بكتاب إلى نائبها فقبله وقبله ، وأذعن لتسليم حصنها المنيع والتزول لأمر السلطان عنها إن استزله ، فشكر مولانا السلطان له تلك الإجابة ، ووفاه من الشكر حساباً . وكذلك إلى قلعة دوندا وإلى دوالوا ، فكلهم أجابوا وأطاعوا ولكلمة الإذعان قالوا ، وتزلنا في وطاة قريب قرية تعرف بجمرها ، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت ، والخيول قد باتت ليالي بلا علفي فما استفادت ، وشاركتها خيول الكسوب (؟) في علفها ، وما ساعدتها في طروقها ولا في طريقها ، فضجعت عن حمل نفوسها فما ظنك براكيها ، وكاد الفارط - لولا لطف الله عز وجل - أن يفرط فيها ، فصادفنا في هذه الليلة بعض أثبان أمسكت أرقامها ، وأحسنت إرفادها وإرفاقها .

وأصبحنا في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة راحلين في جبال كأنها تلك الأول ، وهاطين في أودية يمتني سالكها من شدة مضايقتها أن لو عاد إلى ترقى أعلى جبل ، وما زلنا كذلك حتى أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي يدل على شرف همة بانيه ، وطلب ثواب الله فيه ، وذلك أنه من أكبر الأبنية سعة وأرتفاعاً ، وأحسنها شكلاً وأوضاعاً ، كله مبنى بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه رخام ، ومن ظاهر أسواره وأركانها نقوش لا يتمكن أن يرسم مثلها بالأقلام ، وله خارج بابيه مثل الرض بيابن بأسوار حصينة ، مبلط الأرض ، فيه حوانيت . وأبواب الخان حديد من أحسن ما يمكن استعماله . وداخله أووين صفيه ، وأمكنة

شَتْوِيَه ، وإصْطَبَلَاتٌ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَيْفٍ ،
 وَمَا مِنْهَا إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وَفِيهِ الْحَمَامُ وَالْبِيَارِسْتَانُ
 وَالْأَدْوِيَةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ الْكُلُّ طَارِقٍ عَلَى قَدْرِهِ ، حَمَلٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
 مِنْ ضِيَافَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
 عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتُبٌ وَمُبَاشِرُونَ
 يَتَوَارُونَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضِ التَّجَارُ إِلَى الْإِطَالِ شَيْءٍ مِنْ
 رُسُومِهِ ، وَأَبْقَوْهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكْرِيمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يِبَالِغُونَ فِي تَجْمِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
 وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقْرُبُ مِنْ قَيْصَرِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
 صَلْعَوْمَةِ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَتُوبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وَهَذَا الْجَبَلُ يعلوه جَبَلُ أَرْجَاسٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَضْرِبُ الرُّومَ الْأَمْثَالَ بِتَسَامِيهِ ،
 وَتَنْتِضَاءُ الْجِبَالِ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِتَعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
 سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ نُجُوجِهِ شِتَاءً وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأَبْجَرَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَاؤُهُ
 مِنْ صُوبِهِ .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مُتَصَفِّ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
 الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةَ مُتَرْتِبَةً ، وَمَلَأَتْ الْقَمْضَاءُ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
 فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوِي أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَفْسَحِ مِيدَانِ ، وَيَصِيحُ بِهِ فَرَحًا
 وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانٌ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ حَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلِكًا وَتَلْقَاهُ سُجَّدًا !

وخرج أهل قيصريّة وأكاريها، وعلماءؤها وزهادها وتجارها، ورعايها ونسائها
 وصغارها؛ فأكرم مولانا السلطان ممّشاهم، وشكر مساعدهم؛ وتلقى قضاتهم وعلماءهم
 رُجباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً؛ وحصلت لجماعة من الفقراء والناسِ حالاتٌ وجد
 مطرِبَه، وصَدَحَاتُ ذِكْرِ مُعْجِبَه. وكان دهليزُ السلطانِ غياثِ الدّينِ صاحبِ الرُّومِ
 وخيامه وشعارُ سلطنةِ الرُّومِ قد بنى جميع ذلك في وطأة قريبِ الجوسقِ والبُستانِ
 المعروفِ بكِخسرو، وترجّل الناس على اختلاف طبقاتهم في الرّكابِ الشّريفِ من
 ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وأرتفعت الأصواتُ بالتهليل والتكبير:

رَجَا الرُّومُ مِنْ تَرْجَى النِّوَابِلِ كُلُّهَا * لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطَّوَابِلُ!

ونزل مولانا السلطانُ في تلك المَضَارِبِ المُعدّةِ لكرمِ الوِفَادَةِ، وَضُرِبَتْ نَوْبَهُ
 سَلْجُوقٌ عَلَى بَابِ دِهْلِيْزِهِ عَلَى الْعَادَةِ؛ وَأَذِنَ مولانا السلطانُ للناسِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَى
 شَرِيفِ فُسْطَاطِهِ، وَسَمِلَهُمْ بِنَظَرِهِ وَأَحْتِيَاطِهِ؛ وَحَضَرَ أَصْحَابُ الْمَلَاهِي، فَما ظَفَرُوا
 بغيرِ النّواهِى؛ وَقِيلَ لَهُمْ: أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَاتَّقِسُوا، وَأَذْهَبُوا إِلَى وادٍ غيرِ هَذَا
 الرَّادِي فَاقْتَسِمُوا؛ فَهَذِهِ الهِنَاةُ لَا تَنفِقُ هُنَا، وَما هَذَا مَوْضِعُ الغِنَاءِ بَلْ هَذَا مَوْضِعُ
 الغِنَى؛ وَشَرَعَ مولانا السلطانُ فِي إِنْفاقِ اللّهِى، وَعَيَّنَ لِكُلِّ جِهَةٍ شَخْصاً وَقَالَ: أَنْتَ
 لها؛ وَحَكَمَ وَحَكَمَ، وَعَلِمَ وَعَلِمَ؛ وَأَعْتَمَدَ عَلَى الأَمِيرِ سَيْفِ الدّينِ جالِيشِ فِي النِّياهِ،
 وَأَعْطَى كَلَّاماً بَيْنَهُ كِتَابَهُ؛ وَأَقَامَ المِجَّةَ عَلَى مَنْ أُنْتَرِحَ بِالاسْتِعْطَافِ، وَتَأْمِينِ مَنْ خَافَ؛
 فَما خَرَجَ كَبِيرُهُمْ عَنِ المُخاتَلَةِ، وَلَا زَعِيمُهُمْ عَنِ المُطَاوَلَةِ؛ فَلَمّا عَلِمَ مولانا السلطانُ
 أَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ، وَغَيْرِ التَّنارِ لَا يَصْلِحُونَ؛ وَأَنَّهُمْ إِنْ أَصْبَحُوا عَلَى الطّاعَةِ لَا يُمَسُّونَ
 وَإِنْ أَمَسُوا لَا يُصْبِحُونَ؛ عَادَ عَنِ تِلْكَ الوَعُودِ، وَأَخْتارَ أَنْ ما بَدَأَ إِلَيْهِ يَعودُ، وَأَنْ
 يَبْعَثَ نَفْسَهُ إِلَى ما بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ المَقامِ المَحْمودِ؛ فَركَبَ يَوْمَ الجُمُعَةِ سابعَ عَشَرَ

ذِي الْقَعْدَةِ مُسْتَقْبَلًا مِنْ اللَّهِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَنَصَبَ جَدِّي سَلْجُوقَ عَلَى رَأْسِهِ فَشَاهَدَ
النَّاسَ مِنْهُ صَاحِبَ الْقَبَّةِ وَالسَّبْعِ وَصَاحِبَ الْقُبَّةِ وَالطَّيْرِ؛ وَدَخَلَ قَيْصَرِيَّةَ فِي بُكْرَةِ
هَذَا الْيَوْمِ وَكَانَتْ دَارَ السَّلْطَنَةِ قَدْ فُرِشَتْ لِنَزْوِلِهِ، وَتَحْتُ بَنِي سَلْجُوقَ وَقَدْ هَيَّئَتْ
لِحُلُولِهِ؛ وَهِيَ دَارُ تَرْهَوَ، وَمَنَازِلُ مِنْ يَتَعَبَّدُ أَوْ مَنَازِرُهُ مِنْ يَلْهَوُ؛ أُنَيْقَةُ الْمُبْتَنَى، تَحْفُ
بِهَا بَسَاتِينُ عَدْبَةِ الْجَنَى؛ جُدْرَانُهَا بِأَحْسَنِ أَصْنَافِ الْقَاشَانِيِّ مُصَفَّحَةً، وَبِأَجْمَلِ
نُقُوشِهِ مُصَرَّحَةً؛ بَجَلَسَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ فِي أَسْمَعِدِ وَقْتُ، وَنَالَ
التَّخْتُ بِجُلُولِهِ أَسْعَدَ الْبَيْتِ :

وَمَا كَانَ هَذَا التَّخْتُ مِنْ حِينَ نَصَبِهِ * لَعَيْرِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ النَّدْبِ يَصْلُحُ .
مَلِيكَ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ مَا فَتَحَتْ لَهُ * صَوَارِمُهُ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي وَتَفْتَحُ .
أَنْتَهُ وَفُودِ الرُّومِ وَالْكُلُّ قَائِلُ : * رَأْيُنَاكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصَفِّحُ .
فَأَوْسَعَهُمْ حِلْمًا وَجَادَ لَهُمْ نَدَى * وَأَمْسُوا عَلَى مَنْ وَأَمِنْ وَأَصْبِحُوا .
وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْنَحُوا لِمَنْكَبِ * عَنِ الْحَقِّ وَالنَّهْجِ الْقَوِيمِ لَأَفْجَحُوا ،
وَلَكِنَّهُمْ أَعْطَوْا يَدًا فَوْقَهَا يَدٌ * تُصَافِحُ كَيْفَا زَنْدَهَا النَّارُ يَهْدَحُ !!!

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى مَوْلَانَا السَّلْطَانِ يَهْنُؤُونَهُ، وَعَلَى كَفِّهِ الشَّرِيفِ يَقْبَلُونَهُ؛ وَبَعْدَ
ذَلِكَ حَضَرَتِ الْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ وَالصُّوْفِيَّةُ وَذَوُو الْمَرَاتِبِ مِنْ أَصْحَابِ الْعَمَامِ
عَلَى عَادَةِ بَنِي سَلْجُوقَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَوَقَفَ أَمِيرُ الْمُحْفَلِ وَهُوَ كَبِيرُ الْمِقْدَارِ عِنْدَهُمْ، لَهُ
وَسَامَةٌ وَنَخَامَةٌ، وَهُوَ أَكْبَرُكُمْ وَأَوْسَعُ عِمَامَةٍ؛ وَأَخَذَ فِي تَرْتِيبِ الْمُحْفَلِ عَلَى قَدْرِ الْأَقْدَارِ،
وَأَنْتَصَبَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَانَا السَّلْطَانِ مُنْتَظِرًا مَا إِلَيْهِ بِهِ يُسَارُ؛ وَشَرَعَ الْقُرَاءُ يَقْرَءُونَ
بِجَمَاعَةٍ وَفُرَادَى بِأَحْسَنِ تَلْحِينٍ، وَأَجْمَلِ تَحْسِينٍ؛ فَأَتَتْ أَصْرَاتُهُمْ بِكُلِّ عَجِيبٍ، وَعَدَلُوا
عَنِ التَّرْتِيبِ إِلَى التَّرْتِيبِ . وَلَمَّا فَرَّغُوا شَرَعَ أَمِيرُ الْمُحْفَلِ صَارِيخًا، وَبُكُورًا فِيهِ نَافِيًا؛

فَأُتْسَدُّ وَأُورَدُ بِالْفَارِسِيَّةِ مَا يُعْجِبُ مَدْلُولُهُ ، وَيَهْوِلُ مَقُولُهُ ، وَأَطَالَ وَمَا أَطَابَ ،
وَأَسْتَصَوَّبُ مَنْ يَعْرِفُ مَقَالَهَ قَوْلَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

ولما أَتَقَضَى ذلكَ مَدَّ سِمَاطَهُ لَيْسَ يُنَاسِبُ هِمَمَ الْمَلُوكِ ، فَأَكَلَ النَّاسُ مِنْهُ
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمُ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَّفَ ؛ وَقَامَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ إِلَى
مَكَانِ الْإِسْتِرَاحَةِ فَأَقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ نَحَرَ إِلَى مُحِيْمِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ؛ وَكَانَ بَدَارِ
الْمَلِكِ حَرَمِ السَّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْمَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَائِخُ خُدَامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ سِنِّهِ - أَنْ يُدْعَى بِالْكَبِيرِ ؛ عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْأَنْكِسَارِ ، وَأَمَارَةُ الْإِفْتِقَارِ ؛
بِخَبَرِهِمْ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ وَأَنَّهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ؛ وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
فِي قَيْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جَمْعِ تَقَامِ ، وَبِهَا خُطْبَاءُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ؛ فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ
السَّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَحْتِفَالِ مَلُوكِهَا بِيُوتِ عِبَادَاتِهِمْ ، وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَقْضَى بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ؛ فَحَضَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَارِبُهَا ، وَجَلَسُوا حِلَقًا
لَا صُفُوفًا ، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجْمِيَّةِ صُوفًا ؛ وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَفْظَةِ
الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَتَخَارَجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الدَّرَايَةِ ؛ بَلْ لَمَّا
تُبْرِزُهَا أَصْوَاتٌ مُتَرْتِمَةٌ ، وَالْحَانَ لِتَفْرِيقِ الْكَلِمَاتِ مُقَسَّمَةً ؛ يَنْطِقُونَ بِالْحُرُوفِ
كَيْفَ أَتَفَقَّتْ ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى مَخَارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّهَا نَطَقَتْ أَوْ لَا نَطَقَتْ .

فَلَمَّا آتَى وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسَطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْبِيَّةٌ قَعُودٌ عَلَى
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَابْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِعَانَةٍ وَلَا إِيَانَةٍ . وَلَمَّا تَشَهَّدَ
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُجْتَمِعَةٍ مُتَلَعَلَةٍ ، وَنَفَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ؛ يُمَسِّكُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ
تَلْحِينٍ ، وَيَتَرْتَمُونَ بِالأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينِ ؛ وَفَرَّغَ الْأَذَانَ وَكُلَّهُمْ قَعُودٌ مَا مِنْهُمْ

أحدٌ غير الصَّبِيِّ وَفَفَ ، وما مِنَّا أحدٌ لكلمةٍ من الأذَانِ عَرَفَ ؛ ولما فرَغَ الأذَانُ طَاعَ شيخٌ كبيرٌ السنِّ يعرفُ بأَميرِ مَحْفَلِ المِنْبَرِ، فصَعِدَ إلى ذِرْوَةِ المِنْبَرِ، وشرَعَ في دُعاءٍ لا نَعْرِفُهُ ، وآدعاءٍ لا نَأْلَفُهُ ؛ كأنَّهُ مُخاصِمٌ ، أو وَيَكِلُ شَرِيعَ أَحْضَرَهُ لِمُشَادَّةِ حَضمِهِ مُحَاكِمٌ بين يَدَيِ حَاكِمٍ ؛ وطلع الخَطيبُ بعد ذلك نَخَطِبُ ودعا مولانا السلطانَ بغيرِ مُشَارَكِهِ ، ودعا الناسَ بما تَلَقَّتْهُ من الأَفْواهِ المَلائِكَةِ ؛ وَأَنْقَضَتِ الجُمُعَةُ على هذه الصُّورَةِ، المَسْطُورَةِ ؛ وَضُرِبَتِ السَّكَّةُ بِاسْمِ مولانا السلطانِ ، وَأَحْضَرَتِ الدَّرَاهِمُ إليه في هذا اليومَ ، فشاهدَهَا فرأى أوجُهَا بِاسْمِهِ المِيمُونِ ، وَأَقْرَبَتِ الأَلْسِنَةُ بِهِذِهِ النِعْمَةَ وَقَرَّتِ العُيُونُ ؛ وشاهدتُ بِقَيْسَارِيَّةِ مَدَارِسَ وَخَوَاتِقَ وَرُبُطًا تَدُلُّ على آهِتَامِ بَانِيهَا، وَرَغْبَتِهِمْ في العُلُومِ الشَّرِيعِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، مُشِيدَةً بِأَحْسَنِ الحِجَارِ الحُمْرِ المِصْقُولَةِ المَنْقُوشَةِ ، وَأَرَاضِيهَا بِأَجْمَلِ تِلْكَ مَفْرُوشَةِ ؛ وَأَوَاوِينِهَا وَصُفْهَهَا مُؤَزَّرَةً بِالقَاشَانِيَّةِ الأَجْمَلِ صُورَةٍ ، وَجَمِيعُهَا مَفْرُوشَةٌ بِالْبُسْطِ الكُرْجِيَّةِ وَالعَالِيَةِ ، وفيهَا المِياهُ الجَارِيَّةُ ، ولها الشَّبَابِيكُ على البَسَاتِينِ الحَسَنَةِ ، وَسُوقٌ قَيْصَرِيَّةٌ طَائِفٌ بِهَا من حَوْلِهَا ، وليس داخلَ المَدِينَةِ دُكَّانٌ وَلَا سُوقٌ .

وَالوَزِيرُ في بلادِ الرُّومِ جَمِيعُهَا يُعْرَفُ بِالصَّاحِبِ «نَخْرَ الدِّينِ خَواجَا عَلِيٌّ» وَلَا يُحْسِنُ الكِتابَةَ وَلَا الخَطَّ ، وَخِلْعَتُهُ من مَمَالِكِهِ خَاصَّةً مائتًا مَمْلُوكٍ ، وَدَخَلُهُ في كُلِّ يَوْمٍ - غَيْرُ دَخَلِ أولادِهِ وَغَيرِ الإِقْطاعاتِ الَّتِي لَهُ وَأولادِهِ وَخَواصَّهُ - سَبْعَةُ آلافِ دَرْهَمِ سُلْطَانِيَّةٍ . ولقد شَاهدتُ في مَدْرَسَتِهِ من خِيَامِهِ وَنَحْرِ كَواثِمِهِ شَيْئًا لَا يَكُونُ لِأَكْبَرِ المُلُوكِ ، وَلَهُ بِرُّ وَمَعْرُوفٌ ، وَهُوَ بِالخَيْرِ مَوْصُوفٌ :

وَالْمُسَمَّونَ بِالوَزِيرِ كَثِيرٌ * وَالوَزِيرُ الَّذِي لَنَا المَأْمُولُ !

وَعَلَى هَذَا وَذَلِكَ عَلِيٌّ * وَعَلَى هَذَا لَهُ التَّفْضِيلُ !

الذی زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا * وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ !
وَمَعِيَ أَيُّمَا سَاكِنْتُ كَأَنِّي * كُلُّ وَجْهِ لَهُ بِوَجْهِ كَفِيلُ !

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانَ الْبُرْوَانَهِ وَزَوْجَتَهُ كُرْجِي خَاتُونَ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْجُودِ
الْبَادِي لِلْعَيْونِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ اسْتَوْلَى مَوْلَانَا السَّاطَانَ وَمَمَالِيكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَحَ بِنَفِيسٍ .

ولما أقام مولانا السلطانُ بَقِيصَرِيَّةَ هَذِهِ الْمَدَّةَ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمِصَارَعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَاعِدَ مِنَ الْمِصَادِمَةِ كَلَّتْ ؛ وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ يُعْزَى ، وَلَا يَجْزَاءِ السُّوءِ يُجْزَى ؛ وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرِ رَعَايَا كَالسَّوَائِمِ
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكَفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَاقِلٍ وَهَاقِلِهِ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَالْبِلَادُ لَا تَحْمِلُهُ ،
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ؛ وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالْدُّوسِ قَدْ أَضْحَكَتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ؛
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكَفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ
الرُّومِ مِنَ الرَّعْيِ وَالرَّعَايَةِ ؛ وَأَنَّ الْحَسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ التَّتَارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ عَجَبُهُمْ عَامَهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلٍ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ
كُلَّ مَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوَلِيهِ أَسْمُ النَّعْمَةِ ؛ فَزَلَّ
بِمَنْزِلَةٍ تَعْرِفُ بِعَتْلُوا فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَرَدَّ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبُرْوَانَهِ وَالْكَبْرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى ظَهِيرِ الدِّينِ التَّرْبُحْمَانَ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبُرْوَانَهِ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنِ الْحَرْكَةِ وَمَا عَلِمُوا
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرْكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيوَاسٍ . فَعَدَّدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَقْصَى

ملكه مع بعده؛ وأنهم ما وقفوا عند الشروط المقررة، ولا وفوا بمضمون الرسائل
 المسيرة، وأنهم لما جاء الحق وزهق الباطل طلبوا نظرة إلى مسيره؛ وأن أعنتهم
 للكفر مسلمته، وأنهم منذ استيلاء التتارهم أصحاب المشامة؛ وعلم مولانا السلطان
 أن بلاد الروم ما بها عسكري تستخلصه لنفسه، ولا من يقابل المغل في غده خوفاً
 مما شاهده كل منهم في أمسه؛ وأنهم أهل التذاد، لا أهل نفاذ؛ وأهل طرب،
 لا أهل حرب [وغلب]؛ وأهل طيبة عيش، لا قواد جيش؛ فرد السلطان إلى سليمان
 البرواناه مديده، وقال: قل له: إني قد عرفت الروم وطرفاتها، وأخذت أمه
 أسيرة وابن بنته وولده؛ ويكفيننا ماجرى من النصر الراجز، (ولينصرن الله من ينصره
 إن الله لقوي عزيز) وما كل من قضى فريضة الحج تجب عليه المحاوره، ولا بعد
 هذه المناصرة مناصره، ولا بعد هذه المحاوره محاوره، ونحن فقد ابتغينا فيما آتانا الله:
 من حغن دماء أهل الروم وعدم نهب أموالهم الدار الآخرة؛ وتزهننا عن أموال كتم
 للتتار تستحبونها، ومغارم كثيرة هي لهم من الجنات مغانم يأخذونها حين يأخذونها؛
 وما كان جلوسنا في تحت سلطنتكم لزيادة بخت آل سلجوق، إلا لنعلمكم أنه
 لا عائق لنا عن أمر من الأمور يعوق؛ وأن أحدا لا ينبغي له أن يأمن لنا سطوه،
 وليتحقق كل أن كل مسافة جمعة لنا خطوه؛ وسروجننا - بحمد الله - أعظم من ذلك
 التخت جلالا، وأرفع منالا؛ وكم في ممالك كراسي ملك نحن آية ذلك الكرسي،
 وكم لنا فتح كله - والحمد لله - في الإنافة الفتح القدسي.

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ!

وَأَسْتَضْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الأَمِيرِ
 سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اسْتِغْثَالٌ بِعِلْمٍ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دار يعني أمير المظالم . وأستصحب ظهير الدين موح (؟) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيراً من العلوم بخطه، مثل الصّحاح في مجلّد واحد، وغير ذلك . وأستصحب الأمير نظام الدين أوحّد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمّه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

وأستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (؟) والأمير سيف الدين بكيجا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير على صاحب كركر .

وأستصحب قاضي الأضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولّد البرواناه المذكور، وولّد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصر الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المغل : مقدمي الألوף والمآت - زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده

وتماديه (؟) .

ثُمَّ رَحَلَ السُّلْطَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَنَزَلَ بِمَنْزِلَةٍ قَرِيبِ خَانَ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ كَيْقْبَادَ، وَيَعْرِفُ بِكِرْوَانِي صَرَائِي . وَهَذَا الْخَانَ بُنِيَ عَظِيمَةً مِنْ نِسْبَةِ خَانَ قَرطَايَ ، وَهُوَ أَوقَافٌ عَظِيمَةٌ . وَمِنْ جُمْلَةِ مَا وَجِدُ قَرِيبًا مِنْهُ أَدْوَادٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَغْنَامِ عَمِلَتْ فِيهَا الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ، سَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ : إِنَّهَا وَقِفٌ عَلَى هَذَا الْخَانَ يُذْبَحُ نَتَاجُهَا لِلْوَارِدِينَ عَلَى هَذَا الْخَانَ ، وَهَذِهِ الْأَغْنَامُ لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوُقُوفِ، قَدَّرَ اللَّهُ اسْتِيفَادَهَا جُمْلَةً لَمَّا كَثُرَتْ عَلَى هَذَا الْخَانَ مِنَ الْجُيُوشِ الْمَنْصُورَةِ الضُّيُوفِ .

وَرَحَلْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَهُوَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ ثَانِي عَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَنَزَلْنَا فِي وَطَاءَةٍ عَادَةً التَّتَارِ يَنْزِلُونَ بِهَا تَسْمَى رُورَانَ كُودَلُوَا، وَكُودَلُوَا أَسْمُ جِبَالِ تِلْكَ الْوَطَاءَةِ .

وَرَحَلْنَا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَلَاثَ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ، فَعَارَضْنَا بِهَا - فِي وَطَاءَةٍ خَلْفَ حِصْنٍ سَمَّيْنَاهُ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي كُنَّا تَوَجَّهْنَا مِنْهَا - نَهْرًا يَعْرِفُ بِنَهْرِ قَزَلِ صَوَا، قَرِيبِ كُودَلُوَا الصَّغِيرِ . وَمَعْنَى قَزَلِ صَوَا النَّهْرِ الْأَحْمَرِ، وَهَذَا النَّهْرُ صَعَبُ الْمَخَاضِ، وَاسِيعُ الْأَعْتِرَاضِ ؛ عَالِي الْمَهَبَطِ، زَائِقُ الْمَسْقَطِ، مُرْتَفِعُ الْمُرْتَقَى، بَعِيدُ الْمُسْتَقَى، لَا يَجِدُ السَّالِكُ مِنْ أَوْحَالِ حَافَتَيْهِ إِلَّا صَعِيدًا زَلَقًا؛ فَوْقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ بِنَفْسِهِ ، وَجَرَدَ سَيْفِهِ بِيَدِهِ ، وَبَاشَرَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ هُوَ وَجَمِيعُ خَوَاصِّهِ، حَتَّى أَتَيْتُمَا الْمَكَانَ جَمِيعُهُ، وَوَقَفَ رَاجِلًا يُعَبِّرُ النَّاسَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا : مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَعُغْلَامٍ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَكْرَهُ عَلَى مَنْ يَزِدُّهُمْ، وَيُكْرَهُ التَّنَادِيْبَ لِمَنْ يَطْلُبُ بِأَذْيَةٍ رَفِيقَهُ وَيَقْتَحِمُ ؛ وَمَا زَالَ مِنْ رَابِعَةِ هَذَا النَّهَارِ إِلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ حَتَّى عَبَرَتِ النَّاسُ سَالِمِينَ . وَلَمَّا خَفَّتِ الْبُرُورُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُرُورُ؛ رَكِبَ فَرَسَهُ وَعَبَرَ الْمَاءَ وَالْأَلْسِنَةَ لَهُ دَاعِيَهُ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَاقِيَةٌ بَاقِيَهُ ؛ فَتَزَلُ فِي وَادٍ هُنَاكَ بِهِ مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ، وَمَرَأَى وَلَا كَشَعْبِ بَوَانَ .

ثم رحل في يوم الجمعة فنزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قرية من هدر رجال (؟) قبالة بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوفا طول النهار، حتى نزلنا في وطاة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أمم التتار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكف بأسهم من النشور مناسرها؛ وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم؛ فرأهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفا وجاؤوه كما خلقوا أول مره؛ وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هدأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفه.

قد سودت شجر الحبال شعورهم * فكان فيه مسفة الغربان!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعاينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه؛ وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: (فأسأل العادين)؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: (قل الله أعلم بعديتهم ما يعلمهم إلا قليل) وقال بعضهم ممن عدتهم ومن عنده علم من الكتاب:، أنا عدت ستة آلاف وسبعائة وسبعين نفرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوقا سريعا .

الحِسَاب ؛ هذا : غير من آوى إلى جَبَلٍ يَعِصِمُهُ من مَاءِ السُّيُوفِ فما عَصَمَهُ ،
وغير من آعتقد أن فرسه تُسَمِّهُ فأَسَمَهُ ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والقلاوِثُ
مَزْرَعَةٌ بِلُجُومِهِمْ ، والدُّودُ -لأنَّها مُؤَمِنَةٌ وهم كُفَّار- قد أثرت كالنواسر في لُجُومِهِمْ ؛
فرسم مولانا السلطانُ بتقدّم الأثقالِ والحُرَّاسِ والدَّهْلِيْزِ المَنْصُورِ صُحْبَةَ الأميرِ
بَدْرُ الدِّينِ الخَزَنْدَارِ ، والدُّخُولِ في أبقه دربند ، وأقام مولانا السلطانُ في سَاقَةِ العَسْكَرِ
المَنْصُورِ بَقِيَّةَ يَوْمِ السَّبْتِ ويومِ الأحد :

فهو يَوْمَ الطَّرَادِ أوَّلُ سَابِقِ * وهو يَوْمَ القُفُولِ آخِرُ سَائِقِ !

وَأَنْتَظِرُ في هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ صَيْدًا من العَدُوِّ يَئِجُ ، وما من دِمَاءِهِمْ إلى السَّيْفِ يَئِجُ ؛
فلَمَّا لم يَجِدْ أحَدًا رَحَلَ في يَوْمِ الأَثْنَيْنِ فنزل قَريبًا من الخانِ الذي في الدَّرْبِنْدِ ، وَرَكَبَ
يَوْمِ الأَثْنَيْنِ من طَرِيقِ غيرِ التي حَضَرَ منها ، فَسَلَكَ طَرِيقًا من الأوعارِ يَبَسَا ، وَسَلَكَ
من قُلَلِ الجبالِ في هِضَابٍ كَأَنَّ كَلًّا منها أَلْفٌ حَمَلت من الأَنْجُمِ قَبَسًا ؛ ففَاسَى العالَمُ
في هذا اليَوْمِ من الشَّدَةِ ما لا يَدْخُلُ في قِياسِ ، وكادُوا يَهْلِكُونَ لولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ
تَدَارَكَ النَّاسَ ؛ فَتَسَابَقُوا ولكن على مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وَتَسَلَّلُوا ولكن سَلَّ حَوَافِرِ
الخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وَهَبَطُوا من جبالٍ يَسْتَصْعِبُها كُلُّ شَيْءٍ حتى طَارِقُ الطَّيْفِ ؛
يَسْتَصْعَبُ الحَجْرُ المُحَلَّقُ من شَاهِقٍ وَقُوعَهُ في عِقَابِها ، وَيَسْتَهْوِلُ النَّجْمُ النَّاقِبُ تَرَفُّعِ
شِعَابِها ؛ بِالقُرْبِ منها جَبَلٌ شَاهِقٌ يُعْرِفُ بِسَقَرٍ وما أدراك ما سَقَرٌ ، لا يُبْقِي على شَيْءٍ
من الدَّوَابِّ ولا يَذُرُّ له عَقَبَةً لُوَاحَةَ للبَشَرِ ؛ أَعان الله على الهَبُوطِ منها ، وفازَ بِمَشِيئَةِ
اللهِ وبِسَعَادَةِ مولانا السلطانِ من زُحْزَحِ عنها ؛ وَعَدَّينا كوكبوا وهو النَّهْرُ الأَزْرَقُ ،
وبات مولانا السلطانُ هناك ، وكان قَضِيمُ البِغَالِ تلك اللَّيْلَةَ وَرَقَ البَلُوطُ ، إلا من
أَمَسَتْ عناية الله أَنْ تَيْسَرَ في شِعْبِ بِخَمْسَةِ عَشَرَ دَرهماً كُلُّ مَدٍّ يَحُوطُ .

ورحل مولانا السلطانُ في يوم الأربعاء تاسعَ عشرين من ذى القعدة فنزل قريبَ كسول (؟) المقدم ذِكْرُهَا ، وعدل إلى طريق مَرَعَش فزال بحمد الله الداعي ، وقالوا للشَّعِير : ما فينا لك مُحَاطِبٌ ولا مِنَّا فيك بماله مُحَاطِرٌ ، وللخيولِ قد حصلَ لك في مِصرَ الرَّبِيعِ الأوَّلِ في شَعْبَانَ وفي الشَّامِ في ذِي الحِجَّةِ الرَّبِيعِ الآخِرِ ، فَأُرْتِعَتْ لِأَيُّوعِهَا أَصْحَابُ المَوَازِينِ في تلكِ المَسَاجِدِ ، وَأَسْتَمَرَّتْ في مُرُوجِ يَتَأسَفُ عَلَيْهَا ابنُ المَسَاجِدِ (؟) ؛ وَقَسَمَ مولانا السلطانُ تِلْكَ الأعْشَابِ كما تَقَسَّمَتْ في آفاقِ السَّمَاءِ النُّجُومِ ، وَأوقَفَ كُلَّ أَحَدٍ في مَقَامٍ حَتَّى قالَ : (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) ؛ فَكَمْ هُنَاكَ مِنْ مُرُوجِ أعْشَبَتْ فَأعْجَبَتْ ، وَأُنْجَابَتْ السَّمَاءُ عَنْهَا فَأُنْجَبَتْ ، وَأُرْبَتْ عَلَى زُهْرِ النُّجُومِ فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ :

يَصُدُّ الشَّمْسَ انِّي وَأَجْهَتْنَا * فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ!

يَتَخَلَّلُهَا هُنَاكَ أترَعُ الحِياضِ ، وَيَاهُوُ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ فَكَمْ قَصَفَ العَاصِي بِهَا في تِلْكَ الرِّياضِ .

هذا كُلُّهُ : وخَيْرٌ من أَرزَنْجَانِ ، حَارَّةِ بَرَجَوَانَ ؛ وخَيْرٌ من أَراضِي تَوْرِيذِ ، قِطْعَةٍ من ايليزِ ؛ وَكَوْمٌ من كِيانِ سَفْطِ مِيدُومِ ، خَيْرٌ من قَصِيرٍ في قِصْرِيَّةِ الرُّومِ ؛ وَنَظْرَةٌ إلى المِقْيَاسِ ، خَيْرٌ من سِيَوَاسِ ؛ وَمَنَاطِرُ اللُّوقِ ، خَيْرٌ من كَيْقَبَازِ آلِ سَلْجُوقِ ؛ وَتُرْبَةٌ من تُرْبِ القَرَّافَةِ ، خَيْرٌ من مُرُوجِ العَرَّافَةِ ؛ وَشِبْرٌ من شَبْرَا ، خَيْرٌ من سَطَا وَمِصْرَا (؟)

وَجُلُوسٌ في بابِ دَارِكَ خَيْرٌ * من جُلُوسٍ في [بابِ] إِيوَانَ كِسْرَى ،

وَأَنْبَاحِي لِنُورِ وَجْهِكَ خَيْرٌ * لِي مَنْ أَنبَى أَشَاهِدُ بَدْرًا!

يَاوَلِيَّ يُولِي الأَيَّادِي سِرًّا * وَوَزِيرًا فَلَيْسَ يَكْسِبُ وَزْرًا:

مَا رَأَيْتَا وَاللَّهِ فِيمَنْ رَأَيْتَا * لَكَ مِثْلًا مِنَ البَرِّيَّةِ طُرَا.

كَمْ خَبَرْنَا الرَّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ * فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
 كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا * فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلَيْكَ حَسْرَى.
 لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا * نَ إِلَهٍ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَسْرَى!
 مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كَمِصْرٍ وَلَا مِثْلَكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصيد)

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
 الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البازباري، وهي :

الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمد
 الذي أثار كوكب نصره وسفره، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمة
 في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حقت أيامه بالعزيز
 والتأييد والظفر .

نحمد على أن أقر العيون بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
 له شهادة ألانت قلب من نفر، وكرمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعز فریق ونفر،
 ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه
 وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليما .

وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملامذا تدركها كل ذات شرفت، وتملكها السجايا
 التي تعارفت بالفخار وانتلفت، وتناها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه

صُرِّفَتْ ؛ وَمَنْشُؤُهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عَزَّ عِنْدَ مَا تَلَمَّعُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ،
 وَتَشْيِيبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُؤُوسِ الرِّمَاحِ ، وَتَشْرِحُ جَوَارِحِ النَّبَالِ لِتَحَلُّ فِي الْجَوَارِحِ
 وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنِ سَلَمٍ عِنْدَ مَا تَنْهَسُطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ
 الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشْرِحُ الصُّدُورُ إِلَى مَعَاوَاةِ الصُّيُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ؛
 وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ فَتَصِيدُ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدِ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَاجِي الْمُسَكَّةُ ،
 وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكَهُ ؛ وَتَقَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمَ السُّلْطَانِيَّةُ
 وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوَّحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَتَبَعُثُ مَوَاقِبُهَا .

وكان الله تعالى قد جمع للمواقف الشريفة ، المعظمة ، السلطانية ، المملكية ،
 الناصرية ، خلد الله سلطانها - سعادة الحالتين حربا وسلما ، وآتاه فيهما النصر الأرفع
 والعز الأسمى ؛ وَوَسَمَ بِصِدْقَاتِهِ وَعَزَمَاتِهِ الْأَمْرِينَ وَنَسَا ، وَنَصَرَ نَعْتًا وَعَظَّمَهُ
 سُمْعَةً وَشَرَفَهُ اسْمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَأَنْتِصَارُ ، وَأَسْتِيلاءٌ وَأَسْتِظْهَارُ ، وَقُوَّةُ
 تَحْيَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَفْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَبَةٌ ، وَصِدَقَاتٌ مُنْجِيَةٌ
 مُنْجِيَةٌ ، وَرَفْعُ ظُلُمَاتٍ مُتَشَعِبَةٍ ؛ وَقَسْعُ نَفُوسٍ مُتَوَشِّبَةٍ ؛ وَحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَّةٍ ،
 وَحِفْظُ الْحُوزَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ وَوَقَايَتُهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ
 تُصَرَّفُ عِزَّتُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آبَتِغَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمْرِينَ
 النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسْرَةِ بِكُلِّ ظَفْرِ جَدِيدٍ ؛ فَيُرْسَمُ - خَلْدُ
 اللَّهِ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْسَمُ بِهِ مِنْ مَشْتَى كُلِّ عَامٍ بِإِخْرَاجِ الدَّهْلِيْزِ الْمَنْصُورِ
 فَيُنْصَبُ فِي بَرِّ الْحِيزَةِ بِسَفْحِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةِ آخِذَةِ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالكَرَمِ ؛
 فَتَمُدُّ بِالتَّائِيْدِ أَطْنَابَهُ ، وَتُرْفَعُ عَلَى عُمْدِ النَّصْرِ قِبَابُهُ ، وَيُحَاطُ بِجِرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ
 رِحَابُهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقًا ، وَتُحْفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛
 وَيَسْتَقِلُّ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّبْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى
من المسافة، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه؛ ومما ليك الأمرأ قد حفوا به
أطلاباً، وسنى موكبه قد بعث أمامه من الإضاءة نجاباً؛ ولم يزل حتى يأتي النسل
المبارك ويستوى على الكرسي في الفلك المشحون، محوطاً بالنصر الميمون والجيش
المأمون، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون؛ وأضحى لظهر الفلك من الفخار
[بحضرته] المكرمه، مالمهوات أجياده العناق المسومه؛ فلهذا نشر أعلام بشرها،
وقال: ﴿ أركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ﴾؛ فسارت به في اليم، ونصر الله
قد تم؛ وصعد من فلكه، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزرة ملكه؛
وأستقر على جواد شرفت صهوته، وقربت بالآناة والسكون خطوته؛ عمر بي النجار،
يختال في سيره كأنما أنتشى من العقار:

ويختال بك الطرف * كأن الطرف نسوان.

ترى الطرف درى أو ليس يدري أنك سلطان!

وسار في زروع محضره، وتغور نبات مفتره؛ وقد طلعت للظفر شمسه وبدوره،
وأعدت للصيد بزائه وصقوره؛ من كل متوقد اللخط من الشهامه، محمول على
الراحات من فرط الكرامه؛ يتوسم فيه النجاح، قبل خفق الجناح، ويخرج من
جو السماء ولا حرج ولا جناح؛ وبازها الأشهب، يجيء بالظفر ويذهب بصدر
مفضض وناظر مذهب؛ له منسر أفتى، طالما أغنى، كأنما هو شبا السنان وقد
جابه الحكمة طعنا:

وصارم في يدك منصيات * إن كان للسيف في الوعى روع،

متقد اللخط من شهاته * فالجو من ناظره مجروح!

قد رآش النَّجْحُ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللهُ بِالْيَمِينِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرِّهِ حَيْثُ
جَعَلَ مِنْسَرَهُ رُحْمَهُ وَمَحَلَّهُ صَفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِيهِ النَّصْرُ
ظَاهِرٌ الْمَعْلَمُ ؛ كَمَا أَهْمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» ،
فِيسْرَحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وُكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِغْبَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فِيهَا بَهُ
الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِمُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
عَلَى الطَّيْرِ حَلَقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبًّا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، فَيَدْعُرُونَهَا بِحَفَقِ
الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللهُ مَلِكَهُ - لِنَافِرِهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَإِطَائِرِهَا
بِالْحَارِجِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَشُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَيْتَهُ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ وَقَهَرَ بَعْضَهُ
بِبَعْضِهِ ؛ هَذَا : وَالْحَارِجُ قَدْ أَنْشَبَ فِيهِ مَخَالِبَهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
وَمَذَاهِبَهُ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةَ يَوْمِهِ مُتَوَغَّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَدَاتِ
صُيُودِهِ ، وَأَوْقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرِيهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ
وَبِجُودِهِ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارَ اللَّيْلَ بِظُلْمَائِهِ ، وَيَلْبَسَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
ذَلِكَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْمُخِيْمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارُ وَاهِبِهِ ؛
وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورَةٌ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورَةٌ ؛ وَالنُّفُوسُ مُتَمَتِّعَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ
مُضَوَّعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَّاءَتِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ
أَمَامَهُ فَأَنْوَسَانَ تَوْعْمَانَ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانٌ ، أَوْ فَرْقَدَانِ رَفَعَتْهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو
إِلَى مُخِيْمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيْلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَمِيْلِ ، وَتَرْتَجُلُ الْإِنْصَارُ
قَبْلَ فُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشَّمُوعِ لِتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى نُحْتُ الْمَلِكِ
لِتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالدهليزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشَّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،
وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَطِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عُرِضَتْ

عليه النعم فأعطاها ، والمهمات الإسلامية فقضاها ، وقدمت له الحيات المسومة فامتطأها ؛ ويسرُح إلى الصيد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ، وبسعادته إلى ظفريها قد أرشدت ؛ فإذا سار ركابه الشريف فرقت على أثره عساكر الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ، فعند ذلك يئني عنان السير ؛ إلى آقاص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد الأوباد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاهد .

فن أشهب : كريم المغار ، ذى إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ، أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النضرو إغارة على العدا ؛ علا قدراً وغلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ؛ إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفه ، ويخلف الريح حسرى وهى واقفه ؛ يجده الفارس بحراً ، وله عند مجرى العوالى مع السوايق مجرى .

ومن أحمر : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ؛ كرمت غمره وجوله ، وحسنت أعرافه وذبوله ، مكر مفتر جلود صخر حطته من على سيوله ؛ حتى لونه نمجرت الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصب كالسيل ؛ كريم الناصيه ، جواب قاصيه ؛ كأن غمرته صبح تنفس فى الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضى المسالك ، وكان مجوله بروق تفرقت فى جوانب النسق فحسن منظرًا لذلك ؛ سنايكه يورى قدحها ، وغمرته يبر صبحها ؛ وجوارحه مسود جنبها ، وصموته كمن فيها العز فلا يزال ظاهرًا مجحها .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ اللَّحْظَ نَحْوَ شِيَاتِهَا * وَأَلْوَانِهَا فَالْحُسْنُ عَنكَ مُغِيبٌ !^(١)

وإنما هي بصبرها على الظأ، وشدة عدوها في النور والظلمة؛ وسبقها إلى غايات رهنائها، وثباتها تحت رايات فرسانها .

وتليها الفهود الحسن منظرها ، الجميل ظفرها ، الكاسب نأبها وظفرها ؛ تفرق الليل في أهبها المجتمعه ، وأدركت العواصم في هضابها المرتفعه ؛ وجوهها كوجوه الليوث الحادره ، ووثباتها على الطريده وثبات المؤمنة على الفئمة الكافره ؛ مقلصة الخواصر ، عزمتها على الوحش حواصر ؛ ما أطلقت على صيد إلا قنصته سريعا ، ولا بصرت بعانة من حمر إلا أخذتها جميعا .

ثم الحوامى المعلمه ، والضواري التي أضحت بالشفح متوسمه ؛ ما منها إلا طاري الحاصره ، وثباته طائفة غير قاصره ؛ بنويب كالأسنة ، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنة ؛ لوراه عدى بن حاتم رضى الله عنه لضمه إلى ما لديه ، وأكل مما أمسك عليه .

وتضرب العساكر حلقة ما يلتقي طرفها إلا إلى الليل في اتساعها ، تحوى سائر الأوايد على اختلاف أنواعها .

فمن نعام : خضب ظليهما لما أكل ربيعا ، وأحمرت أطراف ريشه فكانها سهام أصابت جميعا ؛ طالت أعناقها الناحلة فكانها خطيه ، وأشدت قوائمها الحاملة فكانها مطيه ؛ شاركت الطير في وجود الجناح ، وفارقتها في كثافة الأشباح ؛ وأشبهت

(١) الذى فى ديوان المتنبي :

إذا لم تُشاهد غير حسن شياتها * وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الْوَحْشَ فِي مَسْكِنِ الْقِفَّارِ، وَشِدَّةِ النَّفَّارِ؛ قَدْ أَجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَأَنْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الصَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ طِبَاءٍ : مُسَوِّدَةَ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كُحْلِ الْمُقَلِّ وَحُسْنِ سَوَالِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَّتْ بَطُونَهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَحَاكَّتْ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي صَحْرَائِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاها فَالْمِسْكُ مِنْ دَمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحَشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ ، سَاكِنَةِ الْمُضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرِّمْلِ
مَرَايِضٌ ، حَدَرًا مِنْ قَانِيصٍ قَابِضٍ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ
رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمُرٍ إِهَابِهَا أَقْمَرُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَكَّى الْجَزَعُ
الَّذِي لَمْ يَثْقُبْ فِي دُجَى اللَّيْلِ عِيُونَهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلْتَقِي حَلَقَةُ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ،
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَسْهُمُ النَّافِذُ ، وَالْفُهُودُ الْآخِذَةُ ؛ فَمَوْجُ الْوَحْشِ دُعْرًا ،
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْجِيَادِ
وَالْفُرْسَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنِبَالٍ وَخُرْصَانٍ ؛ فَيُخَيِّدُ تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ،
وَالطَّبَّاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَاذِرِهَا ، وَالْحُمُرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبِضُ - خَلَّدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأَمْسِكِهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوعِ ؛ وَتُجَزَلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَاذَا أَخَذَ حَظَّهُ
مِنَ الْقَبِضِ وَوَلَدَةَ آكْتِسَابِهِ ، رَسَمَ لِأَمْرَائِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُدُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْتَنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قنص دَبِيح، ويأتي كلُّ بما أَقْتَنَصَه لِيُظْهَرَ التَّرْجِيحُ؛ فاذا اسْتَكْمَل أَوْقَاتَ الصَّيْدِ من الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ ثَمَّ رَكَبَهُ الشَّرِيفَ إِلَى جِهَةِ القَلْعَةِ المحرَّسَةِ والقِفَارِ قد شَرَفَتْ بِمُرورِ مَوَاكِبِهِ، وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ قد أَفْتَخَرَتْ بِكُونِهَا أَصْبَحَتْ من مَكَايِبِهِ .

هذا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَفْسُ تَرَاهُ لَهْوًا، وَتَبْلُغُ بِهِ كَلَّ مَاتَهْوَى، ففى طَيْبِهِ من تَمْرِينِ الجُنُودِ عَلَى الحَرْبِ مَا تُشَدُّ بِهِ العَزَمَاتُ وَتَقْوَى؛ فَيَوْمُ الرِّكَابِ الشَّرِيفِ عَائِدًا إِلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ المحرَّسَةِ، وَالسَّلَامَةُ قد قَضَتْ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا من حِرَاسَتِهِ، وَالْأَقْدَارُ قد وَفَّتْ مَا يَنْبَغِي من كَلَاءَتِهِ؛ فَلَمْ يَكُ إِلَّا وَهُوَ صَاعِدٌ إِلَى القَلْعَةِ المحرَّسَةِ وَالسَّنَةُ السَّعَادَةُ تُخَاطِبُهُ، وَسَرِيرُهُ قد أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِمَقْدَمِهِ جَوَانِبُهُ، وَالصَّيْدُ المُبَارَكُ قد سَعِدَتْ مَبَادِيهِ وَجُمِدَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فُلِقِيَ أَهْبَةُ السَّفَرِ، وَيَأْخُذُ فِيمَا بَطَّنَ من المَصَالِحِ الإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنَشِّدُهُ أَلْسِنَةُ السَّلَامَةِ مَا أَمَلَى عَلَيْهَا العِزُّ وَالتَّائِيدُ وَالظَّفَرُ :

مَلِكُ البَيْسِطَةِ أَبَ من سَفَرِهِ * وَالنَّصْرُ وَالتَّائِيدُ فِي آثَرِهِ،
فَكَأَنَّهُ فِي عِزِّ مَوَاكِبِهِ * بَدْرٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا حَقَرِهِ .
مَا فِي البَرِّيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ * أَوْقَى الذِّى أَوْتِيَهُ من ظَفَرِهِ!
يَسْرَى إِلَى أَعْدَائِهِ رَهْبٌ * مِمَّا يَبْئُثُ النَّاسُ من خَبَرِهِ .
فَاللَّهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطِرُنَا * يُؤْتِيهِ مَا يُرِي عَلَى وَطَرِهِ!!

الصنف الثاني

(من الرسائل ما يردُّ منها مَوْرِدُ المَدْحِ وَالتَّقْرِيبِ)

إِذَا بَانَ يَجْعَلُ المَدْحَ مَوْرِدَ الرِّسَالَةِ وَيُصَدَّرُ بِمَدْحِ ذَلِكَ الشَّخْصِ المُرَادِ، وَإِذَا بَانَ يُصَدَّرُ بِمَاجِرِيَّةٍ يَحْكِيهَا المُنْشِئُ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهَا إِلَى مَدْحِ من يَقْصِدُ مَدْحَهُ وَتَقْرِيبَهُ

وما يجرى مجرى ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك أفانين مختلفة المقاصد، وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر" قصد بها تقرير وزير المستوكل وشكر نعمه لديه ، مصدرًا لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده، وهى :

جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَيُّدِكَ اللهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِنْدَكَ . ليس يكون الشكر - أبقاك الله - تامًا، ومن حدّ الثقصان خارجًا، حتى يستصحب أربع خلال ، ويشتمل على أربع خصال :

أولها : العلم بموقع النعمة من المنعم عليه ، وبقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك : من سدّ خلّة ، أو مبلغ لذة وعلو في درجة ، مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم للشقّة ، والذي حاول من المعاناة والكلفة في بذل جاه مصون ، أو مفارقة علق ثمين . وكيف لا يكون كذلك ؟ وقد خول من نعمه بعض ما كان حيسًا على حوادث عده ، فزاد في نعم غيره بما انتقص من نعم نفسه وولده . فكلمًا تذكّر الشاكر ما احتمل من مؤونة البذل ، سهل عليه احتمال ما نهض به من ثقل الشكر .

والخصلة الثانية : الحرّية الباعثة على حبّ المكافأة وأستحسان المجازاة . والشكر من أكبر أبواب الأمانة ، وأبعده من أسباب الخيانة . ولن يبلغ أحد في ذلك غاية المجد إلا بمعونة الطمع ، وإلا الحرب سجال بينهما ، والظفر مقسام عليهما . كذلك حكم الأشياء إذا تساوت في القوة ، وتقاربت في بلوغ المده . وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان ، كما أن البادئ بالظلم والمتصر لا يعتدلان ؛ لأنّ البادئ أخذ ما ليس له ، والمتصر لم يتجاوز حقه الذى هو له ؛ ولأنّ البادئ لم يكن مهيبًا على

الظلم بعلّة جناها المُتَصِر، والمُتَصِر مَهِيَجٌ على المُكَافَاةِ بعلّةِ جناها البَادِي، والمُتَوَرِّعُ
 للطباعِ المُغَضَّبِ، والمُسْتَحْفُفُ المَهِيَجُ أُعْذِرُ من السَّاكِنِ الوَادِعِ المُطْمَئِنِّ .
 فلذلك قالوا : إن البَادِيَّ أَظْلَمُ، والمُتَصِرَ أُعْذِرُ . وزعموا أن المُنْعِمَ هو الذي أودَعَ
 صَدْرَ الشَّاكِرِ المحبّةَ بانعامه عليه، وهيجّه بذلك على مُكَافَاةِته لإحسانه إليه، فقد صار
 المُنْعِمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ في إحسانه، وتفرّدَ بِفَضْلِ إنعامه دُونَ مُشَارَكَةِ غيره، والمُنْعِمُ
 هو الذي دَفَعَ للشَّاكِرِ أداةَ الشُّكْرِ، وأعاره آلةَ الوَقَاءِ، فهو من ههنا أحقُّ بالتقديم،
 وأوّلَى بالتفضيل .

هذا، وقد قال بعضُ الحكماء والأدباء والعلماء : من تَمَّامِ كَرَمِ المُنْعِمِ التَّغافلُ عن
 حُجَّتِهِ، والإقْرَارُ بالفَضِيلَةِ لشَّاكِرِ نِعْمَتِهِ ؛ لأنَّ الحُجَاةَ مُغَالِبَهُ، ولا يَتِمُّ مودَّةٌ إلا مع
 المُسَامَحَةِ . ولذلك قال الرَّبِيعِيُّ لِنَاسٍ من العَرَبِ يَحْتَضِمُونَ : هَلْ لَكُمْ في الحَقِّ أو خَيْرٍ
 منه ؟ قالوا : قد عَرَفْنَا الحَقَّ، فما الذي هو خَيْرٌ منه ؟ قال : التَّغافلُ فَإِنَّ الحَقَّ
 مُرٌّ . ألا تَرَى إلى بِنْتِ هَرِمِ بنِ سِنَانٍ لما قالت لابنةَ زُهَيْرِ بنِ أَبِي سُلَيْمٍ في بَعْضِ
 المَنَاحَاتِ، أو في بَعْضِ المَزَاوِرَاتِ : إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي مَا أَرَى من حُسْنِ شَارَتِكُمْ، وَنَقَاءِ
 نَفْسِكُمْ . قالت ابنةُ زُهَيْرِ : أما والله لئن قُلْتِ مَا قُلْتِ، فما ذلك إلا من فُضُولِ ما وهَبْتُمْ،
 ومن بَقَايا ما أَنْعَمْتُمْ . قالت بِنْتُ هَرِمِ : لا بل لكم الفَضْلُ، وَعَلَيْنَا الشُّكْرُ، أَعْطَيْنَاكُمْ
 ما يَفْنَى، وَأَعْطَيْتُمُونَا ما يَبْقَى . وقيل لعَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ حينَ أَجَزَلَ لِنُصَيْبِ الشَّاعِرِ
 في الهِبَةِ، وَكَثَّرَ لهُ في العَطِيَّةِ : أَتُنْذِلُ هَذَا العَبْدَ الأَسْوَدَ كُلَّ هَذَا النَّيْلِ، وَتُحِبُّوهُ
 بِمِثْلِ هَذَا الحِجَاءِ ؟ فقال عَبْدُ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ : أما والله لئن كانَ أَسْوَدَ الحِلْدِ إنه
 لَأَبْيَضُ الشُّعْرُ، أَعْطَيْنَاهُ دَرَاهِمَ تَفْنَى، وَثِيَابًا تَبْلَى، وَرَوَاحِلَ تُنْضَى، وَأَعْطَانَا
 نَسَاءً يَبْقَى، وَحَدِيثًا يُنْفَى، وَمَكَارِمَ لا تَبْلَى . فلهذه الخِصَالِ تكاملتْ خِصَالُ المَجْدِ
 فِيهِمْ، فَظَهَرَ عُنْوَانُ كَرَمِ الخَيْرِ عَلَيْهِمْ، فَصَارُوا في زَمَانِهِمْ مَنَارًا، وَلَمَن بَعْدَهُمْ

أعلامًا . وليس تيمَّ معاني كرمِ المنعم ، ومعاني وفاء الشاكر ، حتى تتوافق أقوالهما ، وتنفق أهواؤهما على تدافع الحجمة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزدادُ بذلك المنعمُ فضلًا ، والشاكرُ نبلاً .

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها، وشهرنا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر، والإخلاص للمنعم في تصفية الود ، فان الدين قائدُ المروءة ، كما أن المروءة خطامُ الحمية . وهذه الخصال وإن تشعبت في بعض الوجوه ، وافترقت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصابٍ يجمعها ، وإلى إناءٍ يحفظها ، منه نجت ، وعنه أنبتت ، وإليه رجعت . ولا اجتماع هذه الخصال على مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوى ، وعلى اتهام دواعي الشهوة ، والامتناع من كلب الطبيعة - وفق الأقولون بينها في جملة الأسم ، وقارنوا بينها في جمهرة الحكم . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أعتبر عزمه بحميته ، وحزمه بمتاع بيته .

ومدارُ جميع الأحوال المحمودة على الصبر، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل عاقبة الصبر . وقالوا : لما صار قفلُ الشكر لا يُحتملُ إلا بالصبر، صار الشكر من نتاج الصبر . وكما أنه لا بُدَّ للحلم - مع كرمِ الحلم - من الصبر، فكذلك لا بُدَّ للشكر - مع كرمِ الشكر - من الصبر . فالصبر يجري مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يجري الهوى مع جميع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلق الله عز وجل النار وحفها بالشهوات ، وخلق الجنة وحفها بالمكاره » .

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وتخييره بالبيان التير ، وباللفظ العذب الشهي ، والمعنى الشريف البهي . فان الكلام إذا كان حسنًا ، جعلته الحكاء أدبا ، ووجدت الرواة إلى نشره سببا ؛ حتى يصير حديثًا مأثورًا ، ومجدًا

مَدُّ كُورًا؛ وِدَاخَلًا فِي أَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِينَ، وَوَصْلَةً فِي الْمَجَالِسِ،
 وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَشَحْدًا لِلْسَانَ، وَتَرْهِيْفًا لِلْقَلْبِ، وَتَطْيِيفًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصُّدْرِ،
 وَسُلْمًا إِلَى الْعُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إِلَى الْحِلَّةِ الْكُبْرَاءِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى
 بَارِعًا؛ وَبِالنَّوَادِرِ مُرْتَحِمًا، وَبِالْمَلْحِ مَجْلُوبًا؛ لَمْ تَصْغُ لَهُ الْأَسْمَاعُ، وَلَمْ تَنْشَرْحْ لَهُ الصُّدُورُ،
 وَلَمْ تَحْفَظْهُ النَّفُوسُ، وَلَمْ تَتَطَّقْ بِهِ الْأَفْوَاهُ، وَلَمْ يُجَلِّدْ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقَيِّدْ بِالدَّرْسِ،
 وَلَمْ يَجِدَلْ بِهِ قَائِلٌ، وَلَمْ يَلْتَدِّ بِهِ سَامِعٌ . وَمَتَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَكَلَامِ اللَّغْوِ،
 وَمَعَانِي السَّمْوِ؛ وَكَأَلْجَرِ الَّذِي لَا يُفْهَمُ، وَالْمُسْتَعْلَقِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - نبيءٌ أحوج إلى الحِذْقِ، ولا أفقر إلى الرِّفْقِ؛ من الشُّكْرِ
 النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِعِ؛ الَّذِي يَبْقَى بَقَاءَ الْوَشْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ النِّجْمُ . كَمَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ
 أَحْوَجُ إِلَى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تَمَامِ
 الْعَزْمِ - من الصَّبْرِ . وَعَلَى أَنْ الشُّكْرُ فِي طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِنْ جَمَعَهَا
 أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا تَجِيئُ بِهِ الصُّدُورُ، وَتَمُجُّهُ الْأَفْوَاهُ،
 وَتَجِدُّ بِهِنَّ الْأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُقْتَضِبُ، وَالْحَاطِرُ الْمُخْتَارُ، وَالْكَلَامُ
 الْمُرْتَجَلُ، فَيُرْمَى بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَتُبْنَى مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ
 الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ الْمُنْعِمِينَ، كَمَا تَعَدَّرَ الْمُنْعَمُونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ
 الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يَعْدَّ بِلَبَّغًا مَفُوهًا، أَوْ يَسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ
 إِلَّا لِيَعْتَرَّ كَرِيمًا، أَوْ يَخْتَدِعَ غَيِّبًا لَا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ الْمُسْتَمْعِينَ؟
 وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَسْبُ وَالتَّعَرُّضُ وَالانْتِفَاعُ وَالتَّرْتُّحُ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ الْمُسْتَأْكِلِينَ،
 وَإِحْمَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا البابُ وإن جَعَلْتَهُ الْعَوَامُّ شُكْرًا، فَهُوَ بَغَيْرِ الشُّكْرِ أَشْبَهَهُ، وَبِذَلِكَ أَوْلَى،
 وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأَنُّقٍ وَتَدْكِيرٍ، وَعَنْ تَخْيِيرٍ وَتَخْيِيرٍ، وَعَنْ تَفَقُّدِ الْحَالَاتِ،

وتَحْصِيلِ لِلْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهْجَتِهِ ، وَبِحَضْرَةِ عَدُوِّ لَإِيْرَالِ مُتْرَصِّدًا
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ
قَلْبِهِ ، وَنَقَضَ الْمُبْرَمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَيَّ قَدْرَ الرَّدِّ ، وَعَلَيَّ قَدْرَ تَصْرُفِ الْحَالَاتِ
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرْعِيمِ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،
فَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شِعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا
مَنْشُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أُنْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبَسْرَ وَأَتَّحَلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ
عَلَيَّ ذَلِكَ كَثْرَةَ النَّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأُنْبَلُ
الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّدْبِيرِ قَوْلُ نُصَيْبٍ :

فَعَا جُوا فَاثْوَا بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكْتُوا أَنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !
وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَليْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَتْرِيِّ :

يَابْنَ الْعَلَاءِ وَيَابْنَ الْقِرْمِ مُرْدَاسِ : * إِنِّي لِأَطْرِيكَ فِي أَهْلِي وَجُلَّاسِي .

حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا عَطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ * طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَ هَارِاسِي !

أُنْتِي عَلَيَّكَ وَلِي حَالٌ تُكْذِبُنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ !

وَبَيْنَ هَذَيْنِ الشُّكْرِينَ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَنَازِلٌ مَعْلُومَةٌ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ
قَلْبُ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْأَسْتِنَامَةِ ، عَلَيَّ قَدْرَ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرْفِ ، وَاعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .
وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخِرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ لَمَّا
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْفِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ
أَحَدًا يَحْشَعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هُوْلَاءِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وَقِيلَ لِحَسَائِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْرَزَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَكَلَامُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْرَزَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَزْرَر؟ قَالُوا : لِأَنَّ قَلْبَ الْفَضْلِ أَرْقَ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرْقَ ،
وَالْقُلُوبُ نَبْجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِمُدَّوْحٍ إِذَا كَانَ لِلسَّدْحِ مُسْتَحِقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلأَسْتِجَابَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَظِيَ بِالقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَحْتَسِمُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَتَزِيدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أُمْدِحُكَ
مِنْ جِهَةِ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّنْفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّمْضِيلِ . وَفِي الخَبَرِ
المُسْتَفِيضِ ، وَالحَدِيثِ المَأْثُورِ : « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَهَلَى . وَقَلِيلٌ بَاقٍ
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَدَاكَرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَنَزِيلِ حَالَاتِهِمْ
فِي البرِّ ، وَمَنْ كَانَتْ الخِصْلَةُ المَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالخِصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ، وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَفُوقَ الرَّجُلُ أَثْرَابَهُ فِي الرُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الفِئَةِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ
البُلْدَانِ . وَلَكِنَّ العَجَبَ العَجِيبَ ، وَالبَّادِرَ العَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي مَحْرَبِ الخَطَّابِ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَسْقَى لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حَجِجٍ : يَفْتَحُ الفُتُوحَ ، وَيُدَوِّخُ البِلَادَ ،
وَيُصَرِّصُ الأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَفْرِضُ الفُرُوضَ ، وَيُرَتِّبُ الخِلاصَةَ ، وَيُدَبِّرُ
العَامَةَ ، وَيُنْجِي النَّفْسَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الأَرْضُ بِأَفْلاذِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُخْرُفِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مَلُوكَهَا ، وَيَبْلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ ،
وَيُؤَلِّ وَيُعزِّلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَغَتْ حَيْلُهُ إِفْرِيقِيَّةً ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّسْدِيرِ الصَّحِيحِ وَالتَّضْبُطِ ، وَالإِنْتِقَانِ وَالقُوَّةِ ، وَالإِشْرَافِ ، وَالبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالعَزْمِ

المتمكن . ثم قال : لا يجمع مصلحة الأمة ، ولا يحوشهم على حظهم من الألفة
 واجتماع الكلمة ، وإقامتهم على المحجة ، مع ضبط الأطراف ، وأمن البيضة - إلا لين
 في غير ضعيف ، وشدة في غير عنيف . ثم غير بعد ذلك سينه كلها على وتيرة واحدة ،
 وطريقة مطردة ؛ لا يبحر عن غيرها ، ولا يغيرها ، ولا يسامها ، ولا يزول عنها :
 من خشونة المأكلي والملبس ، وغليظ المركب ، وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها ،
 ودقيقها وجليلها ، وكل ما يباحر الناس عليه ، لم يتغير في لقاء ولا في حجاب ،
 ولا في معاملة ولا في مجالسة ، ولا في جمع ولا في منع ، ولا قبض ولا بسط :
 والدنيا تنصب عليه صبا ، وتتدفق عليه تدفقا ، والحصلة من خصاله ، والحلة من
 خلاله ؛ تدعو إلى الرغبة ، وتفتح باب الألفة ، وتقص المبرم ، وتفيد المروءة
 ونفس المنية ، وتحل العقدة ، وتورث الاعتزاز بطول السلامة ، والأتكال على دوام
 الظفر ، ومواتاة الأيام ، ومتابعة الزمان . وكان ثباته عشر حجج على هذه الحال
 أعجوبة ، ومن البدائع الغريبة . وبأقل من هذا يظهر العجب ، ويستعمل الكبير ،
 ويظهر الجفاء ، ويقبل التواضع .

ونحن وإن كنا لا نستحيز أن نلحق أحدا بطباع عمر ومذهبه ، وفضل قوته ،
 وتمام عزيمه ، فإننا لا نجد بدا من معرفة فضل كل من استقامت طريقته ، ودامت
 خليقته ، فلم يتغير عند تتابع النعم ، وتظاهر الصنع ، وإن كانت النعم مختلفة
 الأجناس ، ومفتاوتة في الطبقات . وكيف يلحق به أحد ؟ مع قوله : " لو أن
 الصبر والشكر بعيان ما باليت أيهما ركبت " ، ولكنا على حال لا ندع تعظيم كل من
 بان من نظرائه في المرتبة ، وأشابهه في المنزلة ، إذ كان أدومهم طريقه ، وأشدهم
 مسيره ، وأمضاهم على الجادة الوسطى ، وأقدرهم على المحجة العظمى .

ولا بد من أن يُعطى كل رئيس قسطه، وكل زمان حظه؛ ولا يُعجبنى قول
القائل: لم يدع الأول للآخر شيئاً، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل،
والثمين الخاطر، واللحم النج، والمنهج الرحب. ولو أن الناس مذجرت هذه الكلمة
على أفواه العوام، وأُعجِب بها الأعمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم، وأسئسوا
لهذا المذهب، وأهملوا الروية، ويئسوا من الفائدة، لقد كان ارتفع من الدنيا نفع
كثير، وعلم غزير.

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم،
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله،
والناصر لدين الله، والإمام الذي جَلَّ فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه،
وتلخيصه وتنقيحه، وإعزازه وتأيينه، واجتماع كلمته، ورجوع ألقته. وقد
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : مارأيت في زماننا
من كفاة السلطان وولائه، وأعوانه وحمانته؛ من كان يؤمل لملك، ويتقدم
في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفع، ومن الصاف والعجب، ومن
الخيلاء، ومن إفراط التغيير للأولياء، والتمسك على الخلطاء، ومن سوء اللقاء،
ملا خفاء به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب؛ ولا على
خاصي ولا على عامي.

بجمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتجرب، وبين الإنصاف
وقلة التريد؛ فلا يستطيع عدو معن، ولا كاشح مسر، ولا جاهل غبي، ولا عالم
مبرز، يزعم أنه رأى في شماثلك وأعطافك - عند تتابع النعم، وتظاهر المنن - تغيراً
في لقاء ولا في بشر عند المساءلة، ولا في إنصاف عند المعاملة، وأحتمل عند
المطاوله. الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهر، والمجح ناقبه، والأعمال

زَاجِيهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ، وَالْعُيُونَ نَاطِقَةَ بِمَحَبَّتِهِ ، وَالصُّدُورَ مَأْهُولَةَ بِالمُؤَدِّهِ ؛
وَالدَّاعِيَ كَثِيرَ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلَ ، وَأَنْتَ بِمُحَمِّدِ اللَّهِ تَزِدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُعِ نُبْلًا ،
وَبِالإِنصَافِ فَضْلًا ؛ وَبِحَسَنِ اللِّقَاءِ مَحَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ العُجْبِ هَيْبَةً .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هُرُونَ فِي دَعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَتْ يَعْتَنِي بِشَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنْ
الْخَيْرَاتِ ، وَابْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ؛ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفِيًا عَلَيَّ أَمْسِهِ ،
مُقْصِرًا عَنِ فَضِيلَةِ غَدِهِ . وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى 'أَعَشَى' هَمْدَانٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخْضَرِّمِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسِ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسِ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ !

قَدْ وَاللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَسْبَغَ ، فَاشْكُرِ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ؛ مَحْتَدِكَ شَرِيفَ ، وَأَرُومَتِكَ
كَرِيمَةَ ، وَالْعِرْقُ مُنْجِبَ ، وَالْعَدَدُ دَنْزَ ، وَالْأَمْرُ جَمِيلَ ، وَالرُّجُوهُ حَسَنَانَ ، وَالْعُقُولُ
رِزَانَ ؛ وَالْعَفَافُ ظَاهِرَ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبَ ، وَالنِّعْمَةُ قَدِيمَةَ ، وَالصَّنِيعَةُ جَسِيمَةَ ؛
وَمَا مِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِبَةَ الْكِرَامَ تَحْمَلُوا * دَفَعَ الْمَكَارَهَ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِهِ !

النِّعْمَةُ مَحْفُوظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوِّمَةٌ بِالأَدَبِ ، وَالْكَفَاءَةُ مَحْفُوفَةٌ بِالحَدِيقِ ،
وَالْحَدِيقُ مَرْدُودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصُّنْعُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَذَا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ القَبُولِ ، وَغَشَّكَ مِنَ المَحَبَّةِ ، وَطَوَّقَكَ مِنَ الصَّبْرِ .
فَبَقِيَ الْآنَ أَنْ تَنْتَهِيَ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ المَرْتَبَةِ ، وَفِي مَقْدَارِ هَذِهِ المَنْزِلَةِ ؛
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ؛ فَإنَّهُمَا لَا يَمْتَرَانِ مِنَ النِّشَاطِ ،

وَيَنْبِجَانُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالكَدِّ ، مَا تُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ
مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكْنُونِهَا كُلِّهَا ، وَتُجُودُ بِغَزْوَانِ
قُوَّاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مَهِيحٍ .

قال يحيى بن خالد بن جعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وتكاف النهوض بأعباء
الخلافة : أَيْ بُحَيٍّ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجْزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْتَمَلُ .
إِنِّي لَسْتُ آمِنٌ أَنْ تَنْفَسَخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَفْسَخَ الْجَمَلُ تَحْتَ الْجَمَلِ الثَّقِيلِ .
قال جعفر : لِكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِلَّ بِهَذَا الثَّقَلِ وَأَنَا مُبْتَهَلٌ غَيْرُ
مَبْهُورٍ ، وَأَجِيءُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَانِي ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ
قَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَابًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :
شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ الْمَكْدِ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ نَهَضْتَ بِثِقَلِهَا فِيهِذَا ، وَإِلَّا فَلَآ . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ
إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ
العالمين .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَابْتِدَائِهِ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتِيَارِهِ ،
أَنْ يُجَرِّحَ عَلَى آدَبِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيهِ وَتَقْوِيمِهِ ، وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ،
وَيُخَيِّرَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ،
وَيُعَلِّيَ كَعْبَهُ ، وَيَسِّرَ صَدِيقَهُ ، وَيَكْتُمَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن
سليمان المعري التنوخي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وهي :

(١)
[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ الْإِعَانَةُ] .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربيه ، والألفاظ العربيه ؛ أي هواء رفاقك ، وأى
غيت سقائك ؛ برقه كالإحريض ، وودقه مثل الإغريض ؛ حلت الربوه ، وجلت
عن الهبوه ؛ أقول لك ما قال أخو نمير ، لفتاة بنى عمير :

زَكَ لَكَ صَالِحٌ وَخَلَاكٌ ذَمٌّ * وَصَبْحُكَ الْإِيَامِنُ وَالسُّعُودُ!

لأننا أسف على قريك من الغراب الحجازي ، على حسن الزى ؛ لما أفقر ، ورب
السفر ؛ فقدم جبال الروم في تو ، أنزل البرس من الجوى ؛ فالتفت إلى عطفه وقد شمت
فأسى ، وترك التعيب أوتسى ؛ وهبط إلى الأرض فمشى في قيد ، وتمثل بيت دريد :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ، * فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : أَبْعِدِ!

وأراد الإياب ، في ذلك الجلباب ؛ فكره الشنات ، فكمد حتى مات ؛ ورب ولي
أغرق في الإكرام ، فوقع في الإبرام ؛ إبرام السأم ، لإبرام السلم ؛ فخرس الله سيدنا
حتى تدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ؛ وذلك أن هذين ضدان ، وعلى
التضاد متباعدان ، رخو وشديد ، وهادٍ وذو تصعيد ؛ وهما في الجهر والهمس ،
بمنزلة غد وأمس ؛ وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدا ، نظير الفعل في أنها
لا تخفص أبدا ؛ فقد جعلني : إن حضرت عرف شاني ، وإن غبت لم يجهل
مكاني ؛ كما في النداء ، والمخدوف من الابتداء ؛ إذا قلت : زيد أقبل ، والإيل
الإيل ؛ بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فواجب ، وإن ذكرت فغير لازب .

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد الثلج الشبيه به .

إني وإن غَدَوْتُ [في زمانٍ] كثير الدد ، كهاءِ العَدَدِ ؛ لَزِمَتِ المَذَكْرَ ، فَاتَتْ
بالمُنْكَرِ ؛ مَعَ إِنْفِ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَأَلِفِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكَرُنِي بغيرِ النَّوَاءِ ، وَيَطْرَحُنِي
عندِ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالٍ كَالهَمْزَةِ تُبَدِّلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَتَّبِعُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صُورَةً
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ الْحَقِيقَةِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسَ ؛ لِأَمْدَنَ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيَّ صَوْتَهُ
فِي هَؤُلَاءِ ؛ وَأَخْفَفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّئِيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَرَ
عَلَيْهِ مِنَ النَّبْرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُتَمَسِّسَ جَوَابَ ، وَإِنْ أَسْمَهْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ
ثَوَابَ ؛ حَسْبِي مَا لَدَيَّ مِنْ أَيْدِيهِ ، وَمَا عَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
لَهَا الْقَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللَّهُ بَيْنَ عَدُوِّهِمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجُمِعَ لَهُ
الْمَهَانَةُ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي الْمَدِيدِ ؛ وَقَلِمَ قَلَمَ الْفَسِيطِ ، وَخُيِّلَ كَسْبَاعِيَّ
الْبَسِيطِ ؛ وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْبَهَامَةَ شَانِيهِمَا وَهُوَ مَجْزُوقٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّلَاثِ وَهُوَ
مَجْزُوقٌ ؛ بَلْ أَضْمَرْنَاهُ الْأَرْضَ إِضْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمْلُ الْآمِلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحْبَابِهِ وَقَرَّبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمَجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَفْتَنْتُ فِي نِعْمَتِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَأَفْتِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمَّ سِتَّةٍ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَقْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلَ ؛
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضَ الْإِعْظَامِ

فِي مَمَّتْ ؛ فَقَدْ نَصَبَ لِلدَّابِّ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ ، وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ
 الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتِ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ ؛ هِنْدِ الطَّيْبِ ،
 وَهِنْدِ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةَ الْخِمَارِ ، وَأَرْبَابَ قِصَارِ ؛ أَخْدَانِ التَّجْرِ ، وَخَدِينَةَ الْحَجْرِ .
 إِحَامِلَةَ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ مِنَ الْمُرْتَبِعِ مَكْشُوفِ الدَّلِيلِ ؛ أَوْفَتِ الْأَشْيَاءُ ، فَقَالَتْ
 لِلْكَئِيبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالْمَزْمُومِ ؛ كَأَن سَجَّعَهَا قَرِيبُضُ ،
 وَمُرَاسِلَهَا الْغَرِيبُضُ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْعُودَ ، وَفَقَّيْدُهَا لَا يَعُودُ ؛ تَتَدَبَّ هَدِيلاً فَاتُ ،
 وَأَتِيحُ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ
 عَلَى إِفْنِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَوَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ ، لِدَوَاتِ الْأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدَ
 السَّاجِمِ ، عَبْرَةٌ مُتَرَاجِعِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ ؛ وَالرِّشَاءِ ، بَعْدَ
 الْعِشَاءِ ؛ فَخَكَّتْ صَوْتَ الْمَاءِ فِي الْخَرِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
 فَقَدَّتْ حَمِيمًا ، وَتَكَلَّتْ وَلَدًا كَرِيمًا : وَهَيْهَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتِ ، فَصَدَحْتِ ؛
 وَأُمْسَيْتِ ، فَتَنَاسَيْتِ ؛ لَا هَمَامَ لَا هَمَامَ ، مَا رَأَيْتِ أُعْجِبَ مِنْ هَاتِفِ الْحَمَامِ ؛ سَلِمَ
 فَنَاحَ ، وَصَمَّتْ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدِّ كَرَفِي كُلِّ حِينٍ ، وَلَا يُدْهِلُهُ
 مَضَى السَّنِينِ .

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرَ أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُ الْقَائِلُ النَّظْمُ فِي إِدْكَاءِ مِثْلِ الزَّهْرِ ، وَفِي النَّقَاءِ مِثْلُ
 الْجَوْهَرِ ؛ تَحْسَبُ بِإِدْرَتِهِ التَّاجَ ، أَرْتَفَعُ عَنِ الْجَحَاجِ ؛ وَغَايِرَتِهِ الْجِجْلَ ، فِي الرَّجْلِ ؛ يَجْمَعُ
 بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الْأَفْعَوَانَ فِي لُغَايِهِ بَيْنَ الْقَلَّةِ ، وَفَقَدِ الْبِلَّةَ ؛
 خَسُنَ ، فَحَسُنَ ؛ وَلَا نَ ، فَمَا هَانَ ؛ لَيْنُ الشَّكِيرِ ، يَدُلُّ عَلَى عُنُقِ الْمُحْضِرِ ، وَحَرَشُ
 الدَّيْنَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَارِ ؛ فَصُنُوفِ الْأَشْعَارِ بَعْدَهُ كَأَلْفِ السَّلَامِ ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ ،
 وَلَا تَثْبُتُ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ ؛ حَلَّصَ مِنْ سَبْكِ النَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنْ اللَّهَبِ ؛
 وَاللُّجَيْنِ ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَأَلْ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطَّ ، فِي عُنُقِ نَطَّ ؛

ما خانتَه قُوَّةُ الخاطرِ الأَمِينِ ، ولا عيبَ بسنادٍ ولا تَضْمِينِ ؛ وأينَ النُّثْرَةُ ، من العَثْرَةِ ؛ والغَرَقْدُ ، من الفَرَقْدِ ؟ ؛ فالسَّاعِي في أثرِهِ فارسٌ عَصَا بَصِيرٍ ، لا فَارِسُ عَصَا قَصِيرٍ .

وأنا نبتٌ على هَذِهِ الطَّوِيَّةِ ثَبَاتَ حَرَكََةِ البِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بغيرِ اسْتِئْذَانٍ ؛ غَنِيٌّ عَنِ الأَيْمَانِ فلا عَدَمٍ ، مُقْسِمٌ عَلَى ما قَلْتُ فلا حِنْتٌ ولا نَدَمٌ ؛ وإِنَّمَا تُحِبُّ الدَّرَّةَ ، لِلحَسَنَاءِ الحُزْرَةَ ؛ ويُجَادُ بِالْيَمِينِ ، فِي العَلَقِ الثَّمِينِ ؛ ما أَنفَسَهُ خَاطِرًا أَمْتَرَى الفِضَّةَ ، من الفِضَّةِ ؛ والوَصَاءَ ، من مِثْلِ الحِصَاةِ ؛ ورُبَّمَا نَزَعَتِ الأَشْبَاهُ ، ولم يُشَبَّهِ المَرءُ أباهُ ؛ ولا غَرَوَ لذلِكَ : الحُضْرَةُ أُمُّ اللَّهِيبِ ، والنَّخْرَةُ بِنْتُ الغَرِيبِ .

وكذلِكَ سَيِّدُنَا وَلَدٌ من سَعْرِ المَتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِلخُنْفَاءِ المَتَدَيِّبِينَ ؛ كَمَ لَهُ من قَافِيَةِ تَبْنِي السُّودِ ، وَتَبْنِي الحَسُودِ ؛ كَلِمَتٌ ، من شُرْبِ العَاقِقَةِ الكَمِيَّتِ ؛ نُشُورُهُ قَرِيبٌ ، وَحِسابُهُ تَثْرِيبٌ ؛ أَيْنَ مُشَبَّهُو النِّسَاقَةِ بالفِئْدَنِ ، وَالصَّحْصَحِجِ بِرِداءِ الرِّدَنِ ؛ وَجَبَ الرِّحِيلُ ، عَنِ الرَّبْعِ المُحِيلِ ؛ نَسَأَ بَعْدَهُمُ وَاصِفَ ، غُودِرَ رَأْيُهُ كَلِمَاتِصِفَ ؛ إِذَا سَمِعَ الخَافِضُ صِفَتَهُ لِلسَّهْبِ الفَيْسِيحِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الأَحْنَاءِ ، وَخَلُوقِهِ عَصِيمِ الهِنَاءِ ؛ وَحَلَمَ بِالقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاغَ بُرْيَ ذَوَاتِ الأُرْسَانِ ، من بُرْيِ البِيضِ الحِسانِ ؛ شَنَفًا لُدَّرَ النُّجُورَ ، وَعُيُونِ الحُورِ ؛ وَشَغَفًا بَدْرَ بَكِيٍّ ، وَعَيْنِ مِثْلِ الرُّكِيِّ ؛ وَإِعْرَاضًا عَنِ بُدُورِ ، سَكَنَ فِي الخُدُورِ ؛ إِلَى مُحُولٍ ، كَأَهْلَةِ المُحُولِ ؛ فَهِنَّ أَشْبَاهُ القَيْسِيِّ ، وَنَعَامِ السَّيِّ ؛ وَإِنْ أَحَدٌ فِي نَعْتِ [الخَلِيلِ]^(١) فَيَاخِيبةً من سَمْبِهِ^(٢) الأَوَايدِ بِالتَّقْيِيدِ ، وَشَبَّهُ الخَافِرِ بِقَعْبِ الوَلِيدِ ؛ نَعْتًا غَبَطَ بِهِ الهَجِينُ المَنْسُوبُ ، وَالبَازِيُّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حوامئها . وفى الأصل شَبَّهُ بالسَّيْنِ .

الْيَعْسُوبُ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لِكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، سَمِيَ بَعْضُ الْغُرَبِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ، وَخَفَتْ جَرْسٌ؛ وَالْقَالِعُ، أَبْغَضُ طَالِعٍ؛ وَالْأَزْرَقُ، يُحْتَبَكُ عَنْهُ الْفَرْقُ.

فَالآنَ سَلِمَتِ الْجَبْهَةُ مِنَ الْمَعْضِ، وَشَمِلَ بَعْضُهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ؛ فَأَيَّنَ النَّطِيحَ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيحُ؛ وَالْمَهْقُوعُ، نَجَاءٌ رَأَى كَيْهَ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُحْرَبَ، قَائِدُ الْمُقْرَبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابُ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ. وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ: الدَّبَاءَةُ، لِرَاعِي الْمَاءَةِ؛ وَالْأَنْفِيَّةُ، لِلْقِدْرِ الْكَفِيَّةِ؛ تَقَمَّاعاً عَلَى جَاعِلٍ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبْهَتَهَا كَمُحَدِّفِ الثَّرُوسِ؛ وَأَيُّهَا لِلْكِنْدِيِّ، قَوَافٍ كَهَيْجَمَةِ السَّعْدِيِّ:

إِذَا أَصْطَكَّتْ بِضِيْقٍ حَجْرَتَاهَا * تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ وَاللِّطِيمُ!

فَالْقَسِيْبُ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْبِيهِ؛ لَيْسَ رَوِيَهُ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ اللَّيْلُ مَاءَ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظَمَاءِ الظُّبَا؛ فَالْمِصْرَاعُ كَوَدَيْلَةِ الْغَرِيْبَةِ، حَكَّتِ الزَّيْنَةَ وَالرَّيْبَةَ؛ وَأَرَّتِ الْحَسَنَاءَ سَنَاهَا، وَالسَّمْعَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَتَتْكَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرَضْ دِنَانُ الْعَقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ؛ وَتَسْجَعُ الْعَنَّاكِبُ، عَلَى الْمَنَاكِبِ؛ وَلَكِنْ تُكْسَى مِنْ وَشِي ثِيَابَا، وَيُجْعَلُ طِلَاؤُهَا زِيَابَا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغِطُ الْمِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَيُوَدُّ سَعْدُ الْأَخِيْبَةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْحِيَامِ.

وَوَقَفْتُ عَلَى «مُحْتَصِرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ» الَّذِي كَادَ لِسِمَاءِ الْأَبْوَابِ، يُعْنَى عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطِلَاءِ الْأَحْمَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ؛ وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ؛ شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّيْبِ،
وَكَفَى من أبنِ قُرَيْبٍ؛ ودَلَّ على جَوَامِعِ اللُّغَةِ بالإِيْمَاءِ، كما دَلَّ الْمُضْمَرُ على ما طَالَ
من الأَسْمَاءِ.

أَقُولُ في الإِخْبَارِ: أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ إِذَا أَضْمَرْتُهُ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ:
أَمَرْتُهُ؛ وَأَبَلَّ من المَرَضِ والمَمْرِيضِ، بما أُسْقِطُ من شُهُودِ القَرِيضِ؛ كَأَنَّهُمْ
في تِلْكَ الحَالِ، شَهِدُوا بِالحَالِ؛ عِنْدَ قَاضٍ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمُ بِالِاتِّقَاضِ؛ على حَقِّ
عَلِمِهِ بِالْعِيَانِ، فَاسْتَعْنَى فِيهِ عَن كَلِّ بَيَانٍ.

وقد تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ المَنْطِقِ" فوجدتُهَا عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ في عِدَّةٍ إِخْوَةَ
الصِّدِّيقِ، لَمَّا تَظَاهَرُوا على غير حَقِيقٍ؛ وَتَزِيدُ على العَشْرَةِ بِوَأَحِدٍ، كَلَّخَ لِيُوسُفَ
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ. والشُّعْرُ الأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الأَثَرِ، وَصَحِيفَةَ المَأْتَرِ؛ فَإِنَّهُ كَذُوبُ
القَالَه، نَمُومُ الإِطَالِه؛ وَإِنَّ قَفَا نَبِكَ [على حُسْنِهَا]، وَقَدِمْ سِنِّهَا؛ لِقُرْبِهَا بِمَا يُطِلُّ
شَهَادَةَ العَدْلِ الرِّضَا، فَكَيْفَ بِالبِنِيِّ الأَثْنِيِّ؛ قَاتَلَهَا اللهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بِشَرِيهِ،
كَانَتْ من أَغْوَى البَرِيهِ. وَقَدِ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ الأَجْتِهَادُ، في إِقَامَةِ
الأَشْهَادِ؛ حَتَّى أَتَشَدَّ رَجَزَ الصَّبِّ، وَإِنْ مَعَدًّا من ذَلِكَ لِجِدِّ مُغْضَبٍ؛ أَعْلَى فَصَاحْتِهِ
يُسْتَعَانُ بِالقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَاشِ الأَرْضِ؛؛ مَارُؤُبَةُ عِنْدَهُ في نَفِيرِ، فَمَا قَوْلِكَ
في صَبِّ دَامِي الأُظْطَافِيرِ؟؛ وَمَنْ نَظَرَ في كِتَابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ، إِلا بِأَبِ فَعَلٍ
وَفَعَلٍ؛ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ على عَشْرِينَ حَرْفًا: سِتَّةَ مُدْلَقِهِ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَقِهِ؛ وَأَرْبَعَةَ من
الحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ، وَوَأَحَدٌ من المَزِيدَةِ؛ وَنَفِثَتَيْنِ: النَّاءِ وَالدَّالِ، وَأَخْرَمْتَعَالٍ؛
وَالأَخْتَيْنِ العَيْنِ وَالحَاءِ، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إلى حَيْرِ الرَّاءِ. فَوَحَّمَ اللهُ أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ
لَفَاطَ كَمَدًا، أَوْ أَحْفَاطَ حَسَدًا، سَبَقَ أبنِ السَّكِّيتِ ثُمَّ صَارَ السَّكِّيتِ، وَسَمَّقَ ثُمَّ حَارَ
وَتَدًّا لِلبَيْتِ؛ كَانَ الكِتَابُ تِبْرًا في تُرَابِ مَعْدِنٍ، بَيْنَ الحُثِّ وَبَيْنَ المُتَدِّنِ؛ فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ؛ فَعَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْأَلِ النَّقِيشِ؛
فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ بِهَيْنٍ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ؛ مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَ؛
فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصَّمِيمِ، مَنَابَ مِرَاةِ الْمُتَجَمِّمِ فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ؛ شَخْصُهَا ضَيْلٌ
مَلْمُومٌ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومُ .

وَأَقُولُ بَعْدُ فِي إِعَادَةِ اللَّفْظِ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ ، كَلْتَمَعِ
فِي النِّكَاحِ بَيْنِ الْأَخْتَيْنِ ؛ الْأُولَى حُلُّ يُرَامُ ، وَالثَّانِيَةِ بَسْلُ حَرَامٌ ؛ كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودَجِ لِمَيْسَانَ ، وَفِي السَّبَّةِ تَحْمِيسَانَ ؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ ، وَيَا أَبَا
الْفَتَيَانِ شَرَعُكَ مِنَ السُّعُودِ ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزِينَبَ وَدَعْدُ ، وَسَمَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِسُؤَى سَعْدُ ؛
مَا قَلَّ أَثِيرُ ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرُ .

مَثَلُ يَعْقُوبَ مَثَلُ خُودٍ كَثِيرَةٍ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ ، وَعَطَّلَتِ الْخَضِرَ وَالسَّاقِ ؛
كَانَ يَوْمٌ قَدُومٌ تِلْكَ النُّسْخَةُ يَوْمَ ضَرِيْبِ حَشَرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَأَضَافَ
الْحِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْحِنْسِ ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الطَّبَّاءِ ، بِالسَّبَاءِ ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ ، بِالْأَوْجَالَ ؛
وَلَكِنَّ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِعُ ؛ وَتَنْصَرِفُ بِلَذَاتِ ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ ؛ وَإِنْ عَبَدَهُ
مُوسَى لِقَيْنِي تَقَابَا ، فَقَالَ : هَلُمَّ كِتَابَا ؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفَا ، وَبِمَوَالَاتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفَا ؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَنْظَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ . وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّؤْدُودِ فَقَالَ لِمُخَلَّفِيهِ ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ ؛ : ﴿ إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَوْ قَبَسٌ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسٌ
لَهَبٌ ؟ بَلْ يَنْشَرُفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبَّةُ الزَّمَنُ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوعَ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رِسَالَةِ الْمُعْزَى الْمَوْجُودَةِ

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَقْتَسِنُ لَهَا * جَزَلَ الْجَدَا غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا دَعْرَا!

وقد آب من سَفَرِهِ الأَوَّلَى ومعه جَدْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إن لِمِسْتُ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،
أَوْ أُونِسْتُ فَنَارُ الكَلِيمِ ؛ وَأَجْتَنَى بِهَارًا حَبَّتْ بِهِ المَرَاذِبَةُ كِسْرَى ، وَحِجْلٌ فِي فَكَاكِ
الْأَسْرَى ؛ وَأَدْرَكَ نُوحًا مع القوم ، وَبَقِيَ غَضًّا إلى اليَوْمِ ؛ وَمَا أَتَجَمَّعَ مُوسَى إِلَّا الرُّوضُ
العَمِيمِ ، وَلَا أَتَبَعَ إِلَّا أَصْدَقَ مُقِيمٍ ؛ وَوَرَدَ عَبْدُهُ الرَّهْبِيُّ مِنْ حَضْرَتِهِ المَطْهَرَةِ وَكَانَتْ
زَهْرَةً بَقِيعَ ، أَوْ وَرْدَةً رَبِيعَ ؛ كَثِيرَةُ الوَرَقِ ، طَيِّبَةُ العَرَقِ ؛ وَليس هُوَ فِي نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،
فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ ؛ وَالجَنَابِ ، فِي السَّحَابِ المُنْجَابِ ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالعَنَامَ
يَسْفِرُ ؛ وَلِكِنَّهُ مِثْلُ التُّونِ فِي الجُحْمِ ، وَالأَعْقَرِ تَحْتِ جِرْيِهِ .

وقد كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا فِي مَا سَلَفَ أَنَّ الأَدَبَ كَعُهُودٍ فِي غِيبٍ عُهُودَ ، أَرَوَّتْ
النَّجَادَ فَمَا ظَنُّكَ بِالوُهُودِ ؟ ؛ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الغَيْثِ ببلدِ طَسْمَ ، كَأَثَرِ الوَسْمِ ؛
مَنْعَهُ القِرَاعَ ، مِنْ الإِمْرَاعِ ؛ يَابُوسَ ، بِنِي سَدُوسَ ؛ العُدُو حَازِبَ ، وَالكَلَاءُ
عَازِبَ ؛ يَاحْضَبَ بِنِي عَبْدِ المَدَانِ ، ضَانٌّ فِي الحُرْبِثِ وَإِبِلٌ فِي السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الأَظْلَّ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الحَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ فِي اللَّيِّدِ ، إِلَّا الهَيْبِذُ ؛ جَنَيْتُهُ مِنْ
شَجَرَةٍ أَجْتَنَيْتُ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . لَبَنُ الإِبِلِ عَنِ المُرَارِ مَرَّةً ، وَعَنِ
الأَرَاكِ طَيِّبٌ حَرٌّ .

هَذَا مِثْلِي فِي الأَدَبِ . فَأَمَا فِي النَّسَبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِمَجْدِ الله تَعَالَى وَبِقَاءِ سَيِّدِنَا
بُلْغَتَانِ : بُلْغَةُ صَبْرٍ ، وَبُلْغَةُ وَقْرِ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ الأَلِيَّةِ المَرْعِيَّةِ ، وَالأَلْوَجِ الرَّبِيعِيَّةِ ؛ هَذِهِ
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَأَلٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالقَلِيلُ ؛ سَلَّمَ إِلَى الحَلِيلِ ؛ كَالْمَصْلِيِّ يُرِيقُ الضَّمُوءَ ، بِأَسْبَاغِ
الْوَضُوءِ ؛ وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ الله يَغْسِلُ الحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكاتبة حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ، وَالْمَيْلِ عَنْ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْأَجَلِّ وَالِدِهِ
 - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - كَسَبَ بِنِ يَعْرُبَ، لَمَّا أَتَهَلَ فِي التَّقَرُّبِ؛ إِلَى خَالِقِ الثُّورِ، وَمُصَرَّفِ
 الْأُمُورِ، نَظَرَ فَلَمْ يَرَأْ شَرَقَ مِنَ الشَّمْسِ يَدَا، فَسَجَدَ لَهَا تَعَبُدًا . وَغَيْرُ مَلُومٍ سَيِّدِنَا
 لَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ الثَّمَانِ الرَّبِيعِيِّ، وَمَدَائِحِ الْيَرْبُوعِيِّ، مَلًّا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ
 الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْأَسْمِ، فَغَيْرُ مُعْتَدِرٍ، مَنْ أَبْغَضَ لِأَجْلِهِمْ بَنِي الْمُنْذَرِ؛ وَهُمْ إِلَى
 حَضْرَتِهِ السَّيِّئَةِ رَجُلَانِ : سَائِلٌ، وَقَائِلٌ؛ فَأَمَّا السَّائِلُ فَالْحَ، وَأَمَّا الْقَائِلُ فَغَيْرُ
 مُسْتَمْلِحٍ؛ وَقَدْ سَتَرْتُ نَفْسِي عَنْهَا سِتْرَ الْجَمِيسِ، بِالْقَمِيصِ؛ وَأَنْحَى الْهَيْتَرَ، بِسُجُوفِ
 السَّيْتَرِ؛ فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مِثْلُهُ مِثْلُ الصُّبْحِ إِذَا لَمَعَ تَصَرَّفَ الْحَيَوَانُ فِي شُؤُونِهِ
 وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ الْيَرْبُوعِ، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجْلِ الرَّبُوعِ، وَقَدْ يُوَلِّعُ الْهَجْرَسِ؛ بِأَنْ
 يَجْرَسَ؛ فِي الْبَلَدِ الْجَرْدِ، قُدَّامَ الْأَسَدِ الْوَرْدِ . وَإِنِّي خُبِرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرَّسَالَةَ الْأُولَى
 عُرِضَتْ بِالْمَعْرِضِ الْكَرِيمِ : فَأَوْجَبَ ذَلِكَ رَحِيلَ أُخْتَهَا، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْثِهَا؛
 وَكَيْفَ لَا تَتَفَعَّعُ، وَفِي الْيَمِّ تَفَعَّعَ؛ وَهِيَ بِمَقْصِدِ سَيِّدِنَا فَانْحَرَهُ، وَلَوْ نُهِيتِ الْأُولَى
 لَأَتَمَّتِ الْآخِرَةَ :

كَلَّتِ الرَّسَالَةَ .



قُلْتُ : وَهَذِهِ رِسَالَةٌ أَنْشَأْتُهَا فِي تَقْرِيبِضِ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ الْفَتْحِيِّ، أَبِي الْمَعَالَى فَتَحَ اللَّهُ،
 صَاحِبِ دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْذِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَدَامَ اللَّهُ
 تَعَالَى مَعَالِيَهُ، فِي شُهُورِ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْفَتْحَ مَحَطَّ رِحَالِ الْقَرَائِحِ الْجَائِدَةِ، وَمُسْتَقَرَّ نَوَاهَا، وَوَحِيظَ
 دَائِرَةِ الْأَفْكَارِ الْوَارِدَةِ، وَمَرْكَرَ شُعَاعِ كُوَاهَا، وَمَادَّةَ عَنَاصِرِ الْأَفْهَامِ الْجَائِلَةِ، وَعِتَادَ
 شَكِيمَةِ قُوَاهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَمْلَكَةَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِيدَاعِ سِرِّهَا الْمَصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ رَحِيبٍ ، وَأَنْهَضَ بِتَدْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَرَتْ كِتَابُ كُتُبِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَنْشَدَ مِنْ شِدَّةِ الْفِرَاقِ : فَقَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسْلِ الْأَقْلَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ مِنْ إِذَا طَرَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقٌ تَلَا لِسَانَ يِرَاعِنِهِ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بُرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ الْأَخْلَاقِ فَتُشِيدُ لِقَلَاعِ الْإِيمَانِ بِأَقْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا ، وَتُرَقِّمُ أَسْرَارُ شِعَارِهَا بِنَقِيسِ الْقَبُولِ فِي صُحُفِ الْإِقْبَالِ فَبَسْدَلُ دَاعِيهَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا ، وَتَدِينُ بِطَاعَتِهَا مَلُوكُ الْمَمَالِكِ النَّائِبَةِ خُضُوعًا فَتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَفَارِقِ بَعْدَ اللَّتَمِ تَيْجَانًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ سَنِّ الْمَعْرُوفِ وَنَدَبِ إِلَيْهِ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَانَتِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتَمُّهُ عَلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكُوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَنَهُ وَأَقْتَفَوْا فِيهِ سُنَنَهُ ، وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . صَلَاةٌ نَتَنَاوَلُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا ، وَيَتَّصِدُّ لِرِوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى تَمَادِي الدَّهْرِ أَخْبَارُهَا ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فإن رياسة أهل الدول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته، وأعتياد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته، والاستناد على رأيه في جليل خطوبه وعظيم ملهاته :

فَعَالَ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوِّ كَأَنَّهَا * مُتَحَاوِلٌ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالحل الأرفع، والمترلة التي لا تدافع ولا تدفع، والمقام الذي تفرّد بصدارته فكان كالمصدر لا يُثنى ولا يُجمع ؛

إذ هو كليم الملك ونجيه ، ومقرب حضرته وحظيه ، بل عميد الملكة وعمادها ،
وركنها الأعظم وسنادها ، حامي حومتها وسدادها ، وعقدتها المسبق ونظامها ، ورأس
ذروتها العليا وسنامها ، وجهنة خبرها ، وحقبة وردها وصدرها ، ومبلغ أنبائها
وسفيرها ، وزند رأيها المورى ومشيرها .

فهيلاً بالمكرمات وبالعالى * وحيلاً بالفضل والسؤدد المحض !

هذا . وهو الواسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصيهم بدرك قصده وبلوغ
بغيته ، والمُسعد للظلم من عزائم توقيعاته بما يقضى بنصرته ؛ وحينئذ فلا يصلح
لها إلا من كان مع كرم الحليم بارزاً انليام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي
الهمة لإغاثة الملهوف ؛ ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجنب لدى المسأله ، ومع
قربه بحضرة سلطانه قريباً من الرعية حتى من المسكين والأرمله .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالضدين اللذين
لا يجتمعان بحال ، والنقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجتمع
العالي والهابط ، والمترفع والساقط ؛ أم كيف تتصل الأرض بالسماء ، أو يقع
أمتزاج عنصر النار بعنصر الماء ؛ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه
لأعز من الجوهر الفرد ، وقّل وجوده حتى لم يوجد إلا فى الواحد القصد فلا تراه
إن تراه إلا فى حيز النادر ، ولا تظفر به إلا ظفرك بيض الأنوق إن كان يظفر به
ظافره ؛ إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالفقد من هذا النوع فى الزمن المتباعد ، أو أسعد
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الاشياء من نظر من هو متصف ببعض
هذه الأوصاف عاقل ، والدهر بعد بمن يقوم فيه بتفريخ كربة الملهوفين ولكنه
يماطل :

يرفه ما يُرفّه في النَّقَاضِي * وليس لَدَيْهِ غَيْرُ الْمَطْلِ نَقْدًا!

إلى أن طَلَعَ نِيرُ الزَّمَانِ وتَوَضَّحَ شُرُوقُهُ، وظهرت تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَفْلَ بَطْلُوعِ السَّعْدِ عِيُوقُهُ؛ فأقْبَلَتِ الدَّولَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا، وَتَلَقَّتْهَا الأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفْقِ عَادَتِهَا؛ وَوَفَّرَ لِلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ آتِنْتَخَابِ الأَصْفِيَاءِ قِسْمَتَهَا، وَحَضَّتْ لَهَا الرَّأْيَ الصَّابِبَ حَتَّى أَظْهَرَتْ فِي الوُجُودِ زُبْدَتَهَا؛ فَكَانَ خُلَاصَةَ أَصْطِفَائِيَّهَا، وَزُبْدَةَ آتِنْتَخَابِيَّهَا؛ الْمُقْتَرُ الأَشْرَفُ، العَالِي، المُؤَلَّوِي، القَاضِي، الكَبِيرِي، السِّفِيرِي، المُشِيرِي، الفَتْحِي، نِظَامُ المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَاسَتِهَا، وَمُنْقَدُّ أُمُورِهَا، وَجَامِعُ رَأْسِهَا؛ أَبُو المَعَالِي فَتْحُ اللهُ صَاحِبُ دَوَاوِينِ الإِنشَاءِ الشَّرِيفِ بِالمَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ، زَادَ اللهُ تَعَالَى فِي آرْتِقَانِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الدُّوَلِ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَيْفِ اللُّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ العَوَائِدِ وَقَدْ فَعَلَ؛ فَأَلْقَى إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ المَمْلَكَةِ مَقَالِيدُهَا، وَأَتَفَقَتْ بِحُسْنِ سِفَارَتِهِ بِاتِّفَاقِ الرِّوَاةِ أَسَانِيدُهَا؛ فَتَقَدَّتْ بِتَنْفِيذِهِ أُمُورُهَا، وَكَلَّمَتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا؛ بَجَرَتِ الأُمُورَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ عَلَى السَّدَادِ، وَمَشَتِ الأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أُمَّةٍ المُرَادِ؛ وَأَعْتَرَفَتْ لَهُ الكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعِيَّةُ تَقَدُّمَهُ فِي الرِّأْسَةِ فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ .

وَإِنَّ أُمُورَ المُلْكِ أَضْحَى مَدَارُهَا * عَلَيْهِ كَادَرَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرِّحَى!

قَدْ اسْتَعْبَدَ الخَطُّ فَاصْبِحْ لَهُ كَالخَلِيدِ، وَأَتَى مِنَ المَعْرُوفِ بِكُلِّ غَرِيبٍ فَانْسَى مِنْ أَثَرِ عَنَةِ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ القَدِيمِ؛ فَلَو رَأَاهُ «خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ» لِأَخْبَحَ عَنْ مَلَاقَاتِهِ عَظْمًا، أَوْ نَاوَاهُ «يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ» لَمَاتَ مِنْ مُنَاوَأَتِهِ عَدَمًا، أَوْ سَابَقَهُ «الْفَضْلُ وَجَعْفَرُ» أَبْنَاهُ لِسَبَقِهِمَا كَرَمًا :

مَنَاقِبُ لَوْ أُنِّي تَكَلَّفْتُ نَسَخَهَا، * لِأَفَلَسْتُ فِي أَقْلَامِهَا وَمِدَادِهَا!

أو سَمِعَ بِهِ "الحسن بن سهل" لَقَطَعَ إِلَيْهِ الحِزْنَ والسَّمَلَ ، أو بَصُرَ بِهِ "الفضل"
أخوه ، لما رأى أَنَّهُ للفضل أهل ؛ أو عَينَهُ "أبو علي بن مقلّة" لعلم أَنَّهُ فاقَهُ حَظًّا
وَخَطًّا ، أو نَظَرَ "أبن هلال" ، إلى أَهْلَةٍ نُوناَتِهِ لِتَحَقُّقِ أَنَّهُ سَبَقَهُ إلى تَحْرِيرِ هِنْدَسَةِ
الحُرُوفِ وما أَخْطأ :

إِذَا أَخَذَ القِرطاسَ حَلَّتْ يَمِينُهُ * تَفْتَحُ نُورًا أو تُنظِّمُ جَوْهَرًا !

فَإِن تَكَلَّمَ أَنى من بيانه بالسَّحْرِ الحَلال ، أو حاورَ أَنى من البَلاغَةِ بما يُقَصِّرُ عن
رَتبته "سُحبان" في المَقال ، أو ترَسَّلَ أَعْيى "عَبْدَ الحَميد" في رِسالِهِ ، أو كَتَبَ رَتَعَتَ
من رَوْضِ خَطِّهِ في زَهْرِ نَحائِلِهِ :

يُؤَلِّفُ اللُّؤلؤَ المَنثورَ مَنطِقُهُ * وَيَنظِمُ الدُّرَّ بالأقلامِ في الكُتُبِ !

فَرأيه السَّيفُ لا ما صَنَعَ الهِنْدُ ، وَعَقَلَهُ الصَّارِمُ لا ما أَسْتودِعَ الغِمْدُ :

فَفي رَأْيِهِ نُجْحُ الأُمُورِ ولم يَزَلْ * كَفيلاً بِإرشادِ الحَيارى مُوقِفاً !

أَقلامُهُ تُزَرِّي بالصَّوارِمِ وَتَهزأُ بالأَسَلِ ، وَتَجْرِي بِصِلَةِ الأرزاقِ فَتَريدُ على الأَماني
وَتَرَبُّو على الأَمَلِ :

بِتِ جارِهِ فالعِيشُ نَحْتَ ظِلالِهِ * وَأَسْتَسقِهِ فالبحرُ من أنوائِهِ !

فَكَارِمُهُ تُغني من الإملاقِ ، وبواكِرِهِ بالإسعادِ تبادرُ العُدُوّ والإشراقِ ، وَعَطاياهُ

تَسيرُ سِيرَ السَّحابِ فَتُمطرُ الغَيْثَ على الآفاقِ :

كَرِيمُ مَساعِيَ المَجْدِ يَرَكِبُ نَجْدَةً * من الشَّرَفِ الأعلى وَبَدَلِ الفَواضِلِ !

قَد خَدَمْتَهُ الحُظُوظُ وَأَسعَدْتَهُ الجُدُودُ ، وَوُسمِتِ المَنازِلُ السَّنيَّةُ فَمكانَ لَه مِنْها

سَعْدُ السَّعُودِ :

لوعَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لِمَا بَرِحَتْ * تَثْنِي الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشُّوكَ أُمِّرَ الْعِنَبَاءُ أُنَّى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَنْقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاخِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامَ وَالسَّنَةَ الْخِصْبَةَ ، وَلِضَوْعِفَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَأَحْظَنَكَ عِيُونُهَا ، * نَمَّ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانٌ ،

وَاصْطَدَّ بِهَا الْعَنْقَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ * وَأَقْبَدَ بِهَا الْجَوْزَاءُ فَهِيَ عِنَانٌ!

قَدْ لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَتَقْمَصُّ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْتَطِعُ
الْأَيَّامُ إِلَى نَزْعِهِ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَى الْجَبْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْاصِي الْكَرَمِ الَّذِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا!

فَمَنَّا قَبَهُ تَسْبِقُ أَقْلَامَ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَعْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَأَرْتَفَاعِهَا غَايَهُ ،
وَلَا لِنَدَاوِلِهَا نَهَايَهُ ؛ فَلَا تُؤْنِي جَامِعَةٌ بَشْرَطِهَا ، وَلَا تُقَوْمُ جَرِيدَةٌ بِسُنْطِهَا :

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِفَضْلِهِ أَفْوَاهُ الْمَخَابِرِ
فَنَكَّسَتْ لِرِفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَاخِجَ الرُّؤُوسِ ؛ وَطَلَعَتْ فِي أَفْنِ الْمَهَارِقِ سُعُودٌ إِيَّالَتِهِ السَّعِيدَةِ
فَأَقْلَتْ لَوْجُودِهِ التُّحُوسِ ؛ وَرُقِيتْ مَحَاسِنُهُ بِنَقِيسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفْحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وَحِمَلَتْ أَخْبَارَ مَعْرُوفِهِ فَتَرَا حَمَتِ الْآفَاقِ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجِ رِيحِهِ الْعَبْقَةِ وَأَسْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي الْمَكْرَمَاتِ صِفَاتُهُ * فَمَا دَخَلَتْ لِأَنَّ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا!

انْفَقَتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ مُدِحَ بَكْلِ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ ، وَاسْتَغْرَقَتْ مَادِحُهُ الْأَزْمِنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوْلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ * وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٌ !
عَلَى أَنِّي اسْتَقْبَلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ بِأَعْبَائِهِ ، فَلَوْ أَنَّ «الْمُحَاطِظَ» نَصِيرِي ، وَ«أَبْنَ الْمُقَفَّعَ» ظَهِيرِي ، وَ«قَسَّ بْنَ سَاعِدَةَ» يُسْعِدُنِي ، وَ«سَيِّجَانَ وَائِلَ» يُجِدُنِي ، وَ«عَمْرَو بْنَ الْأَهَمِّ» يُرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي بِالْعِجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصَفُهُ مِنْ تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنْبِتٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم معين الدين تاج العلماء، خطيب الخطباء، زين الأئمة، فُدوة الشريعة، الصدر أبي الفضل يحيى بن جعفر بن الحسين بن محمد الحصكفي رحمه الله، سماها: «عَتَابَ الْكُتَّابِ، وَعِقَابَ الْأَلْقَابِ، الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى أَصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وهي :

عَذِيرِي مِنْ وَزْرَاءِ النَّصِيبَةِ وَكُتَّابِهَا ، وَكِبْرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا ، وَأَوَانِحِي الدُّوَلِ وَأَطْنَابِهَا ، وَنَوَابِ الدَّوَابِّ وَأَنْبِيَاءِهَا ؛ وَجِبَابَةِ بِيُوتِ الْأَمْوَالِ ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمِّ نُسْرِ الْأَحْوَالِ ؛ وَسَاسَةِ الْمَمَالِكِ ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ ؛ الشَّائِحِينَ بِأَنْوَفِ التِّيهِ وَالْكِبْرِيَاءِ ، وَالسَّاحِحِينَ دُيُولِ الْعُجْبِ وَالْخِيَلَاءِ ، الرَّافِلِينَ فِي حُلِيِّ الْبَهَاءِ ، وَالْعَافِلِينَ عَنْ فُرُوضِ الْعِلَاءِ ؛ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا السُّؤْدَدَ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ ، وَتَسَنَّمُوا الرَّتْبَ بِلَا إِعْدَادٍ ؛

(١) الأنبياء جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكانهم الحاصب ، وعدوا لله المناصب ؛ شغلهم الأشر والفجور ، وكل على بسطته يجر ، همهم محج الأجرح ، وثبج الراح بالماء القراح ؛ وأمتطاء المرذ ، والعتاق الجرد ؛ أملهم تحيد الأفنيه ، وتشييد الأينيه ؛ والزيادة في الرقيق والكراع ، والنحول والأبعاغ ؛ وليس بغال ، كثرة خيل وبغال ؛ بما باعوه من الورع والديانة ، وأضاعوه من العفة والصيانة :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى غَيْرَةٍ * وَنَافَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !
 تَوَزَّعُوا الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالدِّينَا ،
 شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ * وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَاوِينَا ،
 عَفُوا وَمَا عَفُوا بِأَقْلَامِهِمْ * مَسَا كَمَا تَحْوَى مَسَا كِينَا ،
 غَرَّتْهُمُ الدُّنْيَا بَانَ أَظْهَرَتْ * عَنْ غِلْظَةِ تَضَمَّرْهَا لِينَا ،
 وَالدَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فِي مَرَّةٍ * مُرًّا وَحِينًا سَاقَهُ حِينَا .
 يَا أَنْفُسَا دَلَّتْ بِإِتْيَانِهِمْ * وَيَكِ أَتَاتَيْنِ الْأَتَاتِينَا .
 لَا تَرْتَضِي فِي رِسَالِهِمْ إِيَّا * تَمْرِينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !
 وَكَانَ يُجِدِي الْقَصْدَ لَوْ أَنَّهُمْ * يَدْرُونَ شَيْئًا أَوْ يَدْرُونََا .
 مَوْتِي هُوَ فَلَيْكَ تَقْرِيضُهُمْ * إِنْ كُنْتَ لَا تَابِينَ ، تَابِينَا ،
 لَا يَبْعَتِي الْفَضْلُ بِإِطْرَاءٍ مِنْ * يَكُونُ فِيهِ الْهَجُومُ مَغْبُونَا ،
 لَو رُمْتَ شَيْئًا دُونَ أَقْدَارِهِمْ * لَهَجُوهُمْ لَمْ تَجِدِ الدُّونَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ،
 وعنوا بأسوداد الليقه ، عن سؤدد الخليقة ؛ وأحالوا على الرمم ، عند قصور الهمم ؛
 ومن أعظم الآفات ، نحرهم بالعظم الرقات .

وَكَاثِمٌ لِّصَمِيمِ هَاشِمٍ * أَوْ مِنْ لَهَا سَمِيمِ الْعَبَاشِمِ ،
غَشِمُوا فَمَا يَغْشَاهُمْ * بِالطَّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لا يُعِينُ أَحَدَهُمْ عَلَى مُرُوقِهِ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أُخُوهِ ، وَلَا يَرَعِي وَارِثَ أَبُوهِ ، وَلَوْ
أَعْتَرَى إِلَى بَنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَأَسٍ بِمُجُودِهِ ؛ يَرُوقُكَ كَيْسُهُ وَالغُلَامُ ،
وَتَرُوعُكَ دُؤْيُهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا أَسْتَنْطَقَ قَلَمَهُ الصَّامِتِ ، أَجْدَلُ عَدُوَّهُ الشَّامِتِ ؛
فَزَادَ أَدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أَدْرَاجِهِ نَاكِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أُمِّلَى لَهُمْ حِلْمُهُ * مَعَ الْخِنَا وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيبَهُمْ * شَقِيتُ صَدْرَ النَّقِيعِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلَا نَاطِرٍ ، * وَعَارِضٍ يُمَسِي بِلَا عَارِضٍ ،
وَمُشْرِفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَدُهُ * فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدَةُ الْمَاخِضِ ،
وَخَازِنٍ إِنْ لَفَّ مَرْضَاتَهُ * مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَبِثَ جَاءَنَا ذِكْرُهُ * فِي الذِّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مَهْرَهُ * لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرَقَّعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوْلَى بِشَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنِ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقَ بِالْمَسْحَاهِ ، مِنَ السَّحَاهِ ؛ وَأَلْيَقُ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقُطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَحُطُّ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ؛
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ؛ ظَفِرْتَ بَعْضَةَ الْمَاتِحِ ؛ وَخَشَرَ الْمَفَاتِحِ ، إِنْ خَطَّ : فَنُونُهُ
كَلَامُهُ ، وَخَلَطَ فَنُونُهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أَوْ أَنْفَدُوا أَنْفَدْتَهُمْ أَسْمَهُمُ الْكَلِمَ ،
 أَوْ قَلَدُوا قَلَدُوا خِزْيًا يُجِلُّهُمْ ، * أَوْ أَقْطَعُوا قُطِعُوا شَتْمًا بِجَهْلِهِمْ .
 أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقَعُوا * جَاءُوا مِنَ الرَّقْمِ وَالْأَلْفَازِ بِالرَّقْمِ ،
 فَاللَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاءِ وَلَا تُقَاسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمُ !!

فالجديد بهم سهل ، والسَّوَامُ بينهم همل ، ولا علم عندهم ولا عمل ؛ لهفي على
 الفضل المذال ، برفعة الأذال ؛ وضياح الحقوق ، وأنصياح البيضة عن العقوق .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع أصطحاب البم والزير ؛ ونفاق سوقه ، وأنفاسه
 في فسوقه ، وأتصال صبوحة بغبوقه ؛ وتخلية في البهو ، للعب والأهو ؛ من ظهر غي
 يرتب ، وذى يسارينكب ؛ وساع يثي ، وراج يرتشي ؛ ورُسوم حيف تجدد ،
 وسوات تعدد ؛ ما يضره من شكوى الجراح البغات ، وصریح لا يغاث ؛ ووَال
 يعسف بأهل مصره ، وإن شرکه في إضره ؛ وقاض لا ينصف الرعية ، ولا يتبع
 القضايا الشرعية ؛ وفقية يسف إلى تحصيل عرض زائل ، وتعجيل عرض من
 سائل ؛ ماله وحفظ المال ، ومحاسبة العال ؛ :

أَمْ مَاعَلَى الْعَامِلِ نَمِسِ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرْمُ وَزَادَ الْخِرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَحْضَلَ فِي كَمِّهِ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخِرَاجِ .
 وَهُوَ خِرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهَى * يَبْطُ بِالْمَبْضَعِ مَا فِي الْخِرَاجِ !!!

شغلهم بالشهد المشور ، لا بمشهد يوم النشور ، وقصدهم الجمع والآكتساب ،
 ومتى الجمع والحساب ؛ إنما هو مال يُحْتَقَبُ ، لا مال يُرْتَقَبُ ؛ وفساد في الأرض ،
 لا إعداد ليوم العرض :

وَإِنِّي لَأَرْتِي لِلرَّاتِبِ تَحْوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بُرُودٌ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَشِيئُهُمْ * وَلِكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،
 يِقَاطُ إِذَا مَا تَوَبَّ اللُّؤْمُ دَاعِيًا * وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودٌ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزَ حَوْلَهُمْ * وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُعُودٌ،
 لَقَدْ حَسِدُوا ظَلَمًا عَلَى مَا أَنَاهُمْ * وَهَلْ لِأَحَى نَقِصٌ يَسُودُ حَسُودٌ؟
 وَلِلسَّيِّدِ الْمَحْسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَدُودٌ وَأُخْرَى بِالنَّوَالِ تَجُودٌ،
 لَمَّا اللَّهُ دُنِيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعِيهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُهُودٌ،
 إِذَا صَغُرَتْ كَأَسْمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إنما الصدر من صدره كاله، وحسنت أعماله، وجرّد العزمات، فشرّد
 الأزمت، ونفى بذبه الكربات، وأصطفى لربه القربات، فسهل الغنى، وأفعم الإنا،
 ووضع مواضع النقب هنا، فهو يهش للنوال، ويش عند السؤال، لا يسوب
 ورده القذا، ولا يبطل منه بالئن والأذى، يبشر بشره بحاسن الأخلاق، وينشر شره
 الطيب في الآفاق، ويحجم بدوانه داء الإملاق، ويحزر بقصبتها قصب السباق:

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةِ نَابِلٍ * أَجْنَتْهَا مِنْ نَافِدَاتِ الْمَعَابِلِ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمَنْسُوبِ تُرْرِي شَبَابَهَا * بَلْهَدَمَ مَنْسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَابِلِ،
 وَإِنْ بَدَرَتْ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَتْ * مِنَ الْبَرِّ قَبْلَ الْبُرْسَعِ سَنَابِلِ!!

دؤوبه لإقالة العائر، وعمارة الدائر، وإشاعة المائر، همه في معضلة تراض،
 ومعدلة تفاض، وخلل يسد، وجلل يصد، وعان بظهره يعان، وعات بقره يهان،
 بابه مفتوح، وخيره ممنوح، وما أقل اللائم، لمن أكثر الولائم، وأغفل الجادب،

لمن صَنَعَ المَادِبَ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ، لمن أَسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ؛ فَبَدَّلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ،
وَالسَّنَامَ الإِطْرِيحَ؛ لَأَكْمَنَ يَشْحُ بِالْقَتَارِ، لَفَرَطِ الإِقْتَارِ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضْرِ، عَلَى
الْمُحْتَضِرِ؛ وَيَخْلُ بِالْعَرَاقِ، عَمَّنْ رُوْحُهُ فِي التَّرَاقِ، وَيُسِرُّ الغَمِيرَةَ، لمن يَتَنَبَّأُ المِيرَةَ؛
وَيُبَيِّنُ الدَّاءَ؛ لمن يَتَنَظَّرُ الغَدَاءَ؛ وَيُسْعِرُ الأَحْشَاءَ، لمن تَرَقَّبَ العِشَاءَ :

مسلط سيرته نعمة * وجائر قسمته ضيزى،

ليس بذي لب يملئ التائي * ولا لباب يملأ الشيزي!

يَحْقُدُ عَلَى الإِخْوَانِ، عِنْدَ ظُهُورِ الخَوَانِ؛ فَتَرَاهُ يُحَدِّقُ، إِلَى مَنْ يُشَدِّقُ؛ وَيَتَّقِمُ،
مَنْ يَلْتَقِمُ؛ وَيُدُلُّ الأَكِيلَ، وَيُجِلُّ بِهِ التَّنِيكِلَ؛ وَيُبَغِّضُ الشَّرِيبَ، وَإِنْ كَانَ الخِدْنَ
القَرِيبَ؛ فَالْحَائِنُ مَنْ يَرِدُ، فَيَزْدَرِدُ؛ وَالْحَائِنُ مَنْ يَنْبَسِطُ، فَيَسْتَرِطُ؛ يَسْنَأُ مَنْ
الأَجْرَاسِ، صَوْتِ الأَضْرَاسِ؛ وَحَشْرَجَةَ البَلَاعِمِ، بِدَحْرَجَةِ المَطَاعِمِ؛ وَهَرَهْرَةَ
الشَّدُوقِ، وَجَرَجَةَ الخُلُوقِ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَازِرُ بِلَوَاهِ، أَفَوَاهَا تَصَدَّتْ لِحَلَوَاهِ؛
وَحَكَمَتْ لِحَامِهِ، بِحِكْمَةِ لِحَامِهِ؛ وَعَدَّتْ بِكِوَانِهِ، لَهَى وَعَدَّتْ بِأَلْوَانِهِ؛ رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ^(١)
مَنْ الغَرِيْفِ، وَأَعْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الطَّرِيْفِ؛ صَرِيْفُ بَابِهِ، دُونَ صَرِيْفِ نَابِهِ؛
وَيُحَكِّمُ صَكَّ بَابِهِ، عَنِ كَبَابِهِ؛ وَيُعَدُّ سَدِيْفَ جِفَانِهِ، مِنْ سَدِيْفِ أَجْفَانِهِ؛ يُمَانِعُ
بِلَدِيْدِهِ، عَنِ سَفُودِ قَدِيْدِهِ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيْدِهِ، عَنِ صَفْحَةِ ثَرِيْدِهِ؛ حَمَلُهُ مِنْ
نُجُومِ الحَمَلِ، وَسَمَكُهُ فَوْقَ السَّمَكِ الأَعْزَلِ؛ وَحُوْتُهُ بَيْنَ الحُوْتِ والأَسَدِ، وَجَدِيْهُ
عِنْدَ جَدِيِ الفَرَقْدِ؛ دُونَ مُجْتَمِعِهِ أَرْتِفَاعِ العِجَاجِ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجَةِ :

يدرج في القدر دراجه * ليلتقط الحب وطيهوجه

ففي السموات سماتاه * وعند ديك العرش فروجه

(١) من عرزه يعرزه انترعه انترعا عنيفا والغريف الدلو .

يَحْرُسُ مَا دَتَهُ الدَّلْوُ والعَقْرَبُ، وهما منَّا أدنى وأقرب؛ يُعَجِبُهُ التَّشْمِيرُ والأَحْتِجَانُ،
 وَيَذَلُّهُ التَّوْفِيرُ والأَخْتِرَانُ؛ وقصر مُفَاجَأَةً أحوال، تُصْرِحُ عن أهوال؛ وَكَأَنَّكَ
 بالأَيَّامِ بعد الأَيْتِسَامِ، شاهرةً لِلْحَسَامِ؛ قد كَثُرَتْ عن أنيابها العُصَلُ، في بُكْرَها
 والأَصْلُ؛ وأجَلْتُ عن سَلِيْبٍ مَسْحُوبٍ، لَتَنَكَّرَ مَصْحُوبٌ؛ وآخِرَ يَتَرَدَّدُ في البُوسِ،
 وَيُخَلِّدُ في الجُبُوسِ؛ قد حصل على سَلَّةِ الحَاوِي، من سلة الحلاوى؛ ومن طَعْمِ
 العَسَلِ، على طَعْنِ الأَسَلِ؛ ومن العَدْبِ البَارِدِ، على حَزِّ المَبَارِدِ :

تقبض من خَطْوِهِ الكَبُولُ * فهو على قَيْدِهِ يَبُولُ،

خَلَا من الخَيْرِ فهو طَبْلٌ * وهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ،

يَشْكُو إلى الله مُسْتَعِينًا * وما له عنده قَبُولُ،

ذَلِكَ بما كان مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيهِ والمِيُولُ!

فهم بين حصى تعصر، وقفا يقصر؛ وَكَعَابٍ مَثْقُوبَةٍ، وَأَنْوَاعٍ عُقُوبَةٍ؛ أُوْ يُقَالُ
 فَلَانُ أَنَارَتِهِ شَعُوبٌ، وَوَارَتَهُ الجُبُوبُ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ المَمَاتِ، من المُقَدِّمَاتِ؛
 وما ظَنُّكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيحِ، في صَنْكِ الصَّرِيحِ؛ تَحْتَهُ البَرَزُخُ المَوْصُودُ، وفوقه الجَبَلُ
 المَنْصُودُ؛ أَنْظِرْ كَيْفَ هَجْرَ بابِهِ المَقْصُودِ، وَجَانِبَتِ جَنَابَهُ الوُفُودُ؛ وَأَخْلَقْتَ رَبَّاعَهُ،
 وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ؛ ثم تَشْوِيهِ الحُوبُ، أَسْبَعُ من تَشْوِيهِ الشُّحُوبِ(?)؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
 البُورِ، من بَعَثَةِ القُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الأَنْفُسِ العَاوِيَةِ * من بعد تلك الحُفْرِ الهَاوِيَةِ،

وَكُلُّ مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمَّهُ في بَعْتِهِ هَاوِيَةِ،

وَلَيْسَ يَدْرِي وَيَجْهَهُ مَا هِيَ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةِ!

أعاذنا الله من خِلَالٍ يَقْضِي جَهْلُهَا بِالشَّنَارِ، وَأَفْعَالٍ تُقْضِي بِأَهْلِهَا إِلَى النَّارِ؛ بِكَرَمِهِ
وإِحْسَانِهِ، وَطَوْلِهِ وَأَمْتِنَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاخرات ، وهي على أنواع)

منها : المفاخرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة ، لفاضل القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن
ابن شيخ الإسلام ، بقیة المجتهدين ، أبو حفص عمر البلقيني الكفائي ، الشافعي ،
أمتع الله تعالى المسامین ببقائه ، ذكرت فيها نيفاً وسبعين عالماً ، ابتدأتها بعلم اللغة ،
وختمتها بفن التاريخ ، ذا كراً فخر كل علم على الذي قبله ، محتجاً عليه بفضائل موجودة
فيه دون الآخر ، وجعلت مصب القول فيها إلى أشتماله على جميعها ، وإحاطته بكلها ،
مع الإشارة إلى فضل والده ، شيخ الإسلام ، ومساهمته له في الفضل ، على ما ستقف
عليه إن شاء الله تعالى ؛ وهي :

الحمد لله الذي جعل للعلم جلالاً تودُّ جلائل الفضائل أن تكون له أتباعاً ، وأطلق
السنة الأعلام من جميل شأنه بما أنطق به السنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من
مأثور فضله إجماعاً ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنعش
قلوباً ونزه أبصاراً وشنف أسماعاً .

أحمدُه على أن أفاض نتائج الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح ،
وبث جياد الألسنة في ميدان الجدال فحاز قصب السبق منها كل لسان ذليق فصيح .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي قهرت بينات دلائله المُلحدَ المعاند، وبهرت قواطع براهينه الألدَّ الخصيمَ والجدلَ المكيدي؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أظهر من واضح الحجج الجليلة ما سقط بحجته دعوى المعارض، وأتى من فصل الخطاب بما أحم به الخصوم فلم يستطع أشدهم في البلاغة شكيمة أن يأتي له بمناقض؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من جليل المناقب بكل وصف جميل، وأشتهرت في الوجود مفاخرهم فلم يُحتج في إثباتها إلى إقامة دليل؛ صلاة يُمسك في دعوى الشرف بمتين حبلها، وتنفق أدلة العقل والنقل على القطع بعلو شأنها وتوقر فضلها .

وبعد ، فلما كانت العلوم مشتركة في أصل التفضيل ، متفقة الفضل في الجملة وإن تفاوتت في التفصيل ؛ مسأماً أصل الشرف فيها من غير منازع ، مجمعا على أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بشار ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع ؛ مع اختلافها في التفاضل باختلاف موضوعاتها ، وتفاوتها في الشرف بحسب الحاجة إليها أو وثاقه مُحججها أو نفاسه غاياتها ؛ عطس كل منها بأنف شايخ غير مسلم للآخر ولا مسلم ، ومدد إلى العلياء يد المطاولة فتناول الثريا قاعداً غير قائم ؛ وآدعى كل منها أن بحره الطامى ، وفضله النامى ؛ وجواده الطامح ، وسماكه الرَّامح ؛ زاعماً أن حسامه القاطع وعضبه القاضب ، وقدحه المعلّى وسهمه الصائب ، وتجمه السارى وشهابه الشاقب ؛ وأن نشر الثناء على مجاميره موقوف ، وخطيب المحامد بمنابره معروف ؛ وفلك الفضل على قُطبه دائر ، وكل شرف عليه محبس وكل فخر عليه قاصر ؛ فمأس بعطفه ومال ، وبسط في الكلام لسانه فقال وطال .

هذا : وإنما اجتمعت يوماً اجتماع معنى لا صورته ، وقامت لها سوق بالبحث معروفة وعلى الحدال مقصوره ؛ وتفاوضت بلسان الحال وتخطبت ، ونحاورت

في دَعْوَى الشَّرَفِ وَتَجَاوَبَتْ ، وَأَلَمَّتْ بِالمُنَافَرَةِ فَتَنَافَرَتْ ، وَتَسَابَقَتْ فِي مِيدَانِ
الْإِفْتِخَارِ فَتَنَافَحَتْ ؛ وَأَخَذَ كُلُّ مِنْهَا فِي نُصْرَةِ مَذْهَبِهِ ، وَتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بِأَنْوَاعِ الْمُجْجِ
وَالْأَسْتِدْلَالِ ، وَإِقَامَةِ الْبُرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْتِرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلُ بَادِيٍّ بَدَأَ مِنْهَا بِالْكَلامِ ، وَفَتَحَ بَابَ الْحِدَالِ وَالْحِصَامِ : -

عَلْمُ اللُّغَةِ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ الْعُلُومِ أَنَّيْ أَعْمَكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعَكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرَكُمْ جَمْعًا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَكي تَدْوِيرِ الدَّوَائِرِ ، وَبِوِاسِطَتِي تُدْرِكُ الْمَقَاصِدَ وَيَسْتَعْلَمُ مَا فِي الضَّمَائِرِ ؛ وَبِدَلَالَتِي تُعَلِّمُ
الْمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَمَيَّزُ مَا يَدُلُّ عَلَى الذِّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدْوَاتِ ؛ وَتَتَبَّنِ دِلَالَاتُ
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالْأَشْخَاصِ ؛
عَلَى أَنْ كَلِّمَكُمْ كُلَّ عَلِيٍّ ، وَمُحْتَاجٌ فِي تَرْجُمَةِ مَقْصُودِهِ إِلَيَّ ؛ فَلَفِظِي " الْمُحْكَمُ " وَأَقْوَالِي
" الصَّحَاحُ " ، وَكَلَامِي " الْجَامِعُ " وَسَيْفُ لِسَانِي " الْمُجْرَدُ " نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ؛ وَفَضْلِي
" الْمُجْمَلُ " لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرَهُ بِ
مَعْرِفَةٍ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خِصِيصَةً لَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .^(١)

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيلَهُ ، وَبَانَ لِلسَّيْبِ سَيْبُهُ ؛ تَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلنَفْسِهِ وَلسائرِ الْعُلُومِ مُتَّصِرًا ؛ فَقَالَ : رُوِيَكَ أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ يَا ذَا
الْمُنَازِلِ ؛ فَقَدْ دَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُ مَنْ تَرَفَّعَ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَلَوْ عَقِدَتْ
عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ؛ وَمَا يُجِدِي الْبَازِي بغيرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُغْنِي السَّاعِي إِلَى الْحَرْبِ بِغيرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَنْيْ يَطْعُنُ رُحْمَ بغيرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقَطَعُ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ
بَنَانٌ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرَفْتَ أَصْلًا ؛ وَكُنْتَ لِلْكَلامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة « خِصِيصِي » ويمدُّ .

بيان المقاصد إماما ؛ فانت غير مُستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ؛ بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملمتم بتجوير ألفاظك وتقرير معانيك ؛ بي تعرف أصول أبنية الكلمة في جميع أحوالها ، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها ؛ وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ؛ والأصلي منها والمزيد ، والمهموس والرخو والشديد ؛ و ^(١) تقديره ، والصحيح والمعتل وتحريره ؛ وكيفية التثنية والجمع ، والفصل والوصل والابتداء والقطع ؛ وأنواع الأبنية وتغيرها عند اللواحق ، وكيفية تصريف الفعل عند تجرده عن العوائق ؛ وأمثلة الألفاظ المفردة في الزنة والهئية وما يختص من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتميز الجامد منها والمُشتق وأصناف الاشتقاق ؛ وكيف هو على التفصيل والإجمال .

على أنك لو خليت ومجرد التعريف ، وبيان المقاصد بالأصطلاح أو التوقيف ؛ لكان علم الخط يقوم مقامك في الدلالة الحالية لدى الملتقى ، ويتبرجح عليك ببعد المسافة مع طول البقاء ؛ مع ما فيه من زيادة ترتيب الأحوال ، وضبط الأموال ؛ وحفظ العلوم في الأدوار ، وأستمرارها على الأكوار ؛ وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحملها سرا من مكان إلى مكان ؛ بل ربما آكتفى عنك بالإشارة والتلويح ، وقامت الحكاية منها مقام التصريح .

فعندها غضب علم النحو وأكفهر ، وزجر وأشمخر ؛ وقال : يا لله ! ”أستنت الفصاَل حتى القرعا“ ، و”أستسمرت البعاث“ ، فكان أشد ثلما وأعظم صدعا ؛ لقد أدعيت ما ليس لك ففاتك الحبور ، و”من تشبع بما لم ينل فهو كلايس توبي زور“ ؛ وهل أنت الا بضعة مني ؟ ، تُسند إلى وتقل عني ؛ لم يزل علمك بابا من أبواي ،

وَجُمِّلَتْ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي ؛ حَتَّى مَيَّزَكَ "الْمَازِي" ، فَأَفْرَدَكَ بِالْتَّصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 "أَبْنُ جُنَيْ" ، فَتَبِعَهُ فِي التَّالِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ "ابْنُ مَالِك" ، مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ "أَبْنُ الْحَاجِبِ" ، فِي شَافِيَتِهِ فَرَفَعَ عَنْكَ الْحَاجِبَ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمْنِ كُتُبِي ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسَبُكَ لِأَحَقِّ بِحَسَبِي ؛
 أَنَا مِلْحُ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَعْنِي عَنِّي مِتْكَمٌ ، وَلَا يَلِيقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ
 وَلَا مُتَعَلِّمٍ ، بِي نَتَيْنِ أَحْوَالِ الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دِلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيَرْتَفِعُ اللَّبْسُ
 عَنِ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمِتْكَمُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَحْنٍ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ ، وَعَيْبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغَيَّرَتْ دِلَالَتُهُ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلَفَاءُ تَحُثُّ عَلَى النَّحْوِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْذَرُ اللَّحْنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فِيئِمَّا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْبَدِيعِ جُمْلَهُ ، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِ
 بِصِدْقِ الْعَزْمِ فِي اللَّقَاءِ حَمْلَهُ ؛ وَقَالَتْ : جَعَجَعَةٌ رَحًا مِنْ غَيْرِ طِخْنٍ ، وَتَصْوِيتُ
 رَعْدٍ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ أَتَيْتَ بِغَيْرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنِ لَيْنٍ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ؛
 الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ بَلْخَجُ ؛ إِنْ الْفَوْزَ لَقِدَحِنَا ، وَالْوَرَى لَقِدَحِنَا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْعَرَبِيَّةِ وَخُلَاصَتِهَا ، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا ؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِمَالُ فَأَمِنْتَ الْأَطْرَاحَ ؛ فَلَوْ أَصْطَلِحَ عَلَى
 نَصْبِ الْفَاعِلِ وَرَفَعِ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخَلِّ بِالتَّفَاهِمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لِذَلِكَ أَقْوَمُ
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشُّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ نَسَيْتُمْ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَلْتُمْ ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرِدُونَ ، وَعَنِّي تَصُدُّرُونَ ؛

وإلى تَنَسِّبُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْمَلْتُ عليه من المدح الذى كم رَفَعُ وَضَعًا، وَجَلَبَ نَفْعًا، وَوَصَلَ قَطْعًا، وَجَبَرَ صَدْعًا، وَالمَهْجُو الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وَأَنحَمَدَ ذِكْرًا، وَجَعَلَ بَيْنَ الرَّفِيعِ وَالمَوْضِعِ فى حَطِيطَةِ القَدْرِ نَسْبًا وَصِهْرًا؛ إلى غير ذلك من أنواعِ الشُّعْرِيَّةِ التى شاعَ ذَكَرَها، وَأَصْوَاعِى العِطْرِيَّةِ التى فَاحَ نَشْرُها، بل لا يكادُ عِلْمٌ من العلومِ الأَدْبِيَّةِ يَسْتغْنِي عن شَوَاهِدِى، ولا يَخْرُجُ فى أَصُولِهِ عن قَوَائِنِى وَقَوَاعِدِى؛ حَتَّى عِلْمُ النَثْرِ الذى هُوَ شَقِيقِى فى النَسَبِ، وَعَدِىلى فى لسانِ العَرَبِ؛ لم يَزَلْ أَهْلُهُ يَتَطَفَّلُونَ عَلَيَّ فى بَيْتِ يَحْلُونَهُ، وَيَقْفُونَ من بَدِيعِ مَحاسِنِى عِنْدَ حَدِّ لا يَتَعَدُّونَهُ .

فقال علمُ القافية : إِنَّكَ وَإِن تَأَلَّقَ بَرُّقُ مَباسِمِكَ، وَطابَتْ أَيامُ مَواهِمِكَ؛ فانتَ مَوقُوفٌ عَلَيَّ مَقاصِدِى، وَمُعْتَرِفٌ من رَوى مَوارِدِى؛ أَنَا عُدَّةُ الشَّاعِرِ، وَعُمْدَةُ النَّاثِرِ؛ لا يَسْتغْنِي عَنى شِعْرُهُ ولا خَطابُهُ، ولا يَسْتَنكِفُ عَن الوُقُوفِ عَلَيَّ أَبوابِى دُورِ تَرسِيلِ ولا كِتابِهِ؛ طالَما عَثَرَ الفُحُولُ فى مِيدانِى، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيمِ طُرُقِ فَضُلُوا السَّبيلِ وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيمِ المَبانِى؛ فلم يَفْرُقُوا بَينَ التَّكاوُيسِ وَالتَّراكِبِ فى التَّعارُفِ، ولم يُمَيِّزُوا بَينَ التَّدارُكِ وَالتَّواتُرِ وَالتَّرادُفِ .

فقال علمُ العروض : لَقَدْ أَشْمَعْتَ القَولَ فى الدَّعوى من غيرِ تَوجِيهِ فَدَخَلَ عَلَيمِكَ الدَّخيلُ، وَأوقَعَكَ الوِصْلُ دونَ تَأْسيِسِ فى هُوةِ النَّقِصِ : فَهَلْ إلى خُروِجِ من سَيلِ؟؛ أَنَا مِعارُ الفَريِضِ وَمِيزانُهُ، وَعَلَى تَبْنِى قَواعِدُهُ وَأركانُهُ؛ لم يَزَلِ الشَّعْرُ فى عُلُوِّ رُتبَتِهِ بِفَضْلِى مَعْتَرِفًا وَالحَقِّ مَتَحَقِّقًا، وَمن بُجورِى مُعْتَرِفًا، وَبأسبابِى مَتَعَلِّقًا؛ فابْيانهُ مِيزانِى مَحْرَرَهُ، وَأَجْراؤُهُ بِقِسْطائِ تفاعِلي مُقَدَّرَهُ؛ وَبِقَواصِلِ مُتَّصِلِهِ، وَبأوتادِى مُرْتَبِطُهُ غيرَ مُنْفِصِلِهِ .

فقال علمُ المَوسِيقِ : لَقَدْ أَشْرَفْتَ فى الأَفْتِخارِ فَضَلاتِ الطَّرِيقِ وَبِنتَ عَنا، وَوَرَطْتَ نَفْسَكَ فيما لا فائِدَةَ فىهِ فَلزِمْتَ دائِرَةَ لا تَنفَكُ عَنا؛ وَأَتَيْتَ من طَويلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنقل قولاً، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرته منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وآخرت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بظريه ولا عروضة؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا معول عليك؛ وكفى بك هضماً، ونقيصةً وذمماً؛ وأستدللاً على دحض حجتك، وضعف أدلتك؛ قول ابن حجاج:

مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولٌ * مَسَائِلُ كُلِّهَا فُضُولٌ،

قَدْ كَانَ شِعْرُ الْوَرَى صَحِيحًا * مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْخَلِيلُ!

على أنه إن ثبتت لك فائدة، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عانده؛ فأنما تفاعيلك مقدمة للألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عمود الأفرح؛ والمتكفل بسيط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وقرضها؛ أحرک النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد الهوموم والندم؛ فتارة أستعمل في الأفرح وزوال الكروب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وأونة في محل الأخران واجتماع المآتم، ومررة يستعملني قوم في بيوت العبادات فأبعثهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم؛ وأتى من غريب الألحان، بما يشبع به الجائع ويروى به الظمان، ويأسس به المستوحش وينشط به الكسلان؛ وتدنو لسماعه السباع، ويعنوله بعد الشدة الشجاع.

مع ما يفتزع عنى من علم الآلات الروحانية التي تُنعش الأرواح، وتجلب الأفرح؛ وتنفى الأتراح، وتؤثر في البخيل السباح، وتفعّل في الأبواب ما لا تفعل في اللبّات بيض الصفاح.

فقال علم الطب : لقد أضعت الزمان في اللهو، ومِلت مع الأريحية فاس بك العُجب وزاد بك الرهو، وداخلك الطيش فقنعت بالإطراب، وعنيت بمعرفة اللحن فقأتك الإعراب، تُذكر العشاق أحوال النوى فيسلمها الهوى إلى الهوان، وتنتقل في نواحي الإيقاع تنقل الهائم فتمسى في حجاز وتصبح في أصهان، وأنت وإن ادعيت أنك العلم الروحاني، والمستولى بتحرك الطبائع الأربع على النوع الإنساني وغير الإنساني، فأنت غير مستغن عني، ولا فنك في الحقيقة مُفك عن فني، بل قواعدك مُرتبة على قواعدي، وفوائدك مُستفادة من فوائدي، وأهل صناعتك يتطفلون في معرفة الملائم والمنافي على ساقط لباب موائدي، وأنى تبسط بك الروح مع وجود السقم، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم؟ بل أنا قوام الأبدان، وغاية ملاك الإنسان، بي تحفظ صحة الأجسام، وتحمك النفس من استكمال قوتها النظرية والعملية بواسطة زوال الأقسام وانتفاء الآلام، مع ما يتضح بالنظر في التشريح الذي هو أحد أنواع من سر قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يظهر من حال الصحة والمرض وسر الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أول مرة وإليه يحشرون .

مع ما يلحق بي من علم خواص العقاقير الغريبة، والأحجار التي تؤثر بتمزيجها الصناعاتي التأثير العجيب، وتأتي من نوادر الأفعال بالأعمال الغريبة، على أنني لست بمتخص في الحقيقة ببدن الإنسان، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان، وإنما أوردت بنوع البشر اهتماماً بشأنه، وتنبهاً على جلالة قدره وعلو مكانه .

ثم أُلحِق بالإنسان في الاعتناء به الخيول فأشتق لها مني علم البيطرة، وتلاها في الاعتناء بجوارح الطيور لاهتمام الملوك بشأنها فاستنبط لها من أجزاء علم البيزره، وأهمل ما سوى ذلك من جنس الحيوان، فلم يعتن بأمره ولم يهتم له بشأن .

فقال علم القافة : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ، وولجت مولوجا صلبا ؛ وأتيت من مشكلات الفضايا بما ضاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يغالبه ؛ واقتصرت في تشريحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ، وأضربت عما تدل عليه بصورها وكيفياتها ؛ أين أنت من الحاق الابن بالأب بالصفات المتماثلة ، والحكم بنبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبينة العادلة ؛ فهذه هي الفضيلة التي لا تساوى ، والمقبة التي لا تعادل ولا تساوى ؛ وكفالك لذلك شاهدا ، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مساعدا ؛ وأنه لا يعتور ذلك معارضة ولا نقض ، أستبشأر النبي صلى الله عليه وسلم بقول مدح المدلجى : « إن هذه الأقدام بعضها من بعض » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجهادك لمصيب ؛ غير أنى أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة بمنه ، وتقيس فرعا على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ؛ وأنا فأدرك المؤثر من الأثر ، وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدرب ؛ وربما ميزت أثر البعير الشارد من المراتع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالم ؛ فأدركت من الأمر الخفي ما تدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضى به على الحاضر .

فقال علم غصون الكف والجبته : ما الذى أتيت به من الغريب ، أو أظهرته بعلمك من العجيب ؛ فلو أتيت بأرض صلبة لوقفت أمالك ، أو محت الریح معالم الأثر لطلت أعمالك ؛ أو ولى من تقنى أثره المساء لقات حدسك الصائب ، أو جعل الماشى مقدم نعله مؤخره لقلت : إن الداهب قادم والقادم ذاهب ؛ لكن أنا كاشف الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما ركب فيه من الدلائل الخلقية ؛

أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَهَنَّمِ وَعُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْشَدَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دِلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكَتِفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلْزَامِهِ أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَعْجَبٌ ، وَإِنَّمَا الشَّانُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخَطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كَتِفِ الدَّيِّجَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خَطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ تُتَرَجِّمُ ، وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرُّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارِبِ ، مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيَتْ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِعْمَالِ ، أَمَا أَنَا فَقَارِسُ هَذَا الْمِيدَانِ ، وَمَالِكُ زِمَامِ هَذَا الشَّانِ ، فَكَمْ مِنْ ضَمِيرٍ أَبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ، وَمَكَانٍ عَيَّنْتُهُ فَوَافِقٌ ، وَأَمْدٍ قَدَّرْتُهُ فَطَائِقٌ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا أَثْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ، فَانْ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرْتَ فِي الْإِحْتِجَاجِ خِصْمَكَ ، قَدْ دَاكَ ، أَنَّهُ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَنِ وَأَفَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَعْيِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنِ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ، فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَدْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْإِحْتِمَالِيَةِ ، أَيْنَ أَنْتَ مَنِيَّ حِينَ أُعْبِرُ عَمَّا شَاهَدْتَهُ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أُكْشِفُ عَنْهُ الْمُجْجَبَ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كِفَافَتِي الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَأَخْبِرُ بِحَوَادِثِ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وُجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّدَارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُنَبِّئُهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ نُحُوسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمُؤَاظَةِ سَعُودِهَا .

فقال علم أحكام النجوم : حقيق ما أولت ، وصحيح ما عنه عبرت وعليه
 عولت ؛ إلا أنك قاصر على وقائع مخصوصة تُرشد إليها ، وأمور محدودة تُنبه عليها ؛
 على أنه ربما نَسَبَت الرُّبَا عن فكرة وقعت في اليقظة فاتصلت بالنام ، أو حدثت
 عن سوء مزاج أو رداءة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام ؛ أما أنا فأني أدل
 بما أجراه الله تعالى من العادة ، على الحوادث العامة مصاحباً لمقتضيات إرادته ؛
 ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير ، ويبيِّن ما أشتملت عليه الأفلاك
 العلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير ؛ مع ما يترتب على ذلك من الأعمال
 العجيبة ، والأحوال الغريبة ؛ التي تبهر العقول ، ويمتنع إليها من غير طريق
 الوصول :

من علم السحر على الإطلاق ، وعلم الطلسمات الغريبة وعلم الأوفاق ،
 وكذلك علم النيرنجيات وعلم السيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهيئة : مالك ولا باطيل تتممها ، وأكاذيب تُزخر فيها وتزبرقها ؛
 وأمائل يعتمدها المعتمد فتخيب ، وأقاويل تارة تُحطى وتارة تصيب ؛ ولقد وردت
 الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك ، وجاءت السنة الغراء بنحو أخبارك وإعفاء
 آثارك ؛ ونأهيك بفساد هذا الاعتقاد ورد هذا المذهب ، ما ثبت في الصحيح من
 أنه من قال : مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب ؛ على أنك في الحقيقة
 نوع من أنواع ، معدود من جندي ومحسوب من أتباعي ؛ نعم أنا القائم من دليل
 الاعتبار في القدرة بتمام الفرض ، والقائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات
 والأرض ؛ عني يتفرع علم الزيجات والتقويم الذي به يُعرف موضع كل واحد
 من الكواكب السيارة ومدة إقامتها ، وزمن تسريتها وتغريبها ومقدار رجوعها

وَأَسْتَقَامَتَهَا ؛ وحال ظهورها وأخفائها في كلِّ زمان ، وما يتَّصلُ بذلك من الأتِّصال
والأنفِصال والخُسُوف والكُسُوف واختصاص ذلك بمكانٍ دُونَ مكان .

فقال علم كَيْفِيَّةِ الأَرْضَادِ : ما عِلْمُ الرِّيحَاتِ والتَّقَاوِيمِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ فِي الذِّكْرِ عَلَيَّ ،
وَتَوَثُّرُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَيَّ ؛ إِذْ بِي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَكِيَّةِ ،
والتَّوَصُّلُ إِلَيْهَا بِالآلَاتِ الرَّصَدِيَّةِ ؛ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَبُ عِلْمُ الرِّيحَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ
الْأَتِّصَالَاتِ وَالْأَنْفِصَالَاتِ وَالْأَمْتِرَاجَاتِ .

مع ما يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكُرَّةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ آتِخَاذِ الآلَاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،
وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ .

فقال علم المَوَاقِيتِ : كَيْفِ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَرَزْعِيمُهَا ، وَشَرِيفُهَا فِي الشَّرِيعَةِ
وَكَرِيمُهَا ؛ بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْجِهَاتِ ؛
وَتُعَلَّمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَمَحَلُّهَا مِنَ الْمَعْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَبْعَادِهَا
وَأَنْحِرَافُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ؛ مَعَ مَا يَنْخَرِطُ فِي هَذَا السَّلْكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ
وَأَرْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَالَعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّلَاعِ مِنْهَا وَالْعَارِبِ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِنَ الشُّعَاعَاتِ الْمَخْرُوطَةِ ، وَالظَّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمَبْسُوطَةِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ،
وَيُنْسَبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِي :

مِنْ عِلْمِ الآلَاتِ الظِّلِّيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيَظْهَرُ مِنْهَا الْمَاضِي
وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُتَمَسِّسٍ وَأَطْفِ أَعْتَبَارٍ ، مِنْ نَحْوِ الرِّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمَبْسُوطَاتِ
مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فقال علم الهندسة : إِنْ فَضَّلَكَ لِمَشْهُورٍ ، وَمَقَامَكَ فِي الشَّرَفِ غَيْرِ مَنْكُورٍ ؛ إِلا أَنْ
أَلَانِكَ بِي مُقَدَّرَهُ ، وَأَشْكَالَكَ بِأَوْضَاعِي مُحَرَّرَهُ ؛ فَأَنَا إِمَامُكَ الَّذِي بِهِ تَقْتَدِي ، وَتَجْمَعُ

الذي به تهتدي ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوه ، ولم يميز بين الخطوط والقسي والدوائر المقدره ؛ مع ما ينشأ عنى ، ويستملى من صحابي ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولواحقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سيبله أن يعمل لها ؛ وأستخراج ما يحتاج إلى أستخرجه بالبراهين البينة القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛ ونور عيونك ، وعروس فنونك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأقبية وحفر الأنهار ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتضييد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأشجار وترتيب الرياض ذوات الخمائل .
فقال علم جبر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك ، وحامل أقالك وعمود اعتمادك ؛ بي تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيره ، حتى تسقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيره .

فقال علم مرا كز الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومتوقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث أستخرج مرا كز الأجسام المحموله ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومفردة عنك بكثير من المعانى ؛ من أ الخراج والزراعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمدورات ،
والمستطيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كميات المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترفت أنك من جملة آواحي ، مندرج في حقوق
وداخل تحت مرافق ؛ فأنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمحدد
بك دون غيري من غير التباس ؛ مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء
كونه إلى تمام تدبيره ، وتسمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحللها
من المعفونات كالسباد وغيره وما أيديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض وأستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني أنا بداية عمك ، وغاية منتهى أمك ؛ لا يتم لك
أمر بدوني ، ولا تثبت لك خضراء ما لم تُسقى من بتاري وعيوني ؛ فأنا الكفيل
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذي تجدي أنت وطرفي عنك مُرتد ، ونظري إليك غير
مُمتد ؛ وأنى تستطيع مياهاك الترقى من الأغوار إلى النجود ، وتتنقل عيونك وأنبارك
بين الهبوط والصعود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك محافظا ؛
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،
وما يغلط فيه البصر كالأشجار القائمة على سُطوط المياه حيث تُرى وأسافلها أعاليها .

(١)
فقال علم المرايا المحرقة : إنك وإن دقت النظر ، وحققت كل ما وقع عليه
حاسة البصر ؛ فأنا مقصدك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرقت القلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المرأة جمعها مراة كمرع وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بُشْعَامِي، وَحَصَّنَتْ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْعَسْكَرَ
الْحَزَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفِرَادِي عَنِ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاوَدَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَدَّكَ لِكَيْلٍ ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لِلذَّلِيلِ ؛ وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ ، أَوْ تُسَلِّطُ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ ؟ ؛
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالتَّالِي بِلِسَانِ الصَّدْقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فَأَنَا نَفْسُ الْمَقْصُودِ وَعَيْنُ
الْمُرَادِ ، وَعَمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ ، وَمُؤَاقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ ؛ وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ ، لَا تَسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ ؛ وَأَتَى يُعْنَى
السَّلَاحُ عَنِ الْجَبَانَ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجْرَبُ الشُّجَاعُ ؛
فَالْعِبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ ، لَا بِالذَّوَابِلِ ؛ وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ ، لَا بِبَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهُمَا ،
وَالْأَسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَاسَوَاهُمَا ؛ وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ ، وَعَنَى يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ ، أَحْوَالُ بِحُسْنِ التَّبْدِيرِ ، مَا طَبَخَتْهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَرِّ الدَّهْوَرِ ؛ فَاتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ ، وَأَجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَازَجَتِهَا
فِيظْهَرُ عَنْهَا كُلُّ مَعْنَى غَرِيبٍ ؛ وَأَبْرَزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيحَ قَمْرًا
مِنْ غَيْرِ تَبَسٍّ ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ سَمْسًا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ ؛ فَصَاحِبِي
أَبْدَا عَزِيزُ الْمَنَالِ ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُفْتَوِّحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَفَعْتَ عَنَّا ، وَجَلَبْتَ غَنِيَّ ؛ فَأَمْوَالُكَ
الْجَمَّةُ ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ ؛ مَحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَابِي ، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنِ كِتَابِي ؛ أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعته ذكرى ؛ قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبى وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لاودت ثمرة الأكتساب ، ولاتصل التغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون بديها حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصره ، وتتشعب عليك مدارك القسمة فتأق بها على التقريب غير محوره ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ ؛ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تخت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الحماة بحداه قاصر ونفعه قليل ؛ على أن غيرك يُساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه ؛ وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مُصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حَسْبُكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ كَسْتَقْطِ
 مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُفْسَةٍ مِنْ بَحْرِ ، تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرِيقِكَ الْقَاصِرَةَ وَأَعْمَالِكَ النَّاكِبَةَ ،
 عَلَى مَا أَمْكَنَ صَيْرُورَتِهِ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهَا ،
 وَأَبْنُ يَجْدَتِهَا ، وَأَخُو نَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولَاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ،
 وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَيَتَّخِذُ هَذَا النَّحْوَ وَيَسْرَى
 هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأَمْوَالِ وَالْحُدُودِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ
 وَالْكُسُورِ .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مَالِكٌ وَلِدَاعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ
 الْمَجْهُولَاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ الْعَدَدِيَّةِ
 الْمَعْلُومَةِ الْعَوَارِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتَهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَاتَكَ حِينَئِذٍ
 الدَّعَاوَى الْحَصْرِيَّةِ ؛ لِكِنِّي أَنَا كَاشِفٌ هَذِهِ الْحَقَائِقَ ، وَمُبَيِّنٌ سُبُلَهَا بِالطَّائِفِ الطَّرَائِقِ ؛
 فِي إِيَّاهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لِاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجْمَلُ وَيُقْصَلُ .

فقال علم حساب الدَّورِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولَاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَعْمًا ،
 وَحَسُنَ وَضْعًا ؛ فَأَنَا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَهُ ، وَأَجَلُّ مِنْهُ عَائِدَهُ ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّورِ
 مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَّضِحَ لِمَنْ يَتَمَلَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّورَ فَنَعُودُ الْمَسْأَلَةَ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ،
 وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسَلَّلَ .

فقال علم الفقه : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نُبْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ،
 تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِقِي ؛ بِي تُمَيِّزُ مَعَالِمَ الْأَحْكَامِ ، وَيَتَبَيَّنُ الْوَأَجِبُ
 وَالْمَنْدُوبُ وَالْمُبَاحُ وَالْمَكْرُوهُ وَالْحَرَامُ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
 الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتُ

وَتَجَرَى بِهِ الْعَادَاتُ ؛ فَإِنَّا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَتَجْمَعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَضَلَّ سَعَى الْمُكَلِّفِينَ ، وَلَا مَسْوَا فِي دِيْجَاءِ
مُدْهَمَّةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُخْتَلِفِينَ .

وَنَاهِيكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآحَادِ أَعْدَادِي : -

علم الفرائض الذي حَضَّ الشارع على تَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ
مُنْبَهًا عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيمِهِ ؛ وَبَالَغَ فِي إِثْبَاتِ قَوَاعِدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْئَلِهِ ، فَقَالَ :
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أُصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَعَالٌ ، وَإِنَّ جِدِّكَ لِحَالٌ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفَّلُ بِتَقْرِيرِ أُصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُوكِ ؛
بِي تُعْرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقُ أَسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ حُجْجِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِحِهَا ؛ فَبِأُصُولِي فُرُوعُكَ مَقَرَّرَةٌ ، وَبِحَاثِنِي
أَسْتِدْلَالِي مُحْجَبٌ مُنْتَهَجَةٌ مُحَرَّرَةٌ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنَيْتُ
عَلَى أَعْظَمِ الْأُصُولِ فُرُوعَكَ فَأَسْتَدْتَهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفَّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَارِكِ ؛ بِي تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْمُجْحَجِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَوَادِحُ
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبِ الثُّبُوتِ الْخِلَافِيِّهِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى مَحْمُولٍ ، وَنَظْرُكَ إِلَى نَظْرِي بِكُلِّ
حَالٍ مُوَكَّلٍ .

فقال علم المنطق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطِقِيَّةِ
 أَفَرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْمَبَاحِثِ الدِّيَلِيَّةِ نَخَاطَتَ أَصُولِ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟ ؛
 فَأَنْتَ إِذَا فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
 الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَّابِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ
 فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَمَاتِ وَالْمُسَاوَرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
 الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمُقِيدَ لِلتَّخْيِيلِ الْمَوْجِبِ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
 كَالْإغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْخِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
 الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلِّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ
 إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعَصُّمُ مَرَاغَاتِي الْفِكْرِ عَنِ الْخَطَا فَلَإِ يَزِلَّ ، وَتَهْدِيهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ
 فَلَإِ يَجِيدُ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسْرَى فِي جَمِيعِ الْمَعْقُولَاتِ فَأَتَصَرَّفُ فِيهَا
 يَدِيقٌ مِنْهَا وَيَجِلُّ .

فقال علم دَارِيَّةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدَلَّةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالتَّصْرِيحِ ،
 أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْيِيحِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
 وَتَسْتَنْدُ فِي مُقَدَّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْضَحَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
 وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسُنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
 مُقَدَّمَاتِكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَتَأَجُّجُ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
 أُنَى إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
 فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثِقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتَ بِكُلِّ لَفِظٍ حَسَنِ وَمَعْنَى

غريب؛ إلا أن الدراية، موقوفة على الرواية؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأني العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟؛ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسمع المتصل وتحريرها وضبطها.

فقال علم التفسير: قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنهما وإن اتفقا في الدلالة والإرشاد، فقد اختلفت في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالأحاد.

فقال علم القراءات: إلا أنه لا ينبغي للفسر أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ عالماً، وبلغاتها عارفاً وللنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يتحقق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلقة من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها.

فقال علم النواميس: (وهو العلم بمتعلقات النبوة): إنك فرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيس الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها؛ والفرق بين النبوة الحقة، والدعاوى الباطلة غير المحقة؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فإنا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصلية منها والقرعية.

فقال علم الإلهي: لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصّل إليها، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وباعت الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحجكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلّة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحمول .

فقال علم أصول الدين : فحينئذ قد فُزْتُ من جمعكما بالشرفين ، وجمع لي منكما الفضل بطرفيه فصرت بكما معلم الطرفين ؛ وميزت بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبينت طريق الحق لسالكها فكنت سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكل علم يستمد مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما أزددت يقيناً ، إذ كان كل أمرئ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازماً ، أن يكون عن دار الغرور متجافياً ولأعمال البر ملازماً ؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فنلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فنلك إذا أكرة خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن اغتر بزخرفها القاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتتابعت الحجج والمنافضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حسم مادة الحدال وطلمأ ؛ وقال : أنا جدي لها المحكك وعديقها المرجب ، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب ؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يسوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يلبق بالمنصف أن يتخطى أقداره المحدود ولا يتعدى جزئه المقسوم ، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مِنْكُمْ سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوْقَ عِنْدِ مَا حُدَّ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقُ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فقال علم تدبير المنزل : لقد تحريت الصواب ، ونطقت بالحكمة وفصل الخطاب ؛ لئلا لا بد لكم من حبر عالم ، وإمام حاكم ؛ يكون لشملكم جامعا ، ولمواقع الشك في محل التفاضل بينكم رافعا ؛ محيط من كل علم بمقصوده ومراوده ، عارف بما تشتمل عليه مبادئه من حده وموضوعه وفائدته وأستمداده ؛ ليبلغ به من الفضل منتهاه ، ويقف به من الشرف عند حد لا يتعداه ؛ فلا يدعى مدع بغير مستحق ، ولا يطالب طالب ما ليس له بحق ؛ إلا أن المحيط بكلكم عالما ، والقائم بجمعكم فهما ؛ أعز من الجوهر الفرد والكبريت الأحمر ، وأقل وجودا من بيض الأنوق بل بيض الأنوق في الوجدان أكثر .

فقال علم الفراسة : على الخبير سقطة ، وبأن يحدتها حططت ؛ أنا بذلك زعيم ، وبمظنته عليم ؛ فليعلم عرف ينم على صاحبه ، وتلوح عليه بوارقه وإن أكنه بين جوانبه ؛ فحامل المسك لا تخفى ريحه على غير ذي زكام ، والنهار لا يخفى ضوءه على ذي بصير وإن تسترت شمس بأذيال الغمام ؛ ولقد تصفحت وجوه العلماء الكلكم ، الذين طويأياهم على أجمل العلوم منطوية وعلى تفاصيلها مشتملة ؛ وسبرت وقسمت ، وتفكرت وتوسمت ؛ فلم أجد من يليق لهذا المقام ، ويصلح لقطع الحدال والحصام ؛ ويعرف بلغية كل علم فيجيب بلسانه ، ويحكم فلا ينقض حكمه غيره لأنخطاظه عن بلوغ مكانه ؛ إلا البحر الزانح ، و (١) الذي لا يعلم لفضله أول ولا يدرك لمده آخر ؛ حبر الأئمة ، وعلامة الأئمة ؛ وناصر السنة وحامياها ، وقامع البدعة وقامياها ؛ تجل (٢)

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامتها بالهمز تخففه من قاه كتمه قعه .

شيخ الإسلام ، وخلاصة غرر الأيام ، جلال الدين ، بقية المجتهدين ؛ أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي ، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية ، وسائر الممالك الإسلامية وما أُضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية ؛ لزالفت فواضل الفضائل معروفة : فهو العالم الذي إذا قال لا يعارض ، والحاكم الذي إذا حكم لا يناقض ؛ والإمام الذي لا يتخال آجهاده خلل ، والمناظر الذي ما حاول قطع خصم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا يقال : « سبق السيف العدل » :

إذا قال بَدَّ القائلين ولم يدع * لمتمس في القول جِدًّا ولا هزلاً!

إن تكلم في الفقه فكأنما بلسان « الشافعي » تكلم ، و « الربيع » عنه يروى و « المزني » منه يتعلم ؛ أو خاص في أصول الفقه . قال « الغزالي » : هذا هو الإمام باتفاق ، وقطع السيف « الأبدى » بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق ؛ أو جرى في التفسير . قال « الواحدي » : هذا هو العالم الأوحده ، وأعطاه « ابن عطية » صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد ؛ وأترف له « صاحب الكشاف » بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام « نضر الدين » : « هذه مفاتيح العيب وأسرار التنزيل » فارتفع الخلاف وأندفع المعارض ؛ أو أخذ في القراءات والرسم أزدى بأبي « عمرو الداني » ، وعدا شأو « الشاطبي » في « الرائية » وتقدمه في « حرز الأمان » ؛ أو تحدث في الحديث شهده « السفينان » بعلو الرتبة في الرواية ، وأترف له « ابن معين » بالتبريز والتقدم في الدراية ؛ وهن « الخطيب البغدادي » يذكره على المنابر ، وقال « ابن الصلاح » : لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تنفذ المحارب ؛ أو أبدى في أصول الدين نظراً تعلق منه « أبو الحسن الأشعري » بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول « عمرو بن عبيد » و « وأصل بن

عطاء : « لَيْتَنَا لَمْ نَفْتَحْ أَبَا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظْرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَرِّ « الْأَبْهَرِيِّ » فِي مَنَازِرَتِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِبِيُّ » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَدَلِ رَمَى « الْأَرْمَوِيُّ » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِيُّ » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي الْأَلْفَةِ لِسَانَهُ اعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدَهُ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجْزِ لَدَيْهِ « الْجَوْهَرِيُّ » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَجَاسِ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى النَّحْوِ وَالنَّصْرِيفِ أُرْبَى فِيهِ عَلَى « سَيْبَوَيْهِ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِيُّ » لَهُ عَزْمَهُ فَسَارَ مِنَ الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُمُودًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَّ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِيُّ » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ حَدَّهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِيُّ » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أُرْزَى بِ« الْأَصْمَعِيِّ » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي اسْتَحَقَّقَهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ الْمُنَادِرَ وَاعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِيُّ » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْنَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ « الرَّازِيُّ » بِجُحِيِّ الْمَوْتِيِّ إِنْ « يَقْرَاطُ » لَوْ سَمِعَهُ لَمَا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ؛ أَوْ جَنَحَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّهَا طُبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَدَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِزِمَامٍ فَأَنْقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أُوقْلِيدِسُ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَمَدَ « الْمُؤَمِّنُ بْنُ هُوَيْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِاعْتَرَفَ « أَبُو الرَّيْحَانِ الْبَيْرُونِيُّ » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو أَلْفَحٍ : هَذَا الْعَالِمُ قُطِبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظْرَهُ لِقَالَ « السَّمَوْعُ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْفَنَّ الدَّارِسَ ، وَنَادَى « أَبُو جَعْفَرٍ الْمَوْصِلِيُّ » قَدْ أَنْجَلْتَ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لِعَامِهِ وَلَا عَمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِ .

وَقَدْ وَجَدْتِ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنِ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ!

وَكَيْفَ لَا تَأْتِي إِلَيْهِ الْعُلُومُ مَقَالِيدَهَا، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا؛ وَهُوَ أَبُو شَيْخِ
الْإِسْلَامِ وَإِمَامُهُ، وَوَاحِدُ الدَّهْرِ وَعَلَامُهُ؛ وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُنْفَرِدِ، وَمَنْ حَقَّقَ وُجُودَهُ
فِي أَوَانِ الْأَعْيَانِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَمِدٍ؛ وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعَ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْمُولًا، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمِائَةِ الْأُولَى؛ فَالْحَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَوَلَدِهِ تُعْقَدُ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُشْدَهُمَا فَانْتَسَدَ:

إِنَّ الْمِائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى * لَهَا عَمْرُ النَّانِي لَذَا الدِّينِ صَاحِبُهُ،
وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ * فَهِيَ عُمَرُ وَاقِي عَلَى رَأْسِ تَامَنِهِ
يُظَاهِرُهُ نَجَلٌ سَعِيدٌ غَدَّتْ بِهِ * مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي ذُرَا الْحَقِّ آمِنِهِ.
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ * رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَنَهُ!
فَلَا يَعْدِمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عُلَاهُمَا * وَلَنْ يَبْرِحَا لِلدِّينِ دَابَا مِيَامِنَهُ!

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثُّغْرَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ، وَعَرَفْتَ مِنْ
أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ؛ أَنْ تُعَوِّدُوا بِفَضْلِكُمْ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرُوفِكُمْ وَرِيئِكُمْ؛ إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّفَاخُرِ
مَجْرَى الْإِنْصَافِ، وَبَسَطَ لِسَانَ كَلِمِهِ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْكُمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ؛
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتْفَاقِ وَالْإِتِّتَامِ حَبْلَكُمْ، وَجَمَعَ بِالْحَلِّ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعَدِ
شَبْلَكُمْ؛ وَذَكَرَكُمْ بِمُسْنِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَدِيمِ، وَتَلَا بِلِسَانِ الْأَلْفَةِ فِيكُمْ :
(فَإِذَا الَّذِي يَبْنُوكَ وَيَبْنِيهِ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . بَانَ يَنْصِبُ كُلُّ مَنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَقِيلِ؛ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْعِنَايَةِ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بَعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّعَايَةِ؛ لِيُعْزِيَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ، وَيَطْلُعَ

في أفق السعد بعد الأقول غاربه ؛ ويبلغ من منتهى أمله ماله جهده ، ويسعد
بالنظر السعيد جدّه فقد قيل : «من وقع عليه نظر السعيد سعد» .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة
كما جمع لها بين طاريف الحمد وتالده ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك
أنّ نظرة منه إليه بعد ذلك تُرقيه إلى السحاب .

فَأَزْرُقُ الْفَجْرَ يَبْدُو قَبْلَ أَيْضِهِ * وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ يَنْسَكِبُ !

فقال علم التاريخ : أهبطوا مضراً فإنّ لكم ما سألتهم ، وقرؤا عينا إلى القصد
الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حصّتم ؛ فقد بلوت الأوائل والأواخر ،
وخبرت حال المتقدم والمعاصر ؛ فلم أرَ فيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره وأشتهر ؛ من
ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ،
أو يدانيه في المعروف قولاً وفعلاً ؛ قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطلع
الزمان إلى نزعهِ ؛ وأتمى إليه الحمد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأنحاز إليه وعطف ؛
وحلت الرأسة بفنائهِ فاستغنت به عن السوى ، وأناخت السيادة بأفنائهِ فألقت
عصاها وأستقر بها النوى ؛ فقصرت عنه خطاً من يجاريه ، وضاق عنه باع من
يئاويه ؛ واجتمعت الألسن على تقرّيبه فمدح بكلّ لسان ، وتوافقت القلوب على
حبه فكان له بكلّ قلب مكان :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ ، * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٌ !

فهو الحريّ بأن يكتب بأفلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات
الايام حميد مطالبه ؛ فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي
الدهور نحرها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَن السَّعْدُ جَلَالَهٗ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ
 خِلَالَهٗ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشُّعْرِ مُعَاتِبِينَ ، وَبِمَا يَلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيبِ هَذَا الْخَبْرِ
 وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
 قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَانَتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَحْتِمَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِأَبْيَاتِ بِالْمَقَامِ لِائْتِقَانِهِ ، وَلِمَا نَحْنُ
 فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَهُ ؛ فَائْتَمَّ مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةً مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
 الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِتَكْمُلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَقَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
 خَطَابَةً وَسُغْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضِرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ مَجْلًا ،
 وَأَنْشَدَ مَرَّجِيلاً :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعَتْ بِصَدْرِ حَبْرٍ كَامِلٍ !
 فُنُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمٍ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ !
 يَسْفِي الصُّدُورَ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبَحْثُهُ فَرِيضَةُ الْحَافِلِ !
 كَمْ عَمَّرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيْسٍ ، * وَزَيَّنَتْ بِحَلِيْمَا مِنْ عَاطِلِ !
 وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلٍ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
 وَكَمْ غَدَّتْ آرَأُوهُ حَمِيدَةً ، * وَنَهَتْ بِجِدِّهَا مِنْ خَامِلِ .
 وَحُكْمُهُ فَكَمَّ أَقَالَ عَثْرَةً * وَجُودُهُ فَفَوْقَ قَصْدِ الْأَمِلِ !
 هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَةً * مَحْفُوفَةً بِالطَّفِ الشَّمَائِلِ !
 مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأُوهُ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمَائِلِ ؟
 مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُبِيَّةً * قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَاضِلِ !
 فَسَالَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، * وَمَا لَبَّجِرَ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
 حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَنْتَنِي * صِفْرَ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمْتَنَى الْإِجْلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمفاخرة بين العلوم سوى القاضي الرشيد أبي الحسين
 ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة
 على هذا الترتيب ، مع الاقتصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المفاضلة بينها على
 ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدى بفضلِهِ إلى وجه الترجيح التي يرجح بها
 كل علم على خصمه ، ويفالج به على غيره ، والمُنصف يعرف لذلك حقه . والذي
 أعانني على ذلك جلاله قدر من صنفت له وعلورتبه ، واتساع فضله ، وكثرة
 علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات المدوح تهدي المادح وترشده .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن عالٍ وهابط ،
 وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها المقر الزيني أبي يزيد الدوادار
 الظاهري ، في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسميتها : ”حلية الفضل وزينة
 الكرم، في المفاخرة بين السيف والقلم“ وهي :

الحمد لله الذي أعز السيف وشرف القلم ، وأفردهما برتب العلياء فقرن لهما بين
 المجد والكرم ، وساوى بينهما في القسمة فهذا للحكم وهذا للحكم .

أحمد على أن جمع بحير أمير بعد التفرق شملهما ، ووصل بأعز ملك بعد التقاطع
 حبّلهما ، وأرغب إليه بشكري أكثر النجوم في عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان
 أبا يزيد لها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص
 بهديها ، ولا ينجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرّبها ، وأن مجدّ عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى حُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر، وأسأثر بالسؤدد في الدارين فحاز أخراً
المعالى ونال أعلى المفاخر؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم
دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعدت
بخلق النصر لاجرة الخجل؛ صلاة ينقضى دون انقضائها تعاقب الأيام، وتكمل السنة
الأقلام عن وصفها ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام .

وبعد، فإنه ما تقارب اثنين في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعا في مقام رفعة إلا
أزدهما على الجهد وتواردًا؛ ورام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلى، وأن يكون
مفرقه هو المتوجح وجيده هو المحلى؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حابة
السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق؛ وأن نجمه هو الطالع الذي لا يأفل،
وسؤدده هو الحاكم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا يبحى نقطة
في غديره؛ والدر لا يصلح له صدفا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفا؛ وأن منابر
المعالى موقوفة على قدمه، ومجاصر المفاخر فاححة بنشر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في الجهد وتقاربا، وأخذنا بطرفي الشرف
وتجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدين يجتمعان في دائرة
الاعتدال؛ ونجمين يهديان إلى المعالى، ومضباحين يستضاء بهما في حنادس الليالي؛
وقاعدتين تبنى الدول على أركانهما، وشجرتين يجتنى العزمن أغصانهما؛ جر كل منهما
ثوب الخيلاء فخرا فشى وتخترا، وأسبل رداء العجب تيهًا فاستجبل ولا تعثر؛ وأتسع
له المجال في الدعوى بخال، وطاوعته يد المقال فقال وطال؛ وتطرقتا إليهما عقارب
الشحناء ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان
يخفيه فكتب وأملى، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حلي؛ وبدأ القلم
فتكلم، ومضى في الكلام بصدق عزيم فما توقف ولا تلثم؛ فقال :

باسم الله تعالى أَسْتَفْتِحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَيْمِنُ وَأَسْتَجِجُ ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِي الْكِتَابُ ، وَمَنْ
فَتَى الْخَطَابَةُ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْزَمٌ ، وَكُلُّ كَلَامٍ
لَا يَفْتَتِحُ بِحَمْدِهِ فَاسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ وَرِدَاؤُهُ غَيْرُ مُعْلَمٍ ؛ وَالْعَاقِلُ مِنْ أَتَى الْأَمْرَ مِنْ فَصَّهِ ،
وَأَخَذَ الْحَدِيثَ بِنَصِّهِ ؛ وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَالْبَاطِلُ أَجْدَرُ أَنْ يَتْرَكَ فَلَا يُصْنَعُ إِلَيْهِ
وَلَا يَسْتَمَعُ ؛ إِنِّي لِأَوَّلُ مَخْلُوقٍ بِالنَّصِّ الثَّابِتِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْمُسْتَحَقُّ لِفَضْلِ
السَّبْقِ مِنْ غَيْرِ مُنَازَعَةٍ ؛ أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَى بِي فِي كِتَابِهِ ، وَشَرَفَنِي بِالذِّكْرِ فِي كَلَامِهِ لِرَسُولِهِ
وَخَطَابِهِ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمُحْمَدٍ ﴾ . وَقَالَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَكَانَ لِي مِنَ الْفَضْلِ وَافِرِ الْقِسْمَةِ ، وَخُصِصْتُ بِكُلِّ الْمَعْرِفَةِ بِجَمْعَتِ
شَوَارِدِ الْعُلُومِ وَكُنْتُ قِيمَ الْحِكْمَةِ .

فَقَالَ السَّيْفُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ . لِكُلِّ بَاغٍ
مَصْرَعٍ ، وَلِلصَّائِلِ بِالْعُدْوَانِ مَهْلِكٌ لَا يَنْجُو مِنْهُ وَلَا يَنْجَعُ ؛ وَفَاتِحُ بَابِ الشَّرِّ يُعْلِقُ بِهِ ،
وَقَادِحُ زَنْدِ الْحَرْبِ يُحْرَقُ بِلَهَبِهِ ؛ أَقُولُ بِمَوْجِبِ آسَدِ الْبَدَلَالِكِ ، وَأُوجِبُ الْأَعْتِرَاضَ
عَلَيْكَ فِي مَقَالِكَ :

نَعَمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَلَمِ وَلَسْتُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ وَلَسْتَ الْمَعْنَى بِمَا
هُنَالِكَ ؛ إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى يَكِلُ قَهْمُكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، وَيَضِلُّ تَجَمُّكَ أَنْ تَسْرِيَ فِي أَفْلَاكِهِ ؛
وَأَنْتَ وَإِنْ دُرِكَتَ فِي التَّنْزِيلِ ، وَتَمَسَّكَتَ مِنَ الْأَمْتِنَانِ بِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾
بِشَبْهَةِ التَّفْضِيلِ ؛ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى تَعَلُّمَ خَطِّكَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَحَرَّمَكَ مِنْ مَسِّ
أَنَامِلِهِ الشَّرِيفَةِ مَا يُؤْسَى عَلَى فَوْنِهِ وَيُسَرُّ بِحُصُولِهِ ؛ لِكِنِّي قَدْ نَلْتُ مِنْ هَذِهِ الرِّبَّةِ
أَسْنَى الْمَقَاصِدِ ، فَشَهَدْتُ مَعَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ مَا لَمْ تَشَاهِدْ ؛ وَحَلَّلَانِي مِنْ كَفِّهِ شَرْفًا لِأَيُّزُولِ

حَلِيهِ أَبَدًا، وَفُتُّ بِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حَيْنِنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛
 ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبِيٌّ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنْ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَعْمُ وَأَشْهَرُ ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَّةِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظْمَتُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . عَلَيَّ أَنْكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْحَلِيدَ ؛ لِتَحَقَّقْتَ
 تَسَلُّطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرًّا ، وَتَحَكَّمَ فَيْكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : فَرَّرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلْتَهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلْتَهَا ؛ فَانْتَحَرْتَ
 بِحَيْفِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعَدُّيكِ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَمَّتْ إِلَى الظُّلْمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْحَوْرِ : وَ « الطَّبَعُ أَغْلَبَ » ؛ فَلَا فِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَاةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْحَفَاءِ ، وَتُكَدِّرُ أَوْقَاتَ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقَسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَا أَنَا فَالْحَقُّ مَذْهَبِي ، وَالصِّدْقُ مَرْكَبِي ؛ وَالْعَدْلُ سَيْمِي ،
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطْتَ ، وَإِنْ اسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرَطْتُ ؛
 لَا أَفْتِنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَغَيُّ مُتَعَلِّمُهُ عَلَيْهِ ؛ مَعَ عَمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالِافْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالِاكتِسَابِ مِمَّا لَدَيْ ، أُدِيرُ فِي الْقِرطَاسِ كَاسَاتِ
 نَحْمَرِي فَأُزْرِي بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفُتُ فِيهِ سِحْرَ بَيَانِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيُوشَ سُطُورِي عَلَى بَعْدِ فَاهِرِمِ الْعَسَاكِرِ :

فَلَكُمْ يَفْلُ الْجَيْشِ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلْتَ الْغَيْبَ ، وَجِئْتَ بِالْحَيْبِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفًا ، وَنَطَقْتَ خَلْفًا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ

إِنَّ نِجَادِي حَلِيَّةٌ لِلْعَوَاتِقِ ، وَمُصَاحِبَتِي أَمْنَةٌ مِنَ الْبَوَائِقِ ؛ مَا تَقَلَّدَنِي عَاتِقُ إِلَّا بَاتَ
عَزِيزًا ، وَلَا تَوَسَّدَنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حِرْزًا حَرِيزًا ؛ أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمْعُ ،
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُجَّتِي الْمُسْتَبَعُ ؛ لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مُفْتَاخًا ، وَلِلظَّلَامِ مُصْبَاحًا ؛ وَلِلْعَزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا ؛ فَأَنْتَ لِي كَبَسَاجِلَتِي ، وَمُقَاوِمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ؛ مَعَ عُرْيِ جِسْمِي
وَحَقَافَةِ بَدَنِي ، وَإِسْرَاعِ تَلَاْفِكِ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبَحْسِ أَمْنَانِكَ عَلَيَّ بَعْدِ وَطَنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرِي دَمْعِكَ ، وَضَيْقِ دَرْعِكَ ، وَتَفَرُّقِ جَمْعِكَ ؛ وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقَلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهَلًا أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَابُ وَالْمُنَاضِلُ ؛ لَقَدْ
أَحْسَنْتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مَحَالًا ؛ فَوَادَرْتَكِ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنِ جَادَةِ الْإِنَابَةِ ،
وَسُوَّتَ سَمْعًا فَاسَّاتَ جَابَهُ ؛ إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسَيْمِهَا ، شَرِيفُ النَّفْسِ كَرِيمِهَا ؛
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِفٍ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ فَطَائِرِي مِيمُونَ ،
وَعَوْلِي مَامُونَ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَمْنُونٍ ؛ أَصْلٌ وَتَقَطَّعَ ، وَأُعْطِيَ وَتَمَنَعَ ، وَتَفَرَّقَ وَأَجْمَعَ ؛
وَإِنَّ أَزْدِرَاءَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمَهْمِيِّ عَنْهُ ، وَغَضَبِكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ؛
وَمَنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمَنْ آسَمَّ أَنْ يَفْضِلَ فَضْلَهُ ؛ وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حِرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ نُحِفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَأْسِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛ وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظَامِيَا ؛ وَإِنْ ضَاقَ دَرْعِي فَإِنِّي بَسْعَةُ
الْحِجَالِ مَشْهُورٌ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطَلَقْتُ أُسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورٌ ؛ إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرْسِي ، وَتَدَرَّعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْسِي ، وَجَاسْتُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَنْيَ وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَنْسَيْتَ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَنْسِفُكَ الرِّيحُ وَتُزْرِئِي بِكَ
الْأَيَّامُ ؟ ؛ ثُمَّ صَرْتَ إِلَى الْفَيْنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّنَادِينَ بِالْمَرَّاصِدِ ، وَتَدْمَعُكَ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الحرب وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنشرت البعاث فعدَّ العصفور نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغراب إلى البازي يهدده ، ورجع ابن آوى على الأسد يشرده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ؛ ووقفت عند ما حدثك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدرك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك لتعدني لمهماتي ، وتستنجدني في مهماتي ؛ وتعالى في نسي ، وتعالى في حسي ؛ وتنافس في قنيتي وتحماسد ، وتجعلني عرضة لايمانها فتعاقد بالحلف على وتعاهد ؛ وتدخري في خزائنها ادخار الأغلاق ، وتعديني أنفس ذخايرها على الإطلاق ؛ فتكلمي الجواهر ، وتخليني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز للشجعان خدي الأسيل فأسيهم الحدود ذوات السوالف ، وأزهو بقدي فأسلبهم هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيّل للقرور من بعد أنى جدوة نار فيظلني على المدى الطويل ؛ ويخالني متوقع الغيث برقاً لامعا ، ويظنني الجائر في الشرق نجماً طالعا ؛ فالشمس من شعاعي في نجم ، والليل من ضوئي في وجل ، وما أسرعت في طلب نار إلا قيل : « فات ماذبح » و« سبق السيف العدل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرنك ، وروج على غير الجوهري صدقك ؛ فما أنت من بزى ولا عطري ، ولست بمساوحدك القاطع بقلمة ظفري ؛ إن برقك لخلب ، وإن ريحك لأزيب ؛ وإن ماءك لجامد ، وإن نارك لجامد ؛ ومن آدعى ما ليس له فقد باء بالفجور ، ومن تشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السُّهَى * بغيرِ دَلِيلٍ كَدَّبَتْهُ ذُكَاءُ!

أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ، وَكَرِيمُهَا الْمُبَجَّلُ وَعَالِمُهَا الْمُهَدَّبُ ؛ يَخْتَلِفُ حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّنِيَةِ بِأَخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْشِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَرِيًّا بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَنَارَةٌ أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَنَارَةٌ لُدْرُ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأُخْرَى لِعُقُودِ الشُّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُلْفِيئِي جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَمَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَخَالُنِي نَجْمًا مُشْرِقًا ، وَحِينًا تَحْسَبُنِي أَفْعُوَانًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ فُقْتُ الشَّبَابَةَ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزْتُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْمَعَانِي ؛ وَجَاءَتْ بِغَرِيبِ النَّعْمِ ، وَجِئْتُ بِبَدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلَعْتُ بِالْأَلْبَابِ فَاتَّخَذْتُ لِدَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَرْتَنِي الطَّعْنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قَلَّةً وَعُدْتَ حَاسِيًا ؛ فَكَانَتْ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهُ أَهْلُكِهِ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ فَالْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى التَّهْلُكِهِ ؛ فَأَقْعُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ أَرْبَحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يُشْقُ غُبَارِي ، وَلَا يُقَابِلُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَبْطَلْتُ حِرَاكِهِ ، وَكَمْ مِنْ شُبَّاحٍ عَجَلْتُ هَلَاقَهُ ؛ وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرَقْتُ دَمَهُ ، وَكَمْ نَابِتِ الْجُنَاشِ زَلْزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْحِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةٌ طَبِيعُهُ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاةٌ قِيَادِهِ وَجَمِيلٌ مَقَاصِدِهِ ؛ فَمَالَ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ إِلَى السَّلْمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ، وَلِسَانِ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فتحن في الكرم
 شقيقان ، وفي المجد رفيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأنس بغير صاحبه وإن
 كان من غير جنسه ؛ وقد حلبت الدهر أشطره ، وعامت أصفاه وأكدره ؛ وقلبت
 ظهرا وبطنا ، وجبت فيا فيه سهلا وحرنا ؛ وإن معاداة الرفيق ، ومباينة الشقيق ؛
 توجب شماتة العدو ونعم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ،
 ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء
 متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديمي جديمة مع أخطابنا مثل ، ولا يتشبه بنا
 الفرقدان إلا بآء بالخطل .

ولست بمستيق أخا لا تلثمه * على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابا ؛ وسريت أحسن
 مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح : والصلح خير .

وقد يجمع الله الشيتين بعدما * يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم يرجع في ذلك إليه ؛
 لتحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها عُرف ؛ ولسنا
 بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛
 الماجد السرى ، والبطل الكمي ؛ والبحر الحضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى
 النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ،
 وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالی ، المولوى ،
 الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ،
 وزاده رفعة في الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قُطب

المملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدّها المصور، وبطلها السميع وليثها
 الشهير، وأبو عذرتها حقًا من غير نكرٍ وابن بجدتها الساقطة منه على الخير، ومعقلها
 الأمتع وحرزها الحصين، وعقدّها الأنفس وجوهرها الثمين، وتلاذها العاليم
 بأحوالها، والحدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنن
 فى أفنانها، وطبيبها العارف ببطبها، ومنجدها الكاشف لكرمها .

هذا : وإنه لما لك أمرنا ، ورافع قدرنا ؛ والصائل منا بالحدّين ، والجامع منا
 بين الضدّين ؛ فلو لقيه «فارس عيس» لولى عايسا، أو طرق حمى «كليب» لبات من
 حماه آيسا ؛ أو قارعه «ربيعه بن مكدّم» لعلا بالسيف مفرقه، أو نازله «سبطام»
 لبدّد جمعه وفرقه ؛ كما أنه لو قرّن خطه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه، أو فانسّه
 «ابن مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فاحره «ابن هلال» لرأى
 انه سبقه إلى كل كريمه .

وبالجمله فعزه الظاهر وفضله الأكل ، وسماكّه الرّاح وسماكّ غيره الأعزل ؛
 فلا يسمّح الزمان أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدّع بلوغ شأوه إلا قيل : أتتد فلقد
 حاولت الاتّهاض بجناح كبير :

خَيْمَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى * وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤُودِ الْمَحْضِ !

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل ، وأحسن مقامٍ وأجمل ؛ فهلمّ إليه بعقد
 بيننا عقد الصلح ، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنصح .

ثم لم يلبثنا أن كتبنا بينهما كتابًا بالصلح والمصافاه ، وتعهدا على الودّ والمؤافاه ؛
 وأعلن بعقد الصلح مناديهما ، وحدّا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما ؛ وراح يُشدد :
 حَسَمَ الصُّلْحَ مَا أَشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى ، * وَأَذَاعَتْهُ السُّنُّ الْحَسَادِ !

وزالت عنهما الأحقاد والإحْن ، وباتا في أعزّ مكانٍ وأشرفِ وطنٍ ؛ وثَلَّتْ
قرانهما فأسعد ، ثم قام مُنشدُّهما فأنشد :

لا يُنكر الصُّلحَ بين السِّيفِ والقَلَمِ * فعاقِدُ الصُّلحِ على القَدَرِ والهِمَمِ !
أبو يزيدِ نظامِ المُلكِ مالِكُما * وواصلُ العِلْمِ في عَلياهِ بالِعِلْمِ .
فهو المراد بما أبديهِ من مِديحٍ * وغايةُ القَصْدِ من تَرتيبِ ذَا الكَلِمِ !
وإن جرى مَدحُ سِيفٍ أو عَلاقِمٍ ، * فذاك وَصْفٌ لما قد حازَ من كَرَمِ !

قلتُ : وسببُ إنشائي لهذه الرسالة أن الأميرَ أبا يزيدَ الموضوعَ له ، تَعَمَّدَهُ اللهُ
تعالى بالرحمة والرضوان ، كان من جَوْدَةِ الخَطِّ وتَحْرِيرِ قِوَاعِدِهِ في الطَّبَقَةِ العُلْيَا ،
وعَظُمَت مَكَانَتُهُ عند سلطانهِ الملكِ الظاهرِ «برقوق» وَعَلَّت رُتَبَتُهُ حَتَّى وُلَّاهِ وظيفَةَ
الدَّوَادِرِيَّةِ بِإِمرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفٍ ، ولم يَزَلْ مُقَدِّمًا عنده حتى مات وهو مُتَوَلِّيًا ، وأولآئِي
عند عَمَلِهَا له من الصَّلَةِ والبرِّ المُتَوَالِي ما يَقْصُرُ عنه الوَصْفُ ، وَيَكِلُ عنه اللِّسانُ .

الصِّنْفُ الخَامِسُ

(من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين)

الضرب الأوَّل

(الأَسْئَلَةُ الأَمْتِحَانِيَّةُ)

قد جَرَتْ عادةُ مَشايخِ الأَدبِ وقُضَلَاءِ الكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إلى الأَفْضَلِ
بِالمَسْأَلِ يَسْأَلُونَ عنها : إمَّا على سَبيلِ الأَسْتِفْهَامِ وأَسْتِباحَةِ ما عند المَكْتُوبِ إليه
في ذلك ، وإمَّا على سَبيلِ الأَمْتِحانِ والتَّعْجِيزِ . ثم تارة يُجابُ عن تلك الأَسْئَلَةِ بأَجوبَةٍ
فَتُكْتَبُ ، وتارة لا يُجابُ عنها ، بحسبِ ما تَقْتَضِيهِ الحالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتَّاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُجْرَحُ الكُوهَ مَنِّيَ غَيْرُ نَائِيَةٍ * ولا أَلِيْنَ لِمَن لا يَبْتغِي لِيْنِي !

الاستفتاح بـ«ملا» تيمُّنٌ بركة الشهادة ، وهي ههنا مقرّاضٌ يقطع من العيب المدّة ويحسم المادّة ؛ فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مُكْمَلِ الآداب ، ومَلِكِ الشعراء والكُتَّاب ؛ شَرَكَلَّ عَيْنِ حاسِدٍ ولو أنها عَيْنِ الشَّمْسِ ، وحمّاه عن مدّ أَلْسِنَةِ ذوى الأَعْتِيَابِ والأَرْتِيَابِ مِنَ الهمجِ والهمس ؛ وهياً له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصراً عن الغد زائداً على الأمس ، وأستخدم له الأقدار حتى تكون قرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كقرائض الخمس ، وجعل ما يردُّ عنه العين من العيب بعد شأنه عن المتناول وقايته عن اللبس ، حتى يكون المعنى بقول القائل :

ولا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ عَلاءَهُ * إذا حَدَدُوهُ كانَ قَدْ جَاوَزَ الحَدَّاءَ ،

ولا عَيْبَ أَيْضاً فِي ما ثَرِ بَيْتِهِ * سِوَى أَنها تُروى بِالسِّنَةِ الأَعْداءِ !

وحتى يؤمن عليه القائل :

ما كانَ أَحْوجَ ذَا الكَمالِ إِلى * عَيْبِ يُوقِيهِ مِنَ العَيْرِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُجْرَحُ القَسْرَ مَنِّيَ غَيْرُ ما بِيَةٍ . القَسْرُ ،

القهر والمأبية مصدر كالتحيمية معناها الإباء والبيت من كلمة لدى الإصبع العدواني .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَّصَ الْأَنَامَ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعَدَّ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ!
 الْعَبْدُ يَخْدُمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةَ نَقَطَها الْجَوْ بَدْرٌ سَخَائِبِهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَفْقَ سَفَطَ
 كَوَاكِبِهِ ؛ وَأَمْتَدَّ نَوْءَ الذَّرَاعِ لِتَدْبِيحِ سَمَائِهَا ، وَتَارِيحِ أَرْجَائِهَا ، وَتَحْمِيْشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْشَقَّةِ بِأَفْنَائِهَا ؛ وَصِقَالَ نَسَمَاتِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عِيُونِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَهَوَاثِرِ
 الْعَالِيَةِ بِتَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْلُ جَدْوُلَهَا عَلَى
 الْهَمُومِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْدِبُ حَمَائِمُهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ
 بِالْأُورَاقِ ؛ قَدْ تَرَقَّرَقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَيَّأَ مُطْرَبُ حَمَامِهَا وَعَنْتَرَهُ فِي حَكِ
 مِنَ الذُّبَابِ ، وَبَجَرَهَا رَوْتِقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذُّبَابُ .^(٢)

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَيَا ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتِ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بِأَهْجٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَنْتَشَاقًا وَأَتَسَاقًا ، وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لِدَافِ الْغَيْثِ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنَعُودُ فَقُولُ : لَا أَدْرِي أَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَابٌ !!
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُوا مَنَاسِبَ ، وَطَيَّبُوا مَكَاسِبَ ؛ قَدْ أَمَكَّنْتَهُمُ الْمَعَالِي ،
 وَطَاوَعْتَهُمُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ؛ وَخَدَمْتَهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَّتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 السُّعُودِ ، كَابِرٍ بِسُكُونِ الْجَاشِ مَنْحَدِرِ (؟) وَكَنْتُ قَدْ اسْتَجَدَيْتُ كَلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصِّدِّيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيِّرِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَا !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفه المنظر .

”وَلْيُسْعِدِ النَّطِقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنْ وَظَنَّ مَاظَنَّ ، وَأَسْتَعِطَفَ بِنَسِيمِ الْكَلَامِ
غُضْنُ يَرَاعِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنَّ ؛ وَبَجَلٍ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرَّزْقِ ،
وَحَرَمِنِي لَذَّةَ الْفَاطِظَةِ فَإِنَّمَا الَّتِي إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُّ الْبَلَاغَةِ تَحْتَهُ ذَلِكَ الرَّقُّ ؛
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ سَخَّ بَمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالغَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَظِّ عِنْدَ عَبْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طَرًّا فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ !

فَاعَلَى اللَّهِ كَلِمَةَ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْتَنِي جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةَ الدَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيْوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرَّزْقِ بِحِجَابٍ ، وَأَمَّنَنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبًا ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفٌ تَنْتَوِعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلَّ مَحَلًّا ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحْلًا ، وَنَحَلَنِي شُهَدَاءَ إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كِبَارَ النَّحْلِ ؛ حَتَّى عَدَرَنِي
فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ اللَّائِمِينَ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلَّتْ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّمْتَهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينِ :

وَيَلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا !

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيْوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعُنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرَبَنِي عَلَى الْأَرَبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كَسْرِي وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ نَخْرَجَ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشْوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَيَّ أَنْوَارُهُ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعْتَنِي الْفَاطِظَةَ
وَلَكِنِّي عَلَى السَّمَاءِ بِرَغَمِ حَسُودِي الْعَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنَادَرِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ،
وَتُكْتَبُ بِأَنْفَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الْأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا التَّقِيُّ لَقَلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّتِهِ الرَّفَاقِ مِنَ الْآفَاقِ ؛

فَتَى أَتَفَرِّغُ لَطَلَبِ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحِ وَإِنَّمَا مَدْحِي
له من فوائد مدحه :

وما هو إلا من نَدَاهُ وَإِنَّمَا * معاليه تُمَلِّينِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ سَنَيْتِ عِنَانِ التَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ
فِي تَنْضِيدِ أَوْصَافِهِ الْكِرَى ، وَأَنْضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطَّرْسِ وَلَيْلِ النَّقِيسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتَهُ بِمَلْءٍ فِيَّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سِوَاءَ عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِفَازَانِي مُجَازَاةَ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْبِهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ مَحَاسِنِي الَّتِي أَدْلِي بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتِدَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعَمْرُوسَةَ وَالذَّبُّ غَرَّانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَتَمْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وُلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتَ غَدْرَةَ * فَدُونَكَ كُلِّي لَاهِنَا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرَجِّمَ ، وَتَحْقِيقِ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمِ ؛ أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِدِهِمْ ، وَالنَّبَاطًا لِقَرَائِدِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بِأَرْبَابِ صَفْحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا الْغَضَّ مِنِّي ، وَفِي الْإِحْسَانِ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

هَآنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنِّي أَلْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلْمِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ

صِنَاعَتِي : * هُوَ الْجَمَى وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ *

وَإِنِّهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ
أُفْرَاسَ رِهَانَ ، وَأَعْجَبَ كَلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛

وَلَا مَوَا وَعَدَلُوا، وَهَمُّوا بِالسَّبِّ وَفَعَلُوا، وَأَسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعْدَى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى الْجَوَابِ، وَفِيهِ إِمَّا جَزَاءٌ لِلدَّحِّ وَإِمَّا
لِلشَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عَيْثُ جَعَارِ وَجَرِّى * بِلَحْمِ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ!
وما كان المَلِيحُ أن يُغْرِى بِي من سَبِقِ مَدْحِهِ إِلَى ، وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعِزَّهُ لِنَفْسِهِ فَمَا
أَنْتَصَرَ لَدَى ”وهذا لعمري جهْدٌ من لآله جهْدٌ“ وما تَحَلُّوْهُ هَذِهِ الْأَفْعَالُ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ
مُجَازَاةً عَلَى مَدْحِهِمْ ، فَأَيْنَ الْكِرَامِ وَفَضْلُهُمْ ، وَالْمُنْصِقُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي
عَرَّضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَّضْتُ ، فَأَيْنَ ذِكَاةَ الْأَلْبَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَنْظُرُ السَّمَاءَ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنُّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصُدَا
حِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يَجْهَلُ حُكْمَهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَجْحَدَ الشَّمْسَ
فَضَلَّهَا الطَّائِلُ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَقُولَ : سَحَابٌ وَائِلٌ كَبَاقِلٍ ؟ ؛ (١)
أَدْرِكُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَمَّا أَمْرَقُ ، وَأُنْجِدُنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ وَأَرْشَقُ ،
وَأَضْوَاءُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقُ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلْمِ ؟ ؛ وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ؛ وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيْفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَرَّرْتُ تَبَتُّغِيهِ فَصَادَفْتُهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبَاعَا

فَأَنَا أَنْشُدُ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ لِإِلسَادَةِ الْعَائِيْنَ ، أَوْ الْقَوْمِ الْعَائِيْنَ ؛ هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ أَسْتَوَلَى عَلَيْهِمُ الْعِيُّ بِجَرِيضِهِ ، وَنَزَلَ فِيهِمُ الْجِهَادُ
بِقَضِهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بَابُهُمْ لَمْ كَبَسْتَانِ بِلَاثِمَارِ ، وَدِيوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كِدْيَوَانَ أَبِي مَهْيَارِ ؛ لَا يُحَسِّنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمَدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةَ الْمُعْجَبَةَ ،

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

وَالْعِبَاءَةُ الضَّيْقَةُ وَالْأَنْوَابُ الْمُفْرَجَةُ ؛ وَيَتَنَاوَلُ السَّلْمُ بِالْيَمِينِ وَكِتَابُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
 بِالشَّمَالِ ، وَمَشَى هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
 فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» لَزَادَ فِي الْفِكْرِ وَنَقَصَ :
 وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِمَجْلِسِي ، وَ«الْخَوَارِزْمِيِّ»
 لَقَالَ : سَرَّجُ فَرَسِي ، «وَالْقَاضِلِ» لَقَالَ : هَا هُوَ ذَا ذَيْلِ مَلْبَسِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ
 كَذَلِكَ فَفِيمَ الْمَلَامِ وَالتَّفْنِيدِ :

عَلَّقُوا اللَّحْمَ لِلْبُرَا * عِةً عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنَ (١)
 ثُمَّ لَامُوا الْبُرَاةَ أَنْ * قَطَعْتَ نَحْوَهَا الرَّسْنَ ،
 لَوْ أَرَادُوا صِيَاتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الْحَسْنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسْنَ هُنَا وَجْهَ الْمَنْصِبِ وَحِجَابَهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْآثَارُ ، وَتَحْمِيشُ تِلْكَ
 الْأَلْفَاظِ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مَثَلِي مَعَ مَنْ ذَكَرَنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بَطْرَفِكَ حَيْثُ شِئْتُ * فَلَنْ تَرَى إِلَّا بِحَيْلًا !

فَقِيلَ لَهُ : بَحَلَّتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَآءَا فَتُكْذَّبُونِي بِوَاحِدٍ مِّنْ
 عَرَضْتِ ، وَصَحِيحٌ مِّنْ أَمْرَضْتِ ؛ وَلِيَبْرُزْ إِلَى مَضْجِعِهِ ، وَلِيَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَضْرِعِهِ ؛
 وَلَا يَتْرِكْ شَيْئًا مِنْ أَدْوَاتِهِ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِبَتُهُ مِنْ حَمَائِمِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَقْتَرِحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضَ مَا أَقْتَرِحُهُ الْفَضْلَاءُ ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ،
 وَإِلَّا فَمَا أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ ، وَمَالِكُ إِمْرَتِهِ ؛ وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

(١) حَضَنَ جَبَلَ بِأَعْلَى نَجْدِ .

فانه الذى نبئى عليه وإن لم أكن ساهيا، وذكرنى الطعن وما كنت ناسيا؛ حتى
رميته من هذه المسائل، فى مجاهل؛ لا يهتدى فيها بغير الذهن الواقد، وأفتحمت
به فى بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد؛ على أنها فيما أغفلت كالنمد من البحار،
واللحة من النهار؛ ولولا الاختصار، لأتيت منها بالجمع الحميم فلنحمد الله والاختصار،
فأقول :

من كتب فى الورق وأستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير
طين الكتاب بالنشا وضبطه؟؛ ومن قال: أما بعد فى كتابه؟ ومن جعلها فى الخطب
وأسقطها فى آتيدائه فى المكتبة وجوابه؟؛ ومن كره الاستشهاد فى مكاتبات الملوك
بالأشعار؟؛ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟؛ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا
بجاء شعرا؟؛ ومن وضع هذه الطرة فى التقاليد وأخترعها؟؛ وما حجتها إذ قدمها على
أسم الله ورفعها؟؛ ومن الذى باعد بين السطور وسعها؟؛ وكيف ترك بالتعظيم
فى كتبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التواضع ما وسعها؟؛ ومن
أستغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟؛ ومن أكتفى بيت من الشعر عما
يحتاج من تطويله الكتاب؟؛ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها؟ وأخفى مطلقات
الجوايس وغيبها؟؛ ومن الذى سن البرد وبعثها فى المهمات؟؛ ومن حاكى شيئا
من ملك سليمان فأستخدم الطيور فى بعض المهمات؟؛ وما أوجز مكتبة كتب بها
عن خليفة فى معنى؟؛ وما أبلغ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لاسمى
ولا كنى؟؛ ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير
ذلك من الأيام؟؛ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرتج عليه الكلام ولقنه
فى المنام؟؛ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصفه بنثر ولا نظام؟؛ وكيف
جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب فى لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لَا مِنْ حِفْظِهِ؟ ، مِثْلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا؟ وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْحَجَّاجِ فِي أَسْمَاءِ الْمُسْتَفْعِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجَنِ: ﴿ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟

وَعَلَامَ يُطَوَّلُ الْكَاتِبُ بَاءَ الْبَسْمَلَةِ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحَسْبَلَةَ؟ ؛ وَلَا يُجْهِدُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أَلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَعَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلْفُ؟ ؛ وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرَّاطِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا؟ ، وَالسَّكِينِ وَالذَّوَاةَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَيْشِهِ يُعْطِيهَا؟ ؛ وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ أَسْتَسْقَى وَلَمْ يُمْطَرْ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَضْرَعًا كَالْمُعْتَصِمِ وَكَيْفَ يُعْذَرُ؟ ؛ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ؟ ؛ وَكَيْفَ يُبَيِّنُ خَلِيفَةٌ خُلِعَ فَرَجِعَ ، وَغُرِّبَ عَنِ السَّجَنِ وَطَلَعَ؟ ؛ وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَأَسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ؟ ؛ وَكَيْفَ يُبَيِّنُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمَّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلِدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ؟ ؛ وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصَرَ حَصْنًا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْسَلٍ لَمْ يُوفِ لَهَا أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ؟ ؛ وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَاءِ الْأَنْزَامِ ، وَيُنْشِئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوِزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ ؛ وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينِ (؟) مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ؟ وَيُبَشِّرُ عَدُوًّا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنِ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ؟ ؛ وَيُبَيِّنُ خَصِيًّا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَمَّنْ فَرَّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تَحْكُمُ الظُّبَا فِي أَوْدَاجِهِ؟ ؛

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ . وَلَعَلَّهُ فِي إِسَاءَةٍ .

وَيَكْتُبُ لِمَلِكِ بَنِي مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ، أَوْ أَجْرِي خِيُولَ رَهَانٍ فَسَبَقَتْ خَيْلَهُ
وَأَنْقَطَعَتْ؟؛ أَوْ خَرَجَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ، أَوْ لِبُرْزَةِ بَنْدُقٍ أَحْتَقِلُ فِيهَا وَلَمْ يَصْرَعْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُعْتَادِ؟؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَّكِيهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَثْنِيٌّ فَضَلَّهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

ومن ههنا أكَفُ الْقَلَمِ عَنْ شَوْطِهِ، وَأَرْفَعُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوْطِهِ؛
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ، وَكَفَى بِالغَرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النِّهْرِ .

فَإِذَا تَسَطَّرَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ، وَخَرَجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ خُرُوجَ السِّيفِ مِنَ الصِّقَالِ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ الثَّرِيَّا فِي هَذَا النَّسِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَثِ كَمَا يُقَالُ: بِرَمْتِهِ؟ (؟) وَأَمَاطَ لِنَائِمَهَا،
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَمَهَا - أَنْقَطَعَتْ الْأَطَاعُ دُونَ غَايَتِهِ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْغَاءِ مُبَايَعَةَ رَسَائِلِهِ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَمَلَ قَلَمَهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانَ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظَلَمَ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ، فَكَانَ كَمَنْ سَلَّ لِنَحْرِهِ سَيْفَهُ؛ وَعُنْدَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِبِ مُؤْتَبَهُ، وَكَانَ يَوْمُذِلُهُ الْوَيْلُ لِأَمِنْ يُكَذِّبُهُ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ :

فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ!

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يُسَدَّ الْحَلَالَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ
كَمَا عَوَّدْتُهُ مِنْهُ وَكَمَا عَوَّدَهُ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كَمْ وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْئَلُهَا، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ لِنَتَّصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَارْخُ عَلَيْهَا سِتْرَ مَعْرُوفِكَ الَّذِي * سَتَرْتَ بِهِ قِدْمًا عَلَى عَوَارِي!

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مدهولٍ عن حُسن الإيقان ، ممددٍ عليه
نوابِ الدهر بأنامل الخفقان ؛ مرمرٍ بسهام الأعدى في قسي الضلوع ، غائص في بحر
المهم وكلمارمت أن يلقي إلى در الكلام ألقى در الدموع :

أبكي فتجري مهجتي في عبرتي * وكان ما أبكىته أبكاني !

لا يدع لي الفكر في قلة ^(١) ... الإخوان وقتنا استبط فيه معنى ، ولا يفسح لي
التمعجب من أبناء الزمان لتقصهم أن أضح نقداً ولا وزناً ؛ أجنح لسلم الأيام فكأني
لحربها جنحت ، وأقدح فكري في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت ، فلو قضى
الله لي بالمنية من المنية لأرحت الزمان وأسترحت :

فالأرض تعلم أنني متصرف * من فوقها وكأني من تحتها !

ولا فرق فيما بيننا غير أننا * بمس الأذى ندرى ومن مات لا يدري !

ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقاً قطعياً ، لا طلاقاً رجعياً ؛ وأجاهرها
جهاراً حربياً لا جهاراً عينياً ؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني ، وأتولى قوس
داله مع سهم بائها فما أصبت غير كبدى ؛ « كأنا القوس منها موضع الوتر » ، « وقلت
أذهبي يا صبوتي بسلام » ، « فإذا لقيت من آفاتنا ، ومُنيت به من الخوف في عرفاتنا ،
ومطرت لا من عوارض قطرها ولكن من عوارض مرجفاتنا :

ولمى رأيت الحب في القلب والأذى * إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب !

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحداً سينتقد على تشبيهي ، وطرقه قديمة في استفتاح
المكاتبه ، واستنجاح المخاطبه ؛ ويقول : تلك أمة قد حلت ، ودولة فاضلية أدبرت
مثل ما أقبلت ؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره ، وأبناء مضره ؛ فالجواب

(١) بياض بالأصل ولعله : « مصافاة الاخوان » أو نحوه .

ما قاله القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فما كان أسعدَ خاطره ! ،
وأكثرَ ذهبَ لفظه وجواهره !! :

إني رأيتُ الشمسَ ثم رأيتها * ما ذأ على إذا عشقتُ الأحسنًا !

وذكرت أن الاس عدره ونسيت أن الاس أفعالها^(١) .

انتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بعيد الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،
والأزهار قد سلبته عينه فقام من كراه يصبغ ، وميدان الغصون قد أصحبت بمعنى
الأطيار وشغب الريح ، ونسر السماء قد فر من الغداة وبازيها ، والنجوم قد حملت
إلى ملحدتها من الغرب على نعوش دياجيتها ، والمجرة من الجوزاء عاطلة الخصر ،
وخاقان الصبح قد حمل على تجاشي الظلام راية النصر .

لابرح سيدنا معصوم الروية والأرتجال ، مسجلا بسجاعة البراعة والحرب مجال ،
محمود المواقف والمساعي ”والنقش نفع والطروس مجال“ ، والسلام .

الصنف السادس

(من الرسائل ما كتبت به الحوادث والمآجريات)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب ما جريته وأراد
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المآجرية في كتابه مع تبيين الكلام
في ذلك ، إما ابتداءً وإما جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضى قضاة المسلمين محي الدين ، أبو الفضل
يحيى ، بن قاضى القضاة الإمام محي الدين أبى المعالى محمد ، بن على ، بن محمد ،

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان
 رضى الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين وستمئة، وتعرف "برسالة التمس" وهي :

وردت رقة سيدنا أسعده الله بتوفيقه، وأوضح في آكتساب الخيرات سبيل
 طريقه، فوفقت عليها وفوف السائر بورودها، المستسعد بوفودها، المبتهل إلى الله
 في إبقاء مهجته التي يشرف الوجود بوجودها :

وليس بترويق اللسان وصوغه * ولكنه قد مازج اللحم والدماء!

وفضضتها عن مثل النور فتفتح الصبا، وبرود الرياض تساهمت في آكتساء
 وشيا الأهضاب والزبا، يكبو جواد البليغ في مضمار وصفها، وينبو غضب لسانه
 عن مجاراتها في رصفها، يججل محيا النهار بياض طرسها، ويود الليل لو تقضت عليه
 صبغة نفسها، وتحسد الكواكب رائق معانيها، وتنتى لو أغيرت فضل إشراقها
 وتلايها، في كل فقرة روضة وكل معنى كأس مدام، وكل ألف ساق وكل سين
 طرة غلام، وكل واو عطفة صدغ وكل نون تقويس حاجب، وكل لام مشقة
 عذار وكل صاد خطة شارب، تصيب من سامعها أقصى ما يراد بالتفت في العقد،
 وتستولى بلفظها على لبه آستلاء الجواد على الأمد .

فلما آجليت منها المعانى المسبهة في اللفظ الموجز، وأجأت طرني منها ما بين
 نزهة المطمين وعقلة المستوفز، وأسلمت قيادي إلى سحرها المحلل وإن جنى قتل
 العاشق المتحرز - علمت أن سيدنا أجرى في حلبة السباق فآاز قصب سبقها،

وَدَلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَتَوَعَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا؛ وَحَكَمَتْ يَدَهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَلِمَتِ الْقَوْسَ إِلَى بَارِيهَا، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّيهَا؛ فَمَنْ وَائِلٌ؟ وَمَنْ سَحْبَانٌ؟ ، وَمَنْ عَبْدُ الْحَمِيدِ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَبْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا كَانَ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُثْمَانِهِ ظَلَّهَا؛ وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلْبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَيْفَ بِنُطْقٍ مِنْ مَيِّتٍ ؛ وَأَنْتَى يُطْعَمُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَا تَ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَأَلْفَيْتُ بِأَقْلَا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طُرِقَ قَرَى ، وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ فَرَى ؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامَأً فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ مَأُوهُ وَكَدَّرَتِ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عِلْمِهِ وَالغَيْرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرُّ أَنْ يَلِينَ لِضَرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجْرَ ؛ فَبَدَّلَ جُهْدَهُ لِمَا شَعِبَتِ الْهُمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُنْشَتْنَا ، وَنَحَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتْلَقًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلْقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرْتَهُ ضَمِيلَةَ سُمَّهَا نَاقِعٌ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَاطِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي الْخُطُوبِ نَوَازِعَ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنَى ثَوْبَهُ * تَقَلَّبَ فِيهِ فَنَى مَوْجِعُ

فَنَارَةٌ فِكْرَتُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نُحُوقَلَةٌ حَظَّهُ ، وَأَوْنَةٌ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لِحْظِهِ ؛ وَإِنْ يَدُ الْخُمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقَّقَهَا أَنْ تُصَرَّفَ إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرُهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :
لَنْ كَانَ أَدْلَى حَابِلٌ فَتَعَدَّرَتْ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَةً فَتَحَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكْتَهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ * وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطُ !!

ولقد جهد في سِلمِ الدهرِ وهو يُجَارِبُهُ، "وَكَيْفَ تُوقِي ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فإشام بآرقة أملٍ إلا أخفقت ورجع بحفى حنين، وقرت أعين أعاديه كلما سخطت منه العين، فلقد أصبح أفرغ من حجام سابات وإن كان "أشغل من ذات النحيين".

وكما تأمل جدّه العائر الناكص، ونظر رزقه الناضب الناقص؛ وقابله الدهر بالوجه العابس الكالج، ومنى نفسه عفتي يوم صالح، ربع عليها فنن لي بالسائح بعد البارح؟؛ وناجى نفسه بإعمال الركائب، والأضطراب في المشارق والمغارب، وأن يرى بالحدود طلعة نائر وبالعريس غرة آيب؛ ويصل التهجير بالسرى، ويبت من قيد الأوطان موثقات العرى؛ وإن كسدت فضيلة من فضائله، أورتت وسيلة من وسائله؛ اكتسب بأخرى من أخواتها، ونفت في عقدها ومت بها وقال: أنا ابنُ بجدتها؛ فالأم وعلام وحتي متي، أجاور من أنا فيهم أضيع من قمر الشنا؛ وحالي أظهر من أن يقام عليه دليل، و"إذا ذل مولى المرء فهو ذليل":

وما أنا كالعير المقيم بأهله * على القيد في مجبوحه الدار يرتع!

ثم استهول تقحم الإغوار والإنجاد، وأستفتح لقادح زناد الحظ الإكداء والإصلاح، وأقول: أخطأ مستعجل أو كاد؛ فأثوب مثاب من حلب الدهر أشطره، وأخذ إذا ارتفع عن الدنية من حظه أيسره، وبني كما بنى سلفه وقرر ما قرره؛ فأقول: أرفض الدنية ولا تلو عليها، فتكون "أحق من الممهورة إحدى خدمتها"، "فالحررة تجوع ولا تأكل بشديها":

ولسنا بأول من فاته * على رفقه بعض ما يطلب.

وقد يدرك الأمر غير الأريب * وقد يصرع الحول القلب!

وتارةً يُحْطَرُ أَنْ لَوْ شَكَوْتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ ذَوِي الْجَاهِ، وَسَأَلْتُهُمْ بِالْحَالِي
 فِي الْإِتِّغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ؛ وَأَحْضَمُّهُمْ عَلَى أَنْتِهَارِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
 وَأَضْرَبُ لَهُمْ : ”أَعْنُ أَحَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مَنْ يُحْيِفُهُ الدَّهْرُ فِي ذَلِكَ
 مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَارِزِيُّ بِغَيْرِ جُنَاحٍ“ ؛ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ جَلَدُوا ،
 بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لِأَزْدَادُوا ؛ وَلَوْ مَلَّكُوا ظِلَّ اللَّهِ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيَا ،
 وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَانِيَا مُنَادِيَا ، وَقَبْلِي بَغَى عَلَى الْأَمْرِ فِقَاتَهُ وَأَدْرَكَ الْجِدَّ
 السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ؛ وَإِلَى كَمْ أَعْلَلُ تَعْلِيلَ الْفَطِيمِ بِالْخَضَابِ :

سَمِتُ الْعَيْشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرَّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيَمْنِيهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقُفِهَا ، وَيَقْصُ
 عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا ؛ وَأَنْهَا مَاقَدَمَتْ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَبَتْهَا
 بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَتْ صَفْوَ الْأَمَانِيِّ بَشْرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسَهُ بِتَكْدِيرٍ ، وَأَنَّ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
 مِنْهَا سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوْلًا سَبِيلُ
 رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادِ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمَرَ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَآدَمَ وَقَتَ الْوَفَاةِ عَلَى
 مِعَادِ ؛ فَانْ شِئْتَ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضِعْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ بِجِدِّ أَوْدَعُ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمُرِي فِي غَيْرِ
 مَارِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أَنْجَزْتَنِي الْأَيَّامَ مَوَاعِيدَ
 عُرُقُوبِ ، لِأَفْضَيْتُ بِي إِلَى أَحْلَى مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَّةِ الرَّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
 قَنَعْتُ بِحَالِي ”وَوَشَّرَ مَا أَبْجَاكَ إِلَى مُخَّةِ عُرُقُوبِ“ ، ثُمَّ يُخَاطِبُنِي حِجَايَ بِأَنْ تَثَبَّتْ وَأَصْبِرْ ،
 فَالِئِلْ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقَمَّرٌ ؛ فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَهَيَّ بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْيَكَّابِ ،
 فَلَا تَعَجَلْ بِجَرِي الْمَذَكِّيَاتِ غَلَابِ .

فَاسْتَرَوَحْتُ إِلَى فَتْحِ بَابِ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِجْلَاءِ مُحْيَا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ
هَمِّي فَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّجَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقِ فِكْرِي مُخْرَجَا ؛
فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَّاكِ كِتَخَطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرُوعَةِ شِطْرَنْجٍ وَضَعْتَ بَيْنَ الرَّفَاقِ ؛
الْأَيْسِ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذُ لَاسْتِجْلَاءِ وَجْهِ الْغَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلِدُ عَلَى الْقِيَامِ
وَالكَدِّ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثْمَانَ الْمَرْءِ عَمَّا وَارَاهُ ، وَيُبِيحُ
إِنْسَانَ الطَّرْفِ رَعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيُنِمْ بِمَا اسْتَوَدَعَتْهُ
مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشْرِفُ إِلَى غَيْضَةِ قَدِ الْتَفَّتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهْدَلْتُ تِمَارُهَا ، وَرَقَصْتُ
أَغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدْتُ بِصَافِي الزَّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَنَمَّتْ بِعَرَفِ الْعَبْرِ
الشَّجَرَى أَزْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِسُ النَّارَنْجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا وَحُلَيْهَا ؛
قَدْ أَلْبَسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خَضْرَا ، وَحَلَيْتْ مِنْ تِمَارِهَا تَبْرَا ؛ وَنَظَمَ قَدَاحُهَا
فِي جِيَادِهَا لَوْلَا رَطْبَا ، وَرَجَّحَهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَالَتْ مُجْبَا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا
مِنَ الْبَنْفَسِجِ مَفَارِشُ سُندُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطِ أَخْضَرَ سَلَّتْ أَيْدِي الْقِيُونَ
عَلَيْهِ صَقِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عِيُونَ الرُّقْبَاءِ مِنَ التَّرْجِيسِ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِ ،
وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ فَمَا يَلَتْ كَعْنَاقِ الْحُبِيِّ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَأَجْتَلَيْتُ مُحْيَا وَسِيمًا تَبْلِجِ
أَسْرَتِهِ ، وَمَنْظَرًا جَسِيمًا تَرُوقُ بِهِجْتِهِ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاطُ بَسَاطًا أَرْقَا ، بَزْهَرِ الْكَوَاكِبِ
مُشْرِقَا ؛ وَطَرَزَهُ بِالشَّفَقِ طِرَازًا مُذْهَبَا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَفْرِقًا أَشْيَا :

وَرَثَ قَيْصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ * سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّحٌ ،
وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّيْلُ صُبْحُ كَانَهُ * وَقَدْ لَاحَ شَخْصٌ أَشْقَرُ اللَّوْنِ أَجْلَحٌ ،
وَلَا حَتَّ بَقِيَّاتِ التَّجُومِ كَانَهَا * عَلَى كَيْدِ الْخَضْرَاءِ نَوْرٌ يَفْتَحُ !

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَتَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَذَمُّهُ كَوَجِبًا فَكَوَجِبًا ، فَكَانَهُ مَلِكٌ آتَخَذَ
الْحَجْرَةَ عَلَيْهِ مَضْرِبَا ؛ وَتَوَجَّحَ بِالْثَرِيَا إِكْلِيلَا ، وَخَنَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوْفِيرًا لَهُ

وَيَجِيلا ؛ وَأَصْطَفَتْ حَوْلَهُ خَدَمًا وَجُنُودًا ، وَنَشَرَتْ مِنْ أَسْعَتِهَا أَلُويَةً وَبُنُودًا ؛
وَأَخَذَتْ مَقَامَاتِهَا فِي مَرَاكِزِهَا بِجُيُوشٍ عُبَّتْ لِلِقَاءِ مُنَاجِرِهَا ، وَمَسَاقِهَا أَخَذَ فُرْصَةَ
النَّصْرِ وَمَنَاهِزَهَا :

وَلَا حَ سَهِيلٌ مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهُ * شِهَابٌ يُجَيِّهِ عَنِ الرِّيحِ قَائِسٌ !

وَأَنْبَرِيٌّ نَسِيمُ السَّحَرِ عَلِيلا ، وَجَرَّ عَلَيَّ أَعْطَافَ الْأَزْهَارِ ذَيْلًا بَلِيلا ؛ وَرَوَى أَحَادِيثَ
الرِّيَاضِ بِلِسَانِ نَشْرِهِ ، مُذِيعًا لِأَسْرَارِ خُرَآمَاهُ وَزَهْرِهِ ؛ وَغَرَّدَتْ خُطْبَاءُ الطَّيْرِ عَلَيَّ مَنَابِرَ
الْأَغْصَانِ ، وَأَسْتَنْبَطَتْ مِنْ قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ دَفَائِنَ الْأَشْجَانِ ؛ وَحَثَّ دَاعِي الفَّلَاحِ ،
طَائِفَةَ التُّقَى وَالصَّلَاحِ ؛ عَلَيَّ أَنْ تُؤَدِّيَ قَرَضَهَا وَنَفَلَهَا ، وَتَرْتَقِيَ بِخُضُوعِهَا بَيْنَ يَدَيِ
مَوْلَاهَا دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ؛ وَهَتَفَ بِشِيرِ التُّجُجِ بِنِ أَحْيَا
لَيْلَتِهِ لَمَّا تَمَزَّقَ قَمِيصُ اللَّيْلِ وَأَنْفَرَى : "عِنْدَ الصَّبَاحِ يَمْحَدُ القَوْمُ السُّرَى" .

فَبَيْنَا أَنَا أَتَفَكَّرُ فِي أَنَّ جُمْلَةَ مَا عَايَنْتُهُ سَيُصْبِحُ زَانِلًا ، وَعَنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الْعَجِيبَةِ
حَائِلًا ، وَأَتَدَبَّرُ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا)
إِذْ أَهْدَتْ إِلَى الْأَيَّامِ إِحْدَى طُرْفِهَا وَغَرَّابِهَا ، وَكُبْرَى أَوَايِدِهَا وَعَجَائِبِهَا ؛ فَطَرَقَ سَمْعِي
مِنَ الشُّبَّاكِ نَبَأٌ ، وَتَاتَهَا وَجِبَةٌ تَتَّبَعُهَا وَثَبَةٌ ؛ فَاسْتَعَدْتُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ ،
وَقُلْتُ : أَسَعْدُ أُمَّ سَعِيدٍ ؛ وَإِذَا بِمُحْسٍ قَدْ فَارَقَ وَجَارَهُ إِلَى وَجَارِي ، وَأَخْتَارَنِي عَلَيَّ
الصَّحْرَاءَ جَارًا فَارْتَضَيْتُهُ لِحَوَارِي ؛ فَوَلَّجَ مُسْتَأْنَسًا ، وَمَرَحَ بَيْنَ يَدَيَّ آنَسًا ، وَأَرَانِي
أَحَدَ كَيْفِيهِ فِي الْأَسْتِرْسَالِ لَيْتًا وَالْأَنْخَرِ بِاتِّمْنَعِ شَامِسًا ؛ فَدَلَّ لَهَ الحِرْصَ عَلَيَّ جَوْرِهِ حَبَائِلَ
مَكْرِهِ وَسِبَابِكِهِ ، وَيَدُ الْعَبْشِ تَحُولُ دُونَ قَنْصِهِ وَإِنْسَا كِهِ ؛ وَبَقَايَا الظَّلَامِ تَقْضِي
بِتَمْنِعِهِ ، وَتَصُدُّ عَنْ جَعْلِهِ مِنَ الْوَتَاقِ فِي مَوْضِعِهِ ؛ وَأَنَا مُلَازِمُهُ مُلَازِمَةُ الْمُعْسِرِ لِرَبِّ
الدِّينِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الصُّبْحُ لَدَى عَيْنَيْنِ .

فلما خَشِيتُ على صَلَاتِي النَّوْتَ عَدَلْتُ إلى تَأْدِيَةِ فَرِيضِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيْ
مُوجِبِهَا وَعَرَضِهَا ؛ فلما أَنْقَلْتُ من مَصَلَايَ ، وَأَنْصَرَفْتُ عن مُنَاجَاةِ مَوْلَايَ ؛
بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خُيِّلَ إلى أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فَقَالَتْ : أَدْرَقَرُنُ الْغَزَالَهَ ؟ ، وَإِلَا فَلَائَتْ
حِينَ ذُبَالَهَ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهَ شَرًّا ، وَهَزَّلَهَ الْمُهَنْدِ فَشَقَّ لَهُ من الظُّلْمَاءِ
بِحُرًّا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُعْطِيَهَ من الْمَنِيَّةِ مَرَّجًا وَعُغْرًا ، كَأَنَّهُ قد لَاقَى
أَسَدًا هَزَبْرًا ؛ وَأَتْرَعَ لَهُ كَأْسَ الْحَمَامِ بِالْوَافِي ، وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْأَثَانِي ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ
بِاللَّامَةِ مُنْكَرًا لِحَمَلِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاجِرًا عن قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَدَّرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كُلَّهُ “ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، لَقَدْ خَلَّتْ أَنْكَ تَرْتُدُّ - وَإِنْ
كُنْتُ وِلِيدًا - أَشْيَا ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إلى السَّيْفِ مُحْتَرِطًا ؟ ، ” إِنَّكَ لِأَجْبَنُ من
الْمُزَوِّفِ صَرِطًا “ لَقَدْ أَظْهَرْتَ من الفَشْلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِرَاحَ
فِي مَحَلِّ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرَجِيكَ
بِعِدْهَا زِنَادًا صَلْدًا ، وَأَسْتَنْبِعَ الْمَاءَ جَاهِدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرْفَهُ فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءً أَرْزَى بِالسَّمْوَعِلِ بْنِ عَادِيَا : أُنْجِ
هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيًا ؛ إِنِّي رَمَيْتُ من الْخُطُوبِ بِأَصْعَمِيَا ، وَلَا يُبْنِيكَ بِالْحُرُوبِ
كُجْرِيهَا ، وَالغَاصُّ بِاللُّقْمَةِ أَخْبَرِيهَا ؛ فَلَقْدَ أُوطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثْرَةَ ، وَمَا لَقَيْتُ
فِي حَرْبٍ كَهَيْذِهِ الْمَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْخِمْرَةَ “ ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجْ ، وَكَشَرَ
عَنْ أُنْيَايِهِ غَيْرَ مُتَبَسِّمٍ ؛ ” وَحَسْبُكَ من شَرِّ سَمَاعِهِ “ ، ” وَأَسْتُ الْبَائِنِ أَعْلَمُ “ ؛ تَاللَّهِ إِنَّهُ لِأَجْرًا
من خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَتِنْ سَبْرَتَهُ لَتَمَنَّيَنَّ مَا بَيْنَ الدَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيْتُ نَفْسِي من
الْغَنِيمَةِ أَنْ تَوُوبَ بِذَمَائِمِهَا ، لَمَّا تَشَبَّثَ بِخِصْرِي نَخْضِبَهَا بِذَمَائِمِهَا ، نَقَلْتُ : ” أَجْفَلُ عن
جَنَابِكَ الْخَيْرُ وَأَجْلِي “ ، ” وَأَضْرَطَّا وَأَنْتَ الْأَعْلَى “ ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ
أَسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ أَسْتِكْبَارَهُ الْخُطْبَ وَأَسْتِكْبَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : من صَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكِ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَقْتِدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الدَّلُولِ الشَّامِسِ، المُسْتَأْسِدِ
 المُسْتَأْسِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَنْقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوَتِي سَامِعًا.
 فَلَمَّا حَازَهُ فِي القَبْضَةِ الإِسَارَ، وَبَطَلَ الإِقْلَالَ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالِإِكْثَارِ، وَقَدْ
 كَانَ أَعَزَّ مِنَ الأَبْلَقِ العُقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الأَنْوُقِ؛ أَسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَمَلِّمًا،
 إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مِوَالًا؛ فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَهُ، وَجِنَّةً صَخْمَهُ؛ وَشِدْقًا أَهْرَتَا
 رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى آخْتِلَافِ الحَوَادِثِ صَعْبًا؛ وَأُنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُصَلًا كَالنِّصَالِ، وَطُرْفًا
 مُحَالِسًا غَيْرَ غَرِّ بِالْمَكْرِ وَالخِتَالِ؛ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارِي لَمْ تَجُدْ؛ وَسَامِعَتَيْنِ
 نَتَوَجَّسَانِ مَادَارِ فِي الأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنَاجِي بِهِ المَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الأَحْلَامِ؛ قَدْ
 نَيْطَتْ بِعُنُقِ صُغْرَتِ هَامَتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ أَسْتَدْبَرْتَهُ قَلْتَ : هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
 أَوْ أَسْتَقْبَلْتَهُ قَلْتَ : هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ؛ يَشْتَمِلُ عَلَى نَحْرِ خَصِيبِ، وَصَدْرِ رَحِيبِ؛
 فِيهِ نَزَعَتَا بِيَاضِ كِهْلَالَيْنِ قُرْنَا فِي نَسَقِ، أَوْ تَجْمَى ذُوَابَةً ظَهَرًا فِي غَسَقِ، تُسَرُّ نَفْسُ
 النَّاطِرِ إِلَيْهَا، وَيُعَقَّدُ خَنْصَرَ الأَخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشِّيَاتِ عَلَيْهَا؛ أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ
 عَيْدِ، وَسَاعِدِ شَدِيدِ، وَبُرْنِ شَتْنِ وَمِخْلَبِ حَدِيدِ :

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا * نَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّحُورِ نَوَاشِبِ،

مُعَقَّفَةِ التَّرْهِيْفِ عُوِجَ كَأَنَّهَا * تَعَقَّرُبُ أَصْدَاغِ الحِسَانِ الكَوَاعِبِ !!

قَدْ جَاوَرَ جَوْجُؤًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَمَدِّدًا؛ يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،
 وَهَمَّتْهُ نَسْعَرُ نَارًا؛ بِرِجْلَيْنِ تَسْبِقِ فِي الحِضْرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُ بِأَظْفَارِهَا أذُنَيْهِ؛ وَذَنْبِ
 كَالرِّدَاءِ المُسْبِلِ يَجْرُهُ آخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَتَيْبُهُ مَجْبَا وَفَرَحًا؛ إِنْ أَنَسَابَ قَلْتَ : أَنَسَابَ
 أُنْفُوعَانِ، أَوْ صَالَ قَلْتَ : أَسَدُ خَفَّانِ؛ أَوْ وَثَبَ سَبَقِ الوَهْمِ فِي أُنْحِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ
 أَدْرَكَ البَرَقَ مِنْ نَشَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفِ فِي أُنْحِرَاطِهِ؛ أَنْعَمَ مَسَا مِنْ أَرْبِ،

وأزهي من نعلب؛ قد كساه الظلام خلعتَه، وقبل الصُّباح طلعتَه؛ حاز من القنَدِسِ صقاله وبهجته، ومن الفَنِكِ لِينَه ونعمته؛ أليس رداء الشَّباب، ووزنه عن تزوير الحِضاب؛ إن أختلس فما تآبط شراً، أو خاتل أزرى بالشَّفَرى مكرًا؛ أحد نفساً من عمرو بن معدى، لا يُصلدُ قاذح زناد بطشه ولا يُكديب؛ أنزق من أبي عبَّاد، وأصول من عترة بن شداد؛ أفتك من الحرث بن ظالم، وأنهر فصدًا للدم من حاتم؛ لا يلين ولا يشكو إلى ذى تصميت، "كأنه كوكبٌ في إثرِ عفریت"؛ يكادُ عند المَحائلةِ في أنسيابه، يفوتُ الخاطرُ أو يخرجُ من إهابه؛ إن قارنَ طيراً أباحه منسراً كمنسِر الأسد، أغلبَ فيه شغاً كأنه عقدُ ثمانين في العمد؛ فينشدُه: الأعمُّ صباحاً أيها الطلل البالي، فلا يحسُّ له بعينٍ ولا أثرٍ سيجيس الليالى، فكان قلوبها رطباً وياساً لدى وكْرِه العناب والحشف البالي؛ أعتاد قنص السائح والبارح، ففات ورد المينة منه غايد ولا رائج؛ طویلُ القرا مدحج الأعظم، له مُحائلةٌ سرحانٍ وهجمة ضيغم؛ أحن من نعبه(?)، وأظلم من حيه، أطيئس من فراشه، وأسبق إلى الغايات من عكاشه؛ أخطف من عقاب، وأشجع من ساكن غاب؛ أسرق من جردٍ وأنوم من قهد، وألين من عهنٍ وأخشن من قد؛ بأسه قضاءً على الطير منزل، وبطشه ملكٌ بأجلها مُرسل.

فلما تأملت خلقه، وسبرتُ بجرية الفِراسة خلقه؛ عجَّلتُ له جريراً مستحصداً المِرَّة لوناقه، وأحكمتُ شدَّه في محلِّ خنَاقه؛ وقلتُ له: إني مجربك سخابة هذا النهار، "ومن سلك الجددًا من من العنار"؛ ففعل ذى خبرة بمكره، وعلى ثقة من غدريه؛ فإن اللئيم ذو صولة بعد الخضوع، وفضح التطبُّع شمية المطبوع؛ وكيف الثقة به وإن استقر ولم يتيسر؟ وأنى الطمأنينة إليه وهو الأزرق المتأسس؟

ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شاني ، والاجتماع بأخلائى وأخذاني ؛ وأستغفرت أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيت نهجتي ، من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفتته عمداً إلى الوثاق فقرضه ، ووفاه بالكيل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شيخة نستسعد بدعائها ، ونفزع إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نداءها ؛ ذات خلق عظيم ، ومنطق رخم ، وقلب رحيم ، ووجه ذى نضرة ونعيم ؛ إن قامت أحييت الليل بالسهر ، أو قرأت رأيتنا حولها زمراً بعد زمراً ؛ إن حادتها نطقت بالسحر محلاً ، أو تاركتها رأت الصمت على كثير من النطق مفضلاً ؛ تسرفسك في حالة الصخب ، وتريك وجه الرضا في صورة الغضب ؛ فدد إليها يد العدوان ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛ ولم يقرب فيها إلا ولا ذمة ، وحملها حملنا من أذاها غمها ؛ ومزق قشيب أنوابها ، وحكم محالها الحديدية في إهابها ، فعظم مصاب من حوت داري بمصاها .

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مهيب ؛ فسليتها بأن المصائب تلقاها الأبرار ، وترققت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار ، وأوردت : «إن جرح العجاء جبار» ؛ وقلت : إياها لك وآها ، لقد ارتكبت خطة ما ألقها بعذرك وأولاهها !! ، فلقد أنصف القارة من رامها ، ثم آلت ألية بره ، لأوطئته من الوثاق جمره ، ولأقتصن بهذه المرة تلك المرة ؛ وأيته بسلسلة تنبو أنيابه عن عجمها ، ولا تثبت شياطين مكره برجمها ؛ قد أبدع قينها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب في نظامها ؛ فله هو من تحكم فيما يقطع الجسد ، بفعله من اللطافة يحل ويعقد ؛ فاستودعت عنقه منها أميناً لا يخفر وثيق ذمته ، ولا تتطرق الاوهام إلى تهمته ؛ مستحكم القوة في الشد ، فتغيظ تغيظ الأسير على القد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وَتَذَلُّ بِعَدِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَبَضْبِ بَدْنِهِ قَلْتُ : ” أَمْرُكَأ وَأَنْتَ فِي الْحَدِيدِ “ . فَلَمَّا
أَيْسَ مِنَ الْخَلَّاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلاَتِ حِينَ مَنَاصِ) .

فلما تم ما ذكرته ، وأبدأته وأعدته ؛ وردت رُفْعَةُ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَابِيلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
الَّتِي وَقَعَتْ ، وَصَدَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ؛ وَأَقْتَضَى بِي الْحَالُ كَتْبَ هَذِهِ الْخُرَافَةِ
وَإِنْ تَشَبَّهْتُ بِأَذْيَالِ الْخَلْدِ ، فَأَخْرَجْتُمَا مَخْرَجَ الْهَزْوِ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قِصَبَاتِ
الْمَجْدِ ؛ يُعْلَمُ أَنَّ فِي الرِّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَنَبَّتُ الشَّجَرُ فَلَمَّا أَبْنُ جَلَا
وَطَّلَعَ النَّبَايَا “ .

هذا : وَإِنْ أَبْقَى قِرَاعَ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي فُلُولًا ، ” فَالْفَحْلُ يَجِي سَوْلَهُ مَعْقُولًا “ ؛
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَىَّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَوْبِ ، وَطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ
صَوْبِ ؛ وَجَرِيْتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَفَرَسِي الرَّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعِشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ؛ وَبِكُلِّ حَبْلٍ يَحْتَنِقُ الشَّقِي ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرٌ وَكَيْفَ يَتَّقِي ؛
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ عُنَى السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَى وَهُوَ عَاجِزٌ * وَيَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدُ !

قَسَطَرْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ إِلَى سَيِّدِنَا لِيُؤَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرَهُ ، وَ” مَنْ يَشْتَرِي
سَيْفِي وَهَذَا أَثْرُهُ “ وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ ” أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُشْتَمِلٌ “ .

(١) المقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهي الشدائد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الحصّال الغافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
أبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشفُ سوءَ سواه، ولا يدعُ المضطرَّ إلا إياه، نزلَ قفراً بغناه،
ونعوذُ من سُخطه برضاه، ولستغفره من ذُنوبنا : (ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ) .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له إلهًا علًا فأقتدر ، وأوردَ عباده
وأصدر ، وبسطَ الرزقَ وقدرَ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله الذى بَشَّرَ وأنذَرَ ،
ورَعِبَ وحَدَّرَ، وغَلَبَ البُشرى على الإقنَاطِ ، ودَلَّ على الصِّراطِ ، وأشار إلى السَّاعةِ
بالأشراطِ ، ولم يَأُلْ أُمَّتَه فى الذَّبِّ والاحتِياطِ ، صلى اللهُ عليه وعلى الوُزراءِ الخُلَفاءِ ،
والبرِّةِ الأتقياءِ ، والأشدِّاءِ الرِّحما ، والأصحابِ الرِّعما ، صلاةً تملأ ما بين الأرضِ
والسَّما ، وتوافقهم فى كلِّ الأوقاتِ والآنا ، وتَضَعُ الثَّناءَ مَوْضِعَ الثَّناءِ .

ولما لَفَحَتْ حَرْبُ الجَدْبِ عن حِيالِ ، وأشفقَ رَبُّ الصَّرِيحَةِ والعِيالِ ، وتنادى
الجيرانُ للتفرُّقِ والزَّيالِ ، وتناوحتْ فى المهبُوبِ ريحُها الجَنُوبُ والشَّمالُ ، وتراوحتْ
على القلوبِ راحتا اليمينِ والشَّمالِ ؛ وأحضرتْ أنفُسُ الأغنياءِ الشَّحَ ، وودَّوا أن
لا تَنشَأَ مَزنَةٌ ولا تَسحَّ ؛ وتوهَّم حازنُ البرِّ ، أن صاعه يَبدلُ صاعَ الدُّرِّ ؛ وخفَّتْ
الأزوادُ ، وماجت الأرضُ وألقت الرُّوادِ ؛ وأنترعت العازبُ القِصَى ، فالقَتِ العِصَى ،
وصدَّرت بحسراتها ، وقد أسلمت حرراتها ؛ وأصبحت كلُّ قَنَةٍ فدعاءً ، وهَضْبَةٌ درعاءً ،
(صفاه وهما ونقبا وهما) (؟) ؛ والصُّبْحُ فى كلِّ أفقٍ قَطْرٌ أو قطع ، والأرضُ كُلُّها سَيْفٌ
ونِطع ، والشَّعرُ يشمر ذيله للنفاق ، ويُضمَّرُ خَيْله للسِّباقِ ؛ وجاءَ الجِدُّ وراح الهزلُ ،

(١) كذا فى الأصل ، ولم نصل إلى أصله مع البحث والتنقيب .

وقُلْنَا : هذه الشدة هذا الأزل ؛ وللمرجفين في المدينة عجاجة ظنوها لا تلبد ،
 وقسي نحو الغيوب تعطف وتلبد ؛ فما يسقط السائل منهم إلا على ناب يحرق ،
 وشهاب يبرق ؛ حتى إذا عقدوا الأيمان ، وأخذوا بزعمهم الأمان ؛ وقالوا : لا يطمع
 في القيث ، وزحل في الليث ؛ فإذا فارق الأسد ، لكذ ما أفسد :

تَحْرَصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً * لَيْسَتْ بِنَيْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبٍ !

أُنْسَاءَ اللَّهِ الْعَنَانِ ، وقال له : كُنْ فَكَانَ ؛ فبينما النجوم درارياً الأعلام ، وأغفالها
 التي لا تُحمد عندهم ولا تُلام ؛ قد اختلط مرعاها بالهمل ، ولم تدر السدة بالحمل ؛
 ولا علم الجدى بالربال ، ولا أحس الثور بالرامي ذى الشمال ؛ إذ غشيتها ظلل الحمام ،
 وحجبتها أستار كأجحة الحمام ؛ وأخذت عليها في الطروق ، مصادير الغروب والشروق ؛
 فما منها إلا مقيع بنصيف ، أو مزمل في نجاد خفيف ؛ لم تترك له عين تطرف ،
 ولا ثقبه يطلع منها أو يشرف ؛ فباتت بين دور متداركة السقوط ، ودور متناثرة
 السموط ، وديم منحلة الخيوط ؛ وجيوش منصوره الأعلام ، نابتة الأقدام ؛ وكنايب
 صادقة الهجوم ، صائبة الرجوم ، تطلب المحل ما بين التخوم والنجوم ؛ وما زالت
 ترميه بأحجاره ، وتحترسه في أحجاره ؛ وتفزوه في عقرداره ، حتى عفت على آثاره ،
 وأخذت للحزن والسمل بناره .

فيا أيها المؤمن بالكواكب ، أنظر إلى الديم السواكب ؛ وأسبح في لجج سيوها ،
 واربح في ممر ذيولها ؛ وسبح باسم ربك العظيم الذى قدف بالحق على الباطل ، وأعاد
 الحلى إلى العاطل ؛ وبرود الظواهر محضره ، ونفور الأزاهر مفتره ؛ ومسرات النفوس
 منتشره ، والدنيا صاحكة مستبشره ؛ وأرواح الأدواح حامله ، وأعطاف الأغصان
 مائله ؛ وأوراق الأوراق تفصل ، وأجنحة الظلال تراش وتوصل ؛ وخطباء الطير

تَرَوِي وَنُحْبِرُ ، وَشُبُوخُ الْحَارِبِ تَهْلِلُ وَتُكَبِّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُخَضِّعُ لِحَبْرَتِهِ ،
وَيَشْهَدُ لِمَلَكُوتِهِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَأَمَّا الْخَطَاطِيفُ فَقَدْ سَبَقَ هَا يَهَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَاجَعَ شُكْرًا لِلَّهِ نَادِيهَا ؛
فُعْشُ يَوْمٍ ، وَلَيْبِنَةٌ إِلَى أُخْرَى تَزِمُ ، وَشَعْتٌ يُلِمُّ ، وَبِدْءَةٌ تُوفِي وَتُمِّمُ ؛ وَكَأَنَّهَا حَنَّتْ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتِ اللَّعَاتِقَ إِلَى الْمَعَاهِدِ ؛ فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا نُزَاعًا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطَامِهَا أَوْزَاعًا ، وَأَجَدَّتْ إِقْطَاعًا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخِصْبِ أَمْرًا مُطَاعًا ؛ وَحَارَزَتْ
مِنَ الْحِدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ إِقْطَاعًا ؛ وَسِغَرْدٌ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَاءُ ، وَيُضْحِكُكَ هَذَا الْوَايِلُ
الْبِكَاءُ ، وَتُرُومُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاءٌ ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْأَفْنَانِ النَّاعِمَةُ قِلَاصٌ ، وَأُحْصَانَتُهُ مِنْ
الْخِضْرَاءِ التَّبَعِيَّةِ دِلَاصٌ ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالنَيْلُ لِأَهْلِ الثَّنَاءِ
وَالنَّخِيرَاتِ ؛ وَالْمَرْعَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضُ بَكْرًا كَيْبِ النُّورِ تَزْدَانُ ، وَبِقَاعٌ تَدِينُ الْغَيْثَ
كَمَا تُدَانُ ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَرَتْ ، وَعَرَفَهَا مَا أَنْكَرَتْ ؛
كَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةَ نَسَبَ أَوْ مَلَحَ ، قَالَتْ لَهَا : خِطْبُ فَقَالَ : نِجْحُ ،
فَقَتَلَتْ الْأَزْهَارَ بِسَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي سَيْلِهِ ، وَثَبَّتْ كَاللَّحْظَةِ فِي شَطْطِي نَجْمِيهِ .

فَمِنْ نَجْمِيٍّ تَزْنُو الرُّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بِهِجَةَ إِشْرَاقِهِ ؛ وَيُودُّ الْمِسْكَ
نَفْحَةَ آتِنَشَاقِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَيَمْتَنَاهُ الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ ؛ كُحْلَةٌ
نَدَى تَتَرَقَّرُ ، أَوْ غُصْنٌ بَانَ لَا يَزَالُ يُورِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَفْعَى مُطَالِمُهُ عَلَى عَرَارِ ، وَكَلَفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالْعَوَادِي كَلْفَ عَمْرٍو
بِعَرَارٍ ؛ بَجَاءِ كَسَوَالِفِ الْغَيْدِ تَرَفٌ ، وَكَوْمِيضِ الثُّغُورِ يَعْبِقُ وَيَسْفُ .

وَمِنْ أَقْحُوَانٍ جَرَى عَلَى الثَّنَائِيَا الْغُرَّ ، وَسِيكَ مِنْ نَاصِعِ الدَّرِّ ؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبِقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوْبَمَا ^(١) وَيَغْنِقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

(١) بياض بالأصل .

ومن بَنَفَسِجٍ كَطَوَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ ؛ تَشْرَفَ بِأَبْدِجِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفَ مِنَ النَّسِقِ وَالخَلْقِ ؛ تَلَحُّظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَجٍ بِالْأَجْفَانِ وَقِيَّتْ ،
وَبِدْمُوعِ الْكُحْلِ سُقِيَّتْ ؛ نَسِيْمُهُ أَلِينٌ مِنَ الْخَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعَطَّرَ مِنَ الْعَيْدِ ؛ يُفَاحِرُهُ
كَأَنَّهُ الْبَرْدُ ، مُفَاحِرَةٌ نَيْسَانَ بِالْوَرْدِ .

وَكُلَّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُرْفَهَا وَأَزَيَّنَتْ ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَتْ ؛ كَمَا نَتَوَجَّحُ
فِي إِيْوَانِهِ كَسْرِيٌّ ، وَأَسْتَقْبَلْتَهُ وَفُودُهُ تَتْرَى ، وَأَنْقَلَبْتَ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرِيٌّ ،
وَكُلَّ تَلَعَةٍ مَدَانِبُ نُصُوحًا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُصُوحًا لَا تُتْنَى ؛ وَأَرَاقِمُ تَنْسَابِ ، وَلِحْيِنِ
يُدَابُ وَيُدَابُ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا نُجُومٌ مِنَ النُّورِ مُشْتَبِكَةٌ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَّاتِ الْغَوَازِي
مُنْتَهِكَةٌ ؛ فَلَوْ أَفْتِيحَتْ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ ، وَنَطَقَتِ السُّهُولُ وَالْحُزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قَتَلَ الْخَبْرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا ، وَنُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِيَّ النَّسَمِ ،
وِدَارِيَّ الْقَسَمِ ، وَنَاشِرَ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلَ الدِّيمِ ، وَبَاعِثَ الرَّحْمِ ، وَوَحْيِيَّ الْأُمِّ ؛
فَإِنَّا نُوْمِنُ بِقُدْرِكَ ؛ حَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْشَكَ عَلَى غِرِّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِنَشْرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ ؛ وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ
وَالْإِلْحَادِ ؛ وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْبِسْلَادِ ؛ رِزْقُنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا نُشْرِكَ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُلْتَحِدًا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأُمَّتٌ الْحَىِّ وَأَحْيَيْتَ الْمَيِّتَ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكُفِنَا فِيْمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّوْنَا فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ الْآيَةَ .



وهذه نسخة رسالة ، كتّبت بها الصاحب نحر الدين عبد الرحمن بن مكناس ،
تعمّده الله برحمته ، إلى الشيخ بدر الدين البشتكى عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،
سنة أربع وثمانين وسبعائة ، وهي :

ربنا أجمعنا في هذا الطوفان من الآمنين ، وسلام على نوح في العالمين .
ما تأخير مولانا ببحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ ، وما قعاده عن زرقه
هذا النيل الذى جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسما ؟ ،
وكيف لم يرهذا الطوفان الذى استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظأ ، فهى كزيادة
الأصابع الدالة فى الكف على نقصه ، وأولى أن نُسَدَ بيت المثل بنصه :
طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ * مِنْ عَظِيمِ مَا قَدَّ سَرَّنِي أَبْكَانِي !

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجره بل وصل وأمتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه
المعنى [بقول القائل] : "حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ" ، وتجاوز فى عشر الثلاثين
الحَدَّ ، وأرانا بالمعاينة فى كل ساحل منه ما سمعناه عن الجزر والمد ، وأساء فى دفعه
فلم يدفع بالتي هى أحسن ، وأقعد الماشى عن التَّسَبُّبِ والحركة حتى شكأ إلى الله
فى الحالين جور الزمن ؛ وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت
أصعب كأس ، وسئل ابنُ أبي الرِّدَادِ عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ؛
أمتلاً لليباب ، وهال العباب ، وضاع العُدَّ وأختلط الحِساب ؛ كأل فظف ، وزار
فا خفف ؛ غسل الجسور ، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور ، وبرع فكان أولى
بقول الحلى من ابن منصور :

بمكارم تذر السباب أبحراً * وعزائم تذر البحار سباباً !

جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواقٍ مضرٍ
 وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح؛ وغدا التيار ينساب في كل يومٍ
 كالآيم، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنها هي قطع الغيم؛ وأستحالت
 الأفلاك فكلُّ برجٍ مائي، وتغيرت الألوان فكل ما في الأرض سمائي؛ وحكى ماؤه
 حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط، وزاد فأستحال نفعه فتحقق
 ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط؛ فلقد حكّت أمواجه ودوائر
 الأعكان والسرر، وغدا كل حي ميتاً من زيادته لا كما قال المعري: حياً من بني مطر؛
 وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر، وأحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت
 الأحمر؛ ولقد صعب سلوكه وكيف لا؟ وهو البحر المديد، وأصبح كل جدولٍ منه
 جعفرًا ويزيد:

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةَ شَاخِصٍ * إِلَيْهِ بَعِينٍ أَوْ مُشِيرًا بِأُصْبُعٍ!

فلكم قال الهرم للسارين ياسارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض: أنا الغريق
 فما خويف من البلل؟ وكم قال أبو الهول: لا هول إلا هول هذا البحر، وقال
 المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون: لم تنقل
 كهذه الزيادة من عهد التهروان وإلى هذا الدهر.

وكيف يسوغ لمولانا في هذه الأيام غير آرتشاف فم الخمر؟ ولم لا يغير مذهبه
 ويطبب على هذه الخلل بالسلسل والدور؟ وكيف وكيف؟! ولم لا يتخذ
 مولانا حمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف؟ وهو في المبادرة إلى علو المعالي
 وعلو المعاني، وأنتهاز الفرص في بلاغ الآمال وبلوغ الأماني:

(١) يشير إلى بيت المعري في قوله:

وإن بخلت عن الأحياء كلهم * فأسقِ الماطر حياً من بني مطر

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠).

عَجَبٌ مِنْ مَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ * وَنَوْعِ فُرْدٍ وَشَكْلِ غَرِيبٍ !

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى التَّمَادِ !

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّحَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيَبَوِيهِ وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَشَيْخِ
الْعَرُوضِيِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبِحُرًّا :

وَشَيْخِ سَيْحُونِ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلَهْ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ نَهْرِ الْأُبَلَّةِ !

أَيِّ وَاللَّهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَى : * الطَّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُسَا !

لَا تَجْبَأَ لِعَطْرِ بَعْدِ عُرُوسٍ ، أَنْتِ أَعْوَمٌ فِي بُحُورِ الشُّعْرِ مِنْ آبِنِ قَادُوسٍ ، وَأُصْلِحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ التُّدُوسِ ، وَأَثْمَهُ إِذَا هَزَلْتَ مِنْ آبِنِ حِجَّاجٍ إِلَى
النَّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا * وَحَقَّكَ مَا اسْتَحَلَّ لَهَ النَّاسُ زَائِدًا !

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ آبِنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوَجْهِ جَمِيلٍ ؛ : فَلَوْ رَأَاهُ مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرٍ بِنِجَاسِ خِلَالِ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَعْشُوقِ فَتَرَكَهَ كَالْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْآثَارِ ؛ لَبَكَّى بَعْنَى عُرُوهْ ،
وَأَوَى مِنْ الرِّصْدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صَلَدِهِ عِيُونَ التَّرِّ إِلَى رَبْوِهِ ؛ أَوْرْنَا لِرُوضِ الْحَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَامَلَتْ عَرَائِسُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينِ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّخِيلِ وَقَدْ قُتِنَتْ
مُلَاكُهَا - حِينَ فَتَكَ - بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ ثَمَرِهَا وَأَصْفَرَهُ فَأَرَانَا الْعَابَ وَالْحَشْفَ .
وَالْحَزِيرَةِ وَقَدْ قَلْتُ لَهَا : تَبًّا لِحَارِكِ النَّيْلِ إِذْ أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ . وَقُرَاهَا الْغَرْبِيَّةُ . وَقَدْ قَلَبْتُ لَهَا حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَعْتَصَمْتُ بِالْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلُّ سَفِينَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْتَقَتْ لِارْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ آخِطَلْتُ بِالسَّمَاءِ ، وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَتْرَابُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرْجِعِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّمَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقَابِي ، وَالنَّيْلُ تَبَدُّو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةٌ لِبُعْدِهَا فَكَانَهَا الْخِيَامُ بَدَى طُلُوحٌ ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بَطْغِيَانِهِ فَكَانَ مَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحٍ .

فَلَقَدْ طَارَ النَّسْرُ مَبْلُورَ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرَ الْمَجْرَةِ مِنَ السَّكَارَى بِالسَّخَاتِيَتِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَنَزَجِسَ الْبَسَاتِينَ وَقَدْ أَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ ، وَفَارَقَ أَحْبَابَهُ مِنَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرَ الْقَلَانِسِ صَدِيقٌ وَغَيْرَ الْمَاءِ حَمِيمٌ .
 وَالْوَرْدِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَالِكٌ مِنْ آسٍ ، وَغُضِنَ الْبَابُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَانَقَكَ
 وَلَا بَاسَ . وَالْأَسْمَاكِ وَقَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَالْقَلْقَاسِ وَقَدْ شَكَا شَكَاؤُ ابْنِ قَلْقَاسِ
 وَأَبْنِهِ مِنَ الْعَرَقِ . وَالْقَصَبِ بِالْحَيْرَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ النَّزِّ فَهُوَ بِنَسِّ الشَّرَابِ ، وَالْقَصَبِ
 بِبُولَاقٍ لَمْ يُنْجِ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْعَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَابَ ، وَالْفَارِسِيِّ بِالْبَسَاتِينَ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَأَرَانَا كَيْفَ تَكْسِيرِ الْأَقْصَابِ ، وَقِيلَ لِلْآسِ : عَالِجُ حَيْرَانِكَ بِالْغَيْطَانِ فَالنَّاسُ
 بِالنَّاسِ ، وَبَادَرَ إِلَى جَبْرِ مَا كَسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالِينَ إِلَى الْآسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرُّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبَائِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَعْمَرِاضِ ، وَإِنْ أَعْتَلَّتْ بِالْأَسْتِسْقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّحَّةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى الْعُيُونِ الْمِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَمْلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَعْمَرِاضِ :

وَقَائِلٌ : فِي لِحَاطِ الْغَيْدِ بَاقِيَةٌ * مِنَ السَّقَامِ وَمَا صَمَّتْ خُصُورَهُمْ ،

وفي النَّسِيمِ فَقُلْتُ : الأَمْرُ مُشْتَدِّهِ * عَلَيْكَ فَالزَّمِ فَأَنْتَ الحَادِقُ الفَهِيمُ .

قُلْتُ الصَّحِيحَ وَلِكِنِّي بِمُوجِبِهِ * أَقُولُ : تِلْكَ دَوَاةٌ بَرُوها السَّقَمُ !

قد أحاط بها النيلُ إحاطةَ المَرَاشِفِ بِاللَّيْلِ ، فَأَشْرَقَتْ ضِيَاءً بَيْنَ زُرْقَتِهِ فَكَانَها
البَدْرُ فِي كَيْدِ السَّما :

بَصَحْنِ خَدِّ لَمْ يَغِضْ مَأْوُهُ * وَلَمْ تَخْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مُتَعَطِّشٌ مَعَ هَذَا الطُّوفانِ لِرِيَّائِكَ ، مُتَشَوِّفٌ وَإِنْ كُنْتَ مُغَازِلَ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ
وَالسَّمائِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ، لِكِنِّي يُسَلِّبُنِي أَنْيَ مَا نَظَرْتُ إِلَى النَّيْلِ إِلا رَأَيْتُكَ مِنْ سائِرِ
الجِهاتِ ، وَلا لَمَحْتُ بِيُوتَ البَحْرِ بِلِ البُحُورِ إِلا رَأَيْتُكَ عِمارةَ الأبياتِ :

وَلا هَمَمْتُ بِشُرْبِ المِماءِ مِنْ عَطِيشٍ * إِلا رَأَيْتُ خَيالًا مِنْكَ فِي المِماءِ !

وَلَكِنِ لِلعِيانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * لَهُ طَلَبَ المُشاهِدَةَ الكَلِيمُ !

فَهَلُمَّ إِلَى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيِيَةِ هَذَا النَّيْلِ الَّذِي لَمْ تَرَمْتَهُ العُيُونُ ، وَالنَّظَرَ إِلَى سائِرِ المَخْلُوقاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَلكِ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطِيبُ لِلتَّامِيذِ رُؤْيِيَةَ هَذَا البَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيِيَةِ
شَيْخِهِ ، وَلا يَلِدُّ لَهُ التَّمَلُّ بِمُشاهِدَةِ هَذَا الفُلكِ ما لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَتْ بِيَدْرِهِ وَمَرَّيخِهِ ؛
فَما هَذَا الإِهْمالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يا أَدِيبُ تَسأَلُكَ بِأَيِّ الأَعْمالِ ؟ ، أبا لِكتابَةِ ؟
فَلتَكُنْ فِي هَذَا النَّيْلِ الَّذِي هُوَ كالأَطْلَحِيَّةِ بِغَيْرِ مِثالِ ، أَوْ بِالنَّثْرِ وَالنَّظْمِ ؟ ففِي هَذَا البَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ تُؤَخِّذُ الدُّرَرَ وَفِيهِ تُضْرَبُ الأَمثالُ ؛ وَلَقَدْ وَدَّ فِيهِ الفِكرُ لِلمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصادِمُ الأَكْفاءِ وَقَهْرُ المَمْلُوكِ لِللُّوكِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْمِعْ فِي مَمْلَكَةِ الإِسْلامِ ، وَلا وَرَّخَ
فِي عامٍ مِنَ الأَعْوامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيادَةِ الزائِدَةِ ، وَالجَزْريِّ عَلَى نَحْرِ العِادَةِ الَّتِي لِجَعَلِ

الله بها صلةً ولا منها عائدة ؛ وغايته ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق
بسعته المسالك ؛ وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السالك ، وأحوج مرآت إلى الاستضياء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شمل به من الفساد، وما عامل به البلاد وأهل البلاد؛ ما قاله أدباء كل
عصر، عند ما أبيع للسافر في مدّ عرضة القصر .

فن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طفق دُرّه ،
فله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمّن نبأ سطورهِ العظيمة أمر طوفان النيل التي كأنها جدأوله ،
وأنه جاد لمؤمّله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتيّ الله سائله

ومنها : ولم يزل يجرى مُستقرّ له ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوّله ؛
حتى إذا تكامل سمواً أمواجه حالاً على حال ، وتثور أقاصي الأرض من بنية المقياس
فأدناها النظرُ العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق ،
وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كل غديرٍ ما أطاق ؛ وطالما جرى بالصفاء ولكن
كدر صفاه بهذا المسعى ، والمرجو من الله أن يتلوما أفسده هذا الماء ما يُصاحه
خروج المرعى .

وما قاله القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، سقى الله تلك الأنفاظ النيّية
صوب المساطر :

ويُنهى إليه أمر النيل الذي سرفى أوائله الأنفس بأنفس بشرى ، ويقص عليه
نبأ العظيم الذي مايرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه
إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبوحها وتقرى ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفْوَرِهِ وَوَفَائِهِ ، وَأَعْنَىٰ بِهِ قَطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ مَدِّ كَافِهِ وَفَائِهِ ، وَتَزَهَّهَ عَنِ مِنَّةِ الْعِمَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهَقَةِ رَعْدِهِ وَدَفْعَةِ بُكَائِهِ ؛ فَقَدَ وَطِئَ بِإِلَادِهَا بِعَسْكَرِهِ الْعَجَّاجِ ، وَزَاحَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ؛ فَعَمِلَ فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخِنَاقِهِ وَتَخَلَّلَهَا بِبِرَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ قُلُوعِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُمْدُ قِلَاعِهِ ؛ وَزَارَ زَرَابِي الدُّورِ الْمَبْنُوتَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِيَا كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مَوْرُوثِهِ ؛ وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمُنْكَوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَقْمَارِ وَالنُّجُومِ أَشْعَتُهَا الْمَعْكَوسَةَ ؛ وَحَمَلَ عَلَىٰ بَرَكَةِ الْفِيلِ حَمْلَ الْأَسُودِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَعَلَ الْمَجْنُونَةَ مِنْ تِيَّارِهِ الْمُنْحَدِرِ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ؛ وَالْمَرْجُوحُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَاهَدْنَا ؛ فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعِبَرُ ؛ فَهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ؛ وَبُلُوغُ الْهَرَمِ ، إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَضْطَّرَمَ ؛ وَأَمِنْ كُلِّ قَرِيبٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ؛ وَفَرِحَ قُطَّانُ الْأَوْطَانِ ، إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبِرَائَتِهِ مَعَ الزِّيَادَةِ مِنْ نَقَائِصِهِ ؛ طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَفَازَ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَائِهِ الْمُعْضَفِ بِتَخْلِيْقِهِ .

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدي تغمده الله بعفوه، وجمع له بين حلاوة الكوثر وصفوه :

وأما النيل فقد أخذ الدار والسكان ، وقال ابن الخامل كما قال ابن النبيه : الأمان الأمان ، وبكى الناس عند ما رأوه مقيلاً عليهم بالطوفان ؛ وأنسابت أراقم غدرايه في الإقليم فابتلعت غدراي أراقبه ، ومحا سيله المتدفق معالمه المجهولة فاستعمل الأفلام في إثبات معالمه ؛ وأحاط بالقرى كالمحاصر فضرب بينها وبين السماء بسور ، وأخذ الطريق على السالكين فلا مركب إلا المرأكب ولا عاصم إلا البحور .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحد عمَدِ الشعر المشهورة
بالفسطاط ؛ فما أطيَّبَ مدائحَه النبوية التي جعلها سوراً بينه وبين النار، وما أعجَبَ
رثاءه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غب القطار !! :

يَانَيْلُ يَا مَلِكَ الأَنْهَارِ قَدْ شَرِبْتُ * مِنْكَ البرايا شَرَاباً طَيِّباً وَغَدَاً ،
وَقَدْ دَخَلْتُ القُرَى تَبْنِي مَنَافِعَهَا * فَعَمَّهَا بَعْدَ فَرَطِ النِّفْعِ مِنْكَ أَدَى .
فَقَالَ : يُذَكِّرُ عَنِّي أَنِّي مَلِكٌ * وَتَعْتَدِي نَاسِيًا : إِنَّ المُلُوكَ إِذَا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعنه من الآداب جوائع
نظمها ونثرها ، وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب : اختر من درها ؛ فسبحان
من يسر له ممتنع الكلام وهونه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛
فما أشفَ دقيقَ فكره الجليل ، وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات
النيل ؛ فما كان إلا مخصوصاً في الأدب بحور الهبات ، وكلامه في العُدوبة والبلاغة
يزري بالقرات وآبن القرات ؛ وإن قيل أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد ، يقال
قول ابن نباتة .

فَلَا عَجَبٌ لِلْفِظَى حِينَ يَحْلُو * فهِذَا القَطْرُ مِنْ ذَاكَ النَّبَاتِ ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه ، وأمتد نصل تياره كالسيف
الصقيل فقتل الإقليم وهذا الأحمرار إنما هو دمه :

هُرْمَتْهَا مِنْ دِمَاءِ مَا قَتَلَتْ * وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ !

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه ، ولا وهذا بل جبلاً إلا أخفاه ؛ أقبل كالأسد
المهصور إذا احتد وأضطرم ، وجاء من سن الحنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى
الهرم ؛ وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، قائلاً :

إِنْ كُنْتُ يُلَيْتُ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَفِيضُ بَأَنِ أَرْبِي مِنْ بَرُوقِ تِيَّارِي
بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ .

هذا وطلما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خير خير ثابت ويزيد كما قال
جميل، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة
الليل؛ وطلما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة، وكنازل
الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة، ومنتحاه بولاء وثناء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يعدب من البحار بنقطة؛ كم ورد إلى البلاد صيفا ومعه القرى، وتم أتى
مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى؛ فهو جواد قد خلع الرسن، ساهر
في مصالح الخلق وقد ملاً الأمن أجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه
ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن؛ كم بات سير مقياسه يشمل
بظله الغائبين والحاضرين، وتم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛
وبلغ وبلغ بجرير التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر
والسلامه؛ وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ
زهرها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد؛ وبسط يده ببركة الماء فقيل:
سلام لك من أصحاب اليمين، وخصب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب
البنان يمين؛ وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المحلقة على الماء فوفت
وما خابت فروج الأصابع؛ ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى،
وتمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرنت زرابي الدور المبتوثة بالتمارق، وقال المقياس: تغطت منها
الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق؛ فهو جم المنافع، عذب المنابع، يشار في الحقيقة
والمحجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النَّفْعِ المعهود ، وأرآنا منه الأمانَ من الطَّوْفَانِ إلى أن نَرِدَ
 الحَوْضَ المَورودَ ؛ وكَفَيْ أهلَ مِصرَ هذه المِصيبة التي إذا أصابَتْهم قالوا :
 إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلَاهُمْ بِمِثْلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
 فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ فَإِنَّمَا يَسْتَغْشَى ثِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي المَطَرِ وَيَجْعَلُ
 أَصَابِعَهُ فِي آذَانِهِ مِنْهُمْ الْمُؤَدِّونَ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعْمَةِ ، وَأُولَى بِرَحْمَةِ خَلْقِكَ مِنْ
 فَيْضِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وما قاله صاحبنا الشيخُ شهابُ الدين بن أبي حَجَلَةَ الذي كان أغْرَبَ من زَرْقَانِ
 اليمامة ، وأعجَبَ إذا رَكِبَ بَعْلَتَهُ وَزُرُورَهُ من أبي دَلَامَةَ ؛ الأديبُ الذي كان حُجَّةَ
 العَرَبِ ، والنَّائِثُ الذي كان يَنْسَبَتُهُ إلى الطُّيُورِ مُحَرِّكِ المَنَاطِقِ وإلى الشَّعْرِ صَنَاجِدَ
 الأَدبِ ، والنَّاطِمُ الذي كان إذا أنشَدَ مَقَاطِيعَهُ في التَّشْيِيبِ فَاقَ على المَوَاصِلِ ذَوَاتِ
 الطَّرَبِ ؛ والصَّديقُ الذي كانت منه عَوَائِدُ الوفاءِ مألُوفَةً ، وشَيْخُ الصُّوفِيَّةِ الذي
 لا يَعْجَبُ إذا كانت له المَقَامَاتُ الموصُوفَةُ ؛ أسكَنَهُ اللهُ فِسيحَ الحِجَانِ ، وخصَّ ذلك
 الوَجْهَ الجميلَ بالعَارِضِ الهَتَّانِ ؛ من مَقَامَتِهِ الرَّعْفَرَانِيَّةِ عن أبي الرِّياشِ :

فَاعْتَنَقْتُهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامَ ؛ فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ النَّيْلَ تَرَايَدَ
 دَفْعُهُ ، وَأَدَّى إِلَى الضَّرْرِ نَفْعُهُ ؛ فَقَالَ : خُذِ العَفْوَ ، وَلَا تُكَدِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصَّفْوَ ؛
 فَقَدْ أَمْتَرَجَ بِالمُعْصِرَاتِ مُجَاجُهُ ، وَأَعْيَى طَيِّبَ الغِيطَانِ عِلاجَهُ :

وَشَرِّقْ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرِّقِ مَشْرِقٌ * وَعَغْرَبْ حَتَّى لَيْسَ لِلغَرْبِ مَغْرِبٌ !

قُلْتُ : فما فعل النُّغَيْرِ ، بِجَزِيرَةِ الطَّيْرِ ؛ قال : لم يبقَ بها هاتِفٌ يُبَشِّرُ بالصَّبَاحِ ،
 وَلَا سَاحِجٌ يَسْعَى بِرِجْلِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِ ؛ إِلَّا اتَّخَذَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّمَاءِ ،
 أَوْ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُهُ مِنَ المَاءِ ؛ فَادَّاقَ بِهَا الحَمَامَ الحَمَامَ فِي المَرْوَجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

كسَاءَ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَقَعَ ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَاغِ :

وَمَنْ مَلَّ فِيهِ الْغُرَابُ مَيْتٌ * سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْتَقَيْتُ !

قُلْتُ : فِمِصْرٍ ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَعْسُكَرِهِ الْجَرَّارُ ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .

قُلْتُ : فَالْحَيِزَةُ ؟ قَالَ : طَفَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ أَخْضَارِ زَيْتِهِ شَاحِبَ الْإِهَابِ ، تَأَصَّلَ الْخِضَابُ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مَنْبَاطِهَا مِنَ الْمُقْطَعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّلَاحَ كَالصَّالِحِ يَمْسِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ؛ وَأَذْرَكَهُمُ الْغَرَقُ فَأَيْسُوا مِنَ الْخَلَّاصِ ، وَعَشِيَهُمْ مِنَ الِيمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَا تَ حِينَ مَنَاصٍ ؛ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قَوَاهِمَ ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالرُّوْضَةُ ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَيْمِ بِزَهْرِهِ ، وَالكَأْسُ بِجُبَابِ نَحْرِهِ :

فَكَانَهَا فِيهِ بِسَاطٌ أَخْضَرُ * وَكَأَنَّهُ فِيهَا طِرَارٌ مُذْهَبٌ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعٌ أَصَابِعُهُ يَدَانِ ، وَكَمْ أَنْشَدَ مَرَّجُهَا حِينَ مَرَّجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :

أَعْيَنِي كُفًّا عَنِ فُرُودِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَغِيِّ سَعَى أَشْيَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَدَارُ النُّحَاسِ ؟ قَالَ : انْحَسَّ حَالُهَا ، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ حَمَامِهَا الطُّهْرُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الطُّهْرِ ؛ فَالْحَقَّ بِجَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقِيَ مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ ؛ كَمْ أَغْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غُرْفًا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ الْأَحْمَرَ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلْفَا .

قلت : فالخليج الحاربي ؟ قال : خرج عسكر موجه بعهد الكسر على حمية ،
ومرقة من قسي قناطره مروق السهم من الرمي .

قلت : فالمنشأة ؟ قال : أصبحت للبحر مفره ، بعد أن كانت للعيون قره ، وقيل
لمنشأها : أتى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، قَدْ مَالَ
عَلَى مَا فِيهَا مِنْ شُونَ الْغَلَالِ كُلِّ الْمَيْلِ ، وَتَرَكَهَا تَتَلَوِّبُفِمَهَا الَّذِي شَفَقْتَاهِ مِصْرَاعَا
بَابِهَا : (يَا بَابَانَا مَنَعَ مَنَا الْكَيْلَ) .

قلت : بغزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مغايبها فلم يدع
شيئا من رديها وخيارها ؛ أخلق دياجحة روضها الأنف ، وترك قلفاسها في الجروف
على شفا جرف :

بعيني رأيت الماء يوماً وقد جرى * على رأسه من شاهق فتكسرا !

طلما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء
على قلبه ؛ وتمثل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى * فقل : قاسى ، وقل : قاسى ، وقل : قاسى !!!

لم يفده تحضنه من ورقه بالدرق والستائر ، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه
فضح أن الماء سلطان جائر .

قلت : فحكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ؛ قد أنحل
من دوره نماثلها ، وجعل غاليها سافلها ؛ فكم دار أعدم صاحبها قراره ، ونادى
في عرساتها المتداعية : إياك أعني فاستمعي يا جاره ؛ فأصبحت بعد نفعها قليسة
الجداء ، مستولية عليها يد الردى ، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أصحكت في يومها
أبكت غدا .

قلت : فبولاق ؟ قال : إِملاق ، قد أَلتقتُ بها من الرِّقِّ السَّاقِ بالسَّاقِ ، فأَتى
من الثَّوتية على الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ومن المَرَاكِبِ ومَرَّهَا على النِّقيرِ والقَطْمِيرِ .
هذا بعد أن تَرَكَ جَامِعَ الخَطِيرِيَّ على خَطَرٍ ، وحيطَانَهُ يَابِعةُ الثَّرْبِ ؛ قد دَنَا قِطَانُهَا ،
وَحَانَ تِلَافُهَا ؛ فكأَنِّي به وقد مَنَعَ رِفْدَهُ ، وتَلَا على مَجْرَاهِ سُورَةَ السَّجْدَةِ .
قلت : بغزيرة الفيل ؟ قال : آقتلع أشجارها بِشُرُوشِهَا ، وتَرَكَ سَوَاقِيهَا خَاوِيَةً
على عُرُوشِهَا .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هَجَمَ على حُرْمِهَا ، وعمَّ الوجوه من فَرَقِهَا
إلى قَدَمِهَا ؛ فَبَلَّ ثَرَى المَوْتَى في التَّخُومِ ، وَعَنَتِ الوجوهُ لَمَعَى القِيُومِ ؛ قلت : فما
الحيلة ؟ ، قال : تَرَكَ الحِيلَةَ :

دَعَا سَمَاوِيَةً تَجْرِي على قَدَرٍ * لَا تُفْسِدُنَا بِرَأْيِ مَنكَ رَاضِي (؟)

طَالَ الكِتَابُ ، وَخَرَجْنَا عَنِ فَضْلِ الخَطَابِ :

وَلَرُبَّمَا سَاقَ المُحَدِّثُ بَعْضَ مَا * لَيْسَ النَّدَى إِلَيْهِ بِالمُحْتَاجِ !

وكأَنِّي بِقَائِلٍ يَقُولُ : أليس من الكِبْرَانِ يَسْتَعْدِمُ هذا في رسالته مُلُوكَ الكلامِ ،
ومن المُحِقِّ أن يَحْلِيَ عَرَائِسَ أَفكارِهِ بما للناسِ من حَلِي النَّثَارِ والنِّظَامِ ؛ فأقولُ :
مُسَلِّمٌ أَنَّ كُلَّ مَا أوردته دُررٌ وجَوَاهِرٌ ، وعُقُودٌ كَرِهَرٌ الرِّبِيعِ عِيونٌ وجُوهِهَا النُّواضِرُ
نَوَاطِرٌ ؛ وَلَكِنَّهَا هَاهُنَا أمثلٌ ، وَجَمَعَ شَمَلِهَا على هَدْيِ العُرُوسِ أَجْمَلِ :

* وَفِي عُنُقِ الحَسَنَاءِ يُسْتَحْسِنُ العِقْدُ ! *

وعلى الجُمْلَةِ فيرجع المملوك إلى التَّواضِعِ وهو الأَلْبِقُ بالأدبِ ، فيقول : لا عَيْبَ
على الفقيرة إِذَا تَجَمَّلَتْ بِحُلِيِّ الغَنِيِّهِ ، ولا عَارَ على الجَوْهَرِيَّ إِذَا نَظَّمَ سِلْكَهَا كَانَتْ
دُرَّرَهُ على الطَّرِيقِ مَرْمِيَةً ؛ وَتَرَجِعُ إلى ما وَلَدَهُ الفِكرُ من عَجَبِ البَحْرِ ، وما ظَهَرَ من دَفْعِ

الملوك لأمثالها عن جرحيها إلى غاياتها بصور القمر، فأقول : إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض ؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع ، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وجمّل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض مخبره ؛ السرى الذي أهتاه بالمعروف معروف ، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجنافها السيوف ؛ أتاك العساكر، والمملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالחסور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور ؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل ، وردّ دفعه بكلّ دفع من الرأي والتدبير يُغني عن البيض والأسل ؛ وحاربه بجيش عزيم إلى أن ولّى هاربا مع التراع والقناطر، وجاهدته بجند زكهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تُحصر البرك والتراع، وغلّ يده عن التصرف فسفاه الموت كما سقى الناس أنواع التراع ؛ فما هو إلا أن تضاءل بينان سطواته وأحترق ، ودلّ خاضعا وكفى به تضرعا بالأصابع وتوسلا بالملق، وأطاع لما لم تُجّه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق .

على أنه تطاول ليضاهي بأصابعه جود أيديه فقصر، وتحسّر فركب خيل خيلائه ليحاكي بأسه فوقع من جسور محبه وتقطر، وسمت نفسه كبيرا لأن يبلغ قدره فقيل : يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر ؛ نعم :

رأى البحر الخضم نداء طام * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملتظا وأضحى * على الحالين ليس له قرار!

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر بالأذ نفسه على مصالح
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهدك ؛ وكنت
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آتعلوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها
أذله ؛ لكن هب قبولك إذارا ، ولاقت ريتك إعصارا ؛ فليس لك به قبل ،
«والسبيل أدرى بالجل ،» ؛ فمالك سبيل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عياده ؛
فانه خادم الحرمين ، والمدعوه حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل
والشعور ، والمخدوم بأيدى السحائب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر
فلمست بمنصور ؛ والرأي أن تقف مستغفرا ، وتقول مُتندرا ؛ : لم أفرط بالزيادة
في أيامه ، ولم أفرض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار جواد خيله ومواطي
أقدامه ؛ وتتبع نواهيته وتمتثل أوامره ، وتدعوه كالأيا بطول البقاء في الدنيا
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نوثك عن قريب راجع ؛
وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لا يئوحنا في نقصك إلى الاستسقاء ، إنه سميع
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قدمات البندق)

جمع قِدْمَةٍ بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رَسَائِلُ تُسْتَمَلُ عَلَى حَالِ الرَّبِّيِّ بِالْبُنْدُقِ، وَأَحْوَالِ الرُّمَاءِ، وَأَسْمَاءِ طَيْرِ الْوَأَجِبِ، وَأَصْطِلَاحِ الرُّمَاءِ وَشُرُوطِهِمْ. وهذه نسخة قِدْمَةٌ، كَتَبَ بِهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَنْفِيُّ الْأَدِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ، لِصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْمُقْتَرِ الْحَمِّيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ، وَنَصَّهَا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَدَّدَ لِصَلَاحِ الدِّينِ سِهَامِ الْوَأَجِبِ، وَشَيْدِ بَجَاجِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّلَبِ، وَجَعَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّعْيِ فِي الْمَنَآكِبِ، وَسَهَّلَ الْمُتَمَتِّعَ عَلَى الْقَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَابِتٌ .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ولا ولدَ ولا صاحبَ ، شهادةً تزجرُ طَيْرَ الْإِشْرَاقِ بِهَذِهِ الْأَشْرَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ؛ وَهَذِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَقَّوْا فِي الْعِلْيَاءِ لِمَرَاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ ، صَلَاةً يُسَبِّقُ بِهَا الْمُصَلِّئُ إِلَى بَقَاعِ شَرَفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالسُّرُورِ وَلَا رُجُوعَ الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وبعدُ ، فَإِنَّ الصَّيْدَ مِنْ أَحَلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا ، وَأَجْلَاهَا وَأَجْلَاهَا ، وَأَبْهَرَهَا وَأَبْهَاهَا ، وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَاهَا ؛ وَاخْتَرَهَا قِيمَةً ، وَأَغْزَرَهَا دِيمَةً ؛ بِوُرُودِ الطَّيْرِ فِيهِ إِلَى الْمَنَاهِلِ تَنْشِيرِ الصَّدُورِ ، وَبُوقُوعِهِ فِي سُرُورِ الشَّرْكِ يَتِمُّ السُّرُورُ ؛ يُحْصَلُ عِنْدَ مُتَعَاطِيهِ نَشَاطًا ، وَيَزِيدُهُ أَنْبَسَاطًا ؛ وَيُشْرِحُ خَاطِرَهُ ، وَيُسْرِحُ نَاطِرَهُ ؛ وَيَمَلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً ،

وَقَلْبَهُ مَسْرَهُ؛ يُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُثَبِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُومَ، وَيُسَوِّى الخَطُومَ؛
وَيُسَوِّقُ الظَّفَرَ، وَيُسَوِّقُ النَّظَرَ، وَيُرْوِقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَيَفُوقُ فِيهِ الخُبْرَ عَلَى
الخُبْرِ. قَالَ بَعْضُ الحِكَمَاءِ: قَلَمًا يَغْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمُنُ مُرْبِعُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الحِرْكََةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى البَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْفَهُ بِنُضْرَتِهَا،
وَأَنَبَقَ مَنَظَرَهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالقَنَصِ عَلَى الإِطْرَادِ؟ وَنَهَ دَرَّ القَائِلِ:

لَوْلَا طَرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكْ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدِي لِي بِالوِصَالِ قَلِيلًا.

هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الحَيَاةِ وَمَا لَهُ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!

يَا حُسْنَهُ مَنْ فَعَلَ أَعْتَلَّتْ بِالنِّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلَهُ فِي اللَّدَادَةِ

أَوَاخِرُهُ؛ وَنَهَ القَائِلِ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هَمَّةٌ وَنَشَاطٌ * يُعْقِبُ الجِسْمَ صِحَّةً وَصَلَاحًا،

وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَى إِصَابَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْيَبَ الاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعَ الوِصْلِ بَعْدَ الصَّدُودِ:

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الحُبِّ أَنْ مَنَعْتِ. * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مَنَعْنَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتِ النُّفُوسِ السَّامِيَةَ بِعَاطَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ

الْفُتُوهِ، وَكَيْلِ المُرُوءِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الجَنَانِ؛ وَطِيبِ الأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ

المِثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى المَلَقِ، وَلَا يَبْغُونَ بِصَاحِبِهِمْ

بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِوَمَا تَعَاطَى صَيْدُ طُيُورِ الوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ

الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفْتَ بِهِ هِمْمُهُمُ العَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،

وَأَوْتَةً إِلَى مَشَارِعِ المَاءِ.

لا يَتَمُّ سرورهم إلا برؤية تم كبدِ السماء، ومصباح الظلام؛ يفر من ظله فرارا،
ويريك بياض لونه وسواد منقاره شيئا ووقارا؛ ولا يداوي هموم لغيم مثل كئي،
لأجنحته الخوافي في الخافقين نشر وطى؛ ولا تبتهج نفوسهم النفيسة إلا بإوزة،
يزدري دلالها بالكعب المعتزة؛ ولا يطرب أسمعهم غير لغات اللغلة، حين تمتد
كانها مدامة في الرجاجة مفرغه؛ ولا يؤنسهم إلا الأنيسة الأنيسه، والذرة النفيسة؛
ولا يذهب حرهم غير الحبرج الصادح، المستوقف بحسنه كل غاد ورائح؛ تكاد
قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النسر الطائر، وتجر خواطيرهم بكسر ذلك الكاسر؛
إذا عينوا عقباناً أعقبهم الفرح، ونزع عنهم الترح؛ وإن كركر كئي فر عنهم البوس،
ورأوا على رأسه ذلك التاج الذي لم يعل منله على الرؤوس؛ وإن عرض غرنوق
غير قوا في بحار أفكارهم، وجدوا إلى أن يقع يجداول أوتارهم؛ وإن لاح ضوع
كالذهب المصوغ، ألقوه في الحبال وهو بدمه مصبوغ؛ وإن مر مرزم كالخودة
الحسنة، ضربوا له الآلة الحذباء؛ وإن مر السبيطر أجنحته كالسحاب، جاءت
المرامي من كل جانب؛ وإن عن عز عمدا إليه، حتى يسقط في يديه؛ قد تعالوا
في رتبها، وتغالوا في وصف وشيها.

وجعلوا كل آلة صنيعة، وربة جمال منيعه، وبعيدة الرمي بديعه :-

من كل قوس هي في العين كالحاجب، أو النون التي أجادها الكاتب؛ تدور
الطائر عند الرمي وتدييه، وتئن آيئاً أولى به من نصيبه. وبندي جيلت طينته
على صوب الصواب، يستنزل الطير ولو استتر بذيل السحاب؛ كأنه النجم الثاقب،
والشهاب الصائب؛ يرى الطير كالسحاب الواكف، فينقض عليه انقضا البرق
الخاطف؛ ويرجع النسر من حنقه راتعا، ويقدو بعد أن كان طائرا واقعا؛ ويصير
بعد أن كان كاسرا مكسورا، وفي سوار القسي مأسورا؛ فهناك يلتقي الغالب

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذٍ تنشرح النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ تعاطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرناضت به النفوس الطاهرة ، وأعتاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكميل الأدوات ، وسامت به فعل الواجب وإن قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، وأعب لم يكن شيء أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجناب الكريم ، العالى ، الصلاحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبين ؛ سليل الوزراء ، ونجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العطاء ؛ ابن المقر المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرى نفسه الكريمة بذلك ، ويتحيل على تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

* تنقل فلذات الحموى فى التنقل ! *

وعمد إلى تحصيل آلاته ، سائراً كالبدنر فى هالاته ؛ فسار مع سرايا كالجُوم ، يتفك كهون فى الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخبطون جد القول بهزله ، كلما خبط لهم طل الجود بوبله ؛ وأتحدرُوا فى النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية ولم يقنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلُّوا يسرون فى تلك المراكب ، التى كأنها قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويشرفون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى البرمتجرين ، وبطيب ذلك النسيم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَنَشِيرٌ * فَأَذَكَّهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَاقَى * لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْقُضْنِ الرَّاهِي قَدَا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الرَّاهِرِ حَدَا ، وَيَتَأْمَلُونَ
ضَحْكَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةَ الْقُضْبِ عِنْدَ حَرِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَذُوقُ أَجْفَانَهُمْ
طَعْمَ الْكَرْبِيِّ ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرِي ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَائِئًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَائِئًا ؛ بَيْنَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَهُمْ طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ وَالتَّقُوا مُحَلِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَهْمُونَ الْعَيْشَ ، بِالذِّعَةِ
وَالطَّيْشِ ؛ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارِكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِعِمَاتَةَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِيُّ عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،
بِالْبِنَادِقِ الْحِدَادِ ؛ فَتَبَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَدَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّغُورَ ؛ وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ نُزُولَ الرَّيْسِ ، فَجَادَتْ لَهُ بِالنَّفِيسِ ؛ وَخَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَسَمَحَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزِّ نَجْرِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسْمِ ، وَتَرَجَّحَى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبَ لَهُ فِي الْقِدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَأَصَابَ مِرْزَمًا ؛ فَيَالَهُ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكْبَارِ الصَّيْدِ !
وَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَنْجُرُ الطَّيْرَ يَوْمَ الْعِيدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَجِبِ مَاشِرَعِهِ الرَّمَاتَةَ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مَسْتَدًّا الْأَعْرَاضَ ، وَجَوْهَرُهُ
نَحْيًا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَجْرَى بِمِرَادِهِ الْمَقْدُورِ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظَّمْتُ مُحَمَّسًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاوَجِبِ ، وَطَرَّزْتُهُ بِاسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِدْمَةَ قَدْ قَدِّمْتُ لَهُ وَجَعَلْتُ بِرِسْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَدْتُ عَنْهَا ، الْعَدَمَ مَادَّةَ عِنْدِي
أَسْمَدُ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تُطْعَمُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِي،
وَأَشْرَبَ هَنِينًا وَأَسْفِنِي بِاصْبَاحِ، * وَأَذْكَرَ زَمَانًا مَرًّا بِالْأَفْرَاحِ،
* هَبَّتْ بِهِ فِيمَا مَضَى رِيَاحِي ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أَحْبَبُ الْأَكَابِرَا، * وَأَغْتَدِي مَعَ الرَّمَاةِ سَائِرَا،
وَلَا أَزَالُ بِالغَيْسَارِ غَائِرَا، * إِذَا رَأَيْتُ فِي المِيَاهِ طَائِرَا،
* نَحْوَتُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ! *

فِتَارَةٌ كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، * وَبَعْدَهُ الْعُقَابُ يَحْكِي الْجَمْرَا
وَالكِيَّ وَالكُرْكِيَّ صِدْتُ جَهْرَا * وَصِدْتُ غِرْنَ نَوْقًا وَعَتْرًا قَهْرَا
* وَكُنْتُ بِالْإِوَزِّ فِي أَنْسِرَاحِ ! *

وَتَارَةٌ تَمَّا كَبَدْرِ التَّمِّ * تَتَّبِعُهُ أَيْسَةً كَالنَّجْمِ،
وَلَغْلَغُ أَسْوَدُ مِسْكَ الهَمِّ، * وَجَبْرَجٌ عَنِ الرَّمَاةِ مَحْمِي،
* وَالضُّوْعُ مَعَ سَبِيطِرِ سِيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِدْتُ يَوْمًا مَرَزَمًا * أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ،
جَنَاحُهُ يَحْكِي طِرَازًا مُعَلَّمَا * عَلَيَّ بِيَاضُ شَيْءٍ شَبِهَ الدَّمَاءِ،
* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيَّ صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقُبُولِ، * وَشَمَلْنَا يَجْمَعُ بِالشَّمُولِ،
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، * وَجَاءَنَا التَّوْقِيعُ فِي الوُضُولِ :
* فَسَادٌ كَمْ يَغْفِرُ بِالصَّلَاحِ ! *

السَّيِّدِ الْفَائِئِي فِي أَفْعَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ النَّائِبِ بِمَالِهِ ، * لَا أَحَدٌ يَحْكِيهِ فِي نَوَالِهِ :

* إِلَّا أَحُوهُ مَعْدِنُ السَّمَاكِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَّابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمَلِكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، * الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلَا حِسَابِ !
(١٦)

زاده الله نعمًا، وأجرى له في الندى يدا وثبت له في العلى قدما؛ بمنه وكرمه .



وهذه نسخة رسالة في صيد البندق ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي التَّاء
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عَمُوَّةٍ وَاجِبَا ، وَسَعَدَهُ
كَوَصْفِ عَيْدِهِ لِسَارِ جَالِيَا ، وَلِلضَّارِّ حَاجِبَا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوَّنِيهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ؛ وَتَحَضَّنِيهَا عَلَى أَخْذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحَمَّنِيهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ؛ وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا
فِي الْجِدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّعِبِ ، وَتَضْرِفُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّعَبُ . فَتَارَةً تَحْمِلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكِرِيِّ ؛ وَمُهَاجِرَةَ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِمَةَ الْأَخْطَارِ ؛ وَمُكَابِدَةَ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادِرَةَ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يُدْمُ الْمُعْرِضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَيْلِهِمْ جِدَّةَ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةٌ لِعَيْبٍ يُجْرَجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونِهِمْ

(١) سقطت الشطرة الخامسة من قلم الناسخ .

على ملازمة الصّدق ومجانبة الملقّ؛ فيعتسّفون إليها الدّجى، إذا سَجى؛ ويقتحّمون في بلوغها حرق النّهار، إذا أنهار؛ ويتنعمون بوعتاء السّفرة، في بلوغ الظّفرة؛ ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السّهر على النّوم، والليلة على اليوم؛ والبندق على السّمّام، والوحدة على الألتئام .

ولمّا عدنا من الصّيد الذى اتّصل به حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه؛ تقنا إلى أن تشفع صيد السوانح، برمي الصّوادح؛ وأن نفعل في الطير الجوانح، بأهله القسيّ . ما نفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الأرتحال، على الإقامة في الرّحال؛ وأخذاً بقولهم :

لا يصلحُ النَّفسَ إذ كانت مُدبّرةً * إلّا التَّنقلُ من حالٍ إلى حالٍ !

فبرزنا ونشمس الأصيل تجود بنفسها، ونسير من الأفق الغربى إلى موضع رمسها؛ وتغازل عيون النور بمقلة أرمداً، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود؛ فكانها كئيب أخشى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بقايا مدة الرّمق؛ وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهمّ الرّوض بخلج حنّته الموهبة بذهب شعاعها :

والطلّ في أعين النّوار تحسبه * دمعاً تحير لم يرقاً ولم يكف :

كلؤلؤ ظلّ عطف الغصن متشعاً * بعقده وتبدى منه في شيف .

يضمّ من سندس الأوزاق في صرير * خضير ويحني من الأزهار في صدف !

والشمس في طفّل الإمساء تنظر من * طرف غدا وهو من خوف الفراق خفي :

كعاشق سار عن أحبابه وهفاً * به الهوى فترا أهّم على شرف .

إلى أن نضى المغرب عن الأفق حلى قلائدها، وعوضه عنها من النجوم بجددتها وولائدها؛ فلئنا بعد أداء الفرض لبث الألهة، ومنعنا جفوننا أن ترد النّوم

إِلَّا تَحِلَّهُ ؛ وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوشَعٌ ، وَعِقْدُهُ مُرْصَعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ مُجُوهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعْتَبَرٌ ؛ وَبَدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبِحُفْرِهِ فِي حَشَا مَطَالِعِهِ مُسْتَجِنٌ ؛ كَأَن
أَمْتَرَجَ لَوْنُهُ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مِسْكِيًا وَصَنْدَلًا ، وَكَأَنَّ ثُرْيَاهُ لِأَمْتَدَادِهِ مُعَلَّقَةٌ
بِأَمْرَاسٍ كَأَنَّ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ نَجْمُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَأَنَّهَا * عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الرَّيْحِ تُنْظَمُ ،

مُحَقَّقَةٌ فِي الْجَوِّ تُحْسَبُ أَنَّهَا * [طُيُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ حَوْمٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصَّبِيحِ وَلَّتْ يَوْمَهَا * إِلَى الْغَرْبِ خَوْفًا مِنْهُ نَسْرٌ وَمِرْزَمٌ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَقَّةً ، وَجَدَاوِلَ مُحْتَفَّةً ؛ إِذَا نَحَمَسَ النَّسِيمُ غُصُونَهَا اعْتَنَقَتْ اعْتِنَاقَ
الْأُحْبَابِ ، وَإِذَا فَرَكَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْسِيَابَ الْحُبَابِ ،
وَرَقِصَتْ فِي الْمَنَاهِلِ رَقِصَ الْحَبَابِ ؛ وَإِن لَّمْ تُغَوِّرْ نُورَهَا حَيَّتْهُ بِأَنْفَاسِ الْمَشُوقِ ،
وَإِن أَبْقَظَ نَوَاعِيسَ وَرُقْفَاهُ غَتَّتْهُ بِالْحُلَانِ الْمَشُوقِ ؛ فَتَسِيمُهَا وَإِن ، وَشِيمُهَا لِعَرَفِ الْجَنَانِ
عُنُونٌ ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرٍ تَرْجِسُهَا غَيْرَانٌ :

وَطَلُّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبَعَثٌ * طَوْرًا وَفِي طُرْرِ الرَّيْحَانِ حَيْرَانٌ !

وَطَائِرُهَا غَرِيدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطْرِدٌ ؛ وَغُصْنُهَا تَارَةٌ يَعْطِفُهَا النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةٌ
يُعَلِّلُ تَحْتِ وَرَقَاتِهِ فَيُحْسِبُ أَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى الْإِفِّ ؛ مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مِنْ تَوَافُقِ
الْمَحَاسِنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ صَحَّ الْأَرْجُ وَكَلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبُ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا نَتَتْ * أَعْطَفَاهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا أَفْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتَعْطَافِهَا * صَلَحَ وَمِنْ سَمْعِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَائِسًا * شَرِبَتْ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّ وَعَدْبُ نَطَافِهَا * رَاحَ وَأَضْوَاءُ النُّجُومِ حُسْبُ !

يَحِيطُ بِمَلَقِي نِطَاقِهَا صَافٍ، وَظِلَالِ دَوْحِهَا ضَافٍ، وَحَصَاهَا لَصَفَاءِ مَائِهَا فِي نَفْسِ
الْأَمْرِ رَاكِدٌ وَفِي رَأْيِ الْعَيْنِ طَافٌ؛ إِذَا دَغْدَغَهَا النَّسِيمُ حَسِبْتَ مَاءَهَا بِتَمَائِلِ الظَّلَالِ
فِيهِ يَتَّبِعُ وَيَمِيلُ، وَإِذَا أَطْرَدَتْ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا ظَنَنْتَ أَفْيَاءَ تِلْكَ الْعُصُونِ تَارَةً
تَمُوجُ وَتَارَةً تَسِيلُ :

فَكَأَنَّهُ مَحَبُّ هَامٍ بِالْعُصُونِ هَوَى فَمَثَلَهَا فِي قَلْبِهِ، وَكَأَنَّ النَّسِيمَ كَلَّفَ بِهَا غَارَ مَنْ
دُونَهَا إِلَيْهِ فَمِيلُهَا عَنْ قُرْبِهِ :

وَالنَّوْرُ مِثْلُ عَرَائِسٍ * لُفَّتْ عَلَيْهِنَّ الْمَسَاءُ،

شَمْرَنْ فَضْلُ الْأَزْرِ عَنْ * سُوقٍ خَلَاخِلُنَّ مَاءً،

وَالنَّهْرُ كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ وَجْهَهَا فِيهِ السَّمَاءُ !!!

وَكَأَنَّ صَوَافَ الطُّيُورِ الْمُتَسِقَةَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ خِيَامٍ، أَوْ ظُبَاءً بِأَعْلَى الرَّقَّتَيْنِ قِيَامٍ،
أَوْ أَبَارِيْقُ فِضَّةٍ رُؤُوسَهَا لَهَا أَقْدَامٌ، وَمَنَاقِيرُهَا الْمُحْمَرَّةُ أَوَائِلُ مَا أَنْسَكَبَ مِنَ الْمُدَامِ؛
وَكَأَنَّ رِقَابَهَا رِمَاحٌ أُسْتَبَّتْهَا مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ شُمُوعٌ أَسْوَدُ رُؤُوسِهَا مَا أَنْطَفَى وَأَحْمَرُهُ
مَا أَلْتَبَّ، وَكَمَا كَالطَّيْرِ الْجَلِيلِ عَدَّهُ، وَكَطِرَازِ الْعُمَرِ الْأَوَّلِ جِدَّهُ :

مِنْ كُلِّ أَلْبَجٍ كَالنَّسِيمِ لَطَافَةً * عَفَّ الضَّمِيرُ مُهَدَّبِ الْأَخْلَاقِ،

مِثْلُ البُدُورِ مَلَاةً، وَكَعْمَرِهَا * عَدَدًا، وَمِثْلُ الشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ!

وَمَعَهُمْ قِسِيٌّ كَالْعُصُونِ فِي لَطَاقِهَا وَلِينِهَا، وَالْأَهْلَةَ فِي نَحَاقِهَا وَتَكْوِينِهَا، وَالْأَزَاهِرَ
فِي تَرَاقِهَا وَتَلْوِينِهَا؛ بَطُونُهَا مُدْبِجَةٌ، وَمُتُونُهَا مُدْرَجَةٌ؛ كَأَنَّهَا كَوَاكِبُ الشُّوْلَةِ فِي أَنْعَاطِهَا،
أَوْ أُرُوقُ الظُّبَاءِ فِي أَلْتِفَافِهَا؛ لِأَوْتَارِهَا عِنْدَ الْقَوَادِمِ أَوْتَارٌ، وَلِبَنَادِقِهَا الْحَوَاصِلُ
أَوْ كَارٍ؛ إِذَا أُنْتَضِيَتْ لَصِيدٌ ذَهَبَ مِنَ الْحَيَاةِ نَصِيْبُهُ، وَإِنْ أُنْتَضَتْ الرَّمِيٌّ بَدَأَ لَهَا
أَنَّهَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ يُصِيبُهُ؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ زَجْرٌ لِبِنْدِقِهَا أَنْ يُنْطِئَ فِي سَمِيرِهِ،

أَوْ يَخْطَى الْغَرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَازِ كَبِيدِهَا ، أَوْ أَسْفُ عَلَى
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَابِ أَدْنَابًا مُعَقَّدَةً * لِمَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَ !

إِنْ مَدَّهَا قَمْرٌ مِنْهُمْ وَعَيْنَهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفْرًا ،

فَهُوَ الْمُسَيِّءُ أَخْتِيَارًا إِذْ نَوَى سَفْرًا * وَقَدْرَأَى طَالِعًا فِي الْعَقْرِ الْقَمْرَ !

وَمِنَ الْبِنَادِقِ كُرَاتٌ مِتْفَقَةٌ السَّرْدُ ، مُتَّحِدَةٌ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ، كَأَنَّهَا تُحِرِّطُ مِنْ
الْمُنْدَلِ الرُّطْبِ أَوْ تُحِجَّتْ مِنَ الْعَنْبَرِ الْوَرْدُ ؛ تَسْرَى كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرْنَ فِي أَفْقٍ * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُؤْنِبُ رَأً .

مَا فَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِقَتْ * إِلَّا تَبَاتُ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،

تَسْرَى وَلَا يَتَسَعَّرُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ بِهَا * كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،

وَتَسْمَعُ الطَّيْرَ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ * خَوَافِقًا فِي الدِّيَاجِي وَهِيَ صَمَاءُ !! !

يَصُونُهَا جِرَاوَةٌ كَأَنَّهَا دُرُجٌ دُرْرٌ ، أَوْ دُرُجٌ غُرْرٌ ، أَوْ كِمَامَةٌ ثَمْرٌ ؛ أَوْ كِنَانَةٌ نَبَلٌ ،
أَوْ عَمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّهَا رُقِمَتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيمُ :

كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَنْبَثُ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجَمُ ،

أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا * مُلُونًا وَأَنْبَثَتْ تَسْجِمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهُ مَرْكُورًا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدَا مُنْجِرًا ، وَصَمَنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَزًا :

كَأَنَّهُمْ فِي يَمِينِ أفعالِهِمْ * فِي نَظَرِ الْمُتَنَصِّفِ وَالْجَاهِدِ:

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعِ وَاحِدٍ، * وَأَشْرَفُوا مِنْ مَطْلَعِ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عِصَابَهُ، أَطَلَّتْنَا مِنْ أَجْحَتِهَا سَحَابَهُ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَفْلَحَ
يَرْتَادُ مَرْتَعًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَعًا، وَأَسْفَ يَبْتَنِي مَاءً جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَّ مُنْقَعًا،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْنِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ سُجْدًا لِمَحَارِبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْعًا؛ فَتَبَرَّكْنَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكْنَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوْلَانَا تَمَامَ بَدْرِهِ، وَعَظُمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٌ فِي غَسَقٍ،
أَوْ صُبْحٌ عَطَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقُ؛ تَحْسَبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمُنَى غُرَّةً مُنْجِحًا،
وَتَحَالُهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُورَةً صُبْحًا؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَهُوَ كَدُهْنٍ عَنَبِيرٍ
فَوْقَ مِثْقَالٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ، وَالنِّفَاةُ رِيمٌ، وَسُرَى غَيْمٍ يَصْرِفُهُ نَسِيمٌ :

كَلَوْنِ الْمَشِيبِ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ، * وَوَقْتِ الْوِصَالِ، وَيَوْمِ الظَّفَرِ!

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِنْقَارُهُ ثُمَّ فَتَرَ!

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ تَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حِجَابًا؛ فَاسْتَبْشَرَ بِجَنَاحِهِ،
وَكَبَّرَ عِنْدَ صِيَابِحِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِجَنَاحِهِ .

وَتَلَاهُ كَيْ نَفَى اللَّبَاسَ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَائِنِ شَيْبِهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ
أَنَاسٍ؛ إِنْ أَسْفَ فِي طَيْرَانِهِ فَنَمَامٌ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلْعٌ لَهُ بَيْدِ النَّسِيمِ زَمَامٌ؛
ذَوْعِيَّةٌ كَالْحِرَابِ، وَمِنْقَارٌ كَالْحِرَابِ، وَلَوْنٌ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيُخَدَعُ فِي الضَّحَى
كَالسَّرَابِ؛ ظَاهِرُ الْهَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمِ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْغَدِيرِ حَسِبْتَهُ * مَبِيضُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءِ،

أَوْ طَارَ فِي أُنْفُسِ السَّمَاءِ ظَنَنْتَهُ * فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءِ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ الْجُهَالِ نَحْتِ رِزَانَةِ الْعُلَمَاءِ!

فَنَنَى النَّائِي إِلَى عِنَانِ بِنْدِقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَفْزُ كَارِدٍ أَنْقَضَ
عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرَ بِالتَّكْبِيرِ ، وَأَخْتَطَفَهُ قَبْلَ مَصَافِحَةِ الْمَاءِ مِنْ
وَجْهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْرَزَةُ حَلْبَاءِ دَكَّاءٍ ، وَحَمَّتْهَا حَسَنَاءُ ؛ لَهَا فِي الْفَضَاءِ مَجَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ
ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَّاتِ الْجِمَالِ ؛ كَأَمَّا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاضَتْ فِي لَمَبٍ ؛
تَخْنَأُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ ، وَتَنَائِي فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعَطَّفُ بِجِيدِهَا كَالظُّبِي
الْغَرِيرِ ، وَتَتَدَفَّعُ فِي سَيْرِهَا مِثْلَ الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي نَخْطَرَةَ صَكَاعِبٍ * رَدَّاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي * خَفَا ذِي الْخَوَافِي أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .
فَأَنْعَمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِرٍ ، * وَأَحْسِنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ ثُمُفَةُ قَادِمٍ !
فَلَوَى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَطَّفَ بِوَجْهِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْقُعِهَا مُمِعِنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ
عَلَى حُكْمِهِ مُدْعِنَةً ، فَأَعْجَبَهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْهَبُوطِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .
وَحَادَتْهَا لَغْلَغَةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشَيْهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ؛ وَتُرِي عَلَيْهَا بُغْرَتَهَا ،
وَتَنَافِسُ فِي الْمَخَاسِنِ كَضْرَبَتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةً قُطِبَتْ بِمَائِهَا ، أَوْ عَمَامَةً شَفَّتْ عَنْ بَعْضِ
مُجُومِ سَمَائِهَا :

بَغْرَةٌ بِيضَاءَ مَيْمُونَةٍ * تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّوَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خِلَّتْهَا * فِي الْحُلَّةِ الدِّكَّاءِ بَرَقَ الْعَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِاسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ بِنَجْمٍ وَبَالِهَا ؛ بَجَّدَتْ فِي الْعُلُوِّ
مَبْتَدَاهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بِنْدِقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَدَّهُ ؛ وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابُ حَفِيها، وأدركها الأجلُ لِحَفَّةِ طَيْرَانِها من حَلْفِها؛ فوَقَعَتْ من الأَفْقِ في كَفِّه،
ونَفَرَ ما في بَقايا صَفِّها عن صَفِّه .

وَأَتَتْ في إِثْرِها أَيْسَةَ أَنْسَه، كأَنَّها العَدْرَاءُ العائِسَه، أو الأُدْماءُ الكائِسَه؛ عليها
خَفَرُ الأَبكارِ، وَخِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وَحَلَاوَةُ المَعانِي التي تُجَلُّ على الأَفكارِ؛ ولها
أُنْسُ الرِّيبِ، وإِدْلالُ الحَيِّبِ، وَتَلَقُّتُ الزائرَ المُرِيبِ من خَوْفِ الرِّيبِ؛ دَأَتْ عُنُقِ
كالإَبْرِيقِ، أو العُصْفِ الوَرِيقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ؛ وَصَدْرَ بَهِىِّ
الملبوسِ، شَهِىِّ إلى النَفوسِ، كأَنَّما رَقِمَ فيه النَهارُ باللَّيْلِ أو نُقِشَ فيه العَاجُ بالأَبْنوسِ؛
وَجَنَاحُ يُجَيِّها من العَطَبِ، يَحْكِي لونها المَنَدَلُ الرُّطْبُ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدْبِجَةُ الصِّدْرِ تَفْوِيْفُهُ * أَضَافَ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهْرِ!

لِها عُنُقٌ خَالَهَ مَنْ رَأاه * شَقائِقُ قَدْ سَيَّجَتْ بِالبَهارِ!

فَوَثَبَ الخامِسُ منها إلى العَنيمه، ونَظَمَ في سِلْكِ رَمِيهِ تلكَ الدَّرَّةَ اليَتيمه، وَحَصَلَ
بِتَحْصِيلِها بين الرُّماةِ على الرُّتَبَةِ الجَسيمه .

وَأَتَى على صَوْتِها حَبْرَجٌ تَسْبِقُ هِمَّتُه جَناحَه، وَيَغْلِبُ حَقْفُ قَوادِمِهِ صِياحَه؛ مَدْبِجُ
المطَا، كأَنَّما خَلَعَ حَلَّةً مَنكِبِيَه على القَطَا؛ يَنْظُرُ من لَهَبِ، وَيَحْطُو على رِجْلينِ من ذَهَبِ:

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَجْفُو الحِياضَ * وَيُشْبِهُ في اللَوْنِ كُدْرَةَ القَطَا،

وَيَغْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بها، * ولا يَرِدُ المِاءَ إِلا خَطَا!

فَبَدَرَهُ السَّادِسُ قَبْلَ ارْتِفاعِهِ، وَأَعانَ قَوْسَهَ بِامْتِدادِ بَاعِهِ، نَخَرَ على الأَلَاءِ كِبِساطِ
أَبْنِ قَيْسِ، وَأَنقَضَ عليه رَاميَه خَمَلَه بِحِدْقِ وَحَمَلَه بِكَيْسِ .^(١)

(١) يَشيرُ إلى قولِ الشاعِرِ في بَسطامِ :

نَخَرَ على الأَلَاءِ لَمْ يَوْسَدِ * كَأَنَّ جَبِينَه سَيْفٌ صَقِيلُ :

الأَلَاءُ، بوزنِ العَلاءِ، شَجَرٌ والأَلَاءَةُ أخصُّ منه .

وتعندَر على السَّابِغِ مَرَامُهُ ، وَنَبَاً عَنِ بُلُوغِ الأَرَبِ مَقَامُهُ ؛ فَصَعِدَ هُوَ وَتَرَبَّ لَهُ
إِلَى جَبَلٍ ، وَثَبَّتْ فِي مَوْقِفِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِرَافِقَتِهِمَا قِبَلٌ .

فَعَنَ لَهُ نَسْرُهُ وَقَوَائِمُ شِدَادٍ ، وَمَنَاسِرُ حَدَادٍ . كَأَنَّهُ مِنْ نُسُورِ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ ؛ تَحْسِبُهُ
فِي السَّمَاءِ تَالِثَ أَخَوِيهِ ، وَتَخَالُهُ فِي الفَضَاءِ قُبَّتَهُ المُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ ؛ قَدْ حَلَقَ كَالْفُقْرَاءِ
رَأْسَهُ ، وَجَعَلَ مِمَّا قَصَرَ مِنَ الدُّلُوقِ الدُّكْنَ لِيبَاسِهِ ؛ وَأَشْتَمَلَ مِنَ الرِّيشِ العَسَلِيِّ
إِزَارًا ، وَأَلْفَ العُرْزَلَةِ فَلَا تَجِدُ لَهُ إِلَّا فِي قُنَنِ الجِبَالِ الشَّوَاهِقِ مَزَارًا ؛ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي
الذَّلِيلِ وَهُوَ لَمْ يَشِبْ ، وَمَضَتْ الأُدهُورُ وَهُوَ مِنَ الحَوَادِثِ فِي مَعْقِلِ أَشْبِ :

مَلِيكَ طُيُورِ الأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * وَفِي الأَفْقِ الأَعْلَى لَهُ أَخْوَانِ !

لَهُ حَالٌ فَتَاكٍ ، وَحِلْيَةٌ نَاسِكٍ ، * وَإِسْرَاعٌ مِقْدَامٍ ، وَفَتْرَةٌ وَأَنْ !

فَدَنَا مِنْ مَطَارِهِ ، وَتَوَسَّحَى بِبُنْدُقِهِ عُنُقَهُ فَوَقَعَ فِي مِتْقَارِهِ ؛ فَكَأَنَّمَا هَدَّ مِنْهُ صَخْرًا ،
أَوْ هَدَمَ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ ، مُبَشِّرًا لَهُ بِمَا أَمْتَازَ بِهِ عَنِ فَرِيقِهِ .

وَإِذَا بِهِ قَدْ أَظْلَنَتْهُ عُقَابٌ كَاسِرٌ ، كَأَنَّمَا أَضَلَّتْ صَيِّدًا أَفْلَتَ مِنَ المَنَاسِرِ ؛ إِنْ
حَطَّتْ فَسَحَابٌ أَنْكَشَفَ ، وَإِنْ أَقَامَتْ فَكَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَأْسًا لَدَيْ
وَكَرَهَا العُنَابُ وَالحَشْفُ ، بِعِيدَةٍ مَا بَيْنَ المَنَازِكِ :

إِذَا أَفْلَعْتَ بَلَّتْ عُلُوقًا كَأَنَّمَا * تُحَاوِلُ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الكَوَاكِبِ !

يُرَى الطَّيْرُ وَالوَحْشُ فِي كَفِّهَا * وَمِتْقَارِهَا ذَا عِظَامٍ مُزَالِهِ .

فَلَوْ أَمَكْنَ الشَّمْسُ مِنْ خَوْفِهَا * إِذَا طَلَعَتْ مَا تَسَمَّتْ غَزَالَهُ !

فَوَشِبَ إِلَيْهَا التَّامِنُ وَثَبَّةٌ لَيْثٌ قَدْ وَثِقَ مِنْ حَرَكَاتِهِ بِبَجَاحِهَا ، وَرَمَاهَا بِأَوَّلِ بُنْدُقَةٍ فَمَا
أَخْطَأَ قَادِمَةَ جَنَاحِهَا ؛ فَأَهْوَتْ كَعُودٍ صُرْعَ ، أَوْ طَوْدٍ صُدْعَ ؛ قَدْ ذَهَبَ بِأَسْمَا ،

وَتَذَهَّبُ بِدَمِهَا لِبَاسُهَا، وَكَذَلِكَ الْقَدْرُ يُخَادِعُ الْجَوَّ عَنْ عُنُقَيْهِ، وَيَسْتَنْزِلُ الْأَعْمَمَ مِنْ عُنُقَيْهِ؛ فَعَمَلُهَا بِجَنَاحِهَا الْمَهِيضِ، وَرَفَعَهَا بَعْدَ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ، وَنَزَلَ إِلَى الرَّفْقَةِ، جَدَلًا بِرِيحِ الصَّفْقَةِ .

فوجد التأسع قد مر به كركي طويل الشفقار، سريع النفار، شمى الفراق، كثير الاعتراب يستو بمصر ويصيف بالعراق؛ لقوادمه في الجو حفيف، ولأديمه لون سماء طراً عليها غيم خفيف؛ تحن إلى صوته الجوارح، وتعجب من قوته الرياح البوارح؛ له أثر حورية في رأسه كوميض جمر تحت رماد، أو بقية جرح تحت ضناد، أو فص عقيق سفت عنه بقايا نمد؛ ذو منقار كسنان، وعنق كعنان؛ كأنما ينوس، على عودين من أبوس :

إذا بدا في أفق مُقلعاً * والجو كالماء تفاعيفه :

حسبته في لجة مَرَجًا * رجلاه في الأفق مجاديفه !

فصبر له حتى جازه مجلياً، وعطف عليه مصلياً؛ فخر مضرراً بدمه، وسقط مشرفاً على عدمه؛ وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بجمبة من حمى مسنون؛ فكثرت التكبير من أجله، وحمله على وجه الماء برجله .

وحاذاه غرنوق حكاة في زيه وقدره، وأمتاز عنه بسواد رأسه وصدره؛ له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خلفه، معقودتان من أذنيه مكان شفه :

له من الكركي أوصافه * سوى سواد الصدر والرأس .

إن شال رجلا وأنبرى قائماً * ألفتته هيئة برجاس !

فأصغى العاشر له منصتنا، ورماه متلفتاً؛ فخر كأنه صريع الألحان، أو تزيف بنت الحان؛ فأهوى إلى رجله بيده، وأنقض عليه أنقضاض الكاسر على صيده .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضُوعٌ ^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ النَّضَارِ مَصْنُوعٌ؛ تَحْسَبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَتَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلَةٌ رِجْلَاهُ مُسْوَدَةٌ * كَأَنَّهَا مِتْقَارُهُ خَنْجَرٌ:

مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطُ * جَاءَتْ فِي رِقَبَتِهَا مِعْجَرًا!

فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَتَّبَ، وَرَمَاهُ حِينَ حَازَاهُ مِنْ كَشْبٍ؛ فَسَقَطَ كَفَّارِيْسٌ تَقَطَّرَ
عَنْ جَوَادِهِ، أَوْ وَايِقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ فُؤَادِهِ؛ فَحَمَلَهُ بِسَاقِهِ، وَعَدَّلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَأَقْتَرَنَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ مَبِيٌّ مَعْرُوفٌ، ذُو مِتْقَارٍ كَصُدُغٍ مَعْطُوفٍ؛ كَأَنَّ
رِيَاشَهُ فَتَقَّ أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ التَّلْحِجِ * عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ:

إِذَا أَقْلَعَ يَلْأَقْلَعُ * بَرَقَ فِي الدَّجْحِ سَارِي!

فَانْتَهَى الثَّانِي عَشَرَ مِثْمًا، وَرَمَاهُ مُصَمًّا؛ فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ فَوْرِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَرَمَا حَرَجَ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَأَلْتَحَقَ بِهِ سَبَيْطَرٌ، كَأَنَّهُ مَدْبَةٌ مُبَيْطَرٌ؛ يَتَحَطُّ كَالسَّيْلِ، وَيَكْرَهُ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالْحَيْلِ،
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِيهِ بَيْنَ ضِدِّينِ يُقْبَلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُدْبَرُ بِاللَّيْلِ؛ يَتَلَوَّى فِي مِتْقَارِهِ الْأَيْمِ،
تَلَوَّى التَّنِينِ فِي الْغَيْمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُمْتَدًّا وَفِي فَمِهِ * مِنَ الْأَفَاعِي شِبْجَاعٍ أَرْقَمَ ذَكَرٌ:

كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَامَ عُنُقَهُ يَدُهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَتْرُ!

(١) هو بضم الصاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :

”صُوعٌ“ وأنظر ما كتبناه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه، فقطع حية و عنقه، فوقع كالصرح الممرد،
أو الطراف الممدد .

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ، كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره، أو أنطوى على هالة بدره :

ترآه في الجو عند الصبح حين بدا * مسود أجنية مبيض حيزوم :

كأنه حبشي عام في نهر * وضم في صدره طفلاً من الروم !

فهنض تمام القوم إلى التتمة ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المدهمة ؛
وغدا ذلك الطير الواجب واجباً ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عينا أو تبرز
حاجبا ؛ فيالها ليلة حصرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل شمل مجتمع ؛ وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لمن عظام ، وأصبحنا مثنين على
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ؛ داعين لولئ جهدنا ، مدعين له قبلنا
أوردنا ؛ حاملين ما صرعنا إلى بين يديه ، عاملين على التشرف بخدمته والانتفاء إليه :

فانت الذي لم يلف من لا يوده * ويدعى له في السر أو يدعى له :

فان كان رمي ، أنت توضع طرفه ، * وإن كان جيش : أنت تحمي قبيلة !

والله تعالى يجعل الآمال منوطه به وقد فعل ، ويجعله كهفا للأولياء وقد جعل ؛

بمنه وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصدقات ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الصدقات الملوكية وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابري وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدق، كتب به للملك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأئفى قبل سلطنته ، بالقلعة المحروسة ، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى :
 الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة ، ومصدق القائل لمن جعل عنده أعظم بركة ،
 ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانة وصهره ملكة ؛ الذى جعل للأولياء من
 لدنه سلطاناً نصيراً ، وميز أقدارهم بأصطفاء تأهله حتى حازوا نعيماً ومداً كبيراً ؛
 وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس أمالم ضياءً وزاد قمرها نورا ، وشرف به ووصلتهم
 حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً ؛ مهياً أسباب التوفيق العاجلة
 والآجلة ، وجاعل رُبوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُدور والأهلة آهله ،
 جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم
 البركة الكاملة .

تحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأجيلهم الاستطلاع،
وكل لأخيرهم الأجناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب
أحسابهم من الابتداء بالتحويل والابتداع؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة حسنة الأوضاع، ملبية بتشريف الأئمة وتكريم الأسماع؛ ونصلي على
سيدنا محمد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه
داراً لهم في كل دار، وبقره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يأنعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله، لما استصلح
البدر شيئاً من المنازل لتزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر
الحكيم لساناً من الأئمة لتزويله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن
ليتشرّف بيت يحلّ به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور،
ونثار يجمل باللاتي والذرر؛ ولذلك تجلّت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضهاره
وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه؛ وتزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم
مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتّب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدّه الوجود، وتقدير أمر يقارن سعد
الأخية منه سعد السعد؛ وإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها: كيف،
وإبراز وصلة تجمل بترصيع جوهرها متن السيف الذى يغيظه على إبداع هذا
الجوهر به كل سيف؛ وتسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سيد،
ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختارها أربك طالع: وكيف لا تكون
البركة في ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المَرَّاحِمَ الشَّرِيفَةَ السُّلْطَانِيَّةَ أَرَادَتْ أَنْ تُحْضِنَ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ بِالْإِحْسَانِ الْمُبْتَكِرِ ، وَتُقَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ الَّتِي يُرْهِفُ بِهَا الْحَدُّ الْمُنْتَضِيَّ وَيَعْظُمُ الْحَدَّ الْمُنْتَظَرِ ، وَأَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَدْرِ صَاحِبِيَّةِ : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؛ نَخَطِبُ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعَ مِنْ تَحْمِيهَا السِّيُوفَ الْمَشْرِفِيَّةَ ، وَأَعَزَّ مِنْ تُسْبَلِ عَلَيْهَا سُتُورِ الصَّوْنِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُدُورُ الْجَلَّالِ الرَّضِيَّةِ ، وَتَجْمَلُ بِنِعْوَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَقَالَ وَاللَّهِ هُوَ الْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تُرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُرْزَنُ ، وَكَذَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛ وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَّاحِمُ الشَّرِيفَةُ السُّلْطَانِيَّةُ لَهُ حَمِيلَةٌ ! ، وَأَشْرَفَ سَيْفًا غَدَّتْ مِنْطَقَةُ بَرْوِجِ سَمَائِهَا لَهُ حَمِيلَةٌ ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةٌ آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَخْفَرَهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبُودِيَّةٌ كَرَّمَتْ سَمَائِهَا بِأَنْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفَعِ قَدْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَخَصَّصْتَهُ بِهَذِهِ الْمَرْيَةِ الَّتِي تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَرِ الْمَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفَعِ دَرَجَاتِ عَبِيدِهِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَّقُوهُ بِهِ هَذَا الْإِنْشَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَمَّاسَدَتْ وَمَا حُ الْخَطِّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ مَطَالِيعُ النُّوَّارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَظْمِ سَطُورِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَّلَ نَوْعُهُ بِالْإِحْسَانِ فَاعْتَدَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجْنِيسِ لَفْظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْإِعْتِرَافُ : هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ : أَصَدَّقَهَا مَا مَلَائِمًا حَرَامِينَ الْأَحْسَابِ نَخَارًا ، وَشَجَرَةَ الْأَنْسَابِ ثَمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضْلَفَ لِلنَّوَّارِ

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا، فبدل لها من العين المصيرى ما هو باسم والدها قد تشرف، وبنعوتيه قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف.



وهذه نسخة صداق المقام الشريف العالى السيفى أنوك، ولد السلطان الشهيد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفى «بكتمر الساقى». وكان العاقد قاضى القضاة جلال الدين القزوينى، والقبائل السلطان الملك الناصر والِد الزوج، وهى :

الحمد لله مسير الشمس والقمر، وميسر حياة كل شىء باتصال الروض بالمطر، ومبشر المتقين من درارى الدرارى بأسعد كوكب ينتظر، وأحمد عاقبة تهتر لها أعطاف عطاء الملوك على كبر، وتنجاب عن الأنجاب كما تفتح الأكام عن الثمر، الذى مد من الشجرة المباركة الملوكية فروعا ألتفت بعضها على بعض، ورفقت على من استظل بها فراقب السماء على الأرض.

نحمده على نعمه التى أطابت لنا جنى الغروس، وأطالت منا منى النفوس، وأطافت بملوكا حتى مدت لسؤلهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذها عزيمة نأفعه، ونعمة حسن العاقبة جامع، ورحمة تبارك على أممتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة، والأنوار الساطعة، والبروق اللامعة، والغيوث الهامعة، والسيول الدافعة، والسيوف القاطعة، والأسود التى هى عن حرم حضرتها مانعة؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان من تمسك له بحسب، وشرف من أعتزى إليه بالتقربى أو أعتز منه بصهر أو نسب؛

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَرْضَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ ، وَكَرَّمَهُمْ بِصَلْتِهِ الشَّرِيفَةِ
لِمَا زَوَّجَهُمْ وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ، فإنَّ من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطره ، والبحر أن يسقي الزروع
بما فاض من نهره ؛ والمصاييح أن تمدَّ بأنوارها ما يتوقد ، والسما أن لا تخلو أفقها
من اتصال فرقد بفرقد ؛ ولو توقفت القربى على مقاربة كبير ، أو مقارنة نظير ،
لما صلحت الأعماد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر
المئير ؛ ولا صاحت يمين شمالا ، ولا جاورت جنوب شمالا ؛ ولا حوت الكائن
سهما ، ولا جمع السلك للجواهر نظاما ؛ ولا طمح طرف إلى غايه ، ولا قدر لسان
إنسان على تلاوة سورة ولا آيه ؛ وإنما الصدقات الشريفة الملوكة لها في البر
عوائد ، وفي الخير سجايا يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف ، الأعظم ، العالى ، المولوى ، السلطاني ، المالكى ،
الناصرى ، أعزَّ الله سلطانَه على من لاذ به تُسبَلُ دُيُولُ الفخار ، وتودع في هالات
أقارهم ودائع الأنوار ، وتوهل أهلهم لأن يكون منها أحد الأبوين لذريته الأطهار ،
وتحطب من مجيهم كل مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها شمس النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية ، الناصرية ، على من تعرض لسحابها
الماطر ، ووقف للاعتراف من بحرها الزانح - ما رفعت به ذكره إلى آخر الأبد ،
وأتمت له السعادة إذ كان يعد في جدود من يُنسب إليه من ولد ؛ وأكدت له
بالقربى مزية مزيد ، واستخرجت من بحره جوهرة لا يطمع في التطوق بها كل
جيد ؛ وقالت : نحن أحق بتكامل ما بنينا ، وتحويل الخولة من أولينا ؛ وتأهيل من قر
بنا عيننا وقربناه إلينا ، وتفضيل غرس نعمة نحن غرسناه واجتينا ثمراته بيدنا .

فاقتضى حُسْنَ الاختيار الشريف المَلِكِي الناصريّ ، لولده المقام العالی السَّيْفِيّ ؛
أحسن الله لها الاختيار، وأجرى بارادتهما آقتدار الأقدار - أن تُرَفَّ أُمَّ الشَّموس إلى
سُورِهِ الرِّفيعه ، وتُصَانْ أَكْلُ مَعَايِلِ العَقَائِلِ بِحُجْبِهِ المِنيعه ؛ وتُحَاطْ أَشْرَفُ الدَّرْرِ
في مُستودَعِهِ ، وتُنَاطْ أَشْرَفُ الدَّرَارِيِّ بِمَطْلَعِهِ ؛ وتُسَاقْ إليه الكَرِيمَةُ حَسَبًا ، العَظِيمَةُ
بَأَيِّهِ - عَظَّمَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا ، الذي كَمَّ لَهُ في خِدْمَةِ الدَوْلَةِ القَاهِرَةِ من مَنَاقِبَ
كَالنَجُومِ ، ومَذَاهِبَ تَسَبَّهَ بِهَا البُرُقُ فَتَشَبَّثَ بِأَذْيَالِ العُيُومِ ، ومَرَاتِبَ تَقَدَّمَ فِيهَا على
كُلِّ نَظِيرٍ قال : وما مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ مَنْ قَدَرَهُ لِأَيْسَاحِيٍّ وَلَا يُسَامِ ، ورَأْيُهُ
لِأَيْرَامِيٍّ وَلَا يُرَامِ ، وَسَيْفُهُ في غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يُسِيمُ وَلَا يُسَامِ ، وهو «سَيْفُ
الدَوْلَةِ» لَا كَمَا يُسَمَّى بِهِ مَنْ اسْتَعَارَ هَذَا اللَّقَبَ في سَالِفِ الأَيَّامِ ؛ كَمَّ لَهُ في مَرَاضِي
سُلْطَانِهِ مِنْ رَغْبَةٍ بَدَّلَ بِهَا مَا لَدَيْهِ ، وَسَمَحَ فِيهَا بِوَلَدِهِ وهو أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ ، وَجَادَ
بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ ؛ كَمَّ نَبَّهَتْ بِعَزَائِمِهِ السُّيُوفُ مِنْ سِنَانَتِهَا ، كَمَّ وَهَبَتْ مِنْ
مَكَارِمِهِ الأَيَّامُ مَا يُعَدُّ مِنْ حَسَنَاتِهَا ؛ كَمَّ أَلْتَهَبَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا بَجَرَّتْ أَنهَارًا بَجَرَّتْ
مِنْ جَنَابَتِهَا ؛ كَمَّ لِسَمَاءِ المُلْكِ بُشْمِيهِ مِنْ حَرَسِ ، وَبِقَضِيهِ مِنْ قَبَسِ ، وَكَمَّ قَامَ وَقَعَدَ
في مَصْلَحَةِ وَكانَ أَدْنَاهُمْ مِنْ مَلِكِهِ مَقَامًا لَمَّا قَامَ وَأَعْلَاهُمْ مَجْلِسًا لَمَّا جَلَسَ ؛ فَسَمِعَ
المَقَامَ العَالِي السَّيْفِيَّ وَأَطَاعَ ، وَأَتَمَّتْ إلى ما بَرَزَتْ بِهِ مَرَّاسِمِ والدِهِ - أَنْفَذَهَا اللهُ -
وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ المُطَاعَ ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفِ وهو ناصِرُ السُّنَّةِ فَقَدَّمَ فِيهَا ما اسْتَطَاعَ ،
وَسَارَعَ إلى ما أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الأَلْفَةِ والأَجْتِمَاعِ ، وَأَتَبَعَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ في تَكْثِيرِ الأُمَّةِ
دُرِّيَّةِ أُمَّةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا لِهَ الأُمَّةِ أَتْبَاعَ ؛ لِعالِمِهِ اليَقِينِ أَنَّهُ لو خَطَبَ لَهُ
والدُّهُ في أَقْطَارِ الأَرْضِ إلى جَمِيعِ المُلُوكِ ، لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كَلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وهو لَهُ
عَبْدٌ مَمْلُوكٌ ؛ فَأَحْيَى سُنَّةَ شَرِيفَةٍ مُلُوكِيَّةٍ مَبْرُحَتِ الخُلَفَاءِ والمُلُوكِ تَحْفَظُ بِهَا قُلُوبَ
أولِيائِها على أمداد المَدَدِيّ ، وَيَكْفِي مِنْ هَذَا مِثْمُونُ فَعَلِ «المَأْمُونِ» لَمَّا تَزَوَّجَ

«بُورَانَ» من أبيها «أَبْنِ سَهْلٍ» وَحَطَبُ «الْمَعْتَصِدُ» إِلَى «أَبْنِ طُولُونَ» أَبْتَنَهُ
«قَطْرَ النَّدَى» .

ورأى والدُها أعزّه الله تعالى قدراً هالِكاً مهابةً فسلم وقال : لَلْأَلِكِ التَّصْرِفُ
وَلِللَّيْلِ التَّصْرِيفُ ، وَإِذَا أَقْتَضَى حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفَ عَيْدٍ فَيَا حَبِيبًا
الشَّرِيفِ ؛ وَيَا حَبِيبًا السَّبَبُ الَّذِي آتَوْتُمْ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَخْتَفَلَتْ
دِيمَ النَّعْمِ وَأَخْتَفَّتْ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ، فَتَحَاسَدَتْ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصْنَافِ
وَحُمْرُ النَّعْمِ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى رَقْمِ سَطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيحُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصَرِيرُ الْقَلَمِ ؛ وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ اجْتَمَعَتْ مَوَاكِبُ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمَنَاقِبُ لَوْ أَنهَا حَوْلَهُ بِمَقَانِبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ؛ وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَنْجَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَعَتْ بِالْإِتْفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أُبِيحَ لَهَا أَنْ تُغَرَّدَ وَتَحْلَعُ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ؛
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقُ ، وَالرَّمَاحُ لَمَّا بَدَأَ لَهَا
سِرِيرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَفَّتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المراسمُ الشريفةُ - زادها الله شرفاً - بتجريد هذا الكتابِ الكريمِ ، وتضديد
ما يصلحُ من الدررِ لهذا العقدِ النظيمِ ؛ ونفدَ المرسومُ العالى المولوى السلطانى ما أمر
به وصدق ، وتادبَ إجلالاً لمقامِ أبيه الشريفِ فأطرق ، وتواضعَ لله فلم يقل : هذا
ما تصدق ؛ بل قال : هذا ما أصدق المقامُ العالى السينى أنوكُ ابنُ مولانا السلطان
الأعظم ، مالكِ رقابِ الأئمِّ ؛ الملكِ الناصرِ ، السيدِ الأجلِّ ، العالمِ ، العادلِ ، الغازى ،
المجاهدِ ، المؤيدِ ، المرابطِ ، المتأغبرِ ، المظفرِ ، المنصورِ ، الشاهنشاهِ ، ناصرِ الدنيا
والدينِ ، سلطانِ الإسلامِ والمسلمينِ ، محيى العدلِ فى العالمينِ ، مُنصِفِ المظلومينِ
من الظالمينِ ، ملِكِ البسيطةِ ، ناصرِ السنةِ ، رُكنِ الشريعةِ ؛ ظلَّ الله فى أرضه ،

القائم بُسْنَتِهِ وَفَرَضَهُ ؛ وَارِثِ الْمُلْكِ ، مَلِكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالثَّرَكِ ، خَدَاوَنَدِ عَالَمِ
 بِادِشَاهِ بَنِي آدَمَ ، بَهْلَوَانِ جِهَانَ ، شَهْرِيَارِ إِيرَانَ ، إِسْكَنَدَرِ الزَّمَانِ ، مُمَلِّكَ أَصْحَابِ الْمَنَابِرِ
 وَالْأَسْرَةِ وَالثُّخُوتِ وَالتَّيْجَانِ ؛ فَاتِحِ الْأَفْطَارِ ، وَهَبِ الْمَمَالِكِ وَالْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ ،
 مُبِيدِ الْبَغَاةِ وَالطُّغَاةِ وَالْكُفَّارِ ؛ صَاحِبِ الْبَحْرَيْنِ ، حَامِي الْحَرَمَيْنِ ، خَادِمِ الْقِبْلَتَيْنِ ؛
 كَفِيلِ الْعِبَادِ وَالْعِبَادِ ، مُقِيمِ شَعَائِرِ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ ؛ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدِ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، السَّيِّدِ ، الْأَجَلِّ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ،
 الْمَجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، سَيْفِ الدِّينِ ، وَالِدِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، أَبِي الْفَتْحِ «قَلَاوُونَ» خَلْدِ
 اللَّهِ سُلْطَانِهِ ، وَنَصْرِ جُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ وَأَعْوَانِهِ - : الْحِجَابِ الْكَرِيمِ ، الرَّفِيعِ ، الْمُنِيعِ ،
 الْمَصُونِ ، الْمَكْنُونِ ، الْحِمَاةِ الْمُكْرَمَةِ ، الْمُفَضَّمَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، بِنْتِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ،
 الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْأَجَلِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمُتَهَدِيِّ ، الْمُشَيْدِيِّ ،
 الزَّعِيمِيِّ ، الْمُقَدِّمِيِّ ، الْغِيَاثِيِّ ، الْعَوْنِيِّ ، الذُّخْرِيِّ ، الْأَوْحَدِيِّ ، الظَّهْرِيِّ ، الْكَافِلِيِّ ،
 السَّيْفِيِّ ، رُكْنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، سَيِّدِ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، نَصِيرِ الْغُرَاةِ وَالْمَجَاهِدِينَ ،
 زَعِيمِ الْجِيُوشِ ، مُقَدِّمِ الْعَسَاكِرِ ، عَوْنِ الْأُمَّةِ ، غِيَاثِ الْمِلَّةِ ، مُمَهِّدِ الدُّوَلِ ، مُشَيِّدِ
 الْمَمَالِكِ ، ظَهِيرِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، عَضُدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِكَتْمَرِ السَّاقِي النَّاصِرِيِّ ،
 ضَاعَفَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ .

أَصَدَقَهَا مَا تَلَقَّتْ بِهِ أَنْسَابُهَا إِجْلَالًا ، وَبَلَّغَتْ بِهِ أَحْسَابُهَا جَمَالًا ، وَطَلَعَتْ فِي سَمَاءِ
 الْمُلْكِ هَلَالًا ؛ وَلَيْسَتْ نَخَارًا ، وَقَبِسَتْ أَنْوَارًا ؛ وَأَوَّتْ إِلَى حِصْنِ حَصِينِ ، وَوَصَلَتْ
 إِلَى مَقَامِ آمِينَ ، وَانْبَسَتْ (؟) بِأَمْوَالِ وَبَنِينَ ؛ مَالِوَلَا أَدَبُ الشَّرْفِ ، وَتَجَنَّبُ السَّرْفِ ؛
 وَالْعَمَلُ بِالشَّرْعِ فِي تَعْيِينِ مَعْلُومٍ ، وَتَبَيُّنِ مَقْدَارِ مَفْهُومٍ ؛ لِحَرْجِ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ
 مَحْدُودٍ ، وَقَدْرِ مَعْدُودٍ ؛ وَلَمَّا قَامَ بِهِ مَوْجُودٌ ، وَلَكَانَ مِمَّا تَقَلُّ لَهُ الْمَمَالِكُ
 وَلَا يُسْتَكْثَرُ لِأَجْلِهِ الْوُجُودُ .

قَدِّمَ لَهَا مِنْ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكَ مَا هُوَ بِنَقْدِ مَمَالِكِ وَالِدِهِ مَعْرُوفٍ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ فِي هِبَاتِهِ مَضْرُوفٌ ؛ مَا يُجَدُّ مَالًا ، وَيُنْمَى مَالًا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَالًا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، مَجَّلَ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلٌ وَالِدُهَا مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضَهَا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَخَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجِ بِإِحْسَانٍ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وَوَلِيَّ تَرْوِيحِهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَالِدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، خَطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالِي ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
سَعْدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصِ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرَوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمَ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وَبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَدِهِ
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاةَا بِحُضُورِ
مَنْ تَمَّ الْعَقْدُ بِحُضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْنَى ، بِقَاعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ .



وهذه نسخة صدق المقر الشريف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد
ابن قلاوون ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله مَعْنَى المُلُوكِ بالمُظَاهَرَةِ ، وَمُكَثِّرِ زِينَةِ الأَسْمَاءِ بِجُومِهِمُ الزَّاهِرَةِ ، وَمُكَبَّرِ أقدَارِ الأَوْلِيَاءِ بِمَا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ مِنْ شَرَفِ المِصَاهِرَةِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي شَرَّفَتْ قَدْرًا ، وَصَرَّفَتْ أَمْرًا ، وَأَطْلَعَتْ مِنْ هَالَةِ البَدْرِ المُنِيرِ شَمْسًا لَا تَخْذُ غَيْرَ الأَفُقِ خِذْرًا ، وَلَا تَنْتَمِي اللَّيَالِي والأَيَّامُ إِلَّا أَنْ تُقَلِّدَهَا مِنَ الأَشِعَّةِ يَاقُوتًا وَمِنَ الكَوَاكِبِ دُرًّا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَجْمَعُ مِنْ حُجَاةِ الدِّينِ نَسَبًا وَصِهرًا ، وَتَرْفَعُ فِي أُنْبَاءِ الأَبْنَاءِ لَهَا حَسَبًا وَذِكْرًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَصَمَ بِهِ ، وَخَصَّ صَفْوَةَ الخَلْقِ فِي المِصَاهِرَةِ بِاخْتِلَاطِ نَسَبِهِمْ بِنَسَبِهِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَسْتَوْتِقُ بِهَا الأَسْبَابَ ، وَتَسْتَوَسِقُ الأَنْسَابَ ، وَتَبْقَى أَنْوَارُهَا بِمَلِكِ أُنْبَاءِ المُلُوكِ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي الأَعْقَابِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا جَمَعَ اللهُ بِمُلُوكِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المَنْصُورِيِّ - كَثَّرَ اللهُ عَدَدَهُمْ - شَتَاتِ الإسلامِ ، وَمَحَا بِيَوَاقِعِ جِهَادِهِمْ مَا أَمْتَدَّ مِنْ ظَلَامٍ ؛ حَتَّى أَنْتَهتِ النَّوْبَةُ إِلَى مَنْ أَصْبَحَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ القَاهِرَةَ وَكُلَّ أَوْقَاتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ ، وَتَوَارَ أَفَاحٍ ، وَسَمَاءُ سَمَاحٍ ، وَأَسْمَى نِعِيمٍ لَا تُعَدُّ إِلَّا مَعَاقِدَ تَيْجَانِ المُلُوكِ عَلَى كُلِّ جَبِينٍ وَضَاحٍ ؛ المَقَامِ الشَّرِيفِ العَالِيِ المَوْلُويِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، المَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ ، زَادَ اللهُ شَرَفَهُ ، وَأَعْلَى عَلَى شُرَفَاتِ بُرُوجِ السَّمَاءِ غَرْفَهُ ؛ فَأَحَبَّ - لِمَا أَجْرَاهُ اللهُ بِهِ وَبِمَنْ سَلَفَ مِنْ مَبْلُوكِ بَيْتِهِ الشَّرِيفِ مِنْ تَأْيِيدِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَتَأْيِيدِ مَا شَبَّهَهَا بِفَتْوحَاتِهِمُ المُدْهَبَاتِ الفُتُوحِ مِنْ سَوَائِجِ النِّعْمَةِ ؛ - أَنْ يَعْمَلَ بِقَوْلِ نَبِيِّهِ المُشْرِفِ بِمَوَافَقَةِ أَسْمِهِ وَمُتَابَعَةِ حُكْمِهِ فِي التَّرْوِيجِ ، وَأَنْ تَقَعَ مَوَاقِعُ أَمْطَارِهِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ حُرَّةٍ فَتَنْدِبَ كُلَّ زَوْجٍ بِرَيْحٍ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِ - أَدَامَ اللهُ سَعُودَهُمْ - مَنْ يُطِيعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمْرَهُ العَالِيِ أَدَامَ اللهُ تَمَكِّيْنَهُ ، وَلَوْلَا هَذَا لَمَّا رَضِيَ سِوَى أَقْرَانِ الفُرْسَانِ لَهُ قَرِينَهُ ؛ وَكَانَ مِنْ مُجَابِئِهِمْ إِذَا

عَدَّتْ الأَوْلَادَ ، وَأَحِبَّائِهِمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِمَلْتَمِهِمْ
جَمَالٌ ، وَلِدَوْلَتِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِقَائِهِمْ أَسَدُ الأَشْبَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤْتِلُ فِي أبنَائِهِ مَا لِأبنَاءِ سَمِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتِ نَسْلِهِ .

برز المرسوم الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى ، أنفذه
الله فى الأقطار - بأن يُعَيِّرَ لِمُغْرِسِهِ الكَرِيمِ ، وَنَسَبِهِ الصَّمِيمِ ؛ وَصَبَّاحِهِ المُشْرِقِ ،
وَسَمَّاحِهِ المُغْدِقِ ؛ فِصَادِفِ الإِحْسَانِ مَوْضِعِهِ ، وَأَتَّخِبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ البَدْرِ التَّمَامِ
مَطْلَعَهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ القَاهِرَةِ عَلَى الحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ البَحْرُ الرَّانِحِ
وَمِنْ مَكُونِهِ يُسْتَخْرَجُ الخَيْرُ التَّمِينِ ؛ فَبَادِرِ الخَاطِبِ إِلَيْهِ إِلَى آغْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِى لَا يُطَاوَلُ ، وَعَاجِلِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِى لَوْلَا فَضْلُ اللهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيَتْ تِلْكَ السُّتُورُ بِهَذِهِ المَخْطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ العُلْيَاءُ هَذِهِ المَحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ المَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا المُتَصَدِّقِ مِنْ ذَوَاتِ العِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينِ ؛ فَاتَّمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رِثْبَةِ
الفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَّفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ المُقَرَّرِ الشَّرِيفِ
مِنَ المَقَامِ الكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ العُقُودِ وَلَا كَيْدِ وَلَا كِرَامَةِ لِمَا يَنْجَلِي بِهِ
اللَّيْلُ البَيْمِ ، وَلَا لِمَا يَتَحَلَّى فِي جِيدِ الجُوزَاءِ مِنْ عِقْدِ دُرِّهَا النِّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِجْلَالُ
المَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا آخِضَرَ القَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما أصدق

الطرف الثاني

(في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم)

وهي على نحو من الصدقات الملوكة في الترتيب، إلا أنها أخصر، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

(١)

وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب]

على بنت بيدمر العمري، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه، ورأعي ذمم من لم ينسوا عهده ولم يخلفوه،
ومكّل الخير لكل ذي ^(١) يصد من يخفوه، وجيب كل منيب يدعو قائماً
وقاعدا : (ولما قام عبد الله يدعو) .

نحمده حمداً نكرّر فضله وتتلوه، ونحلّ معضله ونجّله؛ ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يتظاقر عليها الأمر المسلم وبنوه، وتبيض بها وجوه
الأوداء، وتسود وجوه الأعداء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه؛ ونشهد أن سيدنا
محمداً عبده ورسوله الذي سجد به ذووه، وصعد قدر صهره وحموه، وشرف نسباً
ما أتق فيهِ على سفايح هو ولا أولوه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال
بها الروض الأرج يقوه، والسحر يبلغها ولو سكت وختم بالبرق فوه؛ وسلم تسليماً .

وبعد، فإن أزهي زهر طاب مجتنوه، وطال باعاً في الفخار مجتنوه؛ زهر كجامة
جرت عنها لامة كجى، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حمى؛ وطلعت
من أفق بدرى طالما سنع مجتنوه، وحمى سيف أمن في كلته بكلاءته مجتنوه .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجَنَابُ الجَمَالِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ المَرْحُومِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي سَعِيدِ أميرِ حَاجِبٍ ،
أدام اللهُ تَعَالَى عُلَاهُ ، وَرَحِمَ أَبَاهُ ، هُوَ وَلَدَ ذَلِكَ الوَالِدِ ، وَطَارَفَ ذَلِكَ التَّالِدِ ؛ وَتَشَوَّ
هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ الكَامِلِيَةَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا حَظَّهُ بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ ، وَأَصْبَحَتْ بِهِ
كَالغَادَةِ الحَسَنَاءِ ذَاتِ الحُسْنِ وَالجَمَالِ ؛ وَلَمْ يَمُتْ أَبُوهُ فِي أَيَّامِ سُلْطَانِهَا - خَلَدَ اللهُ
مُلْكَهُ - حَتَّى قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَسَاوَاهُ فِي الإِمْرَةِ لَوْلَا تَفَاوُتِ العِدَّةِ وَقِدَمِ المُدَّةِ بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُ ؛ وَجَاءَ مِنْهُ وَلَدٌ نَجِيبٌ ، وَأَبْنٌ شَاعٌ وَذَاعَ سِرَّأِيهِ وَحَمِدَ وَهَذَا نَجِيبٌ !!! .
وَمَا أَتَقَلَّ وَالِدُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، وَشَرِبَ بِالكَأْسِ الَّتِي لَا بُدَّ لِكُلِّ
حَيٍّ مِنْ شُرْبِهَا - تَطَلَّبَ مِثْلَ ذَلِكَ الأَبِ وَلَمْ يَزَلْ يَجِدُّ حَتَّى وَجَدَ ، وَظَفَرَ بِوَالِدِهِ إِنْ
لَمْ يَكُنْ وَلَدَهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ عِنْدَهُ مِثْلُ الوَلَدِ ؛ وَهُوَ المَقَرَّبُ بِدَمَرٍ ، وَهُوَ الوَالِدُ الَّتِي لَمْ يَفْقِدْ
مَعَهُ مِنْ وَالدِهِ ذَرَّةً ، وَالأَبُ الَّتِي هُوَ أَرَأْفُ مِنْ كُلِّ أُمِّ بَرٍّ ؛ وَالنَّيِّرُ البَسْدِرِيُّ الَّتِي
سَعَدَ قِرَانَا ، وَصَعِدَ وَدَاسَ بِقَدَمِهِ أَقْرَانَا ، وَقَسَمَ دَهْرَهُ شَطْرَيْنِ : نَهَارَهُ لِلضُّيُوفِ قِرَى
وَلَيْلَهُ لِلَّهِ قُرَانَا .

هَذَا إِلَى أَنَّهُ طَالَمَا طَيَّبَ لَزَكَاةِ أَمْوَالِهِ وَتَمَرَّهَا ، وَزَيَّنَ فِي أَعْمَالِهِ بِمَدْرَسَةِ عَمْرُهَا ،
وَقَيَّدَ سُورِدَ حَسَنَاتِهِ وَتَقَفَّهَا ؛ مَعَ أَنَّهُ شَيَّدَ المَمَالِكَ وَسَدَّدَ أَمْوَالَهَا ، وَسَدَّدَ نُغُورَهَا ؛
وَحَمَى بِيضَ سُيُوفِهِ السَّوَادِ الأَعْظَمِ ، وَرَمَى بِصَوَابِ سِهَامِهِ النُّوَابِغِ وَلَمْ تُسْتَعْظَمْ ؛
وَلَمْ تَزَلْ نُوبُ الأَيَّامِ مُجْرَبٌ مِنْهُ مَسُورِيَا ، وَبِجَرْدٍ حَرًّا كَرِيمًا جَاءَ فِي أوَّلِ السَّنَةِ صَقْرًا
بَدْرِيَا ؛ فَكَانَ مِنْ تَمَامِ بَرِّهِ بِمَنْ سَلَفَ إِجَابَةُ وَالدِهِ ، وَإِجَالَةُ الرَّأْيِ فِيهَا يَكُونُ سَبَابًا
لِصَابَانَةِ عَزَمَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ ؛ فَانْعَمَ لَهُ بِعَقِيلَتِهِ المُنْعَمَةِ ، وَرَبِيبَتِهِ الَّتِي غَدَّتِ الشَّمْسُ مِنْهَا
سَافِرَةً مُنْعَمَةً ؛ وَقَالَ : عَلَى الخَيْرِ وَالخَيْرِ ، وَأَبْنُ أُخِي كَرِيمٌ وَجَدَعَ الحَلَالُ أَنْفَ الغَيْرِ ؛
وَمَا أَسْنَى عَقْدًا يَكُونُ مُتَوَلِّيهُ ، وَمُنْشِئُهُ إِحْسَانًا مِنْهُ وَمُسْنِيَهُ ؛ مَوْلَى بِهِ نَظُمَتْ عَقُودُ
اللَّائِي ، وَرُقِمَتْ بِعَلَمِهِ أَعْلَامُ الأَيَّامِ وَذَوَابِغُ اللَّيَالِي ؛ وَسَأَمْتُ القَضَايَا بِهِ إِلَى مُنْقَدِّ

أحكامها، ومُنِيلَ الْفَضْلِ لِحُكْمِهَا؛ الْبَحْرَ الرَّاحِرَ، وَالنَّجْمَ الَّذِي تَمَّ تَرْكُ الْأَوَّلِ مِنْهُ
لِلرَّاحِرِ؛ وَالنَّهَامَ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْإِمَامَ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ
السُّنَّةُ وَلَمْ تُتَكْرَمْ الشَّيْعَةُ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ؛ وَالْعَالِمَ الَّذِي مَابَرِحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامًا، وَحُقُوقَهُ
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ؛ وَالَّذِي وَلَّى الظُّلْمَ مُنْذُ وَلِيَّ، وَأَعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَتْقَاهُمْ تَقَى الدِّينَ وَأَقْضَاهُمْ :

قَاضِيَ الْقَضَاةِ أَبُو الْحَسَنِ * بَبَقَائِهِ يُجَلِّي الْحَزْنَ ،
و [هُوَ] الَّذِي فِي حُكْمِهِ * يَجْرِي عَلَى أَقْوَى [سِنَّةٍ] ^(١) !
طَوْدٌ إِذَا وَازَنَتْهُ * بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ !
وَالْبَحْرُ طَى رِدَائِهِ * قَلْدَ الْعُقُودِ بِلَا ثَمَنِ ^(٢) !

فأضاء المخفل به وبال حاضرين ، وقام شعار الدين حتى قال القائل : هذه سيوف
المجاهدين وهذا سيف المناظرين ؛ وقيل : هذا وقت جود قد حضر ، وموضع
سروير ينبغي أن يعجل منه ما ينتظر ؛ فابتدأ السعد مجاهد الوسيم ، وأفتح فقال :
بسم الله الرحمن الرحيم هذا *



وهذه نسخة صدق ناصر الدين محمد بن الخطيرى ، من إنشاء المقتز الشهابي بن
فضل الله ، وهى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا ، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَاةٍ نَتَأَكَّدُ
حُبًّا ، وَصَانَ كَرَائِمَ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْفَخَّارِ بْنِ يُنَاضِلُ عَنْ حَسَبِهِ ذَبَا ، وَيُنَاطِرُ الْعُلِيَاءَ
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بِيُوتًا وَلَمْ يُسْبَلِ سِوَى السُّمْرِ سُمْرًا الْقَنَا حُجْبًا .

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ دَعَاؤِ قَبْلِ بَيْتِ النَّسِيمِ فَلَيْبِي ، وَأَسْتَدْعَاهُ لِأَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْهِ أَمَامَ
تَفْرِيقِ الْقِسَمِ فَمَا تَأْتِي ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسْتَنْطِقُ
السَّنَةَ وَتَشْكُرُ قَلْبًا ، وَتَسْتَعْدِقُ أَنْوَاءَ السَّرُورِ فَتُضِيءُ الْبَشَائِرَ بَرُوقًا وَتُمْطِرُ الرَّحْمَةَ سَحَابًا ،
وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَامَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ حَتَّى زَادَ عَدَدُهَا عَلَى مَوَاقِعِ
الْقَطْرِ وَأَرْبَى ، وَقَالَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى أَقْرَبَائِهِ صَلَاةً تَصُمُّ آلًا وَصَحْبًا ، مَا سَارَتْ الشُّهْبُ
تَقَطُّعَ الْآفَاقِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَسْتَبَكَّ وَشِيجُهُ ، وَأَشْتَبَهُ فِي مَنَابِتِ الْإِيكِ بَهَبْجُهُ ، وَأَنْتَبَهُ
فِي أَرَائِكِ الْخَمَائِلِ أَرِيحُهُ ، وَأَنْتَدَبَ لِإِتْيَانِهِ الْأُفُقُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَمْوِيهِ
وَمِنْ لَمَعِ الصَّبَاحِ تَدْيِيحُهُ - مَا أَتَبَعَتْ فِيهِ الشَّرِيعَةُ الْمَطْهَرَةَ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ ،
وَالسَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأْتَلَفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكْتُرُ
لِمَبَاهَاتِهِ الْأُمَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، وَتُعَدُّ بِهِ أَيَادِي جَمَّةٍ لَا تُحْصَرُ وَيُجَلِّدُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيُتَجَلَّلُ بِهِ شَرَفُ النَّعْمَةِ ، وَهُوَ النَّكْحُ الَّذِي تَسْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمَثِيلِ أَكْثَرِ الصُّوَرِ مِنْ أَرْزَاقِ الْعَنَاصِرِ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ هِمُّ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِجَفْدَةِ
أَنْبَاءِهِ مِنْ أُمَّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلَهُ مَا تَمَثَّلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرِيقَةِ وَجُوهُ
نَخَارِهِ ، وَتَقَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرْفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُمُوهِ وَمَطَالِعُ أَقْفَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْوَانُ فِي أَهْلِ الْفَخَّارِ مِنْ جُرْثُومَةٍ بَسَقًا ، وَأَرْوَمَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
ثُمَّ تَلَاقَتْ مِنْهَا غُضُنَانٌ وَأَعْتَقًا ، مِنْ بَيْتٍ مَا حُجِبَهُ إِلَّا مَوَاضِي الصِّفَاحِ ، وَلَا شَبِيهَهُ

إلا طلائع الأسنّة في رؤوس الرّماح، ولا سُبُحُه إلا ما يفيضُ على جَنابَتِه من النفوس
 أو يفيضُ من السّماح، ولا سُبُحُه إلا المناقبُ لولا أن الثّرياً جاذبت ما يعرضُ
 في السماء أُنشَاء الوشاح ؛ وكان هو الرّاغِب إلى عمّه، الخاطِب إليه ما لم يكن يُجَبُّ
 إلا لقسَمِه ؛ الطّامِح بَنظَرِه إلى عَقيلَة الفَخار في غُرَفِها، الطّامِع بَخِطْبَة السّمسِ شمسِ
 النّهار إلا أنها في بَيْتِ شَرَفِها ؛ المُتَوَقِّع من كَرَمِ عمّه الإجابة التي لحظها بأَمَلِه ، وتَوَلِيَة
 يدِ كَرِيمة لا يَعتَدِلُ الزمانُ إلا إذا حُمِلت سَمْسُها في بَيْتِ حَمَلِه ؛ تَوَقُّعاً لَنَسْلِ لا يزال به
 شَرَفُ هذا البَيْتِ الكَرِيمِ مَوْجوداً، ونَسَبِ إذا عَدَّ ولدٌ منه الآباءَ عَدَّ جَدَّيْنِ سَعِيدَيْنِ
 هَذَا مَسْعُوداً وهذا مَحْمُوداً ؛ فَتَلَقَى قَصَدَه بِإِكرامِ بَوَاهِ أُنكافِ الشَّرَفِ ، وَأوطاهُ
 فُرُشَ الكَرَامَةِ مَتَعاً بِنَعِيمِ التَّرَفِ ، آبتداعاً للكِرَمِ المألوفِ ، وآتباعاً للسَّنَةِ الشَّرِيفَةِ
 إذ كان الأقربون أَوْلَى بالمعروفِ .

فَبَارِيَا جُوداً سارِعَ كُلِّ منهما في أدَاءِ حَقِّه إلى الواجبِ ، وَتَجَارِيَا إليه لِيَلْحَقَا
 شَأوَأبويهِما وَكُلِّ منهما يعلم أنه العَيْنُ والعَيْنُ لا تَرْتَفِعُ على الحَاجِبِ ؛ وَأَتَمَّ الحَنابُ
 الشَّرْفِيُّ مَحْمُودٌ - أدام اللهُ نِعْمَتَه بِحُسْنِ إجابته ، وَيُنِ رَغْبَتِه في أَهْلِ عِصْبَتِه ، وَأَهْلَ
 جُنُودِه إلى أن ساروا إلى الهِجاءِ نَحْتِ عِصْبَتِه - بأن فَوَضَّ هذا الأمرُ إلى أَخِيهِ
 الكَبيرِ وَالِدِ الخاطِبِ ، وَسَكَتَ وقال : هو في التَّصَرُّفِ وَعَنَى الخاطِبُ ؛ وله الأمرُ
 ولولا الشَّرْفُ بِنِسْبَةِ الأُخُوَّةِ إليه لما قُلْنَا : إلا أَنّا مِلْكُ يَدِه ، وإذا كان العمُّ صِنو
 الأبِ فَأَيُّ فَرَقٍ بين وَلَدِي وَوَلَدِه ؟ ، وَلَئِنِ أَخْتَصَّ في نِسْبَةِ هذه الزَّوْجَةِ في يَوْمِه هذا
 فَإِنَّ أولادها لا تُعَرَفُ إلا به في غَدِه ؛ فَكُلُّ هذا العَقْدِ ، وَأَشْرُقُ به السَّعْدُ الطَّالِعُ
 أَضوَأً مِمَّا قَدَّمَ وَأَخْرَمَ مِنَ النَّقْدِ ؛ وكان من تَمَامِ التَّكْرِيمِ ، أن قال قائِلُه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهذه نسخةُ صَداقِ القَاضِي تَقِيِّ الدِّينِ ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَلِيَّةِ من كان تَقِيًّا ، وَجَمَعَ شَمْلَ من لم يَبْرَحْ لِسَنَنِ السُّنَنِ تَابِعًا وَبِهَا حَفِيًّا ؛ وَخَلَعَ أَثْوَابَ الثَّوَابِ عَلَى من سَرَّحَ طَرْفَ طَرْفِهِ فى رَوْضِ التَّاهُلِ وَجَعَلَهُ وَضِيًّا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي من هَرَجِ جِدْعِ نَحْلِهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَتَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ الِذِى كَمَّ أَجْرَى لِقَاصِدِهِ من بَحْرِهِ المَعْرُوفِ سَرِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمُنُّحُ قَائِلِهَا فى غُرْفِ الجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الِذِى آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، الأَمْرَ أُمَّتَهُ بِالنِّكَاحِ لِيُكَاثِرَ بِهِمُ الأُمَّمَ يَوْمَ يَقْرُبُهُ اللهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الِذِينَ كان يُحِبُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِي الكَرَمِ وَالكِرَامَاتِ وَوَلِيًّا ، ما أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفاقِ الأَنْصَالِ مِنَ الأَنْسابِ الكَرِيمَةِ كَوَجْبا دُرِّيًّا ؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى السُّنَنِ بِالأَتْبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الَّتِي أَخْفَى نُورُ مُصْبِحِهَا شَمْسَ الصُّبْحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَى مَعَالِمِهَا أَعْلَامُ النِّجَاةِ وَالنَّجَاحِ ، وَحَمِدَ المَسِيرَ إِلَى رُبُوعِهَا الأَهْلَةَ بِأَهْلَةِ العِصْمَةِ فى العُدُوِّ وَالرَّوَّاحِ ؛ يالها سُنَّةٌ وَجْهًا جَمِيلَةً ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا بِلِ أَيْدِيهِ جَزِيلَةً ؛ بِهَا تُحْمَى أَشْجارُ النَّسَبِ وَيَطِيبُ جَنَاحُهَا ؛ وَتَبْلُغُ النَفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ أَقْصَى مُنَاهَا ؛ وَيَظْفَرُ أَوْلُو الرِّغْبَةِ فىها أَحَلَّ اللهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتَوَلَّفَ بَيْنَ مَنْ لو أَنْفَقَتْ ما فى الأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ؛ وهى الوَسِيلَةُ الَّتِي تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَالدَّرِيعَةُ إِلَى [بَقَاءِ] النُّوعِ الِذِى أَظْهَرَ اللهُ فى سَمَاءِ التَّكْرِيمِ نَجْمَهُ ؛ وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ فى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً وَرَحْمَةً) .

ولما كان كذلك رَغِبَ في أَقْتِنَاءِ آثَارِهَا ، وَأَهْتَدَى بِالضَّوئِ الْأَمَعِ مِنْ أَقْفَارِهَا ؛ مَنْ
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانَ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا أَنْتَشَرَ فِي طَيْبِهِ مِنْ طِيبِ عَرَفِهِ ؛ مَا جَدُّ
عَمْرَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ بِدَوَامِ دِيَمِهِ ، وَجَوَادِّ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ مِنْ كَرَمِهِ ؛
وَرَبِيسَ أَمْطَلَى ذِرْوَةَ الْعَلْيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَأَرِيحَى لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرِّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أُبْرَزَكَ الْجَوْهَرِ الْمَصُونِ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لُبْكَاءُ قَلْبِهِ تُغَوِّرُ
التُّغَوِّرَ وَالْحُصُونَ ؛ لِلَّهِ نَسَبُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكْبَرِ الْأَعْيَانِ ، وَيَبْتُهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ
الْمَرْفُوعِ خَبَرُهَا إِلَى فِتْيَانِ ؛ نَخَطَبُ مِنْ عَلَا قَدْرُهَا ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عَنْ أَنْ تَرَى الْعُيُونَ لَهَا فِي الصُّونِ شَيْبًا ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعُ سَحْبَ بَرَكَةِ أَبِيهَا ؛
أَكْرَمُ بِهِ عَالِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُنْدَى فَضْلًا وَيُسَدَى نَائِلًا ؛ كَمَ لَهُ مِنْ آثَارِ
مَشْهُورِهِ ، وَمَنَاقِبِ مَأْثُورِهِ ، وَصَدَقَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ بَدِئِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورِهِ .

فَقُوِيلَ بِالْبِشْرِ قَوْلُ رَسُولِهِ ، وَرَدَّ رَائِدُهُ مُحِبًّا بِبُلُوغِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ ، :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْأَنْفَاقِ أَنَجْمُ سَعُودِهِ ؛ وَمَا يَلَتْ قُدُودَ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَّتْ مَجَالِسُ السُّرُورِ
بِالْأَنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَّتْ قُبُولَ الْإِقْبَالَ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق... ..



وهذه نسخةٌ صدَّقَ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفديّ ، للقاضي بدر الدين
خطيب بيت الأناور ، على بنت شمس الدين الخطيب من بيت الأناور ، تُسَمَّى
سُولى ، في مُسْتَهْلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي مَجْلَسِ مَوْلَانَا
قَاضِي الْقِضَاةِ تَقِيَّ الدِّينِ السُّبُكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زينَ سماءَ المعالي ببدرها، وأثبتَ في رياضِ السعادةِ يانعَ زهرها،
وألهمَ ذوي الهممِ أن يبذلوا في الكرائمِ غوالي مَهْرها .

نحمدُه على نِعَمِهِ التي حَلَّتْ ما ضفا من لباسها ، وسَوَّغَتْ ما صفا من رُضابِ
كاسِها ، وخصَّنا بما عَمَّتْ به من أنواعِ أجناسِها ؛ وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده
لا شريكَ له ، أَعْلَمْنَا في الإيمانِ نَصْها بالأداء ، وبجَى أسمِها على الفتحِ كما فُتِحَ
المضائفُ في النداء ، ورفَعَ خَبَرها : إما على رَأْيِ الرواةِ للشهرةِ وإما على رَأْيِ النُحاةِ
بالابتداء ؛ ونشهدُ أن سيدنا محمداً عبدهُ ورسولهُ الذي شرعَ النكاحَ لهذه الأمةِ ،
ومَنَعَ السَّفاحَ فلم يكن أمرُنا علينا عُقْمه ، ونهَجَ الصَّوابَ فما ظَنُّكَ بالصَّباحِ إذا أبتلجَ
عَقِيبَ اللَّيْلَةِ المُدْهِمَةِ ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبهِ الذين تَلَقَّوْا أوَامِرَهُ بالطاعةِ ،
وَأَجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ حَتَّى بَلَّغُوا جُهْدَ الأَسْطِطَاعَةِ ، وَفَهِمُوا مُرَادَهُ بِمُكَاتَرَةِ الأُمَّمِ فكان
البِضَاعُ عندهم خَيْرَ بِضَاعِهِ ؛ صَلَاةَ رِضْوَانِها يُبْضِئُ إِضَاءَةَ الكواكبِ في أبراجِها ،
وَعُفْرَانِها يُكَاتِرُ البِحَارَ في أَعْدَادِ مَوْجِها ؛ ما أَتَّصَلَ سَبَبٌ بالنكاحِ ، وَأَنْفَصَلَ نَسَبٌ
بالسَّفاحِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً كَثِيراً إلى يَوْمِ الدينِ .

وبعدُ ، فإن النكاحَ من محاسنِ هذا الدينِ التِّمِّمِ ، وفَضائلِ هذا للشرعِ الذي
لا زال شرفُه بَدْرًا بين مُشْرِقاتِ النُّجُومِ وهو مُحِمْ ؛ به يُحْفَظُ النِّسَبُ الشُّرُودُ ، وَيُرْعَى
عَهْدُ القَرِينَةِ الوُلُودِ الوُدُودِ .

وكان فلانٌ ممن أشبه أباه ، وأبين ما أودعه من نفائسِ العُلُومِ وحبَّاه ؛ تصدَّر
في المجالسِ ، ودرَّسَ في المدارسِ ، وأورد ما عنده من النَّفائسِ ؛ كيف لا ؟ وهو
سِبْطُ شيخِ الإسلامِ وإمامِ المسلمين ، وقاضِي قُضاةِ الشَّافِعِيَّةِ وأوْحِدِ المجتهدين ؛
وقد أراد الآنَ إحصانَ فرجه ، وأن تنزِلَ الزُّهْرَةُ مع بَدْرِهِ في بُرْجِهِ .

فلذلك رَغِبَ إلى المَجْلَسِ العَالِي (المسمى) وَخَطَبَ الجِهَةَ المَصُونَةَ المَحْجَبَةَ ،
التَّقِيَّةَ، التَّقِيَّةَ، العَفِيفَةَ ، الخَاتُونَ، غُصْنَ الإسلام، شَرَفَ الخَوَاتِينَ، جَمَالَ ذَوَاتِ
السُّتُورِ، قُرَّةَ عَيْنِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ، السَّيِّدَةَ "سُؤلى" بِنْتُ فُلَانٍ، صَانَ اللهُ
حِجَابَهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصْدِهِ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ دُرَّةٍ فِي عِقْدِهِ .

فلذلك قام خَطِيبُ هَذَا الحَفْلِ الكَرِيمِ، والنَّجْمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ نَجْمَهُ بِالطَّالِعِ المُسْتَقِيمِ،
وقال :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قُلْتُ : وَهَذِهِ نَسْخَةُ صِدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةَ السَّيْفِيِّ أَزْدَمِرَ ، عَلِيَّ بِنْتِ أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ «المُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ» . أَنشَأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا المُسْتَعِينِ بِاللهِ العَبَّاسِيِّ ، وَهِيَ :
الحَمْدُ لِلَّهِ مُسْتَخْرَجِ الدَّوْحَةِ الهَاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ العِنَاصِرِ ، وَمُقَرَّرِ النَّبْعَةِ العَبَّاسِيَّةِ
مِنْ أَكْرَمِ صِنُوفِهَا أُنْعَقِدْتُ عَلَى فَضْلِهِ الخِنَاصِرِ ، وَمُخَصَّصِ بَيْتِ الخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبِ ذَلَّتْ لِعِزِّهِ عُظْمَاءُ المُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمِ وَمُعَاصِرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عِقَائِلَ الخُلَفَاءِ بِمَعَاوِلِ الحَسَبِ ، وَحَصَرَ كِفَائَتَهَا فِي العِلْمِ وَالدِّينِ
حَيْثُ لَمْ يُكَافَأَ بِحِرْفَةٍ وَلَا نَسَبٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي
سَنَّ النِّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْغَمَ بِالْحِلِّ أَنْفَ الغَيْرَةِ لَدَى الإِبَاءِ وَقَمَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَشَقُّ
مِنْ رِيَاءِ عِيْرِهَا كُلِّ شَيْءٍ أَرِيحُ ، وَتُجْتَنَى ثِمَارُ بَيْعِهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِهَيْجٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَفُرَى فِي الفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَآهَمْ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ رَخَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ صَحَابِهِ وَإِلَّا فَيَنْ كُفَّ رَسُولَ اللهِ
مِنْ العَالَمِ ؟ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصَّهْرَ

بالتسبب فيهم نخص مصاهرته أخصهم به ؛ صلاة تصل سبب قائلها بسببه ،
وتجعل الفخارها كلمة باقية في عقبه ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى ما أطل فيه المطيل ، وشيخ في وصفه الذهن الكليل ، ورفقت
محاسن ذكره على صفحة النهار بدائب ذهب الأصيل - ما توأمت به الأنساب ،
وتوصل بواسطته في دراري الذراري إلى شرف الأحساب ؛ وتوقرت عليه الدواعي
فأشدت به الأواصر ، وحسنت في طريق قصده المساعي فتأكدت به المودة
في البواطن والظواهر . وهو النكاح الذي ندب الله تعالى إلى معاطاته ، وحض
على التحلي بجماله حتى ألحقه بالعبادة في بعض حالاته ؛ طلباً للتخصيص الكافل بسؤلك
نهج الاستقامة ، ورغبة في تكثير النسل الواقع [به] مكثرة الأمم يوم القيامة .

هذا وكرائم بيت الخلافه ، وربائب محمد المجيد والإنافة ؛ في حيز لو طلب مناو
مكافاتها لطلب معوزا ، أورا م مقاوم مضاهاتها في علو الرتبة لرام معجزا ؛ لما
أختصت به من السيادة التي لا يرقى إلى منزلتها ، والمعالي التي لا تسمو النفوس
وإن شمتخت إلى ربتها ؛ إذ كان النظر لشرف أرومتها ممتنعا ، والنقيض بما ثبت من
طيب جرثومتها مرتفعا ؛ فبرق معاليها في التطاول لا يسام ، وجوهر نغارها في المآثر
لا يسام ولا يسام ؛ فعز بذلك في الوجود مكافها ، وأمتنع - خوف الهجوم بالاختطاب -
موافيها ؛ إلا أن المواقف الشريفة المقدسة المتوكلة - زاد الله تعالى في شرفها ،
وأدام رعايتها بحلة الملوك وحمايتها وكنفها - مع ما أفردت به من العز الشاخي الذي
لا يساوى ، والشرف الباذخ الذي لا يتاوى ؛ قد رغب تفضلها في أهل الفضل فال
إيهم ، وأختص بأقباله أهل الدين فأقبل بكليته عليهم ؛ محلاً لهم من شريف مقامه
العلي محل الأصطفاء ، ومقدماً لهم في المصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء ؛ فوافق

في الفضل شُنَّ طَبَقَهُ ، وَحَاوَلَ سَاوَةَ النِّعَمِ مِنْهَا خَيْرُ خَاطِبٍ فَلْتَقَى بِقَبُولِ : إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقَتِهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمَ مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَخَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْحَمْدِ لِسَانَهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصَدَّقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْعَائِدِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْمُفَوِّهُ ، الصَّوْدَرِيُّ ، الرَّيْسِيُّ ، الْأَصِيلِيُّ ، الْعَرِيقِيُّ ، الرَّيْبِيُّ ، أَبُو الْمَعَالَى صَدَقَةٌ - الْجِهَةُ الشَّرِيفَةُ الْعَالِيَةُ ، الْكُبْرَى ، الْمَعْظَمَةُ ، الْمَحْجَبَةُ ، الْمَصُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرَعُ الشَّجَرَةِ الزُّكِّيَّةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحْجَبَاتِ ، سَارَةُ ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، النَّبِيُّ ، الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ" أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ابْنِ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٍ" بِنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْفِي بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ" ابْنَ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ" لِأَزَالِ شَرَفُهُ بِأَذْخَا ، وَعِزُّ يَدِينُهُ الشَّرِيفِ شَاخِحًا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنَقِبَةٍ نَاسِحًا - صَدَاقًا جَمَلْتُهُ كَذَا وَكَذَا ، زَوَّجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقَبِيلُهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةً شُرُوطُهُ وَلَوْ أَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةً عَوْدُهُ وَنَمَائِمُهُ ، مَيْمُونَةً فَوَاتِحُهُ وَخَوَائِمُهُ ؛ مُفْتَتِحَةً بِطَيْبِ الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةً عَنِ [نُورِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا مَه .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة الثرالمستجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروض الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك ، وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في قرحة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية ، بين كل سطرين نحو أصبع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بأبي الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نجر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكامل ، وسنى يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلاً من الله ونعمة .

وُسُخَّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مِقْدَارًا ، وَأَجَزَلَ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَقَّقَ
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ آقَدْتُمْ بِهِمْ إِيْرَادًا ، وَإِصْدَارًا ، أَشْرَعَتْ هِمْمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَلْبَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَفَاخِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ،
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَفَاخِرِ أَقْفَارًا ، وَأَزَالَ بِضْيَاءِ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّىٰ عَادَ لَيْلُ
الْجَهَالَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجْبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَّهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهَيْكَ بِهَا نَخَارًا .

أَحْمَدُهُ حَمْدٌ مِنْ هُدَىٰ إِلَىٰ الْحَقِّ بِجَعْلِهِ شِعَارًا ، وَأَسْتَضَاءُ بِنُورِ الْهُدَىٰ فَلَجًّا إِلَىٰ
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَفْقَارًا ، وَعَجَزَ عَنِ شُكْرٍ مَا أَسْدَىٰ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِمَا تَوَالَىٰ
عَلَيْهِ وَبَلَّغًا مِدْرَارًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عُدَّتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِجَارًا ، فِقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتَبَارًا ، وَقَهَرَ مِنَ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ اغْتِرَارًا ،
وَأَتَمَدَ بِضْيَاءِ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِيبَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ نَقْلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّؤُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَّحَ لِدَوَىٰ الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَّ عِنْدَ ذَوَى الْأَسْمَارِ وَالسَّرَائِرِ ؛
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوَى الْقُلُوبِ السَّالِمَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ؛ أَنْ مَنَزَلَةَ عِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ؛ وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مَنَ عَلِمَهَا وَعَمَلَهَا
وَعَلَّمَهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِخَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعَيْدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمِنَّةَ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنْهٍ ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّصَهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فَتَنَّى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكُونِهِمْ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتْقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » . وَقَالَ أَيْضًا : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَتَمَسَّ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » . وَقَالَ أَيْضًا : « أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَاعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ » .

ولما كان فلانٌ - أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه - ممن شبَّ ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلَّق بالأخلاق المرضية الجميلة الحليمة ؛ وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ؛ واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضى ، وإلى نيل السعادة - إن شاء الله تعالى - يفضى - استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة ، الحبر الفهامة ؛ فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ؛ سراج الدين ، مفتي الإسلام والمسلمين ؛ أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم ، العاقل ، الأوحد ، الكامل ، القدوة ، المرحوم نور الدين أبي الحسن علي ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وببركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أديته،
بمحمد وآله وصحبه وعترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه؛ أن يُدرّس مذهب
الإمام المجتهد المطلق العالم الربّاني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي، الشافعي،
رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يُفيد ذلك لطالبه؛ حيث حلّ وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأين شاء، وأن يُفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه: لعلمه بدياته وأمانته، ومعرفته ودرايته، وأهليته لذلك وكفايته .

فلتلق أيدى الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليرتق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيفة؛ وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدّى من الإحسان الوافر إليه؛
وليراقبه مراقبة من يعلم أطلّاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور؛ ولا يستكف
أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذلك قول سعد قائله . وقد جاء: "جنة العالم لا أدري
فإن أخطأها أصيبت مقالتة" فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق؛ ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجزئى كل خيرٍ بسببه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً - صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد أعتنى وفقه الله تعالى وإيأى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي نعمده الله تعالى بقُرَّانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال بديع فصاحته جملة مدلهمه ؛ وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاربه ما يقف عنده البارح الأريب .

فليتق الله حينئذ فيما يبيده ، وليتجر الصواب في لفظه وخطه وأبراق الله فيه ؛ فإنه موقعٌ عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخلل ؛ وليستحضر ما اشتلت عليه من الحلاله ، فإن الله تعالى تولاها بنفسه حيث قال : (سَتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عنى ما لي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكمله ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثاً فقيهاً .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعن رواية بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيأى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و"مسلم" و"أبو داود" و"الترمذي" و"النسائي" و"ابن ماجه" . والمسائيد : "مسند أحمد" و"مسند الشافعي" .

وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومصليا ومُسَلِّما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : «الفقيه إلى الله
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العامل ، الأوحد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علم
المفيدين ، رحلة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان» (بحسب رتب
آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد
أن يذكر ألقاب نفسه في مُصنّف له ، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه .

وأما الإجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ
العصر ، فيقطع الشيخ المعروف عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،
يستقرئها إياها من أي مكان أتفق ، فإن مضى فيها من غير توقّف ولا تلّغيم ، استدل
بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض
عليه ، في ورقٍ مربعٍ صغيرٍ ، يأتي كلُّ منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عالٍ ، ومن هابط . وربما
خفف بعضهم فكتب : «وكذلك عرض على فلان» ، أو : «عرض على وكتبه
فلان» . إما رياسةً وتابيا عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وإما معجرا عن
مضاهاة من يكتب معه .

وقد آخرت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .
فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، وحجة الأدب ، بدر
الدين محمد بن أبي بكر الخزومي المالكي ، للنجل النبيل الذي تنهى الألقاب ولا نهاية

لمناقية، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكفل شبا الألسن عن حدها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو عمدتنا في النجاة يوم العرّض ونأهيك بها عمده، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروي حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأعرّبت كلماته النفيسة عن عقود الجواهر و"شذور الذهب"، وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعرّبوا عن طرق الهداية، ما أنهل من أفق الكرم المحمدي كل عارض صيب، وتخلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفاس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب - فقد عرض على الجناب العالي البارعي، الأوحدي، الألمعي، اللودعي، الشهابي، شهاب الدين، ثجبة التجباء، أوحده الألباء، تجل السادة العظام، سلالة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقرّ الكريم العالي، المولوي، العالمي، الفاضلي، البليغي، المفيد، الفريدي، المفوهي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة متفرقة من "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضا قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لآمة حرب الفئة الباغية عليه فأحسن عند العرّض في سردها، وزين أبقاه الله تلك الأما كن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وأذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتّابين قد حصلت مجموعها في خزنة حفظه .

فَبَدَا هُوَ مِنْ حَافِظِ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَالِيَا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا أَقْتَضَى
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فَلِلَّهِ دَرُهُ مَقْدَمًا وَتَالِيَا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَعْدَلِ طَرِيقِ
وَنَاهَيْكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَانَ مَنَظِقَهُ عَنِ خَالَ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ "الْمَقْدَمَةُ الشَّمْسِيَّةُ" ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانَهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْضِيلِ
فِي حَابَةِ السَّبَاقِ ، وَطَابَقَ بَيْنَ رَفْعِ شَأْنِهِ وَخَفْضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَأَشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعِ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الْإشْتِغَالِ ، وَنَصَبَ فِكْرَهُ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَتَعَيَّنَ تَمْيِيزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّدَتْ نَارُ ذَهْنِهِ
فَتَلَطَّى حَاسِدُهُ بِالْإلْتِهَابِ ، وَرُوِيَتْ أَحَادِيثُهُ بِاللِّغَةِ فِي الْعُلُوِّ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدَعُ
إِذَا رُوِيَتْ أَحَادِيثُ الشُّهَابِ ؛ وَافْتَخَرَ مِنَ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي أَرْتَفَعَ فِي دِيْوَانِ
الْإِنْسَاءِ خَبْرَهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْقِيْعِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُحَرِّرُهُ وَيُجَبِّرُهُ ؛ وَوَشَى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضُ قَدِ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِهِ ، وَنَحَّأَهَا بِإِنْسَائِهِ الَّذِي هُوَ عُمْدَةُ الْمُتَأَدِّبِينَ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفْعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَدْيَانَهُ تَفَانِسَ الدَّرَرِ فَقَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ "صِيْحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ" ،
وَفَتَحَ بِجَيْشِ بِلَاغَتِهِ مَعَاقِلَ الْمَعَانِي الْمُتَمَنِّعَةِ وَحَسَبَكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِيَّ :

بَيَانُهُ السَّحْرُ قَدْ أَخْفَى مَعَاقِدَهُ * لَكِنْ أَرَانَا لِسِرِّ الْفَضْلِ إِنْسَاءَ
إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحِ مَنَظِقَهُ * نَظْمًا وَيُطْرَبُنَا بِالنَّثْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَمَّدٌ ، وَيُقِرُّ عَيْنَهُ بِهَذَا الْوَلَا
التَّجِيبِ حَتَّى لَا يَبْرَحَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللَّهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ ، لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدَ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "الْمِنْهَاجُ" فِي الْفِقْهِ لِلنَّوَوِيِّ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ
وَمِائَةَ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذي أَوْضَحَ بِنَجْمِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الفِقهِ وَأَثَرَهُ ، وَأَقْضَحَ لِسَانَهُ بِكُتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَثَرَهُ ، فَسَطَّعَتْ أُنُورُ شَهَابِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَثَرَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنْارَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى أَسِيدِنَا مُحَمَّدٍ المَخْصُوصِ بِعمومِ الرِّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلَهُ بِمَجْمَعِ أنواعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ المَهْدِيِّ ، وَشَهَبِ التَّمَامِيِّ وَالْأَقِيدَانِ .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الفَقِيهِ الفَاضِلِ تَجَلُّ الأَفاضِلِ ، وَسَلِيلِ الأَمَانِلِ ؛ ذُو الهِمَّةِ العَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الدِّكِيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّرِيكِيَّةِ ؛ نَجْمِ الدِّينِ ، أَبُو عبد الله مُحَمَّدُ بنِ فُلانٍ : نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ العِلْمِ وَتَالِدِهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةً مِنْ "المِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ المُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأَلِيفَ الحَبْرِ العَلَامَةِ وَوَلِيَّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بنِ شَرَفِ بنِ مَرِي النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الحِنَّةَ مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الكِتَابِ ، كَمَا فَحَّحَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِحَ الخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ العَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .

وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كذلك عَرَضَ عَلَى المَذْكُورِ بِاطْنِهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَدَّبًا مُجَادًّا مُتَقِنًا ؛ عَرَضَ مِنْ أَتَقِنَ حِفْظُهُ ، وَزَيْنَ بِحَسَنِ الأَدَاءِ لَفْظُهُ ، وَأَجْزَلَ لَهُ مِنْ عَيْنِ العَنَاءِ حِطُّهُ ؛ مَرَّ فِيهِ سُرُورُ الهِمْلَاجِ الوَسَاعِ ، فِي فَيْسِيحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أسبابَ الخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُفُورِ أَرِيحَتِهِ ، وَتَوَقُّدِ فِكْرِهِ ، وَأَتَقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقُ :

سَيِّئَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنَّ الخَلَائِقَ - فَاعِلَمَ - شَرُّهَا البِدْعُ !

وقد أذنت له أن يرَوِي عَنِّي الكتابَ المذكورَ، وجميعَ ما يجوزُ لي وعَنِّي روايتهُ من مُصنَّفاتي وغيرها من منظومٍ ومُنثورٍ، ومُنقولٍ ومَعقولٍ ومَأثورٍ؛ بشرطه المعْتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلانٌ في تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبتُه لمن أسمه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان :
وقد عرَض عليّ «الأربعين حديثاً» للشيخ محي الدين النووي رحمه الله، و«الورقات» في الأصول لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية» في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان دَفْعَةً واحدة، وهو لدونِ عشرِ سنين، وهو :

الحمدُ لله الذي أطلع من دَراري الأفاضل في أفقِ النجاة شمسا، وأظهر من أفاضل الذراري ما يُعْضُّ به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجاة فطاب جنِّي وأغرق أصلاً وزكاً غرساً؛ وأبرز من ذوي الفطرِ السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحها، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونحرق بكرم بدايته العادة بجاز الأربعين لدونِ العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة أسمه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخصّ بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهن؛ فاسمى به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب؛ وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرَض عليّ فلانٌ مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمز فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا كجا .^(١)

يظهر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ كما ترى .

وأما الإجازة بالمروريات على الاستدعاءات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنعم على الأديب بدوق أتى في نظمه ونثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سائمة لم يكن على حجاجه حجاب .

نعمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حُسن الصياغة ، وصيد أواميد المعاني التي من أعمل فكره في اقتناصها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلاق فسيح عراضها ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سننه وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامية الغفران ، نامية الرضوان ؛ ما أجاب مجيب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تُغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحفُّق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الأعلام ؛ ولم تزل رغبة السلف تتوفر عليه ، وتُسبِر أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الجبار يتحولون إلى أفاصي

الأقاليم في طلبه، ويحملون المشاقَّ والمتاعبَ فيه ويتجملون بسببه؛ فقد أرتحل الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحقُّ بالفضل عليه قمن؛ ولكنه فنَّ يحتاج إلى ذوقٍ يعاضدُ من لا يعانده، وأمرٌ لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكادُه؛ فما عند من طلب الروايةَ أجلَّ من أبناء جنسه، ولا عند المفيدِ المفيدِ أحلى من قوله: حَدَّثَنَا فُلَانٌ أَوْ أَشَدَّنَا فُلَانٌ لِنَفْسِهِ، ولكن:

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذًا * فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ حُؤُلَا!

ولما كان الشيخُ الإمامُ شهابُ الدين أبو العباس أحمدُ ابنُ الشيخ ... مِّن نَّظْمِ فَوَدَّتْ الدَّرَرُ فِي أَفْلَاكِهِ لَوْ أَسْقَتْ، وَكَتَبَ فَرَقَمَ الطُّرُوسَ وَوَشَّاهَا، وَغَشَّاهَا مِنْ زَهْرَاتِ الرِّيَاضِ مَاغَشَّاهَا؛ وَحَلَّ الْمَتْرَجَمَ فَسَحَرَ عَقْلَ كُلِّ لَيْبٍ وَخَابَ لُبُّهُ، وَوَقَعَ عَلَى الْقَصْدِ فِيهِ فَكَانَتْهُ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ خَصَّ اللَّهُ بِهِ قَلْبَهُ، وَأَتَى فِيهِ بَدَائِعَ مَا تَسَاوَى ابْنُ الصَّبْرِ قِيٌّ وَلَا ابْنُ عِنْدَهَا بَحْبَهُ؛ وَخَطَبَ فَصَدَعَ الْقُلُوبَ، وَأَجْرَى ذُنُوبَ الْمَدَامِيعِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، وَحَدَّرَ فَكَانَتْ أَسْبَاجُهُ كَالْحَنَانِ إِسْحَاقَ وَسَامِعُهُ يَبْكِي بِأَجْفَانٍ يَعْقُوبُ؛ كَأَنَّهَا هُوَ فِي حُلَّةِ الْخَطَابَةِ بَدْرٌ فِي غَمَامِهِ، أَوْ مِنْبَرُهُ غُصْنٌ وَهُوَ فَوْقَهُ حَمَامَةٌ، أَوْ بَحْرٌ وَفَضَائِلُهُ مِثْلُ أَمْوَاجِهِ وَدُرُّهُ يَحْكِي كَلَامَهُ؛ لَوْ رَأَى "ابْنَ نَبَاتَةَ" مَا أَوْرَقَتْ بِالْفَصَاحَةِ أَعْوَادُهُ، أَوْ "ابْنَ الْمُنِيرِ" مَا رُقِمَتْ بِالْبَلَاغَةِ أَبْرَادُهُ، أَوْ "ابْنَ تَيْمِيَّةَ" مَا حَطِيَّتْ بِالْحُدُودِ أَجْدَادُهُ؛ فَأَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ قَدْرِي، وَيُعْرِفَ نُكْرِي؛ فَطَلَبَ الْإِجَازَةَ مِنِّي وَأَنَا أَحَقُّ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَأَسْتَدْعِي ذَلِكَ مِنِّي: وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

(١) بياض بالأصول ولعله: ولا ابن نباتة.

فَنَعَمْ قَدْ أَسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ * يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :
لَمَنْ مَلَكَ الْفَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّائِغِ عَلَى اسْتِدْعَاءِ
لِبَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّبُ مَنْ اسْتَجَدَى كَرَمَهُ ، وَلَا يُحِبُّبُ مَنْ اسْتَدْعَى
نِعْمَهُ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدْمَهُ : (؟)

أَثَرْتُ الْجَوَائِبَ بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَابِي * وَعَظَّمْتَ خَطِيئِي إِذْ قَصَدْتَ خَطَائِي :
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُحِبُّبُ وَمَنْ أَنَا ! * أُحِيزُ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !
عَجِيبٌ لَطَّابٍ لَدَيْنَا تَخَلَّفُوا * وَكَمْ قَدْ أَنَا دَهْرُنَا بَعْجَابِ !
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوكِ أَمْرٌ نَائٍ * عَرَبِنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (١)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بِيضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُرْجَاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مُرْجَاهُ ، وَتَسْمِيعُ أَخْبَارِهِ
عَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ؛ وَتَصَانِيفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِضِهَا
لِقِصْرِ الْهَيْمَمِ مَمْتَدَةٌ ؛ سَأَلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنْ أُعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
لَأَعْرِفَ لَصَقْلَ الْأَذْهَانِ حَدَّهَا ؛ وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أُخْرَى ، وَمَقَاطِيعَ إِنْ لَمْ
تَكُنْ كَالزُّهْرِ فَهِيَ كَالزُّهْرِ ؛ ثُمَّ عَدَّدْتُ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "مَجْمَعُ الْفَرَائِدِ"
فِي سِتِّ عَشْرَةَ مَجْلَدًا . ثُمَّ أَنْشُدُ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشْفِ الظُّنُونِ : تِسْعَةٌ عَشْرَ مَجْلَدًا .

وَلَقَدْ شَرَفْتَ قَدْرِي * بِنَفْسٍ مِنْ هَدَايَا :
 بِنِظَامِ شَنْفِ السَّمْعِ * يَدْرُ كَالثَّنَايَا .
 فَارْوِمْنِي وَأَرْوِعْنِي * وَأَغْنِ عَنِ شَدِّ الْمَطَايَا ،
 وَأَنْتَقِ الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، * وَأَحْظِ مِنِّي بِمَزَايَا ،
 وَتَحَرَّ الصَّدْقَ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!
 أجزت لك أن تروى هذه وغيرها عني ، ولك الفضل في قبول ذلك مني .

الصنف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنّفات المصنّفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنٍّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتي كلٌّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسمة من أول الفاتحة ، وهي :

وقفت على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلامة ، ونسبه في المذهب الشافعي أعلامه ، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأبهر علامة ، فأقسم ما سام الروض حدايقه ، ولا شام أبو شامة بوارقه ، كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة ، وكل التصانيف تقول أمامه : بسم الله ، ثم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه ، وكم فيه من حجة يكفل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه ، قد أيد ما ادعاه بالحديث والآثر ، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر به لقد سر الشافعي بنص

قوله الذي هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مذهبه ؛ وأتى فيه بنكت تطرب من
أسرار الحرف ، وفوائد عرفت بها ما بين ابن الدرهيم وبين البوني من البون
في تفاوت الصرف :

أكرم به مصنفًا * فاق تصانيف الورى !
لئل المداد فيه بالمعنى المنير أقمرا !
كم فيه برد حجة * قد حاكه محررا ،
وكم دليل سيفه * إذا التقي خصما فرى .
فلم يكن من بعده * مخالف قط يرى !!



ومن ذلك ما كتب به المقر الشهابي بن فضيل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ
غرس الدين خليل الصفدي المعروف بالصلاح الصفدي ، مدح بها الأمير سيف
الدين أبحاي الدوادار الناصري ، في شهر سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهي :

وقفت على هذه القصيدة التي أشرقت معانيها فكادت ترى ، وتمكنت قوا فيها
فاشمسك بها الأدب لما كانت الميمات فيها كالعرا ؛ فوجدتها مشتملة من البلاغة
بوزنها على البحر المحيط ، لطيفة لا تقاس بأمثالها من الكلام المركب لأنها من البسيط ؛
فنظرت إليها مكتسبا من بيانها شعر الحدق ، متعجبا من منسبها لغرس يسرع
الإثمار في الورق ؛ ثم فطنت إلى أن المدوح بها أعزّه الله تعالى سحت ديمه فروضت
الطروس ، وبرحت مناقبه بما كان مصونا في أخية النفوس ؛ وقد استوجب هذا
المادح عطف الله تعالى قلبه عليه من مناقه حظا جزيلا ، وحبا يقول به لمن قصد
المساواة به : لو كنت متخذًا خليلا لا اتخذت فلانا خليلا :

مَدَّبَ الْمَلِكُ لَهُ * عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،
تَهَوَّى إِلَى جَنَابِهِ * الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قَصِيدَةٍ نظمها شَرَفُ الدِّينِ عَيْسَى بنِ حَجَّاجِ الشَّاعِرِ المعروفِ
بِالْعَالِيَةِ ، مَدَحَ بها النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَمَّنَهَا أَنْوَاعَ الْبَدِيعِ ، ضَاهِيَاً بِهَا بِدِيعَةَ
الصَّفِيِّ الْحَلِيِّ ، فِي شَهْرِ سَنَةِ آثْنَتَيْنِ وَتَسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مَا صُوَّرَتْهُ :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ سحرَ البيانِ ، وأقدرَ أهلَ البلاغةِ من بَدِيعِ التَّخْيِيلِ على
ما يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ الْعِيَانُ ؛ وَذَلَّلَ بِرَأْيِضِ أَفْكَارِهِمْ صِعَابَ الْأَلْفَاظِ فَأَمْتَطَوْا مِنْ مُنُونِ
أَحْسَنِهَا الْجِيَادَ ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ طُرُقَ الْفَصَاحَةِ فَغَدَّتْ لَدَيْهِمْ - بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى - سَهْلَةٌ
الْقِيَادِ ؛ وَأَحْيَى مَيِّتَ الْأَدَبِ بِرُوحِ الْأَنْفَاسِ الْعَيْسَوِيَّةِ وَعَمَّرَ بِأَنْسِهَا رُبُوعَهُ الْخَالِيَةَ ،
وَحَمَى نَفْسَ الْفَضْلِ فِي رُقْعَةِ الْمُسَاجَلَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا فِرَازِنَةُ الدَّعَاوَى وَلَا غَرَوَانَ
حَمَاهَا الْعَالِيَةَ ؛ وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْصَحَ مِنْ نَقَقِ الْبُضَادِ ،
وَأَوْتَى جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَلَنْ تَحْضُرَ مَعَانِي كَلَامِهِ الْأَعْدَادُ - فَإِنِّي وَقَفْتُ عَلَى الْبَدِيعِيَّةِ
الْبَدِيعَةَ الَّتِي نَظَمَهَا الْفَاضِلُ الْأَرْفَعُ ، وَاللُّوْدَعِيُّ الْمِصْقَعُ ؛ أَدِيبُ الزَّمَانِ ، وَشَاعِرُ
الْأَوَانِ ؛ شَرَفُ الدِّينِ أَبُو الرُّوحِ عَيْسَى الْعَالِيَةُ - أَعْلَى اللهُ تَعَالَى مَنَارَ أَدَبِهِ وَرَفَعَهُ عَلَى
مُنَاوِيهِ ، وَبَلَغَ بِهِ مِنْ قَصَبِ السَّبْقِ مَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَاهُ عَلَى الْبُعْدِ مُضَاهِيَهُ - فَأَلْفَيْتُهَا
الدَّرَّةَ الثَّمِينَةَ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُسَامُ ، وَالْخَرِيدَةَ الْمُخَدَّرَةَ إِلَّا أَنَّهَا لَا يَلِيقُ بِهَا الْأَحْتِشَامُ :

تَرُومُ أَحْتِشَامًا سَتْرًا لَأَلَاءِ وَجْهِهَا ! * وَمَنْ ذَا لِدَاتِ الْحُسْنِ يُحْنِي وَيَسْتَرُّ !

قد أَحْتَدَّتْ مِنَ الْأَحْتِشَامِ مَعْقِلًا وَحِصْنًا لَا يُعْنَى ، وَأَتَبَدَّتْ مِنْ حُسَادِهَا مَكَانًا
قَصِيًّا فَلَا تَحَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى :

وَلَمْ أَدِرْ - وَاللَّاتْفَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُو أُمُّ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِي؟!
أَرَادَ الْمُدَّعَى بِلَوْغِ شَاوِهَا الْجَرَى فِي مِضَارِهَا فَقِيلَ: كَلَّا، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضَّ مِنْهَا عِنَادًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا:

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٍ! * وَبَيَانُهَا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمَثَلُ!
فَأَهَسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ بِلَاغَتِهَا: ﴿فَقَالَتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

كَمْ جَدَلَتْ يَوْمَ الْوَعْنَى مِنْ جَنَدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَمَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا!
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ، وَتَدُلُّ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ وَهِيَ
الْبَيْتِمَةُ الَّتِي أُعْظِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا، وَالْفَرِيدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا:

زَادَتْ عَلَيَّ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا؟ * وَمَحَلَّهَا مِنْهُ الثَّرِيًّا أَقْرَبُ!

وَأَبَى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَامِهَا،
وَأَحَدَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا، وَأَقْتَنَطَتْ مِنْ أَفْنَانِ الْفُنُونِ نِمْارَ مَعَانٍ تَلْدُ
لِنَظَرِهَا وَتَحْلُو لَذَائِقِهَا؟:

وَلَا تُعْرِغْ غَيْرَهَا سَمْعًا وَلَا نَظْرًا * فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ!
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً، وَشَرَفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَأَصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً:

أَهَانَتِ الدَّرَّ حَقِّي مَالَهُ نَمْنٌ، * وَأَرْخَصَتِ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْحُطْبَاءِ!

لَا جَرَمَ أَضْحَتْ أُمَّ الْقَصَائِدِ وَكَعْبَةَ الْقُصَادِ، وَمَحَطَّ الرَّحَالِ وَمَنْهَلِ الْوُرَادِ؛ فَأَرَبَتْ
فِي الشُّمْرَةِ عَلَى "الْمَثَلِ السَّائِرِ"، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَزَالَةَ الْهَادِي وَسُهُولَةَ الْخَاضِرِ:

فَلَا فَاضِلٍ فِي عَلِيَّهَا سَمْرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلِيَاءِ أَسْمَارُ!
فَأَعْجَبَ بِهَا مِنْ بَادِرَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ سُمْرٍ وَسَمْرٍ، وَقَرَّنتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهَيْرٍ
وَزَهْرٍ، وَجَادَتْ بِمُسْتَزْهِينِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ؛ وَتَفَنَّنَتْ فِي أُسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ،
وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ؛ وَدَعَتْ فُرْسَانَ الْعَرِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَكَسَّوْا،
وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعِجْزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنِ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ نِزَارٌ وَيَعْرُبُ!
إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدَّرُ الْمُنْتَوِرُ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أُنْحَلَّتِ الرُّوضُ الْمَطْطُورُ،
أَوْ أَعْتَبِرَ تَحْرِيرُ وَرْزِنِهَا فَاقِ الذَّهَبِ تَحْرِيرًا، أَوْ قُوِيْلَتْ قَوَا فِيهَا بِغَيْرِهَا زَكَتُ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ
تَوْفِيرًا؛ أَوْ تَعَزَّلَتْ أَسْكَتِ الْوُرُقَ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرَ «كَعْبٍ»
وَسَلَكْتَ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فَإِطْنَابُهَا - لَفْصَا حَتْمَا - لَا يَعْذُ إِطْنَابًا، وَإِيحَاظُهَا
- بِلَاغَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أُطْنَابًا :

أَبْنُ لِي مَعَزَاهَا أَحَا الْفَهْمِ إِنَّمَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ؟
هَذَا وَبِرَاعَةٍ مَطْلَعَهَا تَحْتُ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَغْفًا، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِيقُ الْأَسْمَاعَ
لَطَافَةً وَيَسْتَرِيقُ الْقُلُوبَ كَلْفًا، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَالِوَةِ مَقْطَعِهِ تَدُوبُ
عَلَيْهَا أَسْفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذَا الْفَضْلُ وَرَدَ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!
وَبِالْجَمَلَةِ شَأْنِهَا الْجَمِيلَةِ لِأَنْحُصِي، وَجَمَائِلُهَا الْمَاثُورَةِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى؛ فَكَأَنَّهَا
«قُسْ بِنِ سَاعِدَةَ» يَأْتُمُّ بِفَصَاحَتِهَا، وَ«أَبْنُ الْمُقَفَّعِ» يَهْتَدِي بِهَدْيِهَا وَيُرْوَى عَنِ
بِلَاغَتِهَا؛ «وَأَمْرُؤُ الْقَيْسِ» يَقْتَنِسُ مِنْ صَنْعَةِ شِعْرِهَا، وَ«الْأَعْشَى» يَسْتَصِيءُ
بِطَلْعَةِ بَدْرِهَا؛ فَلَوْ رَأَاهَا «جَرِيرٌ» لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْرَفُوهَا، أَوْ سَمِعَهَا «الْفَرَزْدَقُ»

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصرها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من رواتها، أو أطلع عليها « المتني » لتخير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها :

فلبصائر هادٍ من فضائليها * يهدي أولي الفضل إن ضلوا وإن حاروا !

ولا نطيل فبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناسخة لما قبلها، وبرهانها القاطع قاض بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا تطمع شاعر أن يسلك سبيلها :

وآيتها الكبرى التي دلّ فضائها * على أن من لم يشهد الفضل جاحداً !

الطرف الثاني

(فيما يكتب عن القضاة، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تفتتح بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا، أستخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا، فليباشر ذلك » ويوص بما يناسب .

ثم يقال : « هذا عهدنا إليك، ومجئنا عند الله عليك، فأعلم هذا وأعمل به، وكتب ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعال لما يريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو المولى ونحن العبيد؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمًا مُقِيمٍ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمَشْتَمَلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن مرتبة الحكم لا تُعطى إلا لأهلها ، والأفضية لا ينتصب لها إلا من
هو كفاء لها ؛ ومن هو مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصَّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذَّيَانَةِ ؛ فَنُ
هذه صِفَتُهُ أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَخْدَمَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِي الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَفْعَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ
قد حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خِصَالٌ حَمَلْنَا عَلَى
أَسْتِنَانَتِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - أَسْتَخْرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتِينِ ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلِيَجْتَهِدْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَضْلِ الْخِصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْعَدَالَاتِ
وَالْتَّلِبْسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ وَيُقَدِّمِهِ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيُقِصِّصْهُ وَيُطَالِعْنَا
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ
الْأَيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا اللَّوَاظِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَفْضُلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيَقْرُرُ الْفُرُوضَ ، وَيَزَوِّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَدَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لِدَلَالَتِهِ مِنْ يَعْلَمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ، وَيَتَخَيَّرُ لِكِتَابَةِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يَشْكُ فِي دِيَانَتِهِ وَخَبْرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَخْدَمِينَ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجْرِهِ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُبْقِهِ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيُقِصِّصْهُ .

هذا عهدى إليك ، ومُحْتَجِي غَدًا عند الله عَلَيْكَ ، فاعلم هذا وأعمل به .
 وَكُتِبَ ذَلِكَ عَنِ الْإِنْفَنِ الْكَرِيمِ الْفُلَانِي وَهُوَ فِي مَحَلِّ وَلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ،
 وَهُوَ نَاقِدُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ مَاضِيهِمَا ، فِي التَّارِيخِ الْفُلَانِي . (ثم يَكْتُبُ الْحَاكِمُ عَلَامَتَهُ
 وَالتَّارِيخَ) وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وهذه نُسخة تَقْلِيدٍ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ الْهَادِي عِبَادَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، الْحَاكِمِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ، الْمُنِيبِ مِنْ قَبْدَمِ لَهُ
 الطَّاعَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ، الرَّقِيبِ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
 فَلَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي تُثَشِّئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ، وَأَسْتَعِيدُهُ مِنْ نِقْمِهِ الَّتِي يُرْسِلُهَا
 فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُفِيدُ الْمُخْلِصَ بِهَا فِي الْإِقْرَارِ النَّجَاةَ يَوْمَ الْمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ الَّذِي نَعْتَهُ بِأَكْرَمِ الشِّيمِ وَأَشْرَفِ الْخِصَالِ ، وَعَرَفَهُ بِمَا يَجِبُ مِنْ عِبُودِيَّتِهِ فَقَالَ :
 (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) ،
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأُحْبَابِهِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن من حسنت سيرته ، وحمدت سيرته ، وعرف بورع وشهر بعفاف ،
 وديانة وخير وإنصاف ، وأضحى نزه النفس عن الأمور الدنية ، فقيهاً درياً بالأحكام
 الشرعية ، عارفاً بالأوضاع المرضية - استحق أن يوجه ويستخدم ، ويرقى ويتقدم ،

ولمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِيَّ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ -
 اسْتَحْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَكُنْ مَتَمَسِّكًا مَعْتَصِمًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْمَتِينِ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلْيُبَاشِرْ مَا قَلَّدَنَاهُ أَعَانَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبِرَاعِ حُقُوقِ
 اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ : فَإِنَّهُ مُعِينٌ مِنْ أَسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَهَادِيٌّ مِنْ
 اسْتَرَشَدَهُ وَفَوَّضَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ .

وَلْيَجْتَهِدْ فِي فَضْلِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْعَدْلِ بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ؛
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وَأَنْ يَثْبُتَ فِي الْخُصُومَاتِ، وَيَفْرِقَ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالشُّبُهَاتِ ؛ وَيُنِصِفَ كُلَّ ظَالِمٍ
 مِنْ ظَالِمِهِ بِالشَّرِيعَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ؛ وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ
 الشُّهُودِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ نَزْهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرِ
 ذَلِكَ طَالَعْنَا بِحَالِهِ . وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْقَاهِرِ : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْإِيْتَامِ ، وَيَحْتَاظَ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ عَلَى
 جَارِي عَادَةِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْحُكَّامِ ؛ مِنْ نَفَقَةٍ وَكُسُوفَةٍ وَلِوَاظِمِ شَرِيعِيَّةِ ، فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ
 رَشِيدًا اسْلَمَ إِلَيْهِ مَا فَضَّلَ مِنْ مَالِهِ بِالْبَيِّنَةِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ وَيَقْرُرَ الْفُرُوضَ عَلَى مَقْتَضَى قَوْلِ
 اللَّهِ تَعَالَى : ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ . وَيَزُوجُ النِّسْوَةَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعِدَدِ
 وَالْأَوْلِيَاءَ ، مِمَّنْ رَغِبَ فِيهِمْ مِنَ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لِدَلِكِ مَنْ يَعْلَمُ أَمَانَتَهُ وَخَبْرَتَهُ ،
 وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَأْثُورَةَ أَجْرَاهُ عَلَى عَادَتِهِ ،

وأبقاه على حُكْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خِلافَ ذلك يُعْجِده وَيُقْصِبه ؛ وَيَسْتَبْدِلُ به غيرَه لِيَبْقَى مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هَذَا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعَلِّمْ ذلك وَتَعْمَلْ به إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَرِّخُ ، وَيَكُونُ ذلك بِحِطِّ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : « وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعِهِ نَفَعَهُ ، وَمِنْ أَخْلَصَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛ الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أحوالُ الْأَوَائِلِ وَالْآخِرِ ، وَأَطَّلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيرِهِ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضِ الرَّافِعِ ، وَالْمُعْطَى الْمَانِعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالتَّذْيِيرُ ، الْمُقْسِطِ الْجَامِعِ : (وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسَكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أحمدُه حمداً يَقْضِي لِلسَّعَادَةِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَأشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ، وَأشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سَبَّحَانَهُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، وَأشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ شَهَادَةً يَحُلُّ الْمَخْلُصُونَ بِهَا جَنَّةً (يَحْمَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِقًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيِّعَةِ ؛ مُسْتَعِدًّا إِلَى بَيْتِ مَشْكَورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلِّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحْمَدِيَّةِ .

وَمَا عَلَّمْنَا فَلَانَ بْنِ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ الْفُلَانِيَّ ، قَلْدَانَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشِرُ أَعَانِكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشْعِرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ، وَأَنْتَصِبُ لِلتَّفِيدِ الْأَحْكَامِ أَنْتَصَابَ مَنْ يُرَاقِبُ اللَّهَ وَيَحْشَاهُ ، وَحَاسِبِ نَفْسِكَ مُحَاسِبَةً مَنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ، وَأَبْذُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسُعَكَ ، وَرَحَّبُ لِلتَّحَاكِيمِ ذَرْعَكَ ، وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ النُّهُودِ وَحَدِّزْهُمْ أَنْ يَزُوعُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبْهُمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ، وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمْهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنَظِقَهُمْ ، وَأَنْهَهُمْ عَنِ التَّسَمُّحِ فِيهَا ، وَعَرِّفْهُمْ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُؤَدِّي مِنَ التُّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقَ إِلَيْهَا ، وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِيَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظْرًا يُؤَدِّي إِلَى صَالِحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْتَضِيهِ ، وَلَا تُعْرَجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمَلْ إِلَيْهِ ، وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظْرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مَعَامِلَةَ مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ ، وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْفَسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلْدَانَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ، فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَنْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ، وَأَسْتَمِعُ نَصِيحَتِي ، وَأَفْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) قُلْتُ : وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِيغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدَرِ مَرْتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » ثُمَّ يُقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفُلَانِيَّ» بِلَقْبِهِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَحْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانِ كَذَا، فَيُبَاشِرُ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إيجالاتُ العَدَالَةِ)

قَدْ بَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَثَبَّتْ عَدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكْمِ، وَيُسَجَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيُحْكَمُ الْحَاكِمُ بِعَدَالَةٍ مِنْ تَثَبَّتْ عَدَالَتُهُ لَدَيْهِ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ عَرِيضٍ، إِمَّا فِي قَطْعِ فَرَخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مَتَوَالِيَةً، بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ تَقْدِيرَ عَرَضٍ أَصْبَعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ: وَهَذِهِ نُسْخَةٌ سَجَّلَ أَنْشَأْتَهُ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدَ ثُبُوتِ عَدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِبَصْرَةَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطَّلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا، وَأَنَارَ بَدْرَارِي الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَادِسِ الْجِهَالَةِ مُدْهِمًا لِيَالِيهَا، وَكَلَّ عُقُودَ النَّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْقَسَ لَهَا لِيَالِيهَا؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ تَرَفَّى قَائِلُهَا إِلَى أَرْفَعِ الدُّرَى، وَيَمْتَطِي مُنْتَعِلُهَا صَمُوعَ الثَّرْيَاءِ: وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَخْصُوصُ بِمَحَاسِنِ الشِّيمِ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَآثِرِ وَمَآثِرِ الْكَرَمِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عَمَرِ الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الأقوى، وسلَكُوا جَادَةَ الْهِدَايَةِ فَخَصَلُوا مِنْ أَقْصَى مُغَيَّاهَا عَلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فلما كانت العدالةُ هي أسُّ الشريعة وعمادها، ورُكْنُهَا الْأَعْظَمُ فِي الْأَسْتِنَادِ
إِلَى الصَّوَابِ وَسِنَادِهَا؛ لَا تُقْبَلُ دُونَهَا شَهَادَةٌ وَلَا رِوَايَةٌ، وَلَا يَصِحُّ مَعَ عَدَمِهَا إِسْنَادٌ
أَمْرٍ وَلَا وِلَايَةٌ - فَقَدْ بُنِيَتِ الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ عَلَى أَرْكَانِهَا، وَعَاطَمَتِ الرِّوَاةُ فِي صِحَّةِ
الْأَخْبَارِ عَلَى أَصُولِهَا وَتَعَلَّقَتِ الْحُكْمُ فِي قَبُولِ الشَّهَادَةِ بِأَحْضَانِهَا؛ إِذْ هِيَ الْمَلَكَةُ
الْحَامِلَةُ عَلَى مَلَاذِمَةِ التَّقْوَى، وَالْحَفِيزَةُ الْمَانِعَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي هُوَةِ الْبِدْعِ الْمُتَمَسِّكُ
بِسَبَبِهَا الْأَقْوَى؛ وَالْحَكْمَةُ الثَّانِيَةُ عَنِ الْجَمَاحِ إِلَى آرْتِكَابِ الْكِبَائِرِ، وَالْعِنَانُ الصَّارِفُ
عَنِ الْجَنُوحِ إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ؛ وَالزَّمَامُ الْقَائِدُ إِلَى صَلَاحِ أَعْمَالِ الظَّوَاهِرِ
وَسَلَامَةِ عَقَائِدِ الضَّمَائِرِ .

ولما كان مجلسُ القاضي الأجلِّ، الفقيهِ، الفاضلِ، المشتغلِ، المحصلِ،
الأصيلِ، نجمِ الدينِ، سليلِ العلماءِ، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندى الفزارى،
الشافعى، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والدة، والحاكمُ بالعملِ الفلانى
ومامعهما: أيدَ الله تعالى أحكامه، وأقرَّ عينه بولده - هو الذى وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ الدِّيَانَةِ،
وظَهَرَتْ عَلَيْهِ فِي الطُّفُولَةِ آثَارُهَا، وَنَشَأَ فِي أَحْيَاءِ الصِّيَانَةِ، فَرُوِيَتْ عَنْهُ بِالسَّنَدِ
الصَّحِيحِ أَخْبَارُهَا؛ وَأَرْتَضَعَ ثَدْيَ الْعِلْمِ حِينَ بُرُوعِ نَجْمِهِ، وَغَذِيَهُ مَعَ لِبَانِ أُمِّهِ فَأَمْتَرَجَ
بَدْمِهِ وَنَجَّمَهُ وَعَظَّمَهُ؛ وَأَعْلَنَ مُنَادَى نَشَاتِهِ بِجَمِيلِ الذِّكْرِ فَأَغْنَى فِيهِ عَنِ الْأَسْتِخْبَارِ،
وَلَا حَتَّ عَلَيْهِ لَوَائِحُ النَّجَابَةِ فَقَضَى لَهُ بِالْكِمَالِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَرْمُورَهُ زَمَنَ الْإِبْدَارِ؛
فَلَمْ يَرِدْ مِنْهُلِ التَّكْلِيفِ إِلَّا وَقَدْ تَرَيَّنَ مِنْ مَحَاسِنِ الْفَضَائِلِ بِأَكْمَلِ زَيْنٍ، وَلَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ
الْعِلْمِ حَتَّى صَارَ لَوَالِدِهِ - وَتِلْكَ الْحَمْدُ - قُرَّةَ عَيْنٍ - رُفِعَتْ قِصَّةُ مَجْرَبَةٍ عَنْ حَالِهِ فِيهَا مِنْ
مُضْمُونِ السُّؤَالِ طَلَبُ الْإِذْنِ الْكَرِيمِ بِسَمَاعِ بَيِّنَةِ الْمَذْكُورِ، وَكِتَابَةُ إِسْجَالِ بَعْدَالَتِهِ .

فَسَمِلَهَا الْخَطُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، الْقَاضِي ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ،
 الْعَلَامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْمُحَدِّثِيُّ ، الْحَافِظِيُّ ، الْحَبْرِيُّ ، الْمُجْتَهِدِيُّ ، الْمُحَقِّقِيُّ ، الْمَدَقِّقِيُّ ،
 الْوَحِيدِيُّ ، الْفَرِيدِيُّ ، الْمُجَبِّ ، الْمُجَبِّ ، الْخَطِيبِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ، الْحَلَالِيُّ ،
 الْكَفَاتِيُّ ، الْبُلْفِينِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ؛ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، النَّاطِرِيُّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْأَبْدَانِ
 الْمَصْرِيَّةِ ، وَالْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ؛
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعْمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
 الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحِدِ الْفَضْلَاءِ ،
 مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ بْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنِ الدِّينِ ،
 شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنِ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَدْرِ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحِدِ الْفَضْلَاءِ ، مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ،
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الْعِرَاقِيِّ الشَّافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ
 الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُنُوفِيَّةِ ، وَمُفْتِي دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْأَبْدَانِ الْمَصْرِيَّةِ :
 أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَإِذَا سَمِعَ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخُ الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ،
 وَلِيُّ الدِّينِ ، الْحَاكِمُ الْمَشَارُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْبَيْتَةَ بِتَرْكِيئِهِ ، وَصَرَّحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بَعْدَالْتِهِ ، وَقَبِلَهَا الْقَبُولَ الشَّرْعِيَّ السَّائِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ مِنْ حَضَرَ مَجْلِسِ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ الْتَامِينَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَّحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقَانُونِ الْمَحْرَّرِ الْمُرْعَى ؛ بِالْبَيْتَةِ الْعَادِلَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، الَّتِي

تثبت بمنها الحقوق الشرعية - عدالة القاضي الأجل، العدل، الرضى، نجم الدين محمد المسمى أعلاه : زاده الله تعالى توفيقا، وسهل له إلى الخير طريقا، وما آشتل عليه من صفاتها، وتحلى به من أدواتها، ثبوتا صحيحا معتبرا، مستوفيا شرائط محررا .
 وأنه - أيد الله تعالى أحكامه ، وسدد نقضه وإبرامه - حكم بعدالته ، وقبول شهادته ؛ حكما تاما وجرمه ، وقضى فيه قضاء أبرمه ؛ وأذن له - أيد الله تعالى أحكامه - في تحمّل الشهادة وأدائها، وبسط قلمه في سائر أنديةها وأرجائها ؛ وأجراه - أجرى الله تعالى الخيرات على يديه - مجرى أمثاله من العُدول، ونظّمه في سلك الشهداء أهل القبول ؛ ونصّبه بين الناس شاهدا عدلا، إذ كان صالحا لذلك وأهلا .
 فليست بالشهادة قلمه، وليؤلف على شروط أدائها كلمه ؛ وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملائمتها الجميلة ، وأثاله من الترقى لرتبتها الجليلة ؛ وليتق الله تعالى في موارده ومصادره، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره ؛ وليعلم أن من سلك الحق نجا، ومن يتق الله يجعل له مخرجا . أوزعه الله تعالى شكر هذه الرتبة العلية، والمنزلة السنية .

وتقدم أمر سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام، العالم، الحافظ، ولي الدين، الحاكم المذكور، وقاه الله تعالى كل محذور ؛ بكتابة هذا الإسجال، فكتب عن إذنه الكريم، متضمنا لذلك مسؤولا فيه، مستوفيا شرائطه الشرعية .
 وأشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ المقدم ذكره بأعليه، المكتوب بخطه الكريم - شرفه الله تعالى، حسبنا الله ونعم الوكيل .

قلت : والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة، ويكتب التاريخ في الوسط، والحسبة في الآخر، كل ذلك بخطه، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم، كما في سائر الإسجلات الحكمة .

الصنف الثالث

(الكُتُبُ إلى التَّوَابِ وما في معناها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ القَضَاةِ أَلْفَاطُهَا مُرْسَلَةٌ ، لِاجْتِوَحِّ فِيهَا إِلَى فَنِّ
الْبَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي القَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن قاضي القضاة نَحْرَ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ ، إِلَى الحُكَّامِ
بِالمَلِكَةِ ، وَهُوَ :

أَدَامَ اللهُ فِضَالَ الجَنَابَاتِ العَالِيَةِ والمَجَالِسِ العَالِيَةِ ، وَجَعَلَهُم قَادَةً يُقْتَدَى بِهِمْ
فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ ، وَوِ
الْأَحْتِفَالِ مِنْ يَعْتَنِي بِأَمْرِهِ وَيُحْتَفَلُ ، وَلا سِيَّامَا ^(١١)
مِنْ سَارَتْ طَرِيقَةُ فَضْلِهِ المُتَلِيِّ فِي الآفَاقِ سَيْرَ المَثَلِ ؛ وَلا زَالَ عَرَفُ مَعْرُوفِهِمْ عَلَى
دَوَى الفِضَائِلِ يُفُوحُ ، وَجِيَادِ جُودِهِمْ تَعْدُو فِي مَيْدَانِ الإِحْسَانِ وَتُرُوحُ ، وَنَيْلُ نَيْلِهِمْ
يَسْرِي إِلَى القُصَادِ فيُحْمَدُ سِرَاهُ عِنْدَ الغُبُوقِ كَمَا يُحْمَدُ سِرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتوبة إليهم تُقْرِئُهُمْ سَلامًا أَلطَفَ مِنَ النِّسِيمِ ، وَتُهْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مِرْزَاجِ
كاتبه مِنْ تَسْنِيمِ ؛ وَتُبْدِي لَعْلَمِهِم الكَرِيمَةَ أَنَّ الجَنَابَ الكَرِيمَ ، العَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،
الإِمَامِيَّ ، الفَاضِلِيَّ ، البَارِعِيَّ ، الأَوْحِدِيَّ ، الأَكْمَلِيَّ ، البَلِيغِيَّ ، المُقَدِّمِيَّ ، الخَطِيبِيَّ ،
البَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الفِضَلَاءِ ، نَحْرَ العُلَمَاءِ ، زَيْنَ الخُطَبَاءِ ، قِبْلَةَ الأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ البُلَغَاءِ ،
صَفْوَةَ المُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، خَطِيبَ المَوْصِلِ - أَدَامَ اللهُ المَسْرَةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الخَيْرَ
بِسَبِّهِ ؛ وَنَفَعَ بِفَوَائِدِ فَضْلِهِ وَأَدْبِهِ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَرَابُلسِ المَحْرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ المَسْرَةُ
بِذَلِكَ الوُرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ العُهُودِ ؛ وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الفَائِقِ
الرِّفِيقِ ، وَإِنْشَائِهِ المُغْنِيَّ عَنِ نَسْوَةِ الرِّحْقِ ، وَكُتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ السَّحْرُ الحَلَالُ عَلَى

التَّحْقِيقُ ؛ مَا زَهَّ الْأَبْصَارَ وَشَفَّ الْأَسْمَاعَ ، وَقَطَعَ مِنْ قُرْسَانِ الْأَدَبِ أَسْبَابَ
الْأَطْعَامِ ؛ فَأَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَثِيبَ فِكْرًا ، وَأَحْجَلَ مِنَ الرَّوْضِ الْأَنْبِقِ زَهْرًا ،
وَأَحْمَلَ مِنَ الْمِسْكِ السَّحِيقَ عَطْرًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ
الْأَدَبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُسَامُ كَلَامُهُ وَلَا يَمِلُ حَدِيثُهُ ؛ يَا لَهَّ أَيْبَا لَيْسَ فِيمَا
يُبْدِيهِ مِنَ الْأَدَبِ تَحْرِيفٌ وَلَا غَلَطٌ ، وَفَاضِلًا لَوْ لَمْ يَكُنْ بَحْرًا لَمَا كَانَ الدَّرُّ مِنْ فِيهِ
يُلْتَقَطُ ؛ يَمِينُهُ وَفِطْنَتُهُ الْكَرِيمَتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ، فَهَذِهِ إِنْ رَفَمَتْ طَرَسًا فُرُوحَ وَرِيحَانٍ ،
أَوْ بَدَلَتْ رِيًّا فَعِينَانِ تَجْرِيَانِ ؛ وَهَذِهِ إِنْ نَظَمَتْ شِعْرًا فَيَا قُوَّتَ وَمَرْجَانَ ، أَوْ نَثَرَتْ
تَبْرًا فَتَمِينُ الدَّرِّ أَلْوَانَ ؛ مَا بَرِحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يُسَارِعُوا
مِنْ أَبْوَابِ مَعْرُوفِهِ يَتَقَبَّسُونَ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْجَلِيلُ
الَّذِي لَمْ نَزَلْ تُسِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، وَالنَّيْلُ الَّذِي تَجْرَى لِفِرَاقِهِ مِنْ عُيُونِ اللَّيْبِ
الْمَدَامِعِ ، وَالتَّرْيِيلُ الَّذِي يُنْشِدُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

* بَعَيْشِكَ خَبَرَنِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ *

يَعْرِفُ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ فَيُنْشِرُهُ مِنَ النَّوَاءِ لَوَاءً ، وَيُجِيلُ فِي مَدْحِ صِفَاتِهِ
وَنُعُوتِهِ الْإِنْشَاءَ إِنْ شَاءَ ، وَيُجْزِلُ فِي ذَمِّ مُسْتَحِقِّ الذَّمِّ مِنْهُ الْهَجَاءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدَاحًا
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجَاءً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحُضُورِهِ يَتَرَقَّبُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفَضْلَاءُ بِفَضْلِهِ
يَعْتَرِفُونَ ، وَمَنْ بَحَّرَهُ يَعْتَرِفُونَ ؛ وَالْأُدَبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَدِقُّونَ ، وَمِنْهُ يَتَقَبَّسُونَ ؛ وَالطَّلَبَةُ
بِأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبِنَشْرِ أَثْنَيْتِهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ
يَفْتَخِرُونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّمَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بِإِيثارِهِ ، وَكُلُّمَا
عَانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِأَنْصَارِهِ ؛ فَيَجُودُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانَ بَنَانِهِ ، وَيُجْرَدُ
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفَ لِسَانِهِ .

ثم من قبل أن نبلِّغ منه الوَطر، ومن دُونِ أن يَكْتَفِي منه السَّمْع والبَصَر؛ عَرَفْنَا أنه قَصَد التَّوَجُّهَ إلى البلاد السَّاحِلِيَّةِ، والأَعْمَالِ الطَّرَابُئِيَّةِ؛ لِيُجْمَلَ عَلَى أَهْلِهَا من فضائله البَاهِرَةِ البَاسِقَةِ، وأَفْظَاهِ التي هي كالدَّرَرِ المُتَنَاسِقَةِ؛ وَيُجْمَلُ عَرَّائِسَ الأَفْكَارِ من أَفْكَارِهِ، وَيُجْمَلُ عَرَّائِسَ الأَثْمَارِ من أَشْجَارِ عِلْمِهِ، وَيُرِيهِمُ البِدِيَّةَ البَدِيْعَةَ، وَالتَّوَاقِيَّ الحَبِيْبَةَ المُطِيْعَةَ .

فَلْيَتَقَدَّمِ الجَمَاعَةُ - أَيَدُهُمُ اللهُ تَعَالَى - بِإِكْرَامِهِ الأَهْلَ والأَصْحَابَ، وَتَلَقِّيهِ بِالبِشْرِ وَالتَّوَالِقِ وَالتَّرْحَابِ؛ وَإِحْلَالِهِ مِنَ الإِحْسَانِ مَحَلًّا سَامِيًّا، وَإِنزَالِهِ مِنَ الإِفْضَالِ مَنزِلًا عَالِيًّا؛ وَالأَعْتِنَاءِ الوَاقِفِ بِأَمْرِهِ، وَاسْتِجْلَابِ بَثِّ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ؛ وَالتَّقَاتِ دُررِ فَوَائِدِهِ، وَآكْتِسَابِ غُررِ فَرَائِدِهِ؛ وَالإِصْغَاءِ إِلَى المَنْتَوَرِ وَالمَنْظُومِ مِنَ أقْوَالِهِ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حُسْنِ بَدَاهَتِهِ وَسُرْعَةِ آرْتِجَالِهِ .

وَلْيُحْتَفَلْ كُلَّ يَوْمٍ بِخِدْمَتِهِ غَايَةَ الإِحْتِفَالِ، وَيُعْتَنَ بِأَمْرِهِ أَعْتِنَاءً لَا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ وَلَا إِهْمَالٌ؛ وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الجَلِيلِ، وَالقَادِمِ الذِي إِذَا رَحَلَ عَنْ بَلَدِهِ أَبَى لَهُ بِهَا الذِّكْرَ الجَمِيلَ؛ وَيُسَاعَدُ عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِصَدَدِهِ كُلَّ سَاعَةٍ يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللهُ وَيُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ .

وَنَحْنُ نُؤَكِّدُ عَلَى الجَمَاعَةِ - أَيَدُهُمُ اللهُ - فِي ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكِيدِ، وَنُبَالِغُ فِيهِ مُبَالِغَةً مَا عَلِيهَا مِنْ مَزِيدٍ؛ وَنُحَدِّرُهُمُ مِنَ الإِهْمَالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ، وَمِنْ مُقَابَلَةِ جَنَابِهِ الكَرِيمِ بِالتَّرْتِيقِ الحَقِيرِ وَالتَّوَالِقِ البِيسِرِ؛ فَإِكْرَامُ هَذَا الرَّجُلِ لَيْسَ كإِكْرَامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسَيْرِهِ، وَمَا هُوَ إِلَّا لِعَالِمِهِ وَفَضْلِهِ وَخَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :
« وَلَيْسَ مِنْ يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ كَالَّذِي يُكْرَمُ لغيرِهِ » .

فَلتَعْظُمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتُنزِلُوهُ مَنزِلَةَ تَلِيْقِ بِأَهْلِ الفَضْلِ وَالإِفْضَالِ، وَتَرَفُّعُوا لَهُ المَقَامَ وَتُحَفِّظُوا لَهُ المَقَالَ؛ لِيَعُودَ مُحَقَّقَ الأَمَالِ مُبْلَغَ المَقَاصِدِ، نَاشِرًا أَلْوِيَةَ النِّشَاءِ

والمحمد ، مَشْمُولًا بِجَمِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ وَتَحْنُ مَتَظَرُونَ مَا يَرِدُ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ
الكَرِيمَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ... (١) ... الْحَسَنَةِ .

وَفِي هَمِيمِهِمُ الْعَلِيَّةِ ، وَمَكَارِمِهِمُ السَّنِيَّةِ ، مَا يُغْنِي عَنِ التَّأَكِيدِ بِسَبَبِهِ وَالْوَصِيَّةِ ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ سَائِعَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ، وَيَجْمَلُ بِوُجُودِهِمْ وَجُودَهُمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الصنف الرابع

(ما يُكْتَبُ فِي آفْتَاتِحَاتِ الْكُتُبِ)

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة حُطْبَةِ فِي آبْتِدَاءِ كِتَابِ وَقْفٍ عَلَى مَسْجِدٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَنَاصِرِ الدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ
بَنِيْنًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَجْمَادِ ، وَمَشْرِفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَمْنَةِ وَالْجَمْعَةِ
وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ ، وَجَاعِلِ مِنْ أَرْتَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعِبَادِ ، وَمُمَسِّرِ الْقُرْبَاتِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّدَادِ ، وَمُرِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
مِمَّنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمَزِيدِ الْإِرْفَادِ ، وَمُفَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبِرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لِخَيْرِ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّيِّ وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعْظَمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَنَى بَيْتًا لِلَّهِ
بِنِيَّةِ خَلِيَّةٍ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعِنَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ بَنَى
مَسْجِدًا لِلَّهِ وَأَوْكَفَّ حَصِصَ قِطَاعٍ بَنَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ " وَزَجُّوا مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادِ .

(١) بياض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعَمِهِ التي جَلَّتْ عن التَّعَدَادِ ، وأشكُرُه شُكْرًا وافيًا وافرًا نجعله
ذَخِيرَةً ليومِ التَّنَادِ ، وأسْتَمِدُّ من اللُّطْفِ لَوَازِمَ الفَضْلِ الخَفِيِّ وهو الكَرِيمُ الجَوَادُّ ،
وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شَرِيكَ له وأنَّ مُحَمَّدًا عبدهُ ورسوله الخاتِمُ الحاتِمُ على
حَوْضِهِ الوُرَادِ ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِهِ ما أُصْنِئِي إلى الذِّكْرِ وأُجِيبَ كُلَّ دَاعٍ
من حَاضِرٍ أو بَادٍ .

وبعدُ ، فلمَّا كانتِ المَثُوبَاتُ مَضمُونَةً الأَجْرِ عندَ الكَرِيمِ ، والأَعْمَالُ متَعَدِّدَةٌ
في التَّقْدِيمِ ؛ وكان بُيَانُ المَسَاجِدِ وافرًا أجْرًا ، لمن أقامَ بواجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الجميلِ
وسَدَّدَ إلى الخيراتِ سَبِيلًا ، وقد قال تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِى . فليظنَّ
بِى خَيْرًا » . ورأى العُقَلَاءُ أنَّ الأَوْقافَ على المَسَاجِدِ والجَوَامِعِ من أنْفُسِ قَوَاعِدِ
الدِّينِ وأَعْلَى - فلذلك قيل في هذا الإِسْجَالِ المُبَارَكِ :

هذا ما وَقَفَهُ وَحَبَّسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فلان . وَقَفَ وَحَبَّسَ رَغْبَةً في مزيدِ الثَّوَابِ ،
وَرَجَاءً في تَهَوُّنِ تَهْوِيلِ يَوْمِ الحِسابِ ، وَأَغْتِنَا مَا للأَجْرِ الجَزِيلِ من الكَرِيمِ الوَهَّابِ ؛
لقول الله تعالى في الآياتِ المَبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وَقَفَ بِنَيْتِهِ خَالِصَهُ ، وَعَزِيمَتِهِ صَالِحَهُ ، وَنِيَّةَ صَادِقِهِ ؛ ما هو له
وفي مِلْكِهِ ، وَحَوْزِهِ وَبِيَدِهِ وَتَصَرَّفِهِ ، من غيرِ مُنَاطِرٍ له في ذلك ولا شَرِيكَ ،
(ثم يَذْكُرُ الوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاتِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخةُ عُمَرَةٍ اعتمَرها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخزرجي ، عند مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ» ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بَيْكَةً مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ ، وَمَنْ سَلَفَهُ الْكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ؛ وَعَقَدَ لِيَوَاءِ الْمَلِكِ بِنخِيرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعَى : فِي حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ الْمُقَامَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةَ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ؛ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مِنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَوَرِثَ الْمَلِكُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، وَأَنْطَقَ الْأَلْسِنَةَ بِالِدَعَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَاقِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى آخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَّتْ لَوْصِفِ مَنَاقِبِهِ الْمَنَابِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِعْنَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أُسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعْمَ الدَّخِيرَةُ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَافُوزَ مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى بِنِجَاءِ بِأَشْرَفِ مَلَأَهُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «عُمَرَةُ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّه» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُوصًا عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاذَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخِطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ؛ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَأْتَرِ وَالْمُنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمَلِكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْخَيْرُ بِيَدِهِ يُفِيضُهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهُ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْعَلَا ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمُ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَمَا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعْظَمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْحَمْدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمَلِكُ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ لِسُلْطَنَةِ الدَّلَائِلِ ، وَأَلْفِهِ سِرِيرُ الْمَلِكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمَنْ أَحْيَاهُ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمَلِكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةَ الْفَخَّارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُودِ وَالْفَخَّارِ
مَثَلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَيْلٌ : بَحْرٌ طَمَى أَوْ بَدْرٌ تَجَلَّى ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
حَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بَعْلُوشَانَهُ وَأَرْبِقَانَهُ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لَعَلِيَّانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْأَوَاخِرَ ، وَأَضْفِيَتْ عَلَيْهِ حُلُّ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةَ نَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَسْعَجَ مَجَالَ نَصْرِهِ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَضْرًا ، وَحَكَمَتْ
سَيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِضْرًا ؛ قَدْ حَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كرهه، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحجّ وزيارَةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم
مرّة بعد مرّه، ومرّة أخرى إن شاء الله تعالى ومرّة ومرّه!!! كم سلك سنن
وأيده وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالغزاة فكان له كلُّ مشهدٍ مذكور، وعُرفَ
تقدّمه وإقدامه فكان أعظم ناصرٍ وأشرف منصور؛ يحمده الله تعالى والناس عن
جميل ذبّه عن الإسلام وحميد فعله، وأستقلّ الجزيل فينبّل الجميل لمن أمّ أبوابه
الشريفة فلا يُستكثر هذا من مثله؛ ما حملت راياته الشريفة كنيبةً إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت؛ ولا جهّز عساكره
المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيمهم، ولا حاصروا ثغراً للكفار إلا أخذوا
بنواصيمهم؛ ولا سير سرية لمواجهة محارب إلا ذلّ على رغبه، ولا نطق لسان الحمد
للجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه؛ فاختره الله تعالى على علم على
العالمين، وأجتهبه للدّب عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسُلطانه وإرثنا، وفي الملك
مأكناً، وللقمرين ثالثاً؛ ولأموره سداداً، ولثغور بلاد الإسلام سداداً؛ وفوض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاصّ والعام؛ وعدق به أمور الممالك
والأملاك، وأطلع بسعادته أيمن البروج في أثبت الأفلاك؛ وحمى الإسلام
والمسلمين من كلّ جانب شرقاً وغرباً، وملاً بمهاتيه البلاد والعباد رعباً وحبّاً؛
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وفضله؛ وفرض طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيّداً للملوك العرب والعجم؛ وأمن بمهاتيه كلّ حاضرٍ وباد،
ونوم سُكّان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطا مهاد؛ وسكّن خواطر المجاورين
من جميع المخاوف، وصان بالمقام في مكة الطائف والعاكف؛ قد حسن مع الله
تعالى سيرةً وسيراً، ودلت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيراً؛
وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عالمًا أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد مَلَأَ أَعْيُنَ الرعايا بِالطَّمَانِينَةِ وَالهُجُوعِ ، وَأَمَّهَمَ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ بِالرِّخَاءِ مِنْ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، وَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الدُّخُولَ إِلَى بَيْتِهِ
الْحَرَامِ بَرًّا وَبِحُرَابٍ ، وَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - جَمِيعَ الْأَمْصَارِ ،
وَمَلَأَ مِنْ مَهَابَتِهِ جَمِيعَ الْأَقْطَارِ :

فسارت مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * وَهَبَّتْ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ !

فوجب على العالمين أن يدعوا لدولته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] العلوِّ
والارتقاء، ووجب على كلِّ من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يتهلَّ
بالدعاء له قبل أن يدعو لنفسه، فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه ووارث عبوديته،
ومن لم يزل هو ووالده وإخوته في صدقات والده الشهيد - رحمه الله تعالى - وعميم
نعمته؛ العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصاري الخزرجي،
فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلاً بصالح دعواته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصره
وطول حياته؛ طائفاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاعر العظام .

وأحبُّ أن يُخَفِّهَ بأشرف العبادة فلم يجد أجلاً مقداراً ولا أعظم أجراً، من عمرة
يعتمرها عنه ويهدى ثوابها لصحائفه الشريفة ويزيد بذلك نفراً؛ فقام عنه بعمرتين
شريفتين أعتمرهما عنه في رمضان، مكنتين بإحراميهما وتلبيتيهما، وطوافيهما
وسعيهما؛ يتقرب بذلك إلى أبوابه الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته
الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وينصفه لأولاده؛ ليقضى بقية
عمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كلِّ راكع وساجد؛ وأن يكون
ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسله وعقبه بعد وفاته؛ لتشمل
صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لغمانه

في أيامه الشريفة المات ، جعل الله تعالى مولانا السلطان وارث الأعمار ،
وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدار ، وجعل كلمة الملك باقية في عقبه ، وبلغه
من النصر والظفر والأجر غاية أرى به ، وجعل أيامه كلها مساراً وبشائر ، ودولته تسرُّ
النواظر ، وسعادته ليس لها آخر ، ويهنئه بما قد آتمه الله له من ملك والده الشهيد
رحمه الله تعالى :

[أُهَيْبِكَ] بِالْمُلْكِ يَا خَيْرَ مَنْ * أَجَارَ الْبَرِيَاءَ وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلْأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ * تُمِيلُ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَلَاقِينَ * ^(١) وَإِعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَبَبَ تَكْفُورِهَا * وَتَرْكَبُ بِالْحَيْشِ أَوْعَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنشِدُ فِي التَّخْتِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَفْتَحُ بَغْدَادَ دَارَ السَّلَامِ * وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْدَارَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكَرِ النَّاصِرِيِّ * قُصُورُ الْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمَنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتَحْمِي الْأَسُودَ وَأَوْكَارَهَا ،
وَتَبْقَى إِلَى أَنْ تَعَمَّ الْبِلَادَ * بِنِعْمِي تُتَابِعُ إِدْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ * وَتُجْرِي الْعِبَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاطِمُونَ * وَتُعْبِي مَفَاذِيكَ سُمَارَهَا ،

[والله يُقِيصُهُ] ^(١) بعدها دائماً ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده
ناصر الدنيا والدين ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه ربما أعتنت الملوك ببعضه ، فاقترحت على كتابها إنشاء شيء من الأمور الهزلية ، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك . كما وقع لمعين الدولة ابن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحق الصابي كتابة عهد بالتطفل ، لرجل كان عنده اسمه عليك ، ينسب إلى التطفل ، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك .

وهذه نسخة عهد بالتطفل ، التي أنشأها أبو إسحق الصابي لعليك المذكور :

هذا ما عهد على بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي ، حين استخلفه على إحياء سنته ، وأستتابه في حفظ رؤومه ، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكافها ، ويحجرى معها في سوادها وأطرافها ؛ لما توّسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ؛ وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ؛ وراه أهلا له من سدّ مكانه ، والرفاهة المهملة التي فطن لها ، والرقاعة المطرحة التي أهتدى إليها ؛ والنعم العائدة على لا بسببها ببلاد الطعوم ، وخضب الجسوم ؛ وردا على من أتسعت حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره ببدايع الطيبات ؛ أخذا من ذلك كله بنصيب الشريك المناصف ، وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض ؛ ومستعملا للدخل اللطيف عليه ، والمتوج العجيب إليه ؛ والأسباب التي ستشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب ، ونستوفي الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب ؛ وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات يشتمل على فصلين : الفصل الأول فيما أعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل ، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثاني ، فليتنبه .

أمره بتقوى الله التي هي الجانبُ العزيز، والحِرْزُ الحَرِيْزُ؛ والرُّكْنُ المَنِيعُ، والطُّودُ الرَّفِيعُ، والعِصْمَةُ الكَالِئَةُ، والحِجَّةُ الوَاقِيَةُ؛ والزَّادُ النَّافِعُ يومَ المَعَادِ، وحيثُ الأمثلةُ من الأزواد؛ وأن يَسْتَشْعِرَ خِيفَتَهُ في سِرِّهِ وَجْهَرِهِ، وَيُرَاقِبَهُ في قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ؛ وَيَجْعَلَ رِضَاهُ مَطْلَبَهُ، وَثَوَابَهُ مَكْسَبَهُ، وَالقُرْبَةَ مِنْهُ أَرَبَهُ، وَالزَّانِي لِدَيْهِ غَرَضَهُ؛ وَلَا يُخَالَفَهُ في مَسَاعِدِ قَدَمِهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ عِنْدَهُ لِعَاقِبَةِ نَدَمِهِ؛ وَلَا يُقَدِّمَ عَلَيَّ مَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ، وَلَا يَتَّقَاعَسَ عَمَّا أَحَبَّ وَأَمَرَ .

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر؛ فإنه إذا كان ذلك هجيراً وديئنه، وجرى عليه منهاجه وسننه؛ تكفل الله له بالنجاح والصلاح، وأفضى به إلى الرشاد والفلاح؛ وأظفره بكلِّ بغيته، وأوصله إلى كلِّ مشيه؛ ولم يُجْهِلْهُ من الفوز بما يُرْصَدُ، والحوز بما يقصد؛ بذلك وعد، وكذلك يفعل، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه .

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه؛ ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتفايده؛ فإن كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله؛ ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله منه على التفه والقرم؛ فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقالته؛ ومنهم من شح على ماله، فدافع عنه بأحتياله؛ وكلُّ الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم؛ لا يتعلقان بعذر واضح، ولا يعتربان من لباس فأضح؛ ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان؛ فهي تتدلّه إذا كان لها، وتتدلّى عليه إذا كان لغيرها؛ وترى أن المنّة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد الواعل، وهي أحقُّ بالحرية، وأخلق بالخياريه؛ وأحرى بالمروره، وأولى بالفتوه؛ وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل،

لأنه مُسْتَقٌّ من الطَّقَلِ وهو وَقْتُ الْمَسَاءِ ، وَأَوَانُ الْعِشَاءِ ؛ فلما كَثُرَ اسْتَعْمَلَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَحِجْزِهِ ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ؛ كما قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ، ولأبي بكرٍ وعُمَرَ : العُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وقد سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ حُلُودُ الذِّكْرِ ، فهو بَاقِي بَقَاءِ الدَّهْرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ ؛ وما نَعْرِفُ أَحَدًا نَالَ مِنَ الدُّنْيَا حَظًّا مِنْ حُطُوطِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلِفُهُ ، وَصِيَّتْ يَسْتَبَدُّ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ ، فَبَيَانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَفْطِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ المُلُوكُ بِسَيْرِهَا ، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ ؛ سَعِدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ فِي يَوْمِهِ ، وَنَبَاهَةَ ذِكْرِهِ فِي غَدِهِ ؛ جعلنا الله جميعًا من السابقين إلى مَدَاهِ ، والمُدَّكُورِينَ كَذِكْرَاهِ .

وأمره أن يَعْتَمِدَ مَوَائِدَ الكِبَرَاءِ والعُظْمَاءِ بَغْزَايَاهِ ، وَسُمَطَ الْأَمْرَاءِ والوُزَرَاءِ بِسَرَايَاهِ ؛ فإنه يَطْفَرُ مِنْهَا بِالْغَنِيمَةِ البَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَأَهَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، المُلْدَّةِ للسانِ ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الحُلُقُومِ ؛ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَدَيْهِمْ ؛ لِحَدِيقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجُودَةِ أَدْوَانَتِهِمْ ، وَأَنْزِياجِ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُوقِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا ؛ وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وأمره أن يَتَّبِعَ مَا يَعْرِضُ لِمُوسِرَى التُّجَّارِ ، وَمُجَهِّزَى الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِيْرَةِ الدَّارِ ، والعُرْسِ والإِعْذَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّعُونَ عَلَى نَفُوسِهِمْ فِي النُّوَابِ ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا فِي الرَّائِبِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَفِّلِينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجُمِ الوَاغِلِينَ ؛ لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي مَحَافِلِهِمُ الرَّذَلِ ، وَيَعُدُّوه فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ النَّذَلِ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ البَاحِجُ بِاتِّسَاعِ طَعَامِهِ ، المُبَاهِي بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الوُجُوهَ الْغَرِيبَةَ فَأَطْعَمُهَا ، وَالْأَيْدِيَ الْمُتَمَدِّدَةَ فَأَمْلُؤُهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرِدْ بِمَا فَعَلَتْهُ الْكِرْمَ وَالسَّعَةَ ،

وإنما أردت المن والسَّمْعَة ؛ فإذا آهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بُغْيَتِهِ
من إعلان قضيّتها، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها، إن شاء الله .

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطايخ وحاليها؛ فإنهم
يملكون من أصحابهم أزيمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يجبون من أهل
موداتهم ومعارفهم؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها،
وأنخذته أخوا من إخوانها؛ سعد بمرافقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، ومأربه
في جنباتها .

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين، ومواسم المتبايعين؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد
فيها، وأطعمة قد احتشد مشتريها؛ أتبعها إلى المقصد بها، وشيعها إلى المنزل
الحاوي لها؛ وأستعلم ميقات الدغوه، ومن يحضرها من أهل النسيان والمروء؛
فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعى وقت مصيره إليها ليتبعه، ويمكن له ليصحبه
ويدخل معه؛ وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين، وعصب الراحلين؛
فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوايين والمجباب؛ حتى
يحصل حصولا قل ما حصل [عليه] أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعا من الطعام،
بريقا من المدام؛ إن شاء الله .

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنئين، ومواطن الأبلات (؟)
والمحتئين؛ فإذا أتاه خبر جمع يضمهم، ومادية تعثمهم؛ ضرب إليها أعناق إبيله،
وأنضى نحوها مطايا خيله؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم؛
واللبيث الهاصر، والعقاب الكاسر؛ إن شاء الله .

وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين، ومحافل الرعاع المقترين؛ وأن لا ينقل
إليها قدما، ولا يعفر لما كلفها قسا؛ ولا يلقى في عتب دورها كيسانانا، ولا يعد الرجل

منها لإنسانا، فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النُّفُوسِ والأَحْلَامِ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِخْفَافٌ بها يُوسَمُ، وإِزْرَاؤُهُ بِمُرُوءَةِ المُتَطَفِّلِ يُوصَمُ؛ وَالتَّجَنُّبُ لها
أُحْرَى، والأَزْوَارُ عنها أَعْجَى؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وأَمْرُهُ أَنْ يَحْزِرَ الخِوَانَ إِذَا وُضِعَ، والطَّعَامَ إِذَا نُقِلَ؛ حَتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
والتَّقْرِيبِ، وَالبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ؛ عَدَدَ الأَلْوَانِ فِي الكَثْرَةِ والقِلَّةِ، وَأَفْتِنَانَهَا فِي الطَّيِّبِ
وَاللَّدَّةِ؛ فَيُقَدَّرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَشْبَعَ مَعَ أُخْرِيهَا، وَيَتَمَيَّيَ مِنْهَا عِنْدَ آتِنَاهَا؛ وَلَا يَقُوْتُهُ
النَّصِيبُ مِنْ كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا، وَلَا يُحِطُّهُ الحِطُّ مِنْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بَقَلَّةِ
الطَّعَامِ، وَعَجَّزَهُ عَنِ الأَقْوَامِ؛ أَمَعَنَّ فِي أَوَّلِهِ إِمْعَانُ الكَيْسِ فِي سَعَتِهِ، الرَّشِيدِ فِي أَمْرِهِ،
المَالِي لِبَطْنِهِ؛ مِنْ كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ، وَخَبِيثٍ وَطَيِّبٍ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَسَلِمَ مِنْ
عَوَاقِبِ الأَخْمَارِ الَّذِينَ يَكْفُونُ تَطَرُّفًا، وَيُقْلُونُ تَادُّبًا؛ وَيَطْنُونُ أَنْ المَادَّةَ تَبْلَغُهُمْ
فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ، وَتَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى غَايَةِ سَعْمِهِمْ؛ فَلَا يَلْبَثُوا أَنْ يَجْعَلُوا تَجْمَلَةَ الوَائِقِ،
وَيَنْقَلِبُوا بِحَسْرَةِ الخَائِبِ؛ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ، وَعَصَمَنَا مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ .

وأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ، وَيُقَالِطَ حِسَّهُ؛ وَيَضْرِبَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَلْحَقُهُ صَفْحًا،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْحًا، وَيَسْتَحْسِنُ الصَّمَمَ عَنِ الفَحْشَا؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْرَةُ فِي حَلْقِهِ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فِي الوُصُولِ إِلَى حَقِّهِ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فِي رَأْسِهِ، صَبَرَ عَلَيْهَا لِمَوْقِعِ
أَضْرَاسِهِ؛ وَإِنْ لَقِيَهِ لَاقٍ بِالْجَفَاءِ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ وَالصَّفَاءِ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَجَعَ الأَبْوَابَ،
وَخَالَطَ الأَسْبَابَ؛ وَجَلَسَ مَعَ الحُضُورِ، وَأَمْتَرَجَ بِالْجُمْهُورِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ المُنْكَرُ
لأَمْرِهِ، وَيَمِرُّ بِهِ المُسْتَعْرِبُ لَوَجْهِهِ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَدَمَّمَ، وَإِنْ كَانَ فَظًّا
غَلِيظًا هَمَّهُمْ وَتَكَلَّمَ؛ وَتَجَنَّبَ عِنْدَ ذَلِكَ المُخَاشَنَةَ، وَأَسْتَعْمَلَ مَعَ المُخَاطَبِ لَهُ المَلَائِنَةَ؛
لِيَبْرُدَ غَيْظَهُ، وَيَقْلَ حَدَّهُ؛ وَيَكْفُ غَرْبَهُ، وَيَأْمَنُ شَغْبَهُ؛ ثُمَّ إِذَا طَالَ المَدَى

تكررت الإلحاط عليه فعرف ، وأنسيت النفوس به فألف ؛ ونال من المحالّ المجتمع عليها ، منال من حُشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهمٍ ودرأيه ، وعقلٍ وحصافة ؛ طفل على ولّيمه ، لرجل ذى حالٍ عظيمه ؛ فرمقته فيها من القوم العيون ، وصرفت بهم فيه الظنون ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذلك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرفتني وعرفته نفسى . فجئى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك : أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فإمتا تلك الزيادة لى ولأمثالى ، وبها يستظهر لمن جرى مجراى ، وهى رزقٌ لنا أنزله الله على يدك وبك ، فقال له : كرامةٌ ورُحبا ، وأهلا وقربا ؛ والله لا جالست إلا مع علية الناس ووجوه الجلساء ، إذ أطرفت فى قَوْلِكَ ، وتَقننت فى فِعْلِكَ . فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به ، ويقتنى طريقه ، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارشبات المتفدّة للسدد ، المقوية للمعد ؛ المشبهة للطعام ، المسهلة لسبيل الأنهضام ؛ فإنها عماد أمره وقوامه ، وبها انتظامه والنتامه ؛ إذ كانت تُعين على عمَلِ الدعوتين ، وتنهض فى اليوم الواحد الأكلتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكتاب الذى يقط أقالمه ، والجندى الذى يصقل حسامه ؛ والصانع الذى يحدد آتته ، والماهر الذى يصلح أدواته ، إن شاء الله .

هذا عهد عليك بن أحمد إليك ، وُحجته لك وعليك ؛ لم يالك فيه إرشاداً وتوقيفا ، وتهديداً وتقيفاً ؛ وبعثاً وتبصيرا ، وحنّاً وتدكيرا ؛ فكن بأوامره مؤتمرا ، وبزواجره مُزدرجا ؛ ولسومه مُتبعيا ، وبِحفظها مُضطلعا ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،
وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتبُ إلى معرفتها ، ويتعلَّقُ الغرضُ
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لغةً وأصطلاحاً) .

أما معناه لغةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مُقدَّرةٌ بأثني عشر ميلاً ، واحتجَّ له
الجوهرى بقول مُزَرِّدٍ يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، * وَنَاقِي النَّاحِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرُهَا فِي الْبَرِيدِ . وَقَدْ قَدَّرَهُ الْفُقَهَاءُ وَعُلَمَاءُ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ بِأَنَّهُ أَرْبَعَةٌ
فَرَسًا ، وَالْفَرَسُ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ ، وَالْمِيلُ ثَلَاثَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ بِالْهَاشِمِيِّ ، وَهُوَ أَرْبَعَةٌ
وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرَ إِحْدَاهَا لِبَطْنِ الْأَنْحُرِ ،
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَغْلٍ أَوْ يَرْدُونِ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المرَّتبُ ، يقال : حُجِلَ فلانٌ على البريد .
قال : ويُطَقُّ أيضا على الرسولِ بريدٌ .

ثم اختلف فيه فقيل : إنه عربيٌّ . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مُشتَقٌّ من
بَرَدْتُ الحَديدَ إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أبردته إذا أرسلته . وقيل : من برد
إذا ثبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار ، يقال : * اليوم يوم بارد سُمومه *
أى ثابتٌ .

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معربٌ . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
”النهاية في غريب الحديث“ : وأصله بالفارسية بريدہ دم ، ومعناه مقصُوص
الذنب . وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلا في البريد قصوا
ذنبه ، ليكون ذلك علامةً لكونه من بغال البريد . وأنشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كلِّ مقصُوص الذنابيِّ معاوِدٍ * بريد السرى بالليل من خيل بربرا .

الأمم الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في ”التعريف“ : أن البريد كان موجوداً في عهد
الأكاسرة من ملوك الفرس ، والقباصرة ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أظن أنه
إلا على القدر المحذور ، إذ كانت حكمتهم تأبى إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه ”الأوائل“ : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في ”التعريف“ :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما فعل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومضعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العسكرى: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكّر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: ولتيتك ما حصر باني إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فأتج الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضاً.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائماً، والعمل عليه دائماً، حتى أن لبناء الدولة المروانية أن يتنقض، ولحبها أن يتنكث، فأتقطع ما بين خراسان والعراق، لأنصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى أتقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى ابنه هرون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين

مُعَسَّكَرَ أَبِيهِ بَرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِحْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكَةِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَبَّنَّهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالَ فِي الْمَرَكَزِ ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبُرْدُونِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلِيهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعَذَبَهُ وَأَسْتَبْرَدَهُ وَأَسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَعِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلُ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ الْأَطَافَ فِيهَا رُطْبُ إِزَازَ ، فَأَتَى الْمَأْمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعْجَبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى بَلَغَ أُمْنِيَّتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَذُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأْمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمَّ حُمَّى حَادَّةً كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصْدِهِمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهِمْ عَلَى بَغْتَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمُّ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ اِخْتِلَافُ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجابه ، وأعدت له النجب المتخبة .
 ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان نبي أيوب إلى انقراض دولتهم . وتبعها على ذلك
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى المملد الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
 ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
 ووزيراً ، وقاضياً ، و كاتباً للإنشاء .

قال : وكان عمي الصحاب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، آكدتها مواصلته بالأخبار
 وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبيني كل ليلة إلا على
 خبر [ولا تصبني إلا على خبر] ^(١) فافعل ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه فحسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكنت أنا
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
 وهو جناح الإسلام الذي لا يحص ، وطرف قادمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
 غشى البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر ، وفتح دمشق وخرّبها وحرّقها
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر
 الممالك الشامية . ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل ، ورماها
 بعد الحلى بالعطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعفت آثاره ، وصار إذا
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
 ركب البريد على فرس له ، يسير بها الهويناً سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٧) .

الأمير الثالث

(بيان معالم البريد)

إعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، وأشتقاق أسماءهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعني أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشا مُزدوجا ماصورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأوكره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر ماصورته: «عز مولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شربة من حريير أصفر ذات بئدين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البئدين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشربة خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطى لوحا من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشربة خلف ظهره علم أنه بريدي. وبواسطة

ذلك تُذَعِنُ لَهُ أَرْبَابُ الْمَرَآكِرِ بِتَسْلِيمِ خَيْلِ الْبَرِيدِ . وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَذْهَبَ
وَيَعُودَ ، فَيُعِيدُ ذَلِكَ اللَّوْحَ إِلَىٰ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ .

وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي دَوَابِّ الْإِنْشَاءِ بِدِمَشْقَ وَحَلَبَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ ،
لَا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكِتَابَةِ بِمَحَلِّ ضَرْبِ اللَّوْحِ . فَإِنْ كَانَ بِدِمَشْقَ
كُتِبَ : «ضُرِبَ بِالشَّامِ» . وَإِنْ كَانَ بِحَلَبَ كُتِبَ : «ضُرِبَ بِحَلَبَ الْمَحْرُوسَةِ»
وَكَذَلِكَ بَاقِي الْمَمَالِكِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مرآكز البريد

وهي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريديَّة فيها فرساً بعد
فَرَسٍ ، قَالَ فِي «التعريف» : وَلَيْسَتْ عَلَى الْمَقْدَارِ الْمُقَدَّرِ فِي الْبَرِيدِ الْمُحَرَّرِ ، بَلْ هِيَ
مُتَّفَاوِتَةٌ الْأَبْعَادِ ، إِذْ أَبْجَلَّتِ الضَّرُورَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ : تَارَةً لُبَعْدِ مَاءٍ ، وَتَارَةً لِلْأُنْسِ بِقَرْيَةٍ ،
حَتَّىٰ إِنَّكَ لَتَرَىٰ فِي [هذه] ^(١) الْمَرَآكِرِ الْبَرِيدِ الْوَاحِدَ بِقَدْرِ بَرِيدَيْنِ . وَلَوْ كَانَتْ عَلَى
التَّحْرِيرِ [الذي عليه الأعمال] ^(١) لَمَا كَانَ تَفَاوُتٌ . وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بْنَ
فَضَّلَ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التعريف» مَا أَرَبِيٌّ فِي ذَلِكَ عَلَى الْمَقْصُودِ وَزَادَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ
أَدْرَىٰ وَأَدْرَبُ . وَهَآنَا أَذْكَرُ مَا ذَكَرَهُ ، مَوْصِحًا لِمَا يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى التَّوْضِيحِ ، مَعَ
الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ وَتَقْرِيْبِ التَّرْتِيْبِ .

وَيَشْتَمَلُ عَلَى سِتَّةِ مَقَاصِدَ :

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .

المقصود الأول

(في مَرَكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ ، وما يتفرع عنه من المَرَاكِرِ ، وما تَنْتَهِي إليه مَرَاكِرُ كُلِّ جِهَةٍ)

إِعلم أن الذي يتفرع عن مَرَكْرِ الْقَلْعَةِ ويتشعب منه أربعُ جهاتٍ ، وهي : جِهَةٌ قُوصَ من الوجه القبلي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة ، وعِيدَابَ وما يليها من سِوَا كِن . وجِهَةٌ الإسكندرية من الوجه البحري . وجِهَةٌ دِمِياطَ من الوجه البحري أيضا ، وما يتفرع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية .

فأما مَرَاكِرُ قُوصَ وما يليها : فمن مَرَكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة ، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحِيزَةِ ، وهي قَاعِدَةُ الأعمال الحيزية ، وقد تقدم الكلام عليها في الكلام على بلاد المملكة في المقالة الثانية . ثم منها إلى زاوية أم حسين ، وهي قرية من عمل الحيزة . قال في "التعريف" : والمركز الآن بمنية القائد وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة ، ثم منها إلى ونا وهي بلدة من عمل البهنسي ، ثم منها إلى دهر ووط وهي بلدة من عمل البهنسي أيضا . ثم منها إلى أقلوسنا ، وهي بلدة من عمل الأشمونين .

ثم منها إلى منية بني خصيب ، وهي مدينة من عمل الأشمونين ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة الأشمونين ، وهي قاعدة بلادها ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى ذرورة سربام وهي بلدة من عمل الأشمونين على فم الخليج اليوسفي الواصل من النيل إلى الفيوم ، وتعرف بذرورة الشريف ، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصي بها في زمن الظاهر بيبرس ، وسمت نفسه إلى الملك حتى كاده الظاهر وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية ، وبها

(١) في معجم البلدان لياقوت : قَلُوسَنَا .

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَقَلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَقَلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسْيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسْيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبِيلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِمَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسْيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكَرُ عَلَى ضَفَّةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاعَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التعريف" :
 وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاعُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسَبُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التعريف" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسَبُورَةَ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرَجَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التعريف" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرِيٍّ وَيُسَمَّى حَانَ دَنْدَرِيٍّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةَ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكِرُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ النَّوْبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْهَجْنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ النَّوْبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانَ فَنَقَطَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانَ فَنَقَطَ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لَيْطَةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانَ ، بِهِ عَيْنٌ تَتَّبَعُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِيحَ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به عين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تزيد ولا تنقص . ثم منها إلى حميثة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عيذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام سير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عرب يُسمون بنى عامر إلى سواكن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكتب السلطان تنهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرانة^(١) . ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف بزاوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوتين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهي من مركز القلعة إلى مدينة قليب قاعدة الأعمال القلبيّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة منوف العليا ، وهي قاعدة الأعمال المنوفيّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المحلة المعروفة بالمحلة الكبرى ، وهي قاعدة الأعمال الغربيّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وهم في " التعريف " فساها محلة المرحوم بلدة من بلاد الغربيّة غيرها . ثم منها إلى النحريريّة ، وهي مدينة من عمل الغربيّة . ثم منها إلى الإسكندرية .



وأما الطريق إلى دميّاط وغمزة ، فن مركز القلعة إلى سرياقوس ، وهي بلدة من ضواحي القاهرة ، وليس المركز في نفس البلد ، بل بالقرية المسجدة بجوار الخانقاه الناصرية التي أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على القرب من سرياقوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعش ، وكان طويل المدى في مكان منقطع ، وكانت البريديّة لا تزال تتشكى منه ، فصلح بنقله ، وحصل به الرفق لأموار لولم يكن منها إلا قرّبه من الأسواق المجاورة للخانقاه الناصرية وما يوجد فيها ، وأنسه بما حولها [لكفى] . ثم منها إلى بئر البيضاء ، وهي مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون . ثم منها إلى مدينة بلبيس قاعدة الأعمال الشرقية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخر المراكز السلطانية ، وهي التي تشتري خيالها من الأموال السلطانية ويقام لها السواس وتصرف لها العلوّفات . ثم منها إلى السعيدية . ثم من السعيدية إلى أشموم الرمان قاعدة بلاد الدقهلية والمرتاحية ، وقد تقدم ذكرها في المقالة الثانية . ومنها إلى دميّاط ومن أراد غمزة . وقد تقدم أنّ مدينة بلبيس هي آخر المراكز السلطانية . ثم السعيدية وما بعدها

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بِهَا مَقْتَرَةٌ عَلَى عُرْبَانِ ذَوِي إِقْطَاعَاتٍ، تَلِيهِمْ خَيْولٌ مُوظَّفَةٌ يَحْضُرُهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هَلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَكَزِ، وَتَسْتَعِيدُهَا فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِي غَيْرَهَا، وَمِنْ هُنَاكَ سُمِّيَتِ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التعريف":
وَعَلَيْهِمْ وَالْ مَنْ قَبْلَ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَصْحَابِ النَّوْبَةِ وَيُدَوِّغُهَا بِالْدَّاعِجِ السُّلْطَانِيِّ . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَجِدُّ نَهْيُ قَائِمَةٍ ، وَمَتَى أَكْتَرَى أَهْلُ نَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَدَتِ الْمَرَكَزُ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَهْلُ وَفِي خَيْلِ الْمُنْسَلِخِ قُوَّةٌ، لَا سِيَّما وَالْعَرَبُ قَلِيلَةٌ الْعَلْفُ .

وأوَّلُ هَذِهِ الْمَرَكَزِ السَّعِيدِيَّةُ الْمَقْدَمُ ذِكْرُهَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْخَطَّارَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَبْرِ الْوَالِي . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ اسْتَجِدَّ بِهِ أُنْبِيَّةٌ وَأَسْوَاقٌ وَبَسَاتِينُ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ قَرْيَةٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قَالَ فِي "التعريف" : وَهِيَ آخِرُ مَعْمُورِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بئرِ عَفْرَى ، وَإِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ يَجْلِبُ الْمَاءُ مِنْ بئرٍ وَرَاءَهُ . وَمِنْهَا إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ وَكَيْلُ الْخَلِصِ بَنَى بِهَا خَانًا وَمَسْجِدًا وَمِئذَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَّةً ، فَتَهَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مِنْ يَجِدُّهُ ، وَبَقِيَتِ الْمِئذَنَةُ خَاصَّةً ، وَرُتِبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقُصَيْرُ يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الْجَسْرِ الْجَارِي تَحْتَهَا فَوَاضِلُ مَاءِ النَّيْلِ أَوْ أَنَّ زِيَادَتَهُ إِذَا نَجَرَ إِلَى الرَّمْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبُوبَةٍ . قَالَ فِي "التعريف" : وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بِنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ ، وَيُجْلِبُ الْمَاءَ إِلَيْهَا مِنْ بئرٍ وَرَاءَهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَرَابِيِّ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بِهَا تُؤْخَذُ الْمُرْتَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

(١) الذي في التعريف : بئر غزى ، أنظر ص (١٩٠) .

وهناك رمل بالطريق يُختم في الليل ويحفظ ما حوله بالعربان ، حتى لا يمر أحدٌ لَيْسًا . فيكون من القاهرة إلى قطيا اثنا عشر بريدا . ثم منها إلى صبيحة نخلة مَعْن . قال في ” التعريف ” : ومن الناس من يقصر على إحدى هذه الكلمات في تسميتها . ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى السوادة . قال في ” التعريف ” : وقد حوّلت عن مكانها فصار المسافر لا يحتاج إلى تعريجه إليها . ثم منها إلى الورداء ، قال في ” التعريف ” : وهي قرية صغيرة بها مسجدٌ على قارعة الطريق ، بناه الملك الأشرف « خليل » بن المنصور قلاوون تعمه الله برحمته ، حصل به الرقُّ بميت السفارة به . قال : وقد كان نخر الدين كاتب الممالك بنى إلى جانبه خانًا فيبع بعده . ثم منها إلى بئر القاضى . قال في ” التعريف ” : والمدى بينهما بعيد جدا يملئه السالك . ومنها إلى العريش . قال في ” التعريف ” : وقد أحسن كريم الدين رحمه الله بعمل ساقية سييل به وبناء خان حصين فيه يأوى إليه من أجهاء المساء ، وينام فيه آمنًا من طوارق الفرنج . ثم منها إلى الخروبة ، وبها ساقية وخان ، بناهما نخر الدين كاتب الممالك ، حصل به من الرق والامن ما بالعريش . قال في ” التعريف ” : وهذا آخر مراكز العرب الشهارة . ثم مما يليها خيل السلطان دوات الإصطبلات والخدم تُشترى بمال السلطان وتُعلف منه ، وأولها الزعقة ، ثم منها إلى رفق ، ثم منها إلى السلقة . قال في ” التعريف ” : وكان قبل هذا المركز بئر ظرنطاي حيث الجميز ويسمى سطر . قال : وكان في تقلة إلى السلقة المصلحة . ثم منها إلى الداروم ، ثم منها إلى غزرة . يكون من قطيا إلى غزرة أحد عشر مركزًا .

المقصد الثاني

(في مراكز غزّة وما يتفرّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتفرّع عنه مراكز ثلاث جهات، وهى: الكرك، ودمشق، وصفد.

فأما الطريق إلى الكرك: فمن غزّة إلى ملاقس وهو مركز بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك.

وأما مراكز دمشق: فمن غزّة إلى الحنين، وهو مركز بريد، ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون: تدارس، وبها خان بناه ناصر الدين خزندار تنكر. قال في "التعريف": وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فقلل وكانت المصلحة في نقله، ثم منها إلى قطرى. قال في "التعريف": وهو مركز مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصرى، وبه بئر سبيل وآثار له. قال: وقد حصل به رفق عظيم بعد ما بين [لُدّ وبيت دارس] أو ياسور، ثم منها إلى لُدّ، ثم منها إلى العوجاء. قال في "التعريف": وهى زوراء عن الطريق، ولو نقلت منه لكان أرفق، ثم منها إلى الطيرة. قال في "التعريف": وبها خان كان قد شرع في بنائه ناصر الدين دوادار تنكر ثم كمل بيد غيره. ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى فحمة [ثم منها إلى جينين] (١). قال في "التعريف": وهى على صفد، يعنى القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار، حسن البناء جليل النفع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحصن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين.

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١).

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرَعِينَ . قال في "التعريف" :
ومنها ينزل على عَيْنِ جَالُوتَ ، وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ حَصَلْ به أَعْظَمُ الرِّفْقِ والرَّاحَةِ من
العَقَبَةِ التي كان [يُسَلِّكُ] ^(١) عليها بين جِينِينَ وبيسَانَ مع طُولِ المَدَى . ثم منها إلى
بيسَانَ ، ثم منها إلى المَجَامِعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ عِنْدَ جَنْبِ
سَامَةَ ، كُنْتُ أنا المَشِيرَ به في سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، وحَصَلْ به الرِّفْقُ لِبُعْدِ
ما كان بين بيسَانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَدِيمًا من بيسَانَ على طَبِيبَةِ آسَمِ ،
ثم إلى أَرَبَدَ ، وكانت غَايَةً في المَشَقَّةِ ، إذ كان المسافرُ ما بين بيسَانَ وطَبِيبَةِ آسَمِ يَحْتَاجُ
إلى حَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وبها معدية للفَارِسِ دون الفَرَسِ ، وإنما يَعْبُرُ فيها الفَرَسُ
سِبَاحَةً ، وكان في هذا من المَشَقَّةِ ما لا يوصف ، لا سِيمًا أيامَ زيادةِ الشَّرِيبَةِ وكَلْبِ
الْبَرْدِ : لِقَطْعِ المَاءِ ومُعَانَاةِ العِقَابِ التي لا يَشْقُهَا جَنَاحُ العُقَابِ . ولكن الأمير
الطنبغا كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَلَ هذه الطَّرِيقَ وجَعَلَهَا على القُصَيْرِ حيثُ هي اليومَ ،
ونَقَلَ المَرْكَزَ من الطَّبِيبَةِ إلى زحرحين غَرِقَ بَعْضُ البَرِيدِيَّةِ الجَلِيلِينَ بالشَّرِيعَةِ . ثم من
المجامع المذكورة إلى زحر ، ثم منها إلى أَرَبَدَ ، ثم منها إلى طَفَسِ ، ثم منها إلى الجامع .
قال في "التعريف" : وكان قديمًا في المكان المسمى برأس الماء ، فلما ملكه الأميرُ
الكبيرُ تَنَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَلَ المَرْكَزَ منه إلى هذا الجامع ، فقَرَّبَ به المَدَى
فما بينه وبين طفس ، وكان بعيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصنمين ، ثم منها
إلى عَبَّابِ ، ثم منها إلى الكُسُوةِ ، ثم منها إلى دِمَشْقَ المحروسة .

وأما الطريق الموصلة إلى صَفَدَ : فمن جِينِينَ المَقْدَمِ ذِكْرُهَا إلى تَبْنِينَ ، ثم منها
إلى [حَطِينِ] ^(١) وبها قبر شُعَيْبٍ عليه السلام ، ثم منها إلى صَفَدَ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْق وما يتفرعُ عنه من المراكز الموصلة
إلى حمص وحمّاة وحلب ، وإلى الرّحبة ، وإلى طرابلس ، وإلى جعبر ، ومِصْيَاف
وبيروت وصيدا وبعْلَبَك والكرك وأذرعَات)

أما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْق إلى القُصَيْر . والذي
رأيتُه في بعض الدساتير أنه من دِمَشْق إلى خان لآجين ، ثم إلى القُصَيْر . قال
في " التعريف " : ثم من القُصَيْر إلى القَطِيفَة ، ثم منها إلى القَسْطَل . ورأيتُ
في الدُسْتُور المذكور أن من القُصَيْر إلى خان الوالي ، ثم إلى خان العروس ، ثم إلى
القَسْطَل ، ثم منها إلى قارا ، ثم منها إلى بريج العَطَش ويقال فيه البزيج أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مقطّع طريقي ، وموضع خوف ، فبني به قاضي
القضاة نعيم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مسجداً وبركةً ، وأجرى
الماء إلى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل ، فبدّل الخوف أمناً ،
والوحشة أنساً ، أثابه الله على ذلك . ثم منها إلى الغسولة ، ثم منها إلى شُمنين ،
ثم منها إلى حمص ، ثم منها إلى الرستن ، ثم منها إلى حمّاة ، ثم منها إلى لطمين ،
ثم منها إلى طرابلس ، ثم منها إلى المعرّة ، ثم منها إلى أنقراتا ، ثم منها إلى إياد ، ثم منها
إلى قنسرين ، ثم منها إلى حلب .

وأما طريق الرّحبة : فمن القَطِيفَة المقدّمة الذّكر إلى العطنة . قال في " التعريف " :
وليس بها مركز ، وإنما بها خان تُفرّق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب
إلى جبلجل ، ثم منها إلى المصنع ، ثم منها إلى القرّيتين ، ثم منها إلى الحسير ، ثم منها
إلى البيضاء ، ثم منها إلى تدمر ، ثم منها إلى أرك ، ثم منها إلى السّخنة ، ثم منها إلى

قُبَابِقَ ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم عُظْل . ثم منها إلى الرَّحْبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [إلى القصب ، ثم منها إلى قَدَسَ] ^(١) إلى أَقْصَارِ ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ ، ثم منها إلى عِرْقَاءَ ، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرٍ وما يليها : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى سَلَمِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْيَدِيدَ ، ثم منها إلى سُورِيَا ، ثم منها إلى الحَصِ ، ثم منها إلى جَعْبَرِ ، إلى عَيْنِ بَدَالِ ، ثم منها إلى صِهْلَانَ ، ثم منها إلى الخَابُورِ ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريق صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِيحِ الفلوس ، ومنه إلى أُرَيْبَةَ ، ومنها إلى لغران ، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق بَيْرُوتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ ، ومنها إلى زُبْدَانَ ، ومنها إلى الحُصَيْنِ ، ومنها إلى بَيْرُوتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ ، إلى جَزِيرَةَ صَيْدَاءَ ، إلى كَرْكِ نُوحَ ، ثم منه إلى بَعْلَبَكَّ . قال في "التعريف" : وآهلم أَنَّ من صَيْدَاءَ إلى بَيْرُوتَ قَدْرُ مَرَّكَرٍ .

وأما بَعْلَبَكَّ ، فلها طريقان : إحداهما من خَانَ مِيسَلُونَ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحَ إلى بَعْلَبَكَّ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيِّ إلى بَعْلَبَكَّ .

ومن أراد من بَعْلَبَكَّ حِمَصَ ، توجه منها إلى القَصَبِ ، ثم إلى الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، وبعدها شَمْسِينَ ، ثم حِمَصُ عَلَى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكرك : فمن دمشق - في المراكز المذكورة في الوصول من غزّة إلى دمشق - على عكس ما تقدم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُسبان ، ومنها إلى [ديباج]^(١) ومنها إلى [اكرية] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذرعَات ، مَقَرِّ ولايةِ الولايةِ بالصَّفقةِ القِليَّةِ : فمن طفس المقدمة الذِّكر إلى أذرعَات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مراكز دمشق إلى كل جهة .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كل واحدةٍ إلى ما يليها ، حتى يتوصَّل المسافرُ على البريد إلى حيثُ أراد .

المقصد الرابع

(في مركز حلب وما يتفرع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسني وما يليهما ، وقلعة المسلمين المعروفة بقاعة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فأما الطريق الموصلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى الساجور ، ثم منها إلى كلناس^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البر الشرقي من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أجل تغورها^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وعقائل المعادل التي لم تفتزع على طول الأيام ، فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) . »

وأما طريق بهسني وما يليها : فمن حلب إلى السموقة ، ثم منها إلى سسندرا ،
[ثم منها إلى بيت الفار ^(٢)] ثم منها إلى عيئاب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدخَل إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدروب . قال في "التعريف" : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحيرِ القريبِ إلينا منها : قيسارية ودرندة ، وإنما المستقرُّ المعروفُ أنَّ
آخرَ حدِّ الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بهسني .

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها : فمن عيئاب المقدمة المذكور إليها ، وهي وسط
الفرات ، وهو خُلجانٌ دائرةٌ عليها . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكفتا ، وهي آخر الحدِّ من الطرفِ الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حلب إلى أرحاب ، ثم منها إلى تيزين ، ثم منها إلى يغرا ،
ثم منها إلى بغراس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحدِّ مما يلي بلاد
الأرمن . قال : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحينِ ما استَضَفْنَا ، فصار من بغراس
إلى باياتس ، وهي أول جيل الأرمن ، ثم من باياس إلى آياس .

وأما طريق جعبر : فمن حلب إلى الجبول ، ثم منها إلى باليس ، ثم منها إلى جعبر .
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكز حلب . أما بقايا القلاع ومقارِّ الولايات ،
فمن شُعبِ هذه الطرق ، أو من واحدةٍ إلى أخرى .

(١) في التعريف سسندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مركز طرابلس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللاذقية : فمن طرابلس إلى مرقية ، ثم منها إلى يلبنياس ، ثم منها إلى اللاذقية ، ثم منها إلى صهيون ، وهي قلعة جليلة كانت دار ملك . ثم منها إلى بلاطنس . قال في "التعريف" : ومن شاء فمن صهيون إلى برزيه ، وهو حصن سُمي باسم من عمره أو عرف بملكه ، ومن شاء فمن بلاطنس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطنس ، ثم منها إلى الكهف ، ثم منها إلى القدموس ، ثم منها إلى الخوابي ، ثم منها إلى الرصافة ، ثم منها إلى مصيف . قال في "التعريف" : فهذه جملة مراكز طرابلس . فأما مقار الولايات فمن واحدة إلى أخرى ، ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة .

قال : فأما من أطراف ممالكنا إلى حضرة الأردو، حيث هو ملك بني هولوكو، فلهم مراكز تسمى خيل الأوقاق وخيل الأيام يحمل عليها، لا تُشتري بمال السلطان ولا يكلف تمنها، وإنما هي على أهل تلك الأرض، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك .

المقصود السادس

(في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية على ساكنها)

سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاکرام، إذ كانت من

بئمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة)

وكما ضبطت تلك بالمراكز فقد ضبطت هذه بالمراحل . وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأتقال، ودبيب الأقدام، [ويقطعونها

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على النجيب مُحفًّا مع الحدِّ في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر .

ثم أول مصيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحاج، ثم منها إلى البويب، ثم منها إلى الطليحات، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلى مرا كع موسى، ثم منها إلى عجرود، وبها بئر ومصنع ماء متسع يملأ منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القباب، وهو كثير الرمل . ثم منها إلى أول تيه بني إسرائيل، وهو وادي أفح متسع . ثم منها إلى العنق، ثم منها إلى نخل، وبها ماء طيب . ثم منها إلى جسد الحى، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظهر العقبة، ثم منها إلى سطح العقبة، وهو عروق البغلة على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من حفائر . ثم منها إلى حفن على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من الحفائر . ثم منها إلى عش الغراب، ثم منها إلى آحر الشرفة، ثم منها إلى مقارة شعيب، وبها ماء ومصنع . ثم منها إلى وادي عقان، ثم منها إلى ذات الرخيم، ثم منها إلى عيون القصب، وبه ماء نابغ وأجمه قصيب نابتة فيها . ثم منها إلى المويحة، وبها ماء في آبار . ثم منها إلى المدرج، ثم منها إلى ساهى مجاور بحر القلزم، وبها ماء ملح . ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأزهم، والناس يقولون: الأزهم باللام بدل النون، وبه آبارها ماء ردىء يطابق بطن من شربه، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال، وهى نصف الطريق . ثم منها إلى رأس وادي عنتر . ثم منها إلى الوجه، وبه آبار قليلة الماء، وما هو داخل الوادى يعز الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حفائر، ويقال : إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب ماؤه، وفيه يقول بعض من حج من الشعراء وعز عليه وجود الماء فيه :

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ "قلَّ حياؤه"، * ولا خير في "وجهه" بغير حياء!

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكرا ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروي ، ثم منه إلى كلنخا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيّق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادي النور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منه إلى آخر وادي النور ، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهي النصف والرابع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب في الوعر . ثم منها إلى رأس وادي بدر ، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البروة ، ثم منه إلى وسط قاع البروة ، ثم منه إلى رابع ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر ، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله : « وأتقل حمأها إلى الجحفة » فلو مر بها طائر لحم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عقبة السويق ، ثم منها إلى خلص ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسفان ، ثم منها إلى مدرج علي ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطن مر ، والعامية يقولون : مرو ، بزيادة واو ، وبه عيون تجري وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار تحفر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف ، وإليها ينتهي سفر الحجاج .

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم .

الطريق إلى المدينة النبوية

(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ في المَرَاجِلِ المُنْتَقِمَةِ الذَّكْرُ ، إلى وَادِي بَدْرِ المُنْتَقِمَةِ الذَّكْرُ ، إلى رَأْسِ
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وبه عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثم منها إلى وَادِي نَبِيِّ سَالِمٍ ،
ثم منه إلى وَادِي الغَزَالَةِ ، ثم منه إلى الفَرَشِ ، ثم منه إلى بَيْرُ عَلِيٍّ ، وبها ماء طَيِّبٌ .
ثم منها إلى المَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْيَنْبُعِ إِلَى رَأْسِ تَقَبِ عَلِيٍّ عِنْدَ طَرْفِ الْجَبَلِ ، ثم إلى
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثم في المَرَاجِلِ المُنْتَقِمَةِ الذَّكْرُ إِلَى المَدِينَةِ . وهي أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ لِلْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطرق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر
مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة - أنَّ الحمام اسم جنس يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدباسي والقماري والفواخت وغيرها، وأنَّ المتبادر
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأنَّ أغلاه قيمة وأعلاه
رتبة الحمام الرسائلي، وهو الذي يتخذهُ الملوك لحمل المكاتبات، ويعبر عنه بـ«الهدى» .
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعبرة فيها، وهي
رياش أجنحتها وأذناها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفاره،
والفراصة في تجابته في حال صغره، والزمان والمكان اللاتين بالإفراخ، وما يجري
مجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فأغنى
عن ذكره هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجري هذا
النجسرى .

فأما الاعتناء به والأهتمامُ بسأته - فقد آعنى به في القَديمُ خلفاءُ بني العباس :
 كالمهديّ ثالث خلفائهم ، والنَّاصِرِ منهم . وتنافس فيه رؤساءُ الناس في العراقِ لاسيَّما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحبُ "الروضِ المِعْطَارِ" أنهم تنافسوا في آفتنائه ، ولهجوا
 بذكره ، وبالغوا في أثمانه ، حتَّى بلغ ثمنُ الطائرِ الفارهِ منها سبعمائة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنَّه بلغ ثمنُ طائرٍ منها جاء من خَلِيجِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ ألفَ دينار . قال :
 وكانت تُباعُ بيضنا الطائرِ المشهورِ بالفراهِةِ بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دَفَاتِرُ
 بأنسابِ الحمامِ كأنسابِ العرب ، وأنه كان لا يمتنعُ الرجلُ الجليلُ ولا الفقيهُ
 ولا العدلُ من آخذِ الحمامِ ، والمُنَافَسَةِ فيه ، والإخبارِ عنها ، والوصفِ لآثرها ،
 والنَّعْتِ لمشهورها ، حتَّى وجَّه أهلُ البصرةِ إلى بَكَارِ بنِ شَيْبَةَ البكرانيّ قاضيَ مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكنُ عليه قاضٍ) بحمائمٍ لهم مع
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولَّى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمامُ عندهم
 متجراً من المتاجر ، لا يرونُ بذلك بأساً .

وذكر المَقَرَّ الشَّهَابِيُّ بنُ فَضْلِ اللهِ في "التَّعْرِيفِ" أن الحمامَ أولُ ما نشأ بالديارِ
 المصريةِ والبلادِ الشَّامِيَّةِ من المَوْصِلِ ، وأنَّ أولَ من آعنى به من المُلُوكِ [ونقله]
 من المَوْصِلِ الشَّهِيدُ نُورُ الدِّينِ بنُ زَنْكِي صاحبُ الشَّامِ رحمه اللهُ ، في سنة ثَمَينِ
 وستين وخمسمائة . وحافظُ عليه الخلفاءُ الفاطميُّونُ بمصر ، وبالغوا حتَّى أفردوا له
 ديواناً وجرائدَ بأنسابِ الحمامِ . وصنَّفَ فيه القاضِ مُحْيِي الدِّينِ بنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ كتاباً
 سماه : "تَمَائِمُ الحَمَامِ" .

قلتُ : وقد سبقه إلى التَّصْنِيفِ في ذلك - أَبُو الحَسَنِ بنُ مُلَاعِبِ العَوَارِسِ
 البَغْدَادِيُّ ، فصنَّفَ فيه كتاباً للنَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ الخليفةِ العباسيِّ ببغداد ، وذكَّرَ فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماء أعضاء الطائر ورِياسه ، والوشوم التي تُوسم في كلِّ عضوٍ ، وألوان الطيور وما يُستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعْد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا الجري . وأظنُّ أنَّ كتاب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مُقدمته .

وأما مسافات طيرانه ، فقد تقدّم أنَّ الطائر الذي يبع بألف دينارٍ طار من القسطنطينية إلى البصرة ، وأن الحمام أُرسِل من مصر إلى البصرة بحضرة القاضي بكارٍ قاضي مصر .

وذكر ابن سعيدي في كتابه "حيا المحل وجنى النحل" أنَّ العزيز ثانی خلفاء الفاطميين بمصر ، ذكر أوزيره يعقوب بن كلّس أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحبُّ أن يراها . وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حمامٌ من دمشق ، فكتب الوزير لوقتِهِ بطاقةً يأمر فيها من هوتحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ، ويعلق في كلِّ طائرٍ حباتٍ من القراصية البعلبكية ، ويُسلها إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمضِ النهارُ حتّى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلّس وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه .

وذكر أيضاً في كتابه "المغرب في حلّ المغرب" أنَّ الوزير البازوري المغربي ، وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أفريقيا من بلاد المغرب فناء إلى مصر ، والعهدة عليه في ذلك .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرارة
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة
إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدرجيه من مصر إلى قوص
وأسوان وعيناب . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدرجيه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلًا بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيناب والإسكندرية
ودمياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة

من بروج قلعة الجبل - إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،
ثم منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

إعلم أن الأبراج من غزّة تتشعبُ فيها مسارحُ الحمام إلى غيرِ جهةِ دمشق وإلى جهتها .

فأما غيرِ جهةِ دمشق ، فمن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غزّة إلى القدس الشريف ، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهةُ الشام : فمن غزّة إلى لُد ، ومن لُد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين .
ومن جينين تتشعبُ المسارحُ إلى غيرِ جهةِ دمشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غيرِ جهةِ دمشق : فمن جينين إلى صفد . وأما ما إلى جهةِ دمشق :
فمن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "التعريف" : ومن كلِّ واحدٍ من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أذربعات مقرّ ولاية الولاية بالصفقة القبليّة ، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تتشعبُ مسارحُ الحمام من دمشق إلى غيرِ جهةِ حلب ، وإلى جهتها .

فأما إلى غيرِ جهةِ حلب : فنسرح من دمشق إلى بعلبك ، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهةِ حلب : فنسرح من دمشق إلى قارا ، ثم من قارا إلى حصص^(١) ،

ثم من حصص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرّة ، ثم من المعرّة إلى حلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قارة بالهاء .

الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

برج الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى هسنى . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شأن ^(١)] مما حوّلها [ثم من القريتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقب ، ومنها إلى الرجة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقب ، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقب ، ثم يسرح على الجناح من قباقب إلى الرجة ^(١)] . قال :
وبما ذكرتم ذكر مرآة الحمام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحمام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليتم الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هُجْنِ التَّلْجِ والمَرَاكِبِ المُعَدَّةِ لِحَمْلِ التَّلْجِ الذي يَحْمَلُ
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل التَّلْجِ

إِعلم أَنَّ ماءَ نَيْلِ مِصرٍ لما كان من الحَلَاوةِ واللِّطافةِ على ما لا يُساوِيهِ فيهِ نَهْرٌ من
الأنهار، على ما تقدّم ذِكرُهُ في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شِدَّةِ
القَيْظِ بها في زَمَنِ الصَّيفِ، وسُخُونَةِ الهِواءِ الذي قد لا يَتَأَتَّى معه تبريدُ الماءِ، وكان
التَّلْجُ غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوِكُ قد آعتادت الرِّفاهِيَّةَ مع أَقْندارِها على تحصيلِ
الأشياء العَزيزةِ، ووَلُوعِهِم بِجَلْبِها من الأماكين البعيدة - إكمالاً لحال الرِّفاهِيَّةِ،
وَإظهاراً لأبهةِ المُلْكِ - دَعاهم كَألِّ الرِّفاهِيَّةِ والأبهةِ إلى جَلْبِ التَّلْجِ من الشام إلى
مِصر: لتَبْرِيدِ الماءِ به في زَمَنِ الحَرِّ. على أَنَّ ذلك كان في غيرهم من الملوِكِ التي
لا تَلْجُ بِحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أَنَّ أَوَّلَ من حَمَلَ إليه التَّلْجُ
الْحَجاجُ بنُ يُوْسُفَ بالعِراقِ . ثم لآعتناء مِلوِكِ مِصرٍ بالتَّلْجِ قَرروا له هُجْناً تَحْمَلُهُ في البَرِّ
وَسُفُنًا تَحْمَلُهُ في البَحْرِ، حتى يَصَلَ إلى القلعة المحروسة .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام
 قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تغمده الله
 برحمته ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك . قال : ودامت على أيام سلطاننا
 (يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة، وبقيت صدراً منها،
 ثم أخذت في الترييد إلى أن بلغت أحد عشر مركباً في مملكتي الشام وطرابلس،
 وربما زادت على ذلك . قال : وآخر عهدى بها من السبعة إلى الثمانية تطلب
 من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات
 ودواعي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دميّاط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل
 بولاق، فينقل منه على البغال السلطانية، ويحمل إلى الشرايخانة الشريفة، على
 ما تقدم ذكره .

وقد جرت العادة أن المراكب إذا سقرت سفر معها من يتدرّكها من ثلاثين
 لمداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهجن المعدّة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدث في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
 وأستمر . وقد كان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة . ثم ذكر أن هذه المراكب
 من دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى بانياس، ثم منها إلى أربد، ثم منها إلى بيسان،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غزّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قطيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبيس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز ست هجن : خمسة للأحمال ، وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة أحمال . وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صفد . ومن الورداء إلى القلعة هجن من المناخت السلطانية ، والكلفة على مال مضر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج ، وهي : حزيان وشرين الثاني . وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل نقلة بریدی يتداركه ، ويجهز معه ثلاث خير بجمله ومداراته ، يحمل على فرس بریدی ثان . قال : وأستقر في وقت أن يحمل الثلج على خيل الولاية .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّلْجَ إِذَا وَصَلَ عَلَى الْمَرَاكِبِ وَالْهُجْنِ حَتَّى آتَتْهُ إِلَى الْقَلْعَةِ ، نُحِرْنَ بِالشَّرَابِخَانَاهِ السُّلْطَانِيَّةِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَمَذْقَرٌ أَنْ يُحْمَلَ مِنَ التَّلْجِ عَلَى الظُّهْرِ مَا يُحْمَلُ ، أَسْتَقَرَّ مِنْهُ خَاصُّ الْمَشْرُوبِ ، لِأَنَّهُ يَصِلُ أَنْظَفَ وَأَمَنَ عَاقِبَةً ، عَلَى أَنَّ الْمُتَسَفِّرِينَ يَأْخُذُونَ الْحَاشِي مِنْهُ بِحَضُورِ أَمِيرِ مَجْلِسِ وَشَادِّ الشَّرَابِخَانَاهِ السُّلْطَانِيَّةِ وَنُحْرَانَهَا . أَمَا الْمَقُولُ فِي الْبَحْرِ فَلَمَّا عَدَا ذَلِكَ . قَالَ : وَلِلْمُجَهِّزِينَ بِهِ مِنَ الْخَلْعِ وَرُسُومِ الْإِنْعَامِ رُسُومٌ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَعَوَائِدٌ مُسْتَمَرَّةٌ .

قُلْتُ : وَقَدْ بَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ وَاصِلَ التَّلْجِ فِي كُلِّ نَقْلَةٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تُكْتَبُ بِهِ رَجْعَةٌ مِنْ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ ، وَهَذَا هُوَ وَجْهٌ تَعَلَّقَهُ بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع يرفع النار في الليل والدخان في النهار .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاء من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أما كن مرتفعة من رؤوس الجبال تُوقد فيها النار ليلاً و[يثار] الدخان نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إن المتجدد بالفترات إن كان بكرة علم به عشاءً ، وإن كان عشاءً علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك . وقد أُرصد في كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامع مقررة كانت لا تزال دارة . قال : وكان ينور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النصح بحجة أمير سوي التنوير، ويستريح عليهم أهل البلد حباً لملوكها ، فترى ناره أو دخانه بحرية الروم وبالخرف أيضاً، ويرفع فيهما أوفى إحداهما فيرى^(١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كل منهما بواى الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة
وقاها الله، ويرفع بها فيرى فى كوائل، ويرفع فيها فيرى فى منظره قباقب، ويرفع
فيها فيرى فى حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنظره
أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أرك] وتدمر، ويرفع فيها فيرى
بمنظره تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنظره البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها
فيرى بجليجل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى
بثنية العقاب، ويرفع فيها فيرى بمذنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذارا للرايا
وصما للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع، ويرفع به
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل
عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة أسم، ثم يرفع بها فيرى بالمنور المعمول بازاء
البريد الذى برأس الجبل المنحدرا إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق^(٢)
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها،
ويرفع من هذا المنور الذى برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين،
ثم يرفع منه فيرى بجبل فحمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى
بأطراف أعمال نابلس] ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصايب لمجدل بابا،
فيرفع منه فيرى بمرکز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال
المطلّة على غزّة، ويرفع بغزّة على أعالي الحدب المعروف بحدب غزّة، ثم [المنور و]^(١) لا
إخبار بسان التتار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناوِرٌ تنتشعب إلى ما نخرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبِ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصلح الله بين الفِئتين ، وأمن جانبِ الجهتين ؛ فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرفَ عن البال . وهذه المناوِرُ رسومٌ قد عفت ، وجسومٌ [أكلت شعلُ النارِ أرواحها^(١)] فأنطفت .

على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مناوِرِ طريقِ البيرة ، ومناوِرِ طريقِ الرِّحبة ، وهما من نفسِ المملكة .

قلت : وهذه المناوِرُ مأخوذةٌ عن ملوكِ الهند . فقد رأيتُ في بعضِ الكتبِ أن بلادهم مناوِرٌ على جبالٍ مرتفعةٍ ، ترى النارُ فيها على بُعدٍ أكثر من هذه .

على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمةٍ ملوكيةٍ لا تساوئُ مقدارا ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغِ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريدَ يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمّامُ يأتي من الخبرِ بما هو أسرعُ في البريد ، والمناوِرُ تأتي من الخبرِ بما هو أسرعُ من الحمّام . وناهيك أن يظهر عنوانُ الخبرِ في القرأتِ بمصر في مسافةِ يومٍ وليلةٍ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المحرقات

قال فى "التعريف": وهى مواضع مما يلي بلادنا من حدّ الشرق داخلةً فى تلك المملكة (يعنى مملكة بنى هولاكو من التتار) يُجهز إليها رجالٌ فُتحِرُقُ زرعها، كأرض البقعة والثَّرثارِ والقمينة، وباشرة، والهُتَّاخ، ومشهد ابنِ عُمَرَ، والمُوَيْلِج، وبلادِ نِينَوَى من بَرِّ الموصلِ التى يقال، إن يُوَسَّسُ عليه السلامُ بُعِثَ إلى أهلها، والوَادِى، والمِيدان، والبَابِ، والصَّومَعَةِ، والمرجِ المعروفِ بِبَنَى زَيْدٍ، والمرجِ المُحْتَرِقِ، ومنازل الأويراتية، وهى أطراف هذه المواضع إلى جَبَلِ الأكراد. وبلادِ سِنْجَارِ - المنطق والمنظرة والمزيدة، وتحت الجبال عند التُّبُلَيَاتِ، وكذلك التارات، وأعلى جَبَلِ سِنْجَارِ وما والى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التتار أنهم لا يكتفون عُلوْفَةً لِحَيْلِهِمْ بل يَكُونُهَا إلى ما تُنْتَبِئُ الأَرْضُ، فإذا كانت تلك الأَرْضُ مُحْصَبَةً سَلَكُوهَا، وإذا كانت مُحْصَبَةً تَجَنَّبُوهَا، وكانت أَرْضُ هذه البلاد المتقدمة الذِّكْرُ أَرْضًا مُحْصَبَةً، تقومُ بِكِفَايَةِ حَيْلِ التَّوْمِ إذا قَصَدُوا بلادنا، فإذا أَحْرَقُوا زَرْعَهَا وَنَبَاتَهَا ضَعُفُوا عن قَصْدِ بلادنا وحصل بذلك جميعُ الرِّفْقِ، والدَّفْعُ عن مِباغَةِ الأَطْرَافِ ومُهاجَةِ الثُّغُورِ.

وكان طَرِيقُهُمْ فى إِحْرَاقِهَا أَنْ يُجَهِّزُوا إِلَيْهِمُ الرِّجَالَ ومعهم الثَّعَالِبُ الوَحْشِيَّةُ وكِلَابُ الصَّيْدِ، فَيَكْتَبُونَ عند أَمْنَاءِ النَّصَّاحِ فى كُهُوفِ الجِبالِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَيَرْتَقِبُونَ يوماً تكون رِيحُهُ عاصِفَةً وهَوَاؤُهُ زَعَزَعٌ، تُعَلِّقُ النَّارُ مُوثِقَةً فى أذْنَابِ تلك الثَّعَالِبِ وَالكِلَابِ، ثم تُطَلِّقُ الثَّعَالِبُ، وَالكِلَابُ فى أَثْرِهَا وقد جُوعَتِ، لِتَجِدَ

الثعالبُ في العَدْوِ ، وَالكَلابُ في الطَّلَبِ ، فَتُحْرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ ، وَتُعَلِّقُ الرِّيحُ النَّارَ منه فيما جاوره ، مع ما يُلقِيه الرَّجَالَةُ بأيديهم في اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَعِشَاءَ الأَيامِ الْمُعْتَمَةِ . وكان يُنْفَقُ في نَظِيرِ هذا الإِحراقِ من خزانة دِمَشقَ جُمْلٌ من الأموال . قال : وكان الأَهْتامُ بِذلك في أوَّلِ الأمرِ قبل أن يَفْطَنُوا بِقصدِ التَّحْرِيقِ ، ثم نَبَهُهم على ذلك أَهْلُ المُدَاجاةِ ، فَصاروا يَرِبَطونَ عليها الطُّرُقَ ، وَيُمسِكُونَ منها بالأطرافِ ؛ وَقَتْلَ عَدِيدٍ من الرجالِ بِسَببِها ، وَأَحْرَقُوهم بِأشدِّ من نارِها .

وَذَكَرَ أَنَّ ما كان يُجْتَنَبُ تَحْرِيقُهُ - أرضَ الجِبَالِ ، من حيثُ إنها بلادُ بَقِيَّةِ السَّلَفِ الصالحِ من ذُرِّيَّةِ شيخِ الإسلامِ الإمامِ الكَبيرِ العارِفِ باللهِ «عَبْدِ القادِرِ الجَليليِّ» المعروفِ بِالكَيلانيِّ ، نفعَ اللهُ تعالى بِبركانِهِ ، لَتَعْظِيمِهِم من الجهتينِ ، مع ما لَهم عندَ مُلوَكِها من المِكانَةِ العَلِيَّةِ : لَقَدِيمِ سَلْفِهِم ، وَصَمِيمِ شَرَفِهِم ، وَلِمَا للإسلامِ وَأَهْلِهِ من إِسعافِهِم بما تَصِلُ إليه القُدْرَةُ وَيَبْلُغُهُ الإِمكانُ .

قلتُ : وَبِتَمَّ القَوْلُ في هذا الطَّرَفِ قَد تَمَّ ما كُنْتُ أُحَاوِلُهُ من التَّأليفِ ، وَأَهْتَمُّ به من الجَمْعِ ، وَباللَّهِ التَّوفيقُ ، وإليه الرَّغْبَةُ ؛ وَهو حَسبي وَنِعْمَ الوَكيلُ . وَأَعْلَمُ أن المَصنِفَاتِ تَتفاوتُ في الحُظوظِ إِقبالاً وَإِدباراً : فَمِنْ مَرغُوبٍ فيه ، وَمَرغُوبٍ عنه ، وَمُتوسِّطٍ بينَ ذلك . على أَنَّهُ قَلَّ أن يَنفَقَ تَأليفُ في حِياةِ مُؤَلِّفِهِ ، أَوْ يَروِجَ تَصنيفُهُ على القُرْبِ من زَمانِ مُصنِّفِهِ .

قال المَسعودِيُّ في كتابِهِ «التَّنبيهِ والإِشرافِ» وَقَد تَشَرَّكَ الخَواطِرُ ، وَتَتَّفَقُ الضَمائرُ ؛ وَرُبَّمَا كانَ الآخِرُ أَحسَنَ تَأليفًا ، وَأَمَنَ تَصنيفًا ؛ لِحِكمةِ التَّجاربِ ، وَخَشْيَةِ التَّبَعِ ، وَالإِحتراسِ من مَوانِعِ المَضارِّ . وَمن هاهُنَا صارَتِ العلومُ نَاميَّةً ، غيرَ مُتَناهِيةً ، لِوُجودِ الآخِرِ ما لا يَجِدُهُ الأوَّلُ ، وَذلكَ إلى غيرِ غَايَةٍ مُحْصُورةٍ ، وَلا نِهايةٍ مُحَدُودةٍ .

على أن من شيم كثير من الناس إطراء المتقدمين، وتعظيم كتب السالفين؛ ومدح الماضي، وذم الباقي؛ وإن كان في كتب المحذنين ما هو أعظم فائده، وأكثر عائده.

ثم حكى عن الجاحظ - على جلالته قدره - أنه قال: كنت أولف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الاستماع تصغى إليه، ولا الإرادات تليعم نحوه، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هرون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت أسماءهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا شيء إلا لنسبتها للتقدمين، ولما يدخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم، ومناقسته على المناقب التي عني بتشييدها.

قال: وهذه طائفة لا يعابها كبار الناس، وإمّا العمل على أهل النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقه من القول، ووفوه قسطه من الحق؛ فلم يرفعوا المتقدم إذا كان ناقصاً، ولم يفضوا المتأخر إذا كان زائداً؛ فليمثل هؤلاء تصنف العاوم، وتدون الكتب.

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين، وعين أعيانهم، فما ظنك بغيره؟

لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تاليفي، ونفاق سلعته، والمسارة إلى استكنايه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى آكتابه، ومررتب تجارته للاستنساخ يساهمهما في ارتقائه. فضلاً من الله ونعمة، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

قال المؤلف : نَجَزَتْ تَأْلِيْفَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وُنَجَزَتْ هَذِهِ النُّسْخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَرِّ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسِتَّةَ قَبْلَهُ ، فَقِيرٌ رَحْمَةً رَبِّهِ الْغَنِيِّ الْفَاتِحِ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَبُو مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيُّ ، نَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِنِطْطِ بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عَيْبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول لتعين على الكاتب معرفتها ،
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،
وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء
المسلمين ، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير
أوضاعها ، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،
ومذاهب الكتاب في ذلك ، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
وتخذ منه نسخ بالأبواب السلطانية ، وتدفع
منه نسخ إلى ملوك الكفر ، وذلك على النمطين ... ١٦

صفحة

- النمط الأول - ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج... .. ١٦
- » الثاني - ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧
- النوع الأول - ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،
وفيه مذهبان ١٧
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧
- » الثاني - أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبدية ... ٢٦
- النوع الثاني - من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر -
أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب
ثلاثة مذاهب ٢٩
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»
ونحو ذلك ٢٩
- الثاني - أن تفتح الهدنة بلفظ: «أستقرت الهدنة بين
فلان وفلان» الخ ٣١
- » الثالث - أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني - فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام
في كتابة نسخ من دواوينهم... .. ٧٢
- الباب الخامس - من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين
ملكين مسلمين، وفيه فصلان ٧٩
- الفصل الأول - في أصول تعتمد في ذلك ٧٩
- » الثاني - فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك
المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة
والمتن، وفيه نودان ٨٤

صفحة

- النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ٨٤
- » الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،
- وفيه مذهبان ٩٧
- المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : «هذا» ٩٧
- » الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله»
- وربما كرر فيها التحميد ١٠٠
- الباب السادس — من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود
- السابقة ، وفيه فصلان ١٠٨
- الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون
- الآخر ١٠٨
- » الثاني — المفاخنة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق
- بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ١١٠
- الباب الأول — في الحديات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة
- فصول) ١١٠
- الفصل الأول — في المقامات ١١٠
- » الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ١٣٨
- الصنف الأول — الرسائل المملوكية ، وهي على ضربين ١٣٩
- الضرب الأول — رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها ١٣٩
- » الثاني — » الصيّد ١٦٥
- الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المدح والتقرير ... ١٧٢

صفحة	
٢٠٤	الصفن الثالث - من الرسائل - المفانرات
٢٤٠	» الرابع - » » الأسللة والأجوبة
٢٥١	» الخامس - » » ما تكتب به الحوااا والماجرنا
	الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
٢٨٢	فنا قنمات البننا
	» الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
٣٠٠	فنا الصنقات ، وفنه طرفان
٣٠٠	الطرف الأول - فنا الصنقات الملوكة وما فنا معناها
٣١١	» الثاني - فنا صنقات الرؤساء والأعان وأولادهم
	الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فنا فكتب
	عن العلماء وأهل الأنا ، مما جرت العادة
	بمراعاة النر المسجون ففنه ، ومحاولة الفصاحة
٣٢٢	وباللاة ، وفنه طرفان
	الطرف الأول - فنا فكتب عن العلماء وأهل الأنا ،
٣٢٢	وهو على صنفا
	الصنفا الأول - الإجازات بالفتنا والتدرنا والرؤاة وعراضات
٣٢٢	النا ، ونحوها
	» الثاني - التقرناات الننا فكتب على المصنفا المصنفة
٣٣٥	والقصابنا المنظومة
	الطرف الثاني - فنا فكتب عن القضاة ، وهو على أربعة
٣٤٠	أصناف
٣٤٠	الصنفا الأول - النقالنا النكة
٣٤٦	» الثاني - إسبالات العناة

صفحة

- الصفحة الثالث - الكتب إلى التواب وما في معناها ٣٥٠
 » الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب ٣٥٣
 الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ٣٥٥
 الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات ٣٦٠

الخاتمة

- في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦
 الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ٣٦٦
 الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
 الغرض من ذلك بثلاثة أمور ٣٦٦
 الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ٣٦٦
 » الثاني - أقل من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ٣٦٧
 » الثالث - بيان معالم البريد ٣٧١
 الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
 البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ٣٧٢
 المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
 هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
 وما تنتهي إليه مراكز كل جهة ٣٧٣
 » الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ٣٧٩
 » الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨١
 » الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٣
 » الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٥
 » السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
 المشرفة والمدينة المنورة ٣٨٥

صفحة

- الباب الثاني — من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر
أبراجها المقتررة بطرق الديار المصرية والبلاد
الشامية، وفيه فصلان... .. ٣٨٩
- الفصل الأول — في مطاراته ٣٨٩
- » الثاني — في أبراج الحمام المقتررة لاطارتها بالديار
المصرية، والبلاد الشامية ٣٩٢
- الباب الثالث — من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدة
لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب
السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥
- الفصل الأول — في نقل الثلج ٣٩٥
- » الثاني — في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام... .. ٣٩٦
- » الثالث — في الهجن المعدة لنقل ذلك... .. ٣٩٦
- الباب الرابع — من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨
- الفصل الأول — في المناور ٣٩٨
- » الثاني — في المحرقات ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي

بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تَحْمَدُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيْسِيرِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى
مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحِ الْهُدَايَةِ
وَشَهَائِمِ السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النَّجْوِمِ الثَّوَابِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِعِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْأُمَّمَ بَنَاتِهَا ، وَالشُّعُوبَ بَسِيْرَهَا وَأَخْبَارِهَا ؛ وَمِنَ الْأَعْظَمِ الْآثَارِ
قِيَمَهُ ، وَأَعَزَّرِهَا دِيْمَهُ ؛ مَا تُعْرَفُ بِوِاسِطَتِهِ نَتَائِجُ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ
قِرَائِحُ الْجِهَادَةِ الْحُكْمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَّمُ الرَّأْيِيَّةُ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ وَإِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنَى بِشَأْنِ عُلَمَائِهَا :
عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَشَارِبِهِمْ ؛ وَتَحِلُّهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى
الدَّرَجَاتِ ، وَتَرْجِعُ فِي أَمْرِ مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدِيَّةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدِيَّةِ ؛
وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهْدِهَا فِي إِنْشَاءِ دُورِ الْكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا :
لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَاتِرَهُمْ وَطَوَامِيْرَهُمُ الَّتِي أُوْدِعُوهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَنَتِيْجَةَ بَحْثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْعَزِيْزَةَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ تُسَابِقُ «الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ» فِي هَذَا
الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ ، مَيْدَانِ التَّقَدُّمِ وَالْأَرْتِقَاءِ .

وسارت من بعدهما تهاض « بغداد » دار السلام، ومرکز الملائنة العباسية
وكعبة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يئذله الخلفاء لعلمائها من أنواع التحف،
ويقرغونه عليهم من بدر الأموال : حبا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم
عصوها الذهبية المملوءة بالمعالي والمفانخر، يوم كانت تنشر على العالم ألية الحضارة،
وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعها : مرحبة بكل وافد عليها من أهل العلم والأدب ،
خصوصا بعد أن طوحت يد الردى بمدن العراق وحواضر الأندلس ، ودارت عليها
الدوائر، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد
علمائها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضائتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فأصبحت ميدانا واسعا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، وموردا عذبا يزدحم
عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاخرة بأكار العلماء ونوابغ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمراؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ماؤها الإعظام
والإجلال ، وأخذوا يساعدونهم ، ويبالغون في إكرامهم وإدراج النعم عليهم ،
ويشجعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا
لا يؤسسون مسجدا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا
ويشيدون في داخله خزانة كتب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار
والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد
الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لخلفائها الفاطميين خزانة كُتُبٍ كُبرى ، كانت من أجل الخزانين
وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .
يقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دارُ كتبٍ أعظم من التي كانت بالقاهرة
في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : ترد مناهل العلم
العذبة ، وتتغذى باللبان الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأمم الإسلامية ،
فتفرقت شيعًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العامة ، وصار كل واحد لا هيا
بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

فقلل الاحتفال بالعلم وأهمله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار
على كثرتها ، وأمتدت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أنى شاءت بدون محاسب
أورقيي . وأستولى المغيرون على الديار المصرية على أنفيس ما كان مودعًا فيها من
الكتب والآثار ، ونقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ماشاء الله أن ينقلوا .

وهاهي اليوم تتأدى أهل مصر من وراء البحار ، وتناجيهم بما كان لسأفهم
الناهض من آثار العمل ودلائل النبوغ .

وما بقي في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار رهنًا عليها ،
لا تقع عليه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كثر مدفون لم يهتد إليه بعد ، أو سجين حكم
عليه بالسجن الأبدى لا يجد لنفسه خلاصا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تذهب بكل ما بنى أهلها في الزمن
السابق من مجيد وأسسوا من قوة - لولا أن الله تعالى أراد بها خيراً ،
بفلس على أريكتها ذلك المصلح الكبير، والعصامي الشهير، مؤسس «مِصر الحديثة»
ساكن الجنان "محمد علي باشا" رأس العائلة العلوية الكريمة .

فانه - نور الله صريحه - أعاد لهذه الأمة سالف مجدها، ونبه الأفكار بعد
طول رقادها، ونشر العلوم والمعارف بين أبنائها، وأرسل البعثات العلمية إلى
أشهر الجامعات بأوروبا : ليتعلموا أساليب التعليم الحديثة، ويهدوا إلى مصر
بفنون من التربية والتهديب تدعو إليها سنة التقدم والارتقاء .

وقرب إليه العلماء والأدباء ، وشجعهم على التأليف والتصنيف . ووصل
الليل بالنهار في سبيل إنقاذها وإسعادها، وأسّس المدارس ، وشاد دور الصناعات
والمعامل في حواضر هذا القطر السعيد .

وأنشأ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجهزها بكل ما يلزم لها من
الآلات والعدد ، حتى صارت من أرقى دور الطباعة في الشرق ، واختار
لها نوابغ العلماء وأساطين الكُتاب : ليقوموا بتصحيح ما يُطبع فيها . وإليها يرجع
الفضل الأكبر في تقوية النهضة العلمية في مصر وغيرها من البلاد ، ونشر العلوم
والآداب العربية في جميع أنحاء العالم .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغفور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهتم بها بعده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً وثم نمانئة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمثلات خزائنها بنفائس الأسفار وجلات المؤلفات، من مصر وغيرها من سائر الممالك، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة، والمؤلفات القديمة، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية .

وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات، وأثر خالد من الآثار الباقيات؛ ولها على العلم وأهله الأيدى التي لا تشكر، والمفاجر التي تُذكر فتشكر؛ فقد أعدت للترددين إليها قاعة كبرى للمطالعة، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والعلماء، والكُتاب والشعراء، والمنجمون والحكماء وغيرهم : يردون نيرها، ويؤلون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرفَ عليها حضرةُ صاحبِ السعادة "أحمد حشمت باشا" وزيرُ المعارفِ الأسبقِ وجّه — حفظه الله — عِنايَتَه إلى تَنْظِيمِهَا تَنْظِيمًا يَكْفُلُ لَهَا التَّقَدُّمَ في طريقِ الإصلاحِ اللَّائِقِ بِمَكَاتِبِهَا : لتَأْتِيَ بِالنَّمْرِ الْمُطْلُوبَةِ مِنْهَا ، وَتَقُومَ بِالخِدْمَةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهَا : وذلكَ بِنَشْرِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ بَيْنَ طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ ، وَطَبْعِ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِذَاعَتِهَا بَيْنَ أَسْبَائِهَا .

فأختار طائفة مما فيها من نفايس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصاً المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطَبَعِ في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتُشْرِقَ أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قُربٍ ومن بُعدٍ ؛ ضَمَّنَّا بِهَا أَنْ تَبْقَى مَقْصُورَةً عَلَى قَاعَاتِ الْمَطَالَعَةِ وَغُرَفِهَا ، لَا يَنْتَفِعُ بِهَا غَيْرُ فَرِيْقٍ مِنَ الْمُقِيمِينَ فِي مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ .

فكانَ أَجْلُ كِتَابِ ظَهَرَ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ فِي سَمَاءِ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ ، كِتَابُ :

”صبح الأعشى في كتابة الإنشا“

(للقلقشندي)

التعريف بهذا الكتاب

مهما أطال الكاتب في وصف هذا الكتاب ، وجود فكره ، وأجهد قلمه في التعريف به وبقيمه العلمية والأدبية - فانه لا يبلغ تعدد ما أودع فيه من الفوائد ، وأنطوى تحته من الدقائق .

فهو كتاب جليل القدر ، عظيم النفع ، كبير الفائدة ، لم ينسج على منواله في عالم التأليف في فنون الأدب والكتابة . ولا نعدُّ مُبالغين إذا قلنا : إنه أنفُسُ كتاب ألف في اللغة العربية وتاريخ آدابها .

كتاب بين لنا فيه القلقشندي مؤلفه - رحمه الله - حالة اللغة العربية الشريفة ، وكيف كانت في العصور الأولى قبل الإسلام ، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الانتشار بعد أن صارت لغة القرآن الكريم ، لغة الشريعة الإسلامية السمحة والدين الحنيف ، تبعاً لانتشارهما في أكثر أنحاء الكرة الأرضية : في بلاد فارس وما وراء النهر ، في بلاد الروم ، في البلاد المصرية (وقاها الله) في بلاد أفريقية والمغرب الأقصى ، في بلاد الأندلس ، في بلاد الهند ، في بلاد الصين ، في بلاد كثيرة من أوروبا .

كتاب بين لنا فيه مؤلفه كيف زهت هذه اللغة الشريفة في عصور الخلفاء : من بنى أمية وبني العباس ، وغزرت مادتها ، واتسع نطاقها ، ودنا قطاعها : فصارت لغة العلم والحكمة ، لغة الأدب والشعر ، لغة القضاء والأحكام ، لغة الجدل والمناظرة . كما صارت لغة التأليف والتصنيف : في أحكام الدين ، وتهذيب النفوس ، وتنقيف العقول ، ونظام الملك والممالك ، وسياسة الأمم والشعوب . وعلوم الفلسفة ، والرياضة ، والنجوم ، والطب ، والكيمياء ، وما أشبهها .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ
مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْأَرْتِقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا
لِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مَنْ لَيْسُوا
مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالدِّينِ . كَمَا بَيْنَ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ ،
وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطَهَا وَرُسُومَهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :
مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَكَزِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ نَبِيِّ أُمَّيَّةَ بِالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ
بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادٍ وَمِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاتِمِيَّةِ بِالْبَلَدِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ
مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيْقِيَّةِ .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ
دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودَهَا ، وَأَنْظِمَتَهَا ، وَرُسُومَهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
مِنْ الْقَصَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالخَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا
مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِي الصَّحِيمِ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ
مِصْرَ ، وَأَطْلَتْهُ سَمَاوُهَا ، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيلِهَا - الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَفَضَائِلِهَا
وَمَحَاسِنِهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ
وَمَصْبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَقَائِسِهِ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ
فِي النُّقْصَانِ ، وَخُجَانِهِ الْمُنْفَرَعَةَ عَنْهُ ، وَجُسُورَهُ الْحَاسَةَ لِمَائِهِ . وَبَيْنَ بَحْرِهَا ،
وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحِيْنِهَا ، وَنَوَاحِيْهَا ، وَمَوَاشِيْهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .
وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَأَبْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عَنا . وَبَينَ أَعْمالِها وَقواعِدِها القَدِيمَةِ ، وَمَبانِئِها العَظِيمَةِ الباقِيةِ على مُرورِ الأَزمانِ .
وَبَينَ قواعِدِها الحَدِثَةِ وما اشْتَمَلَتْ عَليه من مَحاسِنِ الأَبْنِيةِ . وَبَينَ من وِليها من
المُلوكِ والسُّلاطينِ قَبلِ الإِسلامِ وبعده . وَبَينَ تَرْتِيبِ أَحْوالِها ، وَمُعاهَلاتِها ،
وَتَقْودِها ، وَتَرْتِيبِ مَمْلَكَتِها ، وَوظائِفِ دَوْلِها القَدِيمَةِ والحَدِثَةِ .

كُتِبَ دُونَ فِيهِ مَؤَلَّفَةٌ عَدَّةٌ كُتِبَ أَدبِيَّةٌ نَفِيسَةٌ بِتامِها ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثيراً مِمَّا تَفَرَّقَ
فِي غَيرِها مِنَ المَؤَلَّفاتِ .

وَرَتَّبَهُ على مُقَدِّمَةٍ وَعَشْرَ مَقالاتٍ وَخاتِمَةٍ ، بناها بالإِجمالِ على التَّعريفِ بِمُحِبَّةِ
دِوانِ الإِنشاءِ وَأَصْلِ وَضَعِهِ فِي الإِسلامِ ، وَتَفَرَّقَهُ بَعْدَ ذلكِ فِي المَمالِكِ ، وَبَيانِ كِتابَةِ
الإِنشاءِ وَتَفْضِيلِها على سائِرِ أنواعِ الكِتابَةِ ، وَصِفاتِ الكُتابِ وَأَدابِهِم ، وَمدج
فُضلائِهِم وَذَمَّ حَمَقائِهِم .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ ما يَحتاجُ إِلِيه كاتِبُ الإِنشاءِ فِي الأُمورِ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ : كَمَعْرِفَةِ المَوادِّ
اللازِمَةِ لِلنَّشْئِ : مِنَ الخَطِّ وَتَوابِعِهِ وَلِوَأَحِقِهِ وَغَيرِ ذلكِ .

وَمَعْرِفَةِ المَسالِكِ وَالْمَمالِكِ (عِلْمُ تَقْويمِ البُلدانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الأَرْضِ وَإِحاظَةِ
البَحْرِ بِها ، وَبَيانِ جِهاَتِها الأَرْبَعِ وما اشْتَمَلَتْ عَليه مِنَ الأقالِمِ السَّبْعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،
وَبَيانِ مَوقِعِ الأقالِمِ العُرْفِيَّةِ مِنها ، وَذِكرَ حُدُودِها الجامِعةِ لها ، وما فِيها مِنَ الجِبالِ
والبِجارِ والأَنهارِ ، والأقالِمِ وَالْمَمالِكِ وَالبُلدانِ ، وَمُلُوكِها فِي القَدِيمِ والحَدِثِ
وما يَتَّبَعُ ذلكِ .

وَمَعْرِفَةِ الأُمورِ التي تَشْتَرِكُ فِيها أنواعُ المُكاتَباتِ وَالوِلاياتِ وَغَيرِها : مِنَ ذِكرِ
الأَسْماءِ وَالكُنَى وَمَواضِعِ ذِكرِها فِي المُكاتَباتِ ، وَذِكرِ الألقابِ وَأَصْلِ وَضَعِها ،
وما كانَ يُلقَبُ بِهِ أَهلُ كُلِّ دَوْلَةٍ إِلى زَمَنِها ، وَكِيفِيَّةِ تَوزِيعِ الأَعْمالِ على كُتابِ

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ، وكتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الإسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومن في معناهم ، وبيان مذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكتبات ، وما يُخاطب به أهل الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والعهود ، ومعناها ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يكتب فيها في القديم والحديث ، والمساحات والإطلاقات وما يكتب فيهما ، والطرخانيات وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التداكر التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأقول من وضع ديوان الجيش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يقع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يخلف بها العرب في الجاهلية ، وما يقسم به أهل كل ملة ونحلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصالح ، والهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فنونا كثيرة يتداولها الكتاب والأدباء ويتنافسون في عملها ، لا تعلق لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو

والصَّيْد ، وَرَسَائِلِ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ ، وَرَسَائِلِ الْمَفْخَرَاتِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى الْأَسْئَلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمَكْتُوبَةِ بِالْحَوَادِثِ وَالْمَسَاجِرَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَكَقَدِمَاتِ الْبُنْدُقِ ، وَالصَّدَقَاتِ الْمُلُوكِيَةِ وَغَيْرِهَا ، وَالْعُمَرَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ لِلحَّجِّ ، وَذِكْرُ نُسُخٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ : مِنْ الْإِجَازَةِ بِالْفَتْوَى وَالتَّدْرِيسِ وَالْمَرْوِيَّاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَلَى الْكُتُبِ الْمَصْنُوفَةِ وَالْقَصَائِدِ مِنْ التَّقْرِیْضَاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاةِ : مِنَ التَّقَالِيدِ الْحُكْمِيَةِ وَإِسْجَالَاتِ الْعَدَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَتَكَلَّمَ فِيهِ عَلَى الْبَرِيدِ وَأَوَّلِ مَنْ وَضَعَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَبَيَانَ مَعَالِمِهِ وَمَرَآكِزِهِ ، وَمَطَارَاتِ الْحَمَامِ الرَّسَائِلِيِّ وَأَبْرَاجِهِ بِالْأَدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، وَمَرَآكِبِ التَّلْجِ وَالْمُهْجَنِ الْمُعَدَّةِ لِنَقْلِهِ ، وَالْمَنَاوِرِ وَالْمُحْرِقَاتِ .

وَذَكَرَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَقْوَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أُمَّةِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَأَتَى فِيهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْكُتُبِ وَالْفُنُونِ ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ مَشَاهِيرِ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ .

وَأُورِدَ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الصَّنْعَةِ فِي الْكِتَابَةِ مَا يُغْنِي قَارِئَهُ عَنِ تَصَفُّحِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْثِقَاتِ الْأَدْبِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

وَضَمَّنَهُ شَيْئًا كَثِيرًا يَفُوقُ الْحَظْرَ مِنَ الرَّسَائِلِ الْبَلِيغَةِ لِمَشَاهِيرِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وَالْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يحلّيه من غرر منشأته
لنفسه بالمعجب والمُطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتاب مُتَمِّع، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء، وقوة التمكن في اللغة
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الأطلاع على دقيقتها وجليلها .

وإن حسن نية مؤلفه، واعتماده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على
حفظه إلى هذا الزمن من أيدي العوادي، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحدثاً بنعمة الله عليه - بعد أن ذكر أن
المصنّفات تتفاوت في الحُظوظ إقبالاً وإدباراً: فن مرغوب فيه، ومرغوب عنه،
ومتوسط بين ذلك، وأنه قل أن ينفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على
القرب من زمان مصنفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه
”التنبيه والإشراف“ عن الجاحظ . قال :

لكنني أحمد الله تعالى على رواج سوق تألّفي ونفاق سلّته، والمسارة إلى
استيغابته قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلّمي التّأليف والنسخ يتسابقان في ميدان
الطرس إلى اكتتابه، ومرتبب تجارته للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من
الله ونعمة : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن التاسع، فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم القاهري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع على ابن الشيخة، وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، ونبأ في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه.

وعمل "صبح الأعشى" في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات، جمع فأوعى. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعيني وآخرون. وسمى المقرئ والده عبد الله وهو وهم.



وترجمه صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى الشافعى ، نزيل القاهرة .
تفقه ومهر ، وتعالى الأدب ، وكتب فى الإنشاء ، وناب فى الحكم . وكان يستحضر
" الحاوى " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً سماه
" صبح الأعشى " فى معرفة الإنشاء ، وكان مُسنِّدًا أكثر ذلك ، وصنف غير ذلك .
وكان مفضلاً وقوراً فى الدولة إلى أن توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن
(١)
خمسة وستين سنة » .



وقد وقفنا على شيء من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " ، نوره
هنا ، إتماماً لفائدة ، فنقول :

ميلاده ونسبته

وُلِدَ الْمُؤَلَّفُ فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كما ذكره السخاوى فى " الضوء
اللامع " ببلدة يقال لها " قَلْقَشَنْدَة " من أعمال مديرية القليوبية بالديار
المصرية : من أصل عربى صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قبس عيلان .
وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامى وبعده ،

(١) سماه صاحب " كشف الظنون " مرة بأحمد بن علي ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة
بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان " نهاية الأرب " للؤلؤ ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله
أبن سليمان بن إسماعيل القلقشندى ، الشهر بأبن أبي غدة .
ووجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله
أبن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنَزَلُوا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبُوبِيَّةِ ، وَاسْتَوْلَى بَنُو بَدْرِ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ بِإِلَادِهِ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّاسَةُ
وَالغَلْبَةُ عَلَى جِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ بَنِي مَازِنِ بْنِ فَزَارَةَ . وَكَانَ بَقْلَقَشْنَدَةَ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرِ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنِ ^(١) .

نَسْأَتُهُ وَتَرْبِيَتُهُ

وَنَسَأَ نَسَاءً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عَامِيَةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى نَعْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمُرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورِي الْعِلْمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَشْتَغَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطَّلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مَخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إِجَازَتُهُ بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ حِينَ كَانَ مُقِيمًا بِنَعْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاحُ الدِّينِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الشَّهِيرُ بَابِنِ الْمَلَقِّينِ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ -
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى لِاحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بِأَنْ يَرُويَ عَنْهُ كُلَّ مَا لَهُ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرهما ، وَأَنْ يَرُويَ كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكَتُبِ الصَّحَاحِ
السِّتَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحَظِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مَوْجِعِ الْمَكِّمِ الْعَسْرِي
بِمَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للؤلؤف (ص ١٥٠) .

تَصَدُّرُهُ لِلإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

التحاققه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة آلتحق بديوان الإنشاء بالأبواب
الساطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامةً في تقريظ القاضي بدر الدين، بن القاضي
علاء الدين، بن القاضي محيي الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سمها "الكواكب الدررية" في المناقب البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يلبق بطالب العلم غيرها، والصناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى مساواها، وضمنها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتمت عليه من كثير المعاني - أحتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجعله كالشرح لها .

وفرغ من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشاؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيّل والنزاهة المحسّنة البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبدو أخف رُوحاً وأعظم وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإنّ من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتحائه بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان عليه : من غزارة المادة ، وسلامة الذوق ، وقوة الذاكرة .

مؤلفاته

وله تأليف كثيرة ، منها :

كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب .

وكتاب «صوّء الصبح المسفر وجنى الدّوح المثمر» وهو مختصر كتاب «صبح الأعشى» . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة

في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب « الغيوث الهوامع » ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع

في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وَكِتَابُ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ"، فِي مَعْرِفَةِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ" فِي الْأَنْسَابِ، أَلْفَهُ لِلْمَقَرِّ الْجَمَالِيِّ
يُوسُفَ الْأُمَوِيِّ^(١)، وَطُبِعَ فِي مَطْبَعَةِ الرِّيَاضِ بِمَدِينَةِ بَنْدَادِ (دَارِ السَّلَامِ) .

وَكِتَابُ "قَلَائِدِ الْجُمَانِ"، فِي قَبَائِلِ الْعُرَبَانِ" فِي أَنْسَابِ الْعَرَبِ أَيْضًا^(٢) .

وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ رَسَائِلٌ كَثِيرَةٌ تَزِيدُ عَلَى الْمِائَةِ أَوْدَعَهَا كِتَابُهُ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" .



هَذَا : وَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْنَا تَصْحِيحُ كِتَابِهِ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" الْمَطْبُوعِ عَلَى نَمَقَةِ
دَارِ الْكُتُبِ، بِالْقِسْمِ الْأَدَبِيِّ بِالْمَطْبَعَةِ الْأَمِيرِيَّةِ . فَتَمُنَّا نَحْوَهُ بِمَا يَسِبُ بِإِزَاءِ مُؤَلِّفِ
جَمِيلٍ مِثْلِهِ، وَابْتِهَدْنَا فِي تَهْدِيهِ وَتَنْقِيحِهِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ .

وَأَسْتَعْنَا عَلَى مَا وَجَدْنَاهُ بِأَصْلِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْكَثِيرِ وَالتَّصْحِيحِ الْغَرِيبِ - زِيَادَةً
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الطَّمْسِ وَالسَّقَمِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ - بِمُرَاجَعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ
فِي الْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَنَسَخَ شَيْئًا مِنْ رَسَائِلِ الْكُتَابِ وَدَوَائِرِ الشُّعْرَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ،
بَاحِثِينَ فِيهَا عَنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ تَكَلَّمَ عَنْهُ الْمُؤَلِّفُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ . وَمَتَى تَوَقَّفْنَا
فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ أَثْنَاءَ التَّصْحِيحِ : لَعَدَمِ وُضُوحِهِ، أَوْ لِأَنَّ يَدَ النَّاسِخِ مَسَّخَتْهُ،
أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ - رَجَعْنَا إِلَى تِلْكَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فَصَحَّحْنَاهُ مِنْهَا، مَعَ الْحَافِظَةِ التَّامَّةِ
عَلَى عِبَارَةِ الْأَصْلِ مَهْمَا بَلَّغَتْ مِنَ السَّقَمِ . وَمَا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ نِيهَا، أَبْقَيْنَاهُ عَلَى حَالِهِ،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجورد «بمر بن راشد»

أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبه صاحب "كشف الظنون" لوالد المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب" .

[وقد تصفحناه فلم نعر على ذلك] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلْمًا تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَلْنَا إِلَى فَهْمِ الْقَارِيِّ الْكَرِيمِ وَعَبَقْرِيَّتِهِ ،
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدِّمْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَارِجِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَدَّلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيْبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِيِّ ، بِوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَوَاقِفٍ شَرَحْنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثَبْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيْحِ .

وَمَا هُوَ إِذًا نَقْدٌ لِحَضْرَاتِ قُرَّانِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْبِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسِّرُ النَّظَرَ وَيَشْرَحُ الْخَطِيطَ ، مُعْتَدِّينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّ مُطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،
وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَقَفْنَا لِلَّهِ تَعَالَى إِلَى مَا يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبْنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهيم